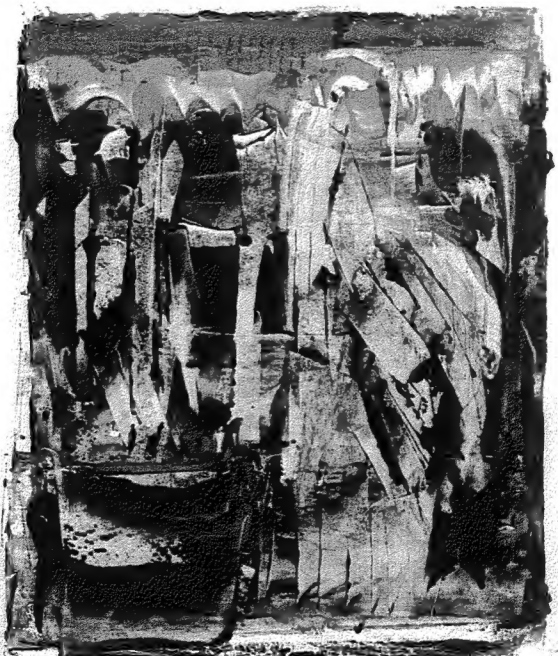




المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

عبد الرحمن مُنِيف

مدخل الملح



نقاسيم الليل والنهار

مدخل الملح
نقاسيم الليل والنهار

حقوق الطبع محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، ساقية الخنزير، بناية
مبجج الكارلشون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيال، هـ، ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع: عتلت
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الرابعة

١٩٩٢

عبد الرحمن مَنيف

رواية

مذكرات الملاح

نقاسيم الليل والنهار

طبعة جديدة منقحة

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

ذاك الغيم جاب هذا المطر

مثل بدوي

يقول أحد أبطال مسرحية تشيخوف: الأخوات الثلاث:

«لقد آن الأوان! ثمة شيء هائل يتقدم نحونا، ثمة عاصفة قوية نقية تنهيا، عاصفة سوف تكنس من مجتمعنا، عما قريب، الكسل واللامبالاة والأوهام والضجر الفاسد...»

«إننا لن نشارك في تلك الحياة، ولكننا نحيا من أجلها اليوم. إننا نعمل ونتألم ونخلقها، وفي هذا وحده يقوم هدف وجودنا، وتقوم، إذا أردتم، سعادتنا.»

«إن ما نخاله وهماً قد يكون، في بعض الأحيان، حدساً بالممكن، وإنه في رؤية الممكن تكمن احتمالات وقوة المستقبل.»

أنا يسيس نن

يقول الرياضيون:

بما أن...

لذلك...

إذن...

وقت الهزائم، وفي المنافي،
يطيب الحديث عن التاريخ أو وهم التاريخ

مطالع القرن، العقود الأولى .

العالم ، كل العالم، في ذلك الزمن الرجراج، المليء بالتوقع والاحتمالات، البطيء كسلحفاة، السريع المتغير كبرق السماء، يتلفت، يتساءل، يرهف السمع الى الدوي القادم، ويتربح بخوف الغد الذي سيأتي .

في ذلك الزمن كل شيء مطروح لإعادة النظر، لإعادة القسمة : الأفكار، المناطق، الدول، حتى الملوك والسلاطين والأمراء الصغار.

دول تنهض فجأة، وأخرى تغيب.

القارات تقسم حسب خطوط الطول، وخطوط العرض .

المناطق والشعوب تجزىء أو تلتحق، تبعاً لرغبات الأقوياء، الذين يتخذون القرارات، وتبعاً لمصالحهم وقدرتهم على المساومة ونقض الوعود والعهود.

الملوك والسلاطين، ومعهم الجواكر، يُخترعون في التو واللحظة ليتولوا الأمور، أو يحكم عليهم بالنفي الى الجزر البعيدة لكي يموتوا هناك منسين، وبصمت .

هكذا كان العالم في مطالع هذا القرن . أما موران، هذه الصحراء الغارقة في الرمال والنسيان، فكان أمراؤها المائة يتنازعون أجزاءها كما تتنازع النسور. كانت «دولهم» تكبر وتصغر، وبعض الأحيان تنتهي، تبعاً للأمطار والجراد، وتبعاً للغزوات أو الهواء الأصفر الذي يصل الى هذا المكان النائي مع المسافرين . فإذا نجت موران من هذه الويلات، وبدأ ابناؤها ينظمون القصيد ويغنونه،

وتكررت سباقات الخيل، وخرجت الصبايا الى العيون دون خوف، وأصبح الناس يشعون، فعندئذ لا بد أن يتكفل امراؤها المائة بتحويلها الى جحيم. إنهم يصابون بنوع خاص من الجنون، وهذا الجنون، والذي يتكرر كل بضعة سنين، يأتي فجأة، وينتهي فجأة أيضاً، لكن خلال الفترة القصيرة التي يكون يخلف من الضحايا والأحقاد والثرات ما يجعل الحياة خوفاً مستمراً وثرات لا تنتهي.

مرخان بن هديب الذي كان أميراً لموران وما جاورها، ولمسيرة يومين في كل اتجاه، هزم في غزوة من غزوات الجراد. طمع به جيرانه الأمراء، استغلوا ضعفه وعيون الماء التي كانت في إمارته، خلال سنة وصول الجراد الطيَّار، فبعثوا حلالهم للماء، ثم جاءت جندهم بعد الحلال، ولأنه لا يمكن لأمرين أن يجتمعا على عين واحدة للماء، فقد اضطر مرخان بن هديب، مرغماً وصاغراً، لأن يجلو، بعد أن هزم.

قالت نجمة المثقال، عرافة الحدة وما جاورها، حين بلغها خبر هرب مرخان:

- العين ما تحمل اثنين خاصة بمثل هذي السنين . . .

وبعد قليل وبسخرية:

- أما لو السيل جاز ومشى فكان فيها ما ينقال. وظني أن مرخان ما له ردة، راح وما يرجع.

وحين بعث مرخان من منفاه الى نجمة يسألها أخبار الأيام الآتية، أجابت:

- السيل إذا به حيل يمشي ويسقي، وإذا فاض وزاد عن حدة اما يرغي ويظمي أو يدور الحدود.

وحين طلب منها أن توضح أكثر قالت:

- السيل إذا وشّل يغور، لكنه لا بد في يوم من الأيام يغور.

ولأقربائها قالت نجمة المثقال لما سألوها عن احتمال عودة مرخان:

- هذا راح وراحت عليه، لكن يجوز الله يبعث له واحد من عقبه يسوي اللي هو ما قدر عليه، فخل الثريا تطلع . . . ونشوف.

أما كيف نجا مرخان بن الهديب، وكيف استطاع الهرب، فأقوى الروايات تؤكد أن مفلح بن مياح هو الذي حماه، وسر له الخروج، إذ حينما جاءه رسول من بني سحيم يطلب منه أن يكون معهم ضد مرخان، قال كلمة انتقلت فيما بعد، ويتذكرها الكثيرون. قال ابن مياح:

- اللي يشرب من بير ما يرمي بها حجر، وأنا ومرخان، والشهادة لله، كنا جميع واختلفنا، لكن لا أرفع عليه سيف، ولا أرضى يلحق به حيف، فاتركوه على باب الله، أما إذا صار غير شي فأنا وأنتم قوم الى قيام الساعة.

وبنو سحيم، في تلك الفترة، كانوا بحاجة ماسة الى سكوت ابن مياح، أكثر مما كانوا يأملون كسبه، لذلك غضوا النظر ومرخان يقطع الصحراء، تركوه. وهكذا نجا.

ولأن الأمراء المهزومين يظنون أسرى الماضي، ويصبح مستقبلهم وراءهم، كما قال حكيم قديم، فإن مرخان بن هديب، بعد أن شتم وهدد، وبعد أن أقسم الايمان الغليظة، بالانتقام من بني سحيم، لم يحاول أن يفعل شيئاً، كما أنه لم يسمح لأحد بالمحاولة، خاصة من رجاله وأقربائه، وهكذا غرق في خيبته أولاً، ثم في الصلاة بعد ذلك!

كان يصلي مئات الركع كل يوم، وكان، بين تسليم وصلاة جديدة، يدير وجهه نحو موران ويبكي. كان يرفع الى السماء وجهاً متضرعاً مبللاً بالدموع، طالباً من الله أن ينزل ببني سحيم العذاب، أن يفني جمعهم، ويهلك ضرعهم ويقطع نسلهم. ولأن خيبته كانت ثقيلة، وصلاته بطيئة الوصول الى المكان الذي يريد، فقد هذه اليأس وقيل انه أصيب بالخل!

خربط كان الابن الثاني لمرخان. كان يصلي وراء أبيه، لكن موران، والعودة الى موران، تشغله أكثر من الصلاة. وهذا الحنين ولدته أحاديث الليل، والأغاني الآتية من هناك، إضافة الى أحلام الشباب، وتلك الخصوبة التي تتولد من لقاء البحر والصحراء. أما في النهار فإن مجلس أمير الفراهيد،

وما يجري في هذا المجلس، خلال تلك الفترة الحافلة بالدوي وإعادة النظر، جعله يحلم أكثر، خاصة وأن النصائح الوقورة الميئة التي تتردد في مجلس أبيه مساء كل خميس، وتشلّه، كان يقابلها تحريض لا يهدأ ولا يتوقف - وكل يوم، في مجلس أمير الفراهيد، ثامر الفرهود - لأن يتحرك.

قال خريبط، ذات يوم، لعمه دحيم:

- راس مزهر بن سحيم ما ينراد له فيالقي ويبارق، ينراد له ظلمة حرامية وطلقة بندقية، وبعدها إذا أمسى جمر يصبح رماد، ونرجع ولا كأنه كان.

هز العم دحيم رأسه موافقاً، وخرج صوته هامساً:

- اللي تقوله، يا ابن اخي، ما عليه خلاف، لكن هذه الطلقة ما تصحّ كل يوم، تصير بالعمر نوبة، وما لها أخت، فإذا ما صيّت بها انصبت، وراحت عليك.

والتفت العم بطرف وجهه نحو المكان الذي يصلي فيه مرخان، فلما تأكد أنه غارق في صلاته، قال:

- والأخير، يا ابن اخي، أن نتحضر، وحين ننوي ما نعلم أحد بطاريننا، وإذا تأكدنا ندس بليلة ما بها ضوقمر، وهناك اللي يموت منا يلقي قبر بديرتنا، وإذا ظفرنا...

ولم يستطع دحيم أن يتصور النصر، اعتكر وجهه قليلاً، قال بحسرة:

- بس بعد بينا وبين ذاك مشوار، أيام وسنين!

ما ان مرت شهور، حتى لم يعد خريبط يطيق الانتظار. ظل أبوه وأخوه الكبير يصليان، وفي مساء الخميس يشتمان مزهر، ويتذكران. أما هو وأخوه الأصغر، عايد، وعمه دحيم، ونتيجة الأحلام، وكلمات قالها ثامر الفرهود: «الوقت كالسيف أن لم تقطعه يقطعك»، إضافة الى ذلك الدوي الذي أخذ يضرب الشيطان، وتمتد اصداؤه الى الأمراء المائة المتنازعين، فقد انزلق، وعدداً من الرجال، في ليلة ظلماء، ووجهته موران، عبر الصحراء، فوصل بعد شهر. وفي مثل ظلام الليلة التي سرى فيها رمى ورجاله الحبال وتسلقوا أسوار

قصر مزهر بن سحيم، واختبؤوا الى الفجر. وحين كان مزهر، مع أضواء النهار الأولى، يتفقد خيله، وقبل أن يصلي صلاة الصبح، خرج الرجال المختبئون وقتلوا مزهر، وبمقتله هزم بنو سحيم، وعاد آل هديب من جديد.

هكذا تقول الروايات الرسمية التي دَوَّنَها، فيما بعد، مؤرخو خربيط، رغم أن معظم الشهود قد غادروا هذه الحياة الى الحياة الأخرى، ورغم أنه لم يبق من معالم تلك المرحلة شيء يَدُلُّ عليها.

وتقول رواية لم يسجلها المؤرخون، لكن تناقلها الناس في وقتها، أن امرأة سهّلت لخربيط ورجاله الدخول والاختباء! قيل نتيجة عشق أو نتيجة مال، أو ربما بسببهما معاً. وقيل إن ثامر الفهود، قبل وصول خربيط بشهور، اشترى عدداً من رجال مزهر، وكان هؤلاء وسيلة خربيط في الدخول والاختباء، ثم في النتائج التي حصلت بعد ذلك!

بمقتل مزهر بن سحيم سقطت «دولته» لأن الدول، في تلك الفترة، مرتبطة بأمرائها، فما دام الأمراء أحياء وأقوياء، فإن «الدول» موجودة ومستمرة، وقد تمتد وتوسع، تبعاً لقوة الأمراء وتحالفاتهم. أما إذا هزم الأمراء، أو قتلوا، فالدول تندثر، ولو الى حين، إذ يحاول ابناء الأمراء المهزومين، مرة أخرى، «استعادة» مُلْك الآباء والأجداد، لتبدأ دورة لا تنتهي من الكر والفر، وأخيراً من الثأر.

خربيط وهو يعود هذه المرة، كان العالم يجتاز هذه الفترة من الزعازع والتقلبات الكبرى، وأن يكون في هذا الجانب، أو في ذاك، معناه الربح الكامل أو الخسارة الكلية. أن يكون مع الذين سيربحون، لا بد أن يحصل على شيء ما. وأن يكون في الجانب الآخر، لا بد أن يخسر كل شيء، وبالتالي ينضم الى قافلة المغادرين الى النسيان والصمت فالموت، إذا لم يكن قد قتل منذ البداية، كما حصل للمئات، للآلاف، من الذين كانوا يبحثون عن ملك الآباء والأجداد!

هل هو الذكاء؟ الحظ؟ القدر؟

إن أياً من هذه الكلمات لا تعني شيئاً، إذ تختلف بمعناها، بدلالاتها، بين

أن تكون كلمات المنتصرين أو كلمات المهزومين . وما دام خربط قد انتصر، وفي تلك الفترة بالذات، فإن موران، البلدة الصغيرة المنسية، في هذه الصحراء الشاسعة، امتدت واتسعت، إلى درجة لم تعد تُعرف حدودها!

قالت نجمة المثقال، عرافة الحذرة وما جاورها، حين جاءها رسول من بني سحيم يسألها كيف ترى الأيام الآتية:

- الدنيا دالوب، يوم فوق والثاني تحت!

وحين ألح عليها يريد أن يعرف أكثر، روت:

- لو دامت لغيرهم ما وصلت لهم .

وحين أصّر على أن يعرف أكثر، تلفتت وردت بحدة:

- هالحين ما عادت الثريا تكفي، يلزم ندور نجم ثاني ونشده، ونشوف،

فترجعون، بالسلامة، ما هو بهذي السنة، ولا اللي بعدها، ترجعون لما

يتلاقى العقرب بسهيل ومعهم بنات نعش!

كان من السهل أن يبقى رأس مزهر بن سحيم بين كتفيه فترة أطول، وكان من الممكن أن يبدو رأساً جليلاً حين يشتعل بالمجد والشيب، لو أنه لم يلعب تلك اللعبة الخطرة: التحرش بأصدقاء بريطانيا، والذهاب الى أعدائها، طلباً للمساعدة والعون. إذ ما كاد مزهر يبعث بجماعات من رجاله لمطاردة مرخان ابن الهديب، حتى اصطدم بثامر الفهود، فوقعت بين الرجلين. بدأت بالقطيعه بينهما حين رفض ثامر تسليم مرخان، ووصلت الى التهديدات فالتحدي، أما حين طلب مزهر معونة الأتراك ودعمهم في مواجهة الفراهيد والانكليز، فقد حكم على نفسه أن يسير في طريق ليس لها إلا أحد خيارين: اما النصر أو الموت.

لماذا فعل مزهر ذلك وارتكب تلك الغلطة القاتلة؟ وهل الذكاء ما دفع خربيط لأن يختار الآخرين؟

الكلمات العاهرة ذاتها تغفز كالجنادب. فالذكاء والشجاعة، قراءة الرياح والنجوم، استشارة المسنين من الآباء والأجداد والجندات، وحتى قراءة التاريخ ومعرفة أيام العرب، إن أياً من هذه الكلمات لا تفسر اختيارات الرجلين، حتى لو أضيف إليها المكان الذي «اختاره» مرخان، وبالتالي فرض على خربيط أن يكون فيه، وليس في أي مكان آخر.

الدول الكبيرة التي كانت، في أوقات سابقة، تتسامح، وتظاهر أنها لا تعرف ولا ترى، حين يتنازع الصغار على المياه والمراعي، وكانت تتركهم يقتل بعضهم بعضاً، وتحتمل أيضاً ضجيجهم، وأحياناً طيشهم، لم تعد الدول قادرة على الاحتمال والتسامح في هذه الفترة.

فما كاد مزهر يذهب الى أعداء بريطانيا، وفي ذلك الوقت بالذات، حتى اعتبر عدواً، ولا بد أن ينتهي. أما حين قتله خربيط، فقد أعطى الدليل أنه

يمكن أن يكون الصديق الذي يعتمد عليه، خاصة وأن ثامر الفرهود لم ينسه لحظة واحدة، إذ ظل يبعث إليه بهداياه، وبعث أيضاً عدداً من رجاله، ومعهم بعض الأصدقاء، لكي يساعدوا خريط ويكونوا قريبين منه.

ولأن الكبار، في هذه المرحلة، ليس لديهم الوقت لأن يتعاملوا مع هذا العدد الهائل من الأمراء الصغار والشيوخ، ولكي يمنعوا انتقال هؤلاء الأمراء من صفة إلى أخرى، كما كانوا يفعلون في السابق، فقد قامت بريطانيا، ربما نتيجة القرعة، أو تنفيذاً لتوصية من أحد رجالها الحالمين والمحبين للصحراء وضوء القمر وصنع الملوك، باختيار خريط. لزمته الأمراء الصغار وحماية طرق القوافل، وطلبت منه مراقبة الجيران والأتراك وشواطئ البحر، من ناحية الشرق.

وخريط الذي لم يكن يتصور أو يطمح أكثر من العودة إلى موران، وأن يكون أميراً على هذه البلدة وما حولها من الواحات والعيون، فإذا وصلت حدودها لمسيرة يومين من كل ناحية يكون قد استعاد ملك الآباء والأجداد، فينام هادئ البال قريير العين، لكن ما إن تم اختياره عميداً للأمراء الصغار، وممثلاً عنهم، حتى تحرك فيه شيء مجنون: لا بد من كل الصحراء، لأنها وحدها التي تحمي من الأعداء والزمن وغدر الأيام.

وهكذا بدأت موران تمتد وتوسع، ولأن لخريط قامة مديدة، وجسداً خشناً قوياً، وكان فتياً أيضاً، فقد رأى ما لا يراه الذين حوله، وسمع ما لم يسمعه غيره، ووصلت إليه أموال لم تصل لأحد، ومع الأموال الأسلحة والمستشارون. ولأنه حافظ على ملابسه الخشنة، وظل مع الجند، وكان لا يتردد، في أحيان كثيرة، أن يعطي بسخاء، فقد أصبح بنظر الكثيرين مختلفاً عن غيره من الأمراء. أما حين تذكر صلوات أبيه وأدعيته، كيف كان الناس يهزون رؤوسهم امتثالاً وخشياً وخشوعاً، فقد قال لعمه ذات يوم:

- ما تقدر على البدوان، أولاد الحرام، إلا بواحد من ثلاثة: الذهب أو السيف، أو جنة الخلد التي تجري من تحتها الأنهار.

والعم دحيم الذي هز رأسه اقتناعاً، كان شديد الغبطة أن ابن أخيه كبر خلال هذه الفترة القصيرة، قال له بحزم:

- اللي تقوله يا ابن أخي صحيح وما عليه خلاف، وهذا ينطبق ما هو بس على البدوان، وعلى أهل الحضر...

وأضاف دحيم بعد قليل بنبرة مختلفة:

- وهذي موران غدارة تأكل زادك وتنش حدرك، فيلزم الواحد يتوقى ويحرص، وما ينام إلا نومة الذيب.

لم تمض سنوات حتى أصبحت موران تدين بالطاعة والولاء لخريط، تدفع له الزكاة وتقدم الجنود، وتصلي وراء الأئمة الذين بعث بهم الى كل مكان، واصبحت موران أيضاً «دولة كبرى» في هذا الخضم الصحراوي الذي لم يعرف من قبل كيف يصل الى صيغة يمكن أن يرضي نفسه أو يرضي أصدقاءه.

نجمة المثقال التي تصلها الأخبار الى الحدرة مشوشة متناقضة، وبعد فترة ليست قصيرة، لما عرفت أن خريط بن مرخان استولى على القصر وقتل مزهر بن سحيم، فرجشت، وقالت باستغراب:

- اللي يمشي بالليل يدي ما يرمح، وهدة ابن مرخان هدة ملحق، فناظروا اللي وراء: هم اولاد مزهر أم اولاد العماليق وأولاد الفراهيد؟

وأضافت تخاطب نفسها:

- صحيح أن الملدوغ من الجبل يخاف، لكن سوابته ما يسويها إلا ملحق أو مجنون، أو واحد قلبه من الهم خالي.

تطلعت الى السماء ملياً وقالت بصوت صلب:

- النجوم في السما رجوم، العابرة تشير ما تقول، والسائرة لها أول وبها ذبول، والثريا تدور بين العرش وبنات نعش، فإذا وصل مرخان وحكم أقص يدي وأعطيتها للكلاب!

ليس المهم ما قالته نجمة المثقال، لأن الناس لا يتذكرون إلا ما يريدون، ولا يسمعون إلا ما يحبون سماعه، وهكذا ملأ خريط حياة الناس، أيامهم ولياليهم، بالضجيج واستعدادات الحرب وانتظار الجنة!

وإذا كان ثامر الفهود البداية، فإن خريط، وهو يتقدم في العمر، وفي غزو المناطق المحيطة به، والتي تتسع سنة بعد أخرى، تجاوز الفراهيد كلهم، خاصة حين جاء بتلر، القائد العسكري الانكليزي للمنطقة كلها، في زيارة الى موران. قال له خريط:

- حنا والفراهيد أولاد عم. أخذوا منا واخذنا منهم، وفضلهم ابد ما نساء، لكن تعرف، الله يسلمك، هذول البدوان - روسهم ايس من الصفاة، وما يرضون إلا واحد منهم، فنشوف أن تبعثوا لنا خويأ لكم يجلس هنا ونتفاهم وياه.

ولم تتأخر بريطانيا في إرسال مجموعة من المستشارين والرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم، ليس فقط في رماية المدفعية والرشاشات، وإنما أيضاً في أمور أخرى كثيرة، ولم تنس أن ترسل معهم الأموال والهدايا.

وبدا واضحاً، من خلال الحركة والضجة، ومن وصول الشيوخ الى موران أن شيئاً ما يُعد، ولا بد أن تظهر نتائجه في وقت غير بعيد.

وخريط الذي بدأ أميراً لموران، ولا يختلف عن غيره من الأمراء، ما لبث أن تغير نتيجة اتساع الامارة وتزايد قوة الأمير، أكثر من ذلك لم يتردد في أن يعلن نفسه سلطاناً لموران، كما اقترح بتلر. وبهذه الطريقة لم يعد يختلف عن الأمراء الآخرين فقط، وإنما يختلف عن السلاطين أيضاً، فهو يريد أن يصبح قبيلة وحده، «وليس قردين وحارس» كما كتب أحد المؤرخين عن أبيه مرخان، واصفاً هروبه مع عائلته الصغيرة ولجوءه الى ثامر الفهود.

يذكر رجال خريط المقربون أنه تزوج في اليوم التالي لمقتل مزهر بن سحيم، وكان هذا زواجه الثاني، بعد الزوجة التي تركها عند أبيه. أما بعد ذلك، من أجل أن يعزز علاقاته بالقبائل، بالمناطق، ومن أجل أن تكون له قبيلة خاصة به، فقد تزوج خلال خمس سنين قدر سنوات عمره، كما تقول

الشيخة زهوة بفخر، أما بعد أن أغتنى واستقر فلم يعرف أبداً عدد زوجاته أو عدد ذريته، خاصة من الإناث!

وسنة بعد أخرى يزداد خريط قوة ونفوذاً، ويزداد عدد أولاده وعدد زوجاته، كما أن البلدان الأخرى المحيطة به تثير شهيته، وتحضره على أن يضمها، فإذا استطاع، خلال فترة طويلة، أن يؤجل تحريك قواته من أجل الوصول إليها واخضاعها، فإنه لم يتوقف عن أمرين: الحديث عن ضرورة ضم هذه البلدان، لأنه وحده القادر على قيادتها؛ وإرسال مجموعات من المسلحين في غارات هنا وهناك، لقطع الطريق، لسلب القوافل، لاعتداءات على الحدود، لكن هذه المجموعات دائماً تابعة أو مرسلة من الطرف الآخر، وبالتالي تسبب له الضرر وتشكل خطراً عليه، ولا بد أن يفعل شيئاً لمنعها، لوضع حد لها!

وحين تبلغ الأمور حداً معيناً، حداً مناسباً، يتغاضى الذين كانوا يمنعونهم من غزو إحدى هذه البلدان، فيغيب المستشارون، أو يسافرون، ويعود قسم منهم إلى الهوايات التي شغلتهم خلال فترة معينة، وجاءوا إلى موران من أجلها! يعود هؤلاء إلى التنقيب عن الآثار، أو دراسة طبقات الأرض، أو إلى القنص والتعرف على طبيعة الصحراء. ويبدأ خريط حملة جديدة من حملاته، تكون نتيجتها توسيع السلطنة وجباية الزكاة، وإرسال أئمة جدد لكي يقيموا شعائر الدين القويم في البلدان التي أصبحت خاضعة له.

هكذا كانت معظم الحملات التي قام بها خريط، ولأنه يريد أن ينشئ قبيلة جديدة، وسلطنة تختلف عن كل ما قام في هذه الصحراء، فكان يريد من أبنائه أن يكبروا بسرعة، وأن يساهموا في إقامة هذا الملك، لكي يكونوا مثله حريصين عليه، وقادرين على استعادته إذا غدر الدهر ودارت الأيام. ولذلك بذل جهداً خاصاً في تربيته، وتكليف مجموعة من الرجال الذين يتق بهم ملازمتهم واعدادهم للأيام الصعبة القادمة، وباعتبار أن منصور وخزعل وفتر هم الأكبر بين الأخوة، فقد وجه إليهم معظم الاهتمام، لكن منصور قتل في إحدى الحملات، وقد سبب مقتله حزناً لأبيه لا يمكن أن ينساه، ومع ذلك التفت إلى خزعل وإلى فترلعل أحدهما أو كليهما يكون امتداده الحقيقي على هذه الأرض.

احدى الهوايات التي كانت تسروق للسلطان خريبط، ولم يتوقف عن ممارستها: أن «يقرا» على رؤوس الاولاد. كان، في أحيان كثيرة، يقضي ساعات الصباح من كل يوم اثنين، اليوم الذي حدده لابنائه، لكي يكونوا في حضرته، ليتأكد من أحوالهم، ويسألهم عن طلباتهم، ولكي يحل مشاكل امهاتهم ايضاً! وبعد ان يصدر أوامره بما يجب أن يفعل، وعرفان الهجرس يكتب هذه الأوامر، لتبلغ الى من يلزم، لا بد أن يبدأ حديثاً من خلال سؤال او تعليق، من أجل ان يلقي على الاولاد دروساً في التاريخ والحروب والاخلاق والحكمة. كانت الاحاديث تبدأ عامة، بعيدة، ثم لا تلبث أن تصبح خاصة تماماً: كيف فعل عندما بدأ بإقامة السلطنة، من كان معه ومن كان ضده، وماذا فعل كل واحد من هؤلاء. أي نوع من الخصوم واجهه، وكيف تصرفوا وكيف تصرف ليتغلب عليهم!

كان يفيض في الحديث، يترسل، ولا يتردد، بعض الاحيان، في أن يؤدي الدور كما لو أنه يقع مرة اخرى. والاولاد حسب الاعمار والمدارك، إذ يتابعون مذهوشين، معجبين، كان يستهويهم أن يتوقفوا عند العجائب والخوارق. وكان السلطان يستجيب، يعيد ذكر الاحداث مع تفاصيل إضافية، وينظر الى الاثر الذي تخلفه كلماته في عيون الأطفال والحرس وبعض المرافقين. وكلما كان الاعجاب اكبر، والاثر أوضح يزداد رغبة في أن يروي المزيد.

كان يقول لطالع العريفان، احد المشرفين على القصر، والمسؤول عن الاولاد بشكل خاص، أثناء غياب السلطان:

- الاولاد، يا طالع، مثل الخيل، ما تتروض إلا إذا صحت بأذانها، وما تشرب

إلا بالصغير. ومرة بعد مرة تصير تفهم وتجاوب، أما إذا تركتها، ما قرئت عليها، تراها تتعبك أو تضيع منك!

وأبناء السلطان الذين يستعدون لهذا اليوم، إذ يلبسون أحسن ثيابهم، ويتعطرون، كان عليهم أن يحملوا من أمهاتهم عبارات معينة أقرب إلى التورية، هي بمثابة رسائل موجهة إلى جلالتهم. والسلطان الذي يعرف سلفاً معنى هذه الرسائل، وأغلبها تتضمن الشوق والرغبة في الوصال، لا يجيب إجابات واضحة، الأمر الذي يربك الصغار والامهات معاً. فحين تستعاد الرسائل، كيف نقلت، ماذا أجيب عنها، تتغير تماماً، وكثيراً ما سببت مشاكل لحاملها ومرسلها، الأمر الذي يضطر الامهات لتوجيه رسائل ادق وأكثر وضوحاً في الأسابيع اللاحقة! والأولاد بين تأكيد الامهات الذي لا ينفك يتزايد بضرورة نقل الرسائل بدقة، ثم نقل الإجابات بدقة أكبر وبحرفيتها، وحرص السلطان على أن تفهم تلك الدروس، لا يعرفون كيف يتصرفون أو ماذا يقولون!

قال طالع لثابته ناهي الفرحان في صباح اثنين من هذه الاثنيات:

- لولا أنه جمل ما حمل هالمحمل، يا ناهي!

ولما ظل ناهي صامتاً، اضاف:

- ما يشبعن ولا يرتاحن، ولا يخلن احد يرتاح!

ورغم ان ناهي يعرف عن يتحدث، وعن اي شيء يجري الحديث، فقد تساءل ببلاهة:

- كلامك مثل صلاة البدوي ابو جازي: ركوع وتسليم، وما يندري ويش تريد تقول!

وبعد قليل وهو يضحك:

- وإذا بطنك سالفة سولفها يا ابو جازي.

قال طالع العريفان بنزق:

- ابن الهجرس يخط وريقات يقول فيها: إلى من يلزم للتنفيذ. ودغيم السرهود

بقلمه الاخضر يحولها بعد ما يكتب: نُظِر. وحنّا بين الهجرس والسرهود،
وبين وليدات طويل العمر وحريماته، ضعنا يا ناهي. وهالحين ينراد لنا علام
الغيوب حتى يكشف لنا الدروب.

رد ناهي بسخرية:

- يا أبو جازي: مقروود على مقروود، لكن إذا ما أحد سأل، وإذا ما احد قال،
تظل بأرضها.

- لكن الحريمات لا يتعبن ولا يسكتن يا ابن الحلال.

- خلهن بدوخن صاحب الامر والنهي.

- وهو ما يعرف غيرنا: ها يا طالع؟ شنهو سويت بالقضية الفلانية والقضية
الفلانية؟ وما نخلص الا إذا سكتن أو إذا سافر.

- طول البال ما مثله يا أبو جازي.

- منين نجيب طول البال مع العجيان والحريمات؟

- الصبر زين ومعه كل شيء يهون.

وتتكرر القصص ذاتها، وطلبات الامهات والصغار تزداد فترة بعد اخرى، تبعاً
لزيادة عدد الاطفال الذين ينضمون للقاء يوم الاثنين. وعرفان الهجرس يدون
قدر ما تسعفه يده البطيئة على الكتابة، بعد أن يبلل القلم بشفتيه، ثم يبيض
الطلبات بثلاث نسخ، يضع واحدة في ملف جلالته للحفظ، والثانية في ملفه
للعلم، ويرفع الثالثة لدغيم السرهود، الذي يمهرها بالختم والتوقيع، مع عبارة
لا تتغير: «نظِر، للتنفيذ» وتحال مرة اخرى الى عرفان، الذي يحتفظ بها بين
أوراقه، بحيث تتجمع النسخ الثلاث لديه مرة اخرى، ولا يحولها الى طالع
لتنفيذ الا إذا كانت الطلبات ضرورية، او جرى التأكيد عليها مرة بعد مرة!

ولأن لكل ساكن من سكان القصر طلبات تتناسب مع أهميته ودرجة قرابته من
السلطان، ولأن الكثيرين متساوون من حيث الاهمية او القرابة، او هكذا
يتظاهرون، او يتظاهر الذين يتابعون طلباتهم، ويريدون تنفيذها على الفور،

وقبل غيرها، فإن ما يتولد من الصخب والالاحاح يفوق طاقة المشرفين والمكلفين بالتنفيذ، مما يؤدي إلى التأخير والتغيير، وبعض الاحيان الى الخلاف. وما إن تصل الشكاوى إلى المراجع العليا، وقد تبلغ مسامع السلطان، حتى يتغير كل شيء: يوقف تنفيذ جميع الطلبات، وقد يُستبدل المنفذون بغيرهم، مع ما يترتب على ذلك من التحديات والضغائن.

ويقدر ما يكون أصحاب الطلبات الكثيرة والالاحاح المبالغ فيه مثيرين ومزعجين للمشرفين على القصر، بحيث يتساءلون كيف لا يشبع هؤلاء وكيف لا يتعبون، فإن الذين لا يطلبون ولا يحملون الرسائل، أو الذين تكون طلباتهم متباعدة ومتواضعة، يثيرون الاستغراب والتساؤل أيضاً!

فتر الوحيد، أو بالأحرى من القلائل جداً، ليس له مطالب ولا يحمل رسائل. كان يجلس مقابل أبيه يسمع ويتابع، وإذا نظر فإلى تلك الوجوه الصغيرة التي تنقل بتلعثم رسائل غالباً ما تكون أبياتاً من الشعر، أو أمثالاً، لا تعرف كيف تنقلها. أو تقدم قصاصات من الورق، مرت على أيدٍ كثيرة قبل أن تستقر في يد السلطان، وتتضمن في معظم الاحيان طلبات الامهات وحاجاتهم. كان فتر يتابع هذه المشاهد باستغراب اول الامر، ثم بدافع حب الاستطلاع، وحب المعرفة بعد ذلك!

قال طالع العريفان، ذات يوم، يحدث عمير خال فتر:

- ... وتلقاه، يا مبارك، كله عيون وأذان. يسمع ويخزن، ولا تسمع منه لا حس ولا نفس، وما له، مثل غيره، طلبات وشبهات. وإذا سأله طويل العمر إن كان له طلب أو حاجة جفل، وقال: ما أريد إلا سلامتك يا طويل العمر.

وحين وجد عمير فرحاً، وقد استثاره الاطراء، تابع بمكر:

- وعين فضة ما علمته الدين وحده، علمته، فوقه، الاخلاق والادب!

وأضاف بعد قليل، وخرج صوته همساً:

- والمرجلة... بعد.

والسلطان الذي ظل مفتوناً بإظهار قوته، وإشعار الآخرين بضرورة وأهمية كل موقف اتخذ، وبالتالي رجاحة العقل الذي كان وراء ذلك الموقف، كان يستعيد قصصاً ربما يعرفها الآخرون مثله أو أفضل منه، لكنه يريد أن يستخلص منها الدروس، ويريد لأولاده أن يستوعبوا جيداً ما يقول.

بعد شهر، ولما تأكد أن فتر أكثر الاولاد رغبة في سماع هذه القصص، وقدرة على استيعابها، قال ذات ليلة لعمه دحيم:

- ... وتعرف، يا طويل العمر، الدلال يفسد الاولاد، وكل حرمة من الحريم ما عندها سائلة الا وليدها، ترطّل به، تدلله، فإذا الاولاد ما تعبوا، إذا ما عرفوا الحر والبرد، وإذا ما خاطروا، تراهم أبد ما يصيرون رجال يعتمد عليهم.

ابتسم دحيم وعلق:

- ظني أن اللي شفته ما أحد يشوفه يا أبو منصور، والتعب اللي تعبناه ما راح يمر مثله، لكن أيامنا اختلفت عن أيامهم، وزمانا غير زمانهم.

- لكن يلزم ندرهم ونعلمهم، يا عم؛ ويلزم نقرا على روسهم.

- بس ما نخوطر بهم يا أبو منصور.

- الشدايد راحت، يا عم، وهالحين كلها سواف ودق قهوة وطراد وقنص. وإذا حزّت ولزّت تمشيطلحي وهزة عصا، وإذا سلم العود الحال تعود.

- الحق اللي تقوله، يا أبو منصور.

- ما هو بس كذا، يا عم، يلزم تأديب الولد حتى لو زعلت أمه، لأن الولد بدون أدب، بدون حرب وضرب يضيع منك ويضيع عليك.

- الحق اللي تقوله، يا أبو منصور. بس مثل ما يقول الشوام: مرة على الحافر ومرة على النافر، لأن هذول اولاد، بعد ما طلع لهم ريش.

- كبروا يا عم، صاروا رجال، وإذا كبر ولدك خاوه.

وصمت الرجلان طويلاً. تذكرنا أشياء كثيرة، تذكرنا لما كنا صغيرين ، في أية ظروف عاشا، وأية صعوبات واجها، وكيف كانت الأيام السابقة وكيف هي الآن. قال دحيم، وخرج صوته عميقاً من صدره:

- اللي راح راح يا أبو منصور، والخوف، هالحين، من اللي يجي. واشوف نفسي خايف، وأخاف أموت وأنا خايف، لأن لا أحد من اللي نشوفهم حولنا يعرف شلون تعبنا. . .

هز رأسه عدة مرات ثم أضاف:

- هالحين كل شي يجيهم على البارد المستريح.

قال خريط، وهو يترنم بحزن:

- ولا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصباية الا من يعانيها، وبعد قليل:

- صحيح انا حضرنا لكل شيء اللي يلزمه، بس يلزم نشد عليهم، وعساهم يقدرون على هذا الحمل.

- إنشاء الله ما نقابل وجه ربنا الآ ووفينا اللي علينا يا أبو منصور.

رد السلطان وهو يضحك:

- لا تخف يا عم، وحننا بعدنا شباب وحيطنا قوي.

ترافق هذا الكلام مع إشاعات متكتمة سرت في قصر الروض، ولأنها تتعلق بالسلطان، فقد ظلت تنقل بحذر، وتروى وراء أبواب مغلقة. قيل إن فضة غضبت وتركت القصر. وقيل ان السلطان غضب عليها وطردها. أما المحاولات التي جرت للشفاعة لها واسترضائه عليها فقد فشلت، ومما أكد ذلك أن اقامتها عند أهلها طالت، كما ان السلطان يبدو هذه الأيام ضيق الصدر، نزقاً، خلافاً لفترات سابقة.

أما أسباب غضب فضة، وهجرها للقصر، او طردها منه، فكل إنسان يراها

بشكل مختلف عن الآخرين، اثنتان من زوجات السلطان اكدتا ان الشیخة، امي زهوة، اغلظت القول لفضة، وقالت إحدى الزوجتين إنها ضربتها، وطلبت منها مغادرة القصر. وقالت كبرى بنات السلطان إن أباهما هو الذي طلب منها أن لا تریه وجهها بعد اليوم. أما وطفة التي استعادت اعتبارها بعد أن جاءها ولد ذكر، فإنها حين تُسأل عن السبب تبسم ابتسامة كبيرة، ولا تجیب. لكن طریقتها في التصرف توحي انها اصبحت المفضلة لدى السلطان، وأن فضة لم تعد شيئاً بالنسبة له، وهذا ما حملها على الغضب، ثم مغادرة القصر!

موزة التي رافقت سيدة ترددت عدة مرات على القصر، ونامت في إحدى الليالي، ولم يُستطع فهم الدوافع لمجيئها او لنومها، كما لم يستطع احد ان يتزع منها كلمة واحدة. الذين يكرهون فضة قالوا ان موزة جاءت لتحمل ذهب سيدتها. وإن هجر السلطان لها أصبح مؤكداً. أما الذين يتعاطفون مع السيدة والوصيفة فقد اكدوا ان عودة موزة لها علاقة بترتيب القصر، خاصة غرفة نوم فضة، لأنها ستعود خلال أيام. وقال غير هؤلاء ان السلطان ذاته طلب من موزة البقاء، وقد اختلى بها وقتاً غير قصير، وحملها رسالة وهدايا الى فضة، وكلفها ان تسترضيها، كي تعود!

قالت احد صديقات موزة ان موزة كانت طوال الشهرين الاخيرين في حالة حزن شديد. كانت تبكي باستمرار، ولم تعد تطيق الجلوس مع احد، كما عافت نفسها الأكل، حتى ان من يراها لا يصدق انها هي ذاتها، إذ فقدت لونها وجحظت عيناها، وتبدو أكبر من عمرها. وتضيف هذه الصديقة انها حين حاصرت موزة، طالبة منها ان تبوح لها عما في صدرها، تلقت اجابة من كلمتين «سني وسيدي»، وكانت تهز رأسها بلوعة ولا تضيف شيئاً آخر! وهذا ما يفسر مغادرة فضة لقصر الروض وغياها الطويل، وأيضاً الوضع النفسي الذي ميز تصرفات السلطان وعلاقاته.

لولوة، خادمة وطفة، اسرت لبعض من تثق بهم، ان قابلة القصر، وريدة، اعترفت لسيدتها، في اليوم الثالث لولادة الامير الجديد، مفرح، ان فضة طلبت منها بالحاح، وعرضت عليها مبلغاً كبيراً من المال، ان هي قامت بخنق الطفل بعد معرفتها انه ذكر، ولكن القابلة رفضت القيام بهذا العمل، فهددتها بالطرده

من القصر ومعاقبتها، وقالت لولوة ان سيدتها ابلغت السلطان، وحين شك بالامر استدعيت القابلة واعترفت له . ولا بد ان يكون هذا هو السبب فيما جرى من تطورات لاحقة!

تهاني، وصيفة الشيخة، اكدت ان الرهان الذي تم بين السلطان وفضة حول الحمل الثالث هو السبب الحقيقي وراء كل ما حصل . فالسلطان الذي نسي الرهان، او تجاوزه، بعد ولادة الولد الثالث، بفترة قصيرة، ولم يعد الى ذكره، ولا يحب أن يذكره به احد، عكس فضة لم تنس الرهان يوماً واحداً، بل وقيل إنها أبليت اهلها بالامر، فاشاع الاهل موافقة السلطان، وانه سيعلن ذلك في وقت قريب، الامر الذي ولد هذا الغضب، ثم ما تلاه . وزيادة في تأكيد هذه القصة ان السلطان تزوج خلال فترة قصيرة من مغادرة فضة لقصر الروض، واصطحب الزوجة الجديدة في رحلة قنص، خلافاً لمرات سابقة، حيث كان يصطحب فضة .

تقول تهاني ذلك، وهي تبتسم، وتنظر في الوجوه، لتشعر كل من يسمعا ان امي زهوة وراء ما جرى، وإنها وحدها التي تقرر كل شيء في القصر .

طالع العريفان، وعادته انه لا يحب القيل والقال، ولا يتكلم الا مضطراً، والى اقرب الناس، قال لناهي الفرخان، وقد بلغته الاخبار والشائعات :

- اهل فضة، يا ناهي، ما يعطون وجه، وسالفتهم مثل سالفة اللي تردفه وراك، ما ان يركب حتى يمد يده بالخرج . فهذول، بعدهم ما سمعوا كلمة الا وراحوا يقسمون: هذا لنا وهذا لنا، وعيون طويل العمر تشوف، وتصله الاخبار . فإذا طويل العمر ما ضرب الخشم ما تدمع العين، والصواب إنه سير بتهم عليهم، وقال لهم : افطنوا زين والزمو حدودكم، يا جماعة الخير!

- اخاف تكون سالفة مثل سواف كثيرة قبلها، يا ابو جازي، وياكر او اللي عقبه، اذا جت بالصبي الرابع ترجع مثل ما كانت، واهلها يركبون نوبة ثانية .

- ما علينا يا ناهي . ومن قبل قالوا: اللي يتجوز امنا عمنا!

- خلنا، يا ابو جازي نناظر ونشوف توالي السالفة .

ولم تمض بضعة أسابيع حتى حصل امرلم يخطر ببال، فقد تزوج السلطان بفتاة أخرى من آل المدلجي أيضاً.

وخلال الأيام التي استغرقها التحضير للزواج امتلأ القصر بالهمس والاشاعات، وهذه المرة بوضوح وبصوت مسموع: «اختارها طويل العمر من آل المدلجي حتى يثبت لفضة أن المدالجة معه ما هم معها، وإنه يقدر على كل شيء». وقال احد خدم فضة، وكانت تحوم حوله الشكوك انه ينقل لسيدته كل ما يدور في قصر الروض «عمتي هي اللي اختارتها، وباكر تشوف عيونكم». أما تهاني فقالت كلمات غير واضحة: «غير السلطان بقصر الروض ما احد كبير» وقال غير هؤلاء اشياء أخرى.

وظفة ظلت تنفي اخبار الزواج الجديد، واكدت خادمتها لولوة ان السلطان بعث يطلب عودة اولاده الصغار الذين اصطحبتهم فضة معها، وسوف يعودون بين يوم وآخر دون امهم!

عودة موزة، المفاجئة، وما رافقها من ضجة، غيّرت الكثير مما كان يقال: دخلت جناح سيدتها ورابطت فيه، وتظاهرت انها لم تسمع الاسئلة التي وجهت اليها، لكن بدت في عينيها اشياء كثيرة واضحة، دون كلمات. ومما زاد في القلق والاشاعات ان السلطان استدعاها، ومكثت في جناحه ساعة كاملة، واكدت اثنتان من الخدم انهما شاهدتاها تضحك في حضرته، وامر لها بالشاي أيضاً. وبعد ذلك بساعتين، او ثلاث ساعات، وقبل الغروب بقليل، غادرت القصر ورافقتها ثلاث سيارات.

ناهي الفرحان جاء راكضاً لطلالع بعد ان سمع الاخبار، ورأى بنفسه اشياء كثيرة، قال وهو لا يخفي قلقه:

- الله ستر، يا ابو جازي، حنا ما حطينا ارواحنا بهذي الطلايب، ترى كثيرين اذا خلصوا من طويل العمر، ما راح يخلصون من بنت المدلجي، لانهم ما تركوا شيء بحقها الا وقالوه، واولاد الحلال كثر، وعلم الله انهم وصلوا كل شيء.

- حنا ما علينا، ما قلنا ولا سمعنا!

وبعد قليل وكأنه شعر بميزة الحذر الذي لا يفارقه:

- الحق اللي تقوله يا ناهي، ومن قبل قالوا: إن تكلمت بالليل فاخفت، وإن تكلمت بالنهار فالتفت، لكن النبي آدم ما يتعلم الا من كيسه.

وسارت الامور بعد ذلك وفق شكل لم يتوقعه احد: وصلت العنود بنت سالم المدلجي إلى قصر الروض، ترافقها نسوة كثيرات، معهن موزة، وأُفرد لها جناح خاص في المبنى الرئيسي، بجانب جناح فضة، وجرت احتفالات الزواج بشكل سريع. وبعد ثلاثة ايام عادت فضة الى القصر، ورغم انها بدت اكثر سمنة، الا أنها لم تتغير. أكثر من ذلك لم يتغير موقعها في القصر. فنظر الكثيرون بعضهم إلى بعض... وتساءلوا!

حليمة التي أنجبت لخريبط موضي وفتر ومضت بسرعة، خلّفت في نفسية الطفلين آثاراً لا تزول. فالطفلان، من حيث الأم، يحسان أنهما من سلالة تتميز عن سلالات الأمهات الأخريات، ومن حيث الأب بعيدان منسيان، لا يكاد خريبط يتذكرهما إلا كما يتذكر صديقاً قديماً أو شيئاً مفقوداً. فإذا استدعاهما من عين فضة، لكي يقضيا أياماً في موران، لا يتردد، بعض الأحيان، في أن يسألها عن الدريوش جدهم، كما يروق له أن يسميه، مع أن الشيخ عوض ملء الاسماع والأبصار، كما يبدو للطفلين، رغم الطيبة التي يتميز بها، والبساطة التي تجعله يصل الى حدود التواضع أو الغياب، ورغم الزيارات التي لا تنقطع لعين فضة من أجل استشارته في أمور الدين.

لم يتكلم الشيخ عوض عن عراقاة السلالة أو أهميتها، كما كان يجري الكلام في جلسات خريبط ومضافاته؛ ومع ذلك فإن النسوة في عين فضة، خاصة المسنات، والشبان في مرحلة الانتقال الى سن الرجولة، كانوا لا يتوقفون عن الحديث عن سلالة الشيخ عوض وأهميتها، والدور الذي لعبته في مساعدة ومساندة خريبط وتثبيت حكمه. وكان هذا الحديث يصل حدود الصخب حين يبلغ أسماعهم أن خريبط تزوج بامرأة جديدة، أو يعرفون أن زوجة من زوجاته أنجبت ولداً جديداً! كانوا يتكلمون وينظرون الى فتر، ويتذكرون حليمة التي لم تنجب غيره وموضي. فإذا سمع الشيخ عوض الحديث، أوجاء من يقطع عليه أذعيته، وينقل إليه تفاصيل زيجات خريبط الجديدة، والأبناء الذين ولدوا له، كان يقول، وابتسامة حزينة تطوف على شفاهه: ﴿كل مَنْ عليها فإن يبقَى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾. فإذا تابعوا

الحديث أو ألحوا فيه، كان يقول بعد صمت طويل وكأنه يحدث نفسه :

- كان محمد يتيماً وكان وحيداً لكن الله مكّنه وأعطاه.

فإذا ألحو أكثر من ذلك يرد:

- وجدنا كان يتيماً ووحيداً وانتم تعرفون ما حصل بعد ذلك.

ولأن الشيخ عوض كان يحب النمل والقطط والخراف الصغيرة ويحنو عليها، كان يمنع عنها الأرجل والحجارة. وعن الخراف سكاكين الشرهين، خاصة من الشبان. كما أحب الأطفال واحبه الأطفال.

إذا تذكر فتر شخصاً في عين فضة فصورة الجد. وأول حزن أحس به حين حملته إحدى النساء وظلت تتشممه وتقبله وتردد: «وين عينك يا حليلة»، أما أول مرة شعر بالزهو فحين ألبسه الشبان في عين فضة ملابس الكبار والتفوا حوله ينظرون إليه بإعجاب ويحدثون فيما بينهم، أكثر مما يتحدثون إليه: أنه يشبه الملوك، وقد طلبوا إليه أكثر من مرة أن يرفع رأسه وأن يشد ظهره ليبدو كبيراً وقوياً!

موضي التي سمعت أحاديث النساء، واعجبت بألعاب الشبان أخذت. لم يعد لها في هذه الحياة سوى فتر. تركت طفولتها بسرعة، أصبحت الأخت التي تكبر عمرها: تعني به، نهى له أكله وفراشه، ولا تتوقف عن رواية القصص التي سمعتها من الكبار والصغار عن فتر الأمير. وفتر الأمير يفرق في تلك الملابس الفضفاضة، ويتصرف تصرف الكبار، ويردد بعض الكلمات التي سمعها من جده.

في عين فضة يحس أنه أمير حقيقي، وأنه كبير: المدى وأشجار النخيل والعيون التي تتابع حركاته وتصرفاته.

في موران، وأثناء الزيارات التي يضطر إلى القيام بها تلبية لطلب والده، وضمن ذلك الحشد الهائل من الأمراء الصغار والخدم والحراس والزوار، يحس أنه أصغر من النمل الذي يدب في عين فضة، لأن للنمل هناك من

يحميه، أما هنا فإنه يضيع في الزحام والصخب والركض المجنون لتلبية طلبات السلطان الوحيد: خريط. فإذا انتبه اليه أحد فلن يكون ولماذ يلبس هذه الملابس المضحكة، ولا يعرف هل يجب عن الأسئلة أم عن العيون المليئة بالأفكار والسخرية.

كان يضيق بموران، لا يحبها، ولا يعرف كيف يستطيع الناس أن يعيشوا فيها. فإذا نسيه أبوه، لا يتردد أن يطلب من نصار العودة الى عين فضة. ويكون جده، قبله، قد أوصى نصار أن ينتهز أول فرصة، وبعد ان يستأذن السلطان، لكي يعود. وكذلك توصيه مزنة. أما موزي فإنها تقبل يدي نصار وترجوه ألا يتأخر.

تقول حالته مزنة: «موزي من ساعة ما يترك فتر عين فضة تسودن، يكون براسها عقل ويطير. لا تأكل، لا تشرب، لا تنام.. الى أن يعود، فإذا طالت سفرته تسقم وتريد تموت، وبالليل والنهار تصرخ وتعيد: وين أخذوه؟ وشنهو اللي صار به. وحنا بالنّا عند من ولّا من. نقول لها: يا بنت الحلال: فتر عند أبوه، فتر ضيفهم ويعيونهم يشيلوه، لا تخافي، ولا تصيحي، وتصيح وما تستريح: مالي صبار الى أن يعود. وتظل موزي مسودنة البيت وعين فضة الى أن يعود».

إذا عاد، بعد أسابيع، وبعد ذلك الاضطراب والصخب، تستقبل عين فضة ضيفاً كبيراً وعزيزاً. فخاله عمير لا بد أن يجعل عودته مناسبة لاحتفالات تستمر أياماً، ولا بد أن يتزع عدداً من رؤوس الغنم، رغم احتجاج الشيخ عوض، لكي تذبح، ويجب أن تذكر عين فضة عودة فتر أكثر مما تذكر سفره.

وبين عين فضة وموران تتوالى القصص والأخبار والأسئلة، ويتبعها الهمس والتعليقات والقصص الجديدة؛ ثم تعود الحياة بطيئة راضية، كما لو أنها في بداية الخليفة. ترتفع أدعية الشيخ عوض في ليالي الصيف، وتسمع أغاني الشبان في أطراف القرية، وتظل القصص ذاتها تروى مرة بعد أخرى، ويظل الناس يضحكون ويطربون، كما لو أنهم يسمعونها لأول مرة.

لما بلغ فتر الثانية عشرة، وفي احدى زيارات أبيه لعين فضة، نظر اليه نظرة مختلفة عن أية مرة سابقة. قال له وقال لجده الذي كان غارقاً في أدعيته، وقال لخاله عمير وللذين يقفون وللجالسين:

- من اليوم فتر مكانه بموران، يلزمه يكون قريب منا ويعاوننا، واللي يريد فتر مكانه معروف، وأهلاً بكم بموران وألف مرحباً!!

ولأن السلطان بقي في عين فضة، وما جاورها، ثلاثة أيام، فإن الشيخ عوض لم ينم خلال هذه الأيام الثلاثة، يريد أن ينفرد بالسلطان، ويطلب منه بل يرجوه، ان يبقى فتر، لكن السلطان، خلال هذه الأيام، لم يكن وحيداً ولم يكن مستعداً لأن يختلي بالشيخ عوض، لقناعته أنه ليس لديه شيء يقوله، فاستعاض الشيخ عن الحديث بالدعاء.

جده كانت أكثر فهماً، ربما لأنها أكثر حباً، بعد أن كلمت نفسها بصوت عالٍ، وقالت ما لا يقال، تريد من الجميع أن يسمعوا، صرخت بالجد ومزنة وموضي وكل الذين حولها:

- هذا ابنهم يا جماعة الخير، وإذا ما أخذوه اليوم يأخذونه باكر أو اللي عقبه، كبروا عقولكم، وإذا تريدون مصلحة فتر مكانه هناك!

خاله عمير كان عملياً، رغم الخيالات والأوهام التي تعبر رأسه في بعض الليالي. كان يريد لعين فضة أن تبقى وأن تكبر، وأن تصبح شيئاً. ويتذكر ان موران لم تكن تقاس بعين فضة، كانت صغيرة مهجورة لولا أن خربيط سكنها وجعلها عاصمة. ومع ان عمير ذبح عدداً كبيراً من الغنم من أجل ان تكبر عين فضة، ورغم الاحتفالات التي أقامها في استقبال فتر وغيره من شيوخ العائلة، ومع أن أباه لم يتوقف يوماً واحداً عن الدعاء، فقد ظلت عين فضة تصغر وتتضاءل، لان الشبان الذين ملؤا الغناء، وتعبوا من الانتظار، لم يجدوا أمامهم سوى الرحيل باباً يدخلون منه الى حياة أفضل.

لما رأى عمير السلطان يريد أن يجمع أبناءه، كما كان يفعل حين يجمع جيشه، قال في نفسه: «من موران يمكن أن نحارب» ولذلك كان مقتنعا وموافقاً على سفر فتر. وانصرف تفكيره تماماً الى ما يجب أن يكونه فتر هناك.

كيف يعيش، أين يقيم، ومن هم الأشخاص الذين سيكونون حوله.
قال للسلطان في اليوم الثالث، وهو يستعد للسفر:

- ... وحسب أوامركم، يا طويل العمر، يلزم أن تكون موزي مع الأمير.
رد السلطان وهو يلتفت:

- أي نعم... أي نعم.

- وحتى ما يتعب بهم أحد، يا طويل العمر، أصل معهم، ويمشورتكم نرتب
الأمر.

وهكذا انتقل فتر وموزي إلى موران، ومعهم الخال عمير.

كانت الجدة صارمة، أقرب إلى القسوة، وهي تودعهم. قالت إنها ستأتي
إلى موران لزيارتهم، وقالت أن موران مثل عين فضة. وقد أعطت لكل منهما
ليرة رشادية، ولما طبقت على يد موزي، وهي تعطيها الليرة وشوشتها: «ما
أريد أوصيك يا موزي، أنت أخته وانت أمه، وعليك الاعتماد». أما الجد
الذي غاب ساعة الوداع، وقد بحثوا عنه طويلاً، فكان، أغلب الوقت، في
الغرفة الصغيرة على السطح يدعو الله أن ينسي خريبط أخذ الأولاد! أما حين
سمع فهقهات خريبط، ولما رأى الجميع يخرجون من المضافة، وكان فتر
في المقدمة، بملابسه الفضفاضة، وبدا له أن الله لن يستجيب بهذه السرعة،
فقد غادر العلبة، وركض إلى الموكب الذي تحرك. قال عليوي الذي كان
يرقب كل شيء بعناية، أن الدموع انحدرت على خدي الجد وهو يلوح لفتر
وموزي.

الخالة مزنة كانت بقرب أمها، وقد تحركت كثيراً لتشغل نفسها، وإن ظلت
صامتة، ومتأكدة أيضاً أنها ستلتحق بهم حالما يستقرون في موران، قالت
بصوت عالٍ:

- اذا نصبتم خيامكم وعمّرتم دلالكم، ويعتّم وراي تري أجيكّم إذا مو أول
يوم، اليوم اللي بعده!
وتحرك الموكب مغادراً عين فضة الى موران، وكانت سيارة فنر وموضي
الثانية في موكب السلطان!

في قصر الروض، وضمن ذلك الحشد الهائل من الصغار والكبار، ووسط مهرجان من اللغات والألوان لا تجتمع في أي مكان آخر، ضاع فنر وموضي، ولولا بعض عجائز القصر، لما وجدا مكاناً للنوم أو لوضع الأشياء القليلة التي حملها معهما من عين فضة.

كان القصر شيئاً عجيباً: عشرات الأجنحة والغرف التصق بعضها ببعض في آخر لحظة. على الجوانب غرف الحرس والخدم. في الوسط: البناء الرئيسي، وكان يشغله السلطان وثلاث من نسائه المقربات، وهذا البناء، وهو من طابقين، له شرفات تطل من جانب على الديوان الكبير، ومن جانبين آخرين على الأبنية الملحقة، وأغلبها مستحدثة، وقد أملت وجودها الحاجة والضرورة، أما الجانب الأخير، القبلي، فكان يطل على اسطبل الخيول. لا أحد يعرف من يتحكم بالقصر أو كيف تدار شؤونه، إذ رغم وجود عدد كبير من المشرفين والمراقبين، فإن الفوضى والاضطراب والصخب أبرز ما يتميز به. القدامى من المقيمين لهم الأولوية في السكن والأثاث وحتى الطعام، وهذا لم يحصل نتيجة قرار أو اتفاق، وإنما فرض نفسه بحكم العادة والتكرار. ونفس الميزة تتاح للضيوف الطارئين في الأجنحة الشرقية، والتي يفصلها عن الداخل سور عالٍ. أما الذين جاءوا حديثاً للإقامة في القصر فإنهم يصطدمون بالصعوبات في كل خطوة من خطواتهم، إذ رغم أوامر السلطان، وغالباً ما تكون غير مباشرة، وعن طريق دغيم السرهود بالتحديد، وفي حالات قليلة عن طريق خدم السلطان أو حراسه، فإن القادم الجديد لا يعرف كيف يتصرف أو إلى من يتوجه، فإذا توافر له المكان، والعادة ألا يحصل، وغالباً ما ينتزع من

آخرين كانوا يشغلونه أو لا يشغلونه، وما يترافق مع ذلك من رفض أو امتناع، وفي حالات كثيرة الى إغلاق الغرف ومغادرة القصر، أو إضاعة المفاتيح، فإن توفير الاثاث والحاجات الضرورية امر في غاية الصعوبة، فالمستودعات رغم أنها تزدهم بالحاجات القديمة أو غير العملية، فإن وصول أية كمية من الاثاث الجديد معناه الاستغناء مباشرة، وخلال الأيام الأولى، عن الاثاث السابق، واستبداله، وتجري هذه العمليات بأوامر متلاحقة من الأمراء والأميرات، ومن الخدم والحراس، بحيث يختلط القديم بالجديد، ولا يعرف من أخذ ومن أعاد وبهذه الطريقة تتراكم الحاجات لكن يتعذر تماماً التأكد من وجودها أو عدم وجودها.

إذا أمكن تجاوز هذه المشكلة والتغلب على هذه الصعوبات، وهي في العادة تستغرق أياماً، وتختلف الكثير من المشاحنات والمراجعات وتدخل الكبار، تبدأ مسألة العلاقات بين المقيمين والوافدين: أي قادم، مهما كان كبير المنزلة أو السن، لا يزيد عن أن يكون طريدة أو هدفاً لعشرات الصيادين المنتظرين والمستعدين. فما عدا أعمام السلطان واخوته، وقد انتقل بعضهم للإقامة فترات طويلة في قصر الروض، وأخبارهم سبقت وصولهم، فإن كل قادم جديد يتعرض الى مجموعة من الاختبارات ثم الهجمات: تبدأ بأن ينظر الحرس بعضهم الى بعض، أن يسألوا ويستفسروا عن عددٍ من الأمور أو الأشخاص، فإذا توافرت المعلومات بحيث يكوّن كل فريق صورة عن الفريق الآخر: مدى علاقته بالسلطان، مدى أهميته، وتقاس هذه الأمور بالخيول أو السيارات، بعدد المرافقين والحراس، بنوع الألبسة والأسلحة، ثم طريقة هؤلاء في التصرف. فإذا اكتملت هذه المرحلة، ولم تعد هناك حاجة الى مزيد من المعلومات، لابد أن تجري اختبارات من نوع أو آخر للتأكد من بعض النقاط، ومدى استعداد الطرف الآخر. وهذه الاختبارات يتخللها الكثير من المراوغة والمكر، وتنطرق الى معرفة أدق التفاصيل المرتبطة بالقادم الجديد: لماذا جاء الى هنا، والى متى سيبقى، وعشرات الأسئلة الأخرى، وكلها تطرح بعفوية، وكأنها جزء من حديث عام يتسم بالبراءة الكاملة، لكن الطرفين يعرفان كيف يمكن وكيف يجيان، بحيث يضل أحدهما الآخر، أو يخلق لديه أوهاماً، تحمله من جديد على إعادة النظر والحساب.

هذه المعلومات والتقديرات لابد أن تنتقل على عجل الى المراكز الخلفية، وهي على درجات. والعادة أن تنتقل بطريق غير مباشر، كأن يتظاهر أحد الجالسين، وغالباً لا يشارك في الأسئلة والاختبارات، بضرورة مغادرة المكان، أو أن يأتي احد الخدم، وبطريقة لا تفتقر الى البراعة، يطلب مجيء فلان، عن طريق هؤلاء تقدّم معلومات أولية ويعطى تقدير لما قيل ولما جرى، يتحدد على ضوءها ما إذا كان الأمر يتطلب مستوى أعلى من الاستشارة، لمعرفة درجة القرابة أو الأهمية، وهل من الواجب مواصلة هذه الطريقة أم استبدالها. كل ذلك يترافق مع الامازيح وتقديم الخدمات وإعطاء الرأي بالآخرين.

هدف الاختبارات والخدمات والمعارك أن يتحدد وضع القادم الجديد: موقعه ضمن المواقع الكثيرة المتنازعة في القصر. إذ لا بد أن يكون جزءاً من احدى القوى المتصارعة، من معسكر، وأن يكون امتداداً لقوة من القوى الكثيرة الموجودة. صحيح أن الأمر لا يتم بتلك السرعة أو البساطة، لكن الساعات الأولى، الأيام الأولى، لوصول القادم الجديد، تحدّد معظم الاحتمالات، وتترك تأثيرها لفترة طويلة.

ومع أن الهدف الرئيسي تحديد موقع القادم، او محاولة كسبه، فإن النتائج الجانبية التي تتحقق كثيرة ومتنوعة، وغالباً ما تثير الضحك. فالأخطاء التي وقعت والأكاذيب، ثم تلك الخدع التي يُستدرج بها الكبار والصغار، تصبح موضع حديث وتندر، وتنتقل من مكان الى آخر، بأشكال مختلفة، وبعض الأحيان تصل الى السلطان، مع ما يرافق ذلك من مبالغاة وتحريض ووقية، وغالباً ما تؤدي الى معارك تبدأ في مخادع النساء، الى أن تعم القصر كله. وقد يتدخل السلطان، أو من ينوبه، من أجل إعادة النظام، وقد يستدعي الأمر تغيير المشرفين، أو نقل عدد من المقيمين أو الضيوف إلى أماكن بعيدة، وربما تقضي الحاجة بناء أجنحة جديدة في القصر، كل ذلك لوضع حد للخصومات، أو لإيجاد حواجز ومسافات بين المتخاصمين.

لا يمكن لأحد، في قصر الروض، أن يكون محايداً أو غير مهتم؛ فالأحداث التي تقع كل يوم، والأحداث التي تنتقل، تجعل كل واحد

مشاركاً. حتى الزوار والمراجعين والذين يحملون المؤن، يصبحون، بشكل أو بآخر، جزءاً من موضوعات القصر أو همومه.

وإذا كانت اختبارات الرجال ومناوشاتهم تجري في الهواء الطلق، في ظلال الجدران أو تحت أشجار النخيل، ويتخللها الكثير من المرح ومظاهر الود، فإن معارك النساء تجري وراء الأبواب المغلقة، ويتكتم وسرية، كما تأخذ أشكالاً ضارية وشديدة المكر، لأن كل امرأة جديدة تدخل القصر قد تقلبه، وتغير نظامه، وقد تغير مواقع الناس فيه. ويتذكر الجميع ما رافق وصول فضة، الزوجة المفضلة لدى السلطان، إذ ما كادت تصل وتستقر في البناء الأوسط، حتي تغير كل شيء في القصر: فالسلطان الذي كان يقضي شهوراً كل عام، متنقلاً من مكان لآخر، محارباً وغازياً، أو في فض الخصومات بين القبائل التي تؤيده، ما لبث أن تخلق عن أسفاره، أو اختصرها إلى أقصى حد، مكلفاً بعض أبنائه، يساعدهم أعمامهم وأعمامهم، لكي يقوموا بهذه المهمات نيابة عنه. أخذ يفعل ذلك، لكي يبقى إلى جانب فضة. لم يقل أحد ذلك صراحة في بداية الأمر، لكن ما إن بدى بتوسيع البناء الأوسط، وإخلاء قسم من شاغليه، أو على التحديد إخلاء اثنتين من نساء السلطان، حتى تحول الهمس إلى حديث صريح، وأصبحت الوشوشات اتهامات ينقلها الخدم وتصل إلى مسامع الرجال، لكن وجود السلطان في القصر، ولأن الأمر مرتبط به شخصياً، لا يترك مجالاً للتمادي، إذ بالإضافة إلى الخوف الذي يتولد من وجوده، خاصة وأنه لجأ مرات عديدة إلى إنزال عقوبات بعدد من الخدم والعاملين في المخازن، وصلت في إحدى المرات إلى اعدام ثلاثة من هؤلاء، نتيجة أخطاء صغيرة، ووشايات نقلوها أو نقلت عن لسانه. لكن ليس دائماً الخوف وحده الذي يردع، فغالباً ما يرافقه مبادرات من السلطان على شكل هدايا، أو ترصيات، بالإضافة إلى الزيادات، وهي تأخذ شكل الاعتذار، وفي حالات خاصة فإن نساءه الغاضبات يقبلن بنوع من التسوية، أو هكذا تشيع الزوجة الغاضبة عن طريق الخدم والقريبات، مع تأكيد متزايد على الهدايا الثمينة التي رافقت زيارة السلطان، وكثيراً ما تصبح المبالغات سبباً لعدم التصديق! إذا لم يكن الأمر متعلقاً بالسلطان، أو بإحدى نسائه القريبات، وغالباً ما

تحدد درجة القرابة إما نتيجة القدم، أو الدم، أو تبعاً لعدد الأبناء الذين تنجبهم تلك الزوجة، وبعض الأحيان لأسباب لا يدركها أحد، وتظل سرّاً بين السلطان وتلك المرأة! إذا لم يكن الأمر بهذا الشكل، أو على هذه الصورة، فإن الحرب التي تقع، خاصة بين النساء القويات، لا يمكن السيطرة عليها، كما لا يعرف أحد كيف تتطور. تبدأ بالهمس، تنتقل من مخدع لآخر، ومن جناح لثاني، ثم تأخذ شكل حدة في العلاقات تتلوها المقاطعة، وأخيراً تصل الى تبادل الاتهامات، وبعض الأحيان الى التصفيات.

المرات التي قتل فيها عدد من الخدم في قصر الروض كثيرة، بل ويكاد الأمر يتكرر بين فترة وأخرى، لكن غالباً ما يقع، أو بالأحرى دائماً ما يقع، أثناء غياب السلطان. (وان يقتل) الخدم فلأنهم الأداة المباشرة للحرب الدائرة، فهم الذين ينقلون الرسائل والاشاعات والاتهامات، وهم الذين يركضون في هذا الاتجاه أو ذاك للتحريرى والاستفار، بل يكاد يصل الأمر ببعضهم أن يصبح معنياً بالمعركة أكثر من ذوي العلاقة؛ وفي حالات أخرى يصبح الخدم أكثر معرفة مما ينبغي، ويعتبر ذلك سبباً كافياً للقتل!

وإذا كانت العادة أن يلجأ الرجال الى السلاح، اما نتيجة سورة من سورات الغضب، أو نتيجة القصص الدقيقة المحرجة خاصته في « المنطقة الحرام » لتصفية واحد من الذين يحملون الرسائل، فإن عبيد الطرف الآخر أو حراسه لا يتأخرون في اللجوء الى تصفيات مماثلة في الليل، إما بحجة الخطأ أو أثناء تنظيف الأسلحة!

هكذا يجري قتل الرجال، أما النساء فغالباً ما يكون قتلهن بواسطة السم أو أثناء الولادة. وقد صدف - وان لم يتكرر كثيراً - عدة مرات بأن ألفت بعض النسوة أنفسهن في آبار القصر، أو متن في الحمام الشمالي مختنقات أو آخر الليل، وهذا الحمام غير بعيد عن المبنى الرئيسي! كما أن ثلاثاً من نساء السلطان متن حسرة، كما قالت وطفة زوجة السلطان الرابعة! وأكثر منهن وجدن مشنوقات في غرفهن، وأكد الخدم أن الغرف كانت مقفلة من الداخل!

صحيح أن عمليات القتل قليلة إذا قيس بما دونها، كالإشاعات أو الاعتداء بالضرب، أو ربما الطرد من القصر، أو بعمليات الملاحقة وإطلاق الرصاص والهروب والاختفاء؛ أما النكت التي تنتشر وتنتقل، والنوادر، ثم الإشاعات، وما يتخللها من حركات تمثل الطرف الآخر، فإنها كانت تسلية النساء بشكل ظاهر، وكانت حلقات بعض الرجال لا ترفضها. أما الإشاعات التي تحرف أو تنظم في مديح فلان من الناس أو في هجائه، فقد كانت على كل شفة ولسان، وكان الخدم يتفننون في القائنها، وكأنهم يشفون أو يمتقنون! ويؤكد عدد من الحرس الخاص، والذين قضوا فترة في القصر، أن هذه الإشاعات كانت تصل الى مسامع السلطان، فيتسم مرة ويغضب أخرى، وكثيراً ما استعاد واستفسر واستقصى، وغالباً ما تمر الأمور دون نتائج تذكر، خاصة إذا مضى عليها الوقت، أو لم يعرف قائلها، أو كان القصر في حالة من حالات الهدوء والسكينة.

إذا لم يكن القصر في معركة، فلا بد أن يكون قد انتهى من واحدة أو يستعد لأخرى. وفي بعض الحالات تتوقف المعارك، أو تخفت حدتها نتيجة عودة السلطان المفاجئة، أو نتيجة حدث استثنائي، كأن يتزوج امرأة جديدة من إحدى القبائل الكبيرة أو المخاصمة. ويحرص، عند ذاك، على أن تقام احتفالات خاصة، ويجري توزيع الهدايا، وإطلاق الرصاص، ولا ينسى السلطان أن يقيم احتفالاً لخيوله وللخيول الجديدة التي جاء بها. هذا الاهتمام من قبله، أو بإيعاز منه، ليس تعبيراً عن فرح فقط وإنما تعبير عن قوة أيضاً، وهو بمثابة رسائل الى الذين يعينهم الأمر في الداخل والخارج.

والحدث الجديد لا بد أن يحدث هزة لكل ما هو قائم، وقد يغير في العلاقات والخصومات، فخصوم الأمس قد يصبحون أصدقاء، ومعارك الأمس قد تتحول الى تحالفات وعلاقات جديدة. أما الإشاعات والانهامات والنوادر فسرعان ما تنسى وكأنها لم تكن! طبعي أن يتم الانتقال بهدوء وبشكل غير مباشر، لكنه عادة يتم بسرعة، مع ما يرافقه من اعتذار واعتراف ودعوات، وأيضاً ضرورة إبعاد عدد من الخدم والمرافقين والحراس من كل جانب، والذين تسببوا في الواقعة والاساءة، وغالباً ما يتم إبعاد هؤلاء بصورة مؤقتة،

بسبب عدم الثقة، أو لأن الحاجة تستدعي الاستفادة منهم مجدداً. وقد حصل عدة مرات أن بعض الذين ابعدوا لاقوا حتفهم في ظروف قيل انها غير واضحة! كما أن عدداً من هؤلاء، وبعد مرور فترة اعتبروها كافية، بعثوا عن طريق معارف أو أقرباء، الى الطرف الذي خاصموه يعلنون استعدادهم لإبلاغه بأمور خطيرة يعرفونها، وكانوا شهوداً عليها أو مشاركين فيها، ومن شأن هذه الاتهامات والمعلومات أن تغيّر الكثير.

حتى الأطفال والصبية في قصر الروض، لا يترددون في أن يفعلوا ما يفعله الكبار من النساء والرجال. صحيح أنهم يفعلون ذلك في البداية بتحريض من الخدم، أو بتأثير الجو والكلام الذي يسمعون، لكنهم سرعان ما يتجاوزون ذلك، إذ تصبح لهم احلافهم وخصوماتهم، وبرز بينهم القادة والموجهون والمحرضون، ويتفتنون بالمكر والقسوة والوقية، لا يفرقون بين من يحبهم أهلهم ومن يكرهونهم، المهم أن يبرعوا، وأن يظهروا براعتهم، وان يعترف لهم بذلك الكبار!

ليس في قصر الروض طفل لم يحصل على مسدس أو بندقية، فلكثرة وجود السلاح، واستمرار الحديث عن المعارك والبطولات، ولأن السلاح أولى هدايا الأب لابنته، فقد كان امراً مألوفاً أن يوجد بأيدي الأطفال. صحيح أن الكبار يوصون الصغار، أو لا يعطونهم الذخيرة، كما يطلبون من الخدم الانتباه، إلا أن تجاوز ذلك كان من ايسر الأمور.

بعد الأهداف الثابتة تصبح الحيوانات هدفاً لرصاص الصغار، إذ يطاردون الكلاب والقطط ويتبارون بقتلها، أو التمثيل بها، وغالباً ما يسببون لها عاهات دائمة. فما تكاد تصل الى أيديهم حتى يربطوها لتصبح بعد ذلك أهدافاً صعبة! وقد وجدت بعض الخيول مقتولة أيضاً، وصدف أن قتل أحد الخيول السلطان، واسمه الادعج، ولم يجد المشرفون على الاسطبلات بداً من اختلاق الأعذار لتبرير ذلك أمام السلطان. قالوا أصيب بالمرض، وقالوا ان عقرباً لدغه، وقالوا أخيراً انهم تركوه يرعى في عشب قريب، فاكل فيما اكل نبات الزقنبوت، ولما بحثوا عنه وجدوه في طرف المرعى وقد انتفخ ومات.

ليست الحيوانات وحدها اهدافاً للرماية، إذ يشاركها في ذلك العبيد والخدم، خاصة في أوقات الشدة، وغالباً لا يعرف من الذي قتلهم. والرد في هذه الحالات لا يكون في البحث عن القاتل ومعاقبته، وإنما في الثأر والانتقام من حيوانات وعبيد وخدم القتلة المحتملين، ويجري ذلك في جو من الحذر والتخفي، كأن يصبح الصباح ويُعثر على حصان ميت، أو تشب النار فجأة في أحد الأجنحة. وصدف عدة مرات أن وجد بعض العبيد في اطراف القصر، عند بستان النخيل أو قرب الاسطبل مقتولاً. لا تتوقف هذه الموجة، مؤقتاً، إلا حين يُظهر المشرفون على القصر الحزم والغلظة، ويعلنون بصوت عالٍ أنهم بعثوا الى السلطان بالأخبار، ولا بد أن يصل بين يوم وآخر، عندها يتدخل الكبار والعقلاء لوضع حد لهذا العبث، ويقولون بصوت عالٍ: «حنا نعرف الفاعلين، وإذا جاء طويل العمر نعلمه بكل صغيرة وكبيرة، وبعدها كل ذنبه على جنبه!»

عند ذاك تهدأ الأمور، وتجري، سرّاً، مفاوضات يشوبها الكثير من المساومة والضغط، وغالباً ما تقوم بها النساء في البداية، إذا كان الخصومة بين الرجال، حتى إذا وصلت الأمور حداً من القبول يتابعها بعض المسنين من الرجال إلى أن تنتهي إلى المصالحة، ويكون إعلان انتهاء هذه الخصومات على شكل زيارات ودعوات، وغالباً ما يقوم بها بعض الأقارب وأصدقاء الطرفين.

في فترات السكينة والرضا، خاصة حين يكون السلطان في قصر الروض، وإذا تم تجاوز المبنى الرئيسي وديوان الرجال، فإن القصر يتحول الى خلية من الحركة في الليل والنهار، هذه الحركة يباشرها الأطفال والخدم والنساء والخصيان. فالزيارات التي يجري تبادلها، والهدايا التي تنقل من مكان الى آخر، ولإطلاع الآخرين عليها فقط، والقصاص التي تروى، والطلبات الموجهة الى الخدم بضرورة القيام ببعض الأعمال، هذه الأمور، وغيرها كثير، تجعل القصر مثل خلية النحل. فإذا دخل الليل تبدأ الأمازيح الماجنة، والحركة الخائفة والمرتابة لتأمين مواعيد الليل، ولا تكون بريئة في أغلب الأحيان.

أما ما يشغل القصر أكثر من غيره، وما يبدد الرتبة والسأم المسيطرين عليه، خاصة في أجنحة النساء من الزوجات المهجورات والعمات والخالات، إضافة الى الزائرات، وعددهن أغلب الأيام بالمئات، فتلك المقالب والمكائد البريئة التي تدبر في معظم الليالي، وقد أصبح لها أربابها والبارعون فيها، فالمرات التي طليت فيها وجوه النائبات بالاصباغ لا تعد ولا تحصى، وتكاد تجرّب مع معظم الزائرات؛ وإخافة النساء، بالأصوات المرعبة، أو بإطفاء الأنوار، وعادة يقوم بها الأطفال والصبية، تتكرر كل ليلة. أما أن تلبس إحدى الخادومات ملابس الرجال وتدخل فجأة، فإن هذه التسلية تقوم بها ربة الجناح للترويح عن زائراتها! وهناك عشرات المكائد المشابهة التي تدخل في الطعام والشراب، وتكون مدعاة للتندر والضحك والصخب المتواصل، ويتقلّ قسم منها الى ديوان الرجال.

والمكائد إذا كان ضحاياها من الخدم والعبيد، فتكون عندئذ أقسى، وتدبر ببراعة أكبر، ويشارك في هذه ديوان الرجال أيضاً، وكثيراً ما تخللها المراهقات والتحديات؛ والخدم، أو بعضهم، يساهمون فيها عن مكر أو عن بساطة تصل حدود الغباء!

حين وصل فتر وموضي الى قصر الروض، لكي يبقوا فيه، كان قد مضى على زواج السلطان من فضة اكثر قليلاً من اربع سنين، انجبت له خلالها ولدين ذكرين، وكانت في مرحلة متقدمة من حملها الثالث، وهذا ما دعا السلطان الى اختصار عدد من زياراته والعودة المبكرة الى موران، ليس لأنه في شوق الى فضة ويحبها أكثر من نسائه الاخريات فقط، وإنما للرهان الذي قام بينهما. فموزة، وصيفة سيده القصر، التي أكدت في المرتين السابقتين، وراهنه، وقالت للسلطان ذاته وهي تبسم: «إقطع راسي يا طويل العمر، إذا ولدت ستي غير ولد»، فإنها هذه المرة أكثر ثقة، ومستعدة لرهان أكبر. والسلطان الذي كان مترقباً ومتشوقاً لولد الثالث تنجبه فضة، فلكي يقدم لنفسه الدليل، قبل أن يقدمه لزوجاته الاخريات، أن فضة تختلف عن غيرها من النساء: لا تتأخر، ولا تنجب سوى الذكور!

موزة وهي تؤكد أن الطفل سيكون ذكراً، مدت فضة يدها، وهي تبسم، الى السلطان وقالت بحزم:

- أنا مع موزة، وهذي يدي والرهان بيننا!

والسلطان كان راغباً في هذا الرهان، حتى لو خسر، قال وهو يتنحنع:

- هذي يدي، وأنا أقول: بنية.

وتراهننا. وفي كل ليلة كان الرهان يرتفع وتقسو شروطه، وإن تخللته المداعبات والشكوك، لكن السلطان ظل مشغولاً بهذا الأمر، منذ أن عرف بحمل فضة. حتى في أسفاره ظل يفكر ويأمل ويتنظر!

الآن وهو يعود، وما يرافق العودة من اهتمام ونشاط وخوف أيضاً، فقد كان وحده موضع اهتمام الجميع، وكانت فضة والمولود القادم موضع اهتمامه هو، مما أدى الى نسيان فنر، أو على الأقل لم يحظ بما حظي به في سفراته السابقة. فالسلطان الذي آوى الى جناحه مبكراً للراحة، ترك لدغيم أن يرتب أمر القادمين، وقد خلق هذا حرجاً وتساؤلات، فلا يُعرف إذا كان الأمر يتطلب إجراء مؤقتاً أو حلاً دائماً. فإن يأتي فنر ليبقى يجعل التفكير متجهاً الى ما وراء ديوان الرجال وخلف السور، وبالتالي يحتاج الى اجراءات وقرارات تتناسب مع أهمية الزائر الجديد، لأنه يختلف عن الآخرين، كما لا يعرف ما إذا كان من اللائق والمحتم أن تكون موزي معه أو أن يفرد لها مكان خاص.

ظل الأمر هكذا بضعة أيام، وخلال هذه الأيام لم يستطع دغيم السهرود أن يكلم السلطان على انفراد ليتلقى منه توجيهات محددة وواضحة، وقد أدى ذلك الى انتقال فنر وموزي من جناح الى آخر، بين ليلة واخرى، وفي احدى المرات تدخلت اثنتان من عجائز القصر لكي ترتبا مكاناً لائقاً للوافدين الجديدين!

ومثلما وقعت مكائد لمعظم الذين سكنوا قصر الروض، فقد أصابت الأمير أيضاً. صحيح أنه لم يتعرض لمكيدة مباشرة، لأنه كان يقضي معظم وقته في ديوان الرجال، كما طلب منه أبوه وأكد على ذلك، ولكن حارسه، نصار، لم يفلت، فقد سرقت بندقيته في اليوم الثالث، وذهبت كل المحاولات للبحث عنها أو لمعرفة الذي سرقها عبثاً. أما قطعة، خادمة موزي، فقد تعرضت في ليلتين متواليتين الى المكائد: ففي الليلة الرابعة، واثناء نومها في الغرفة المجاورة لغرفة موزي، دخل عليها من صبح وجهها بالسحام، وكانت موضع تنذر ونظرات ارتياب في اليوم التالي. وتجرات احدى الخادومات وقالت بصوت عالٍ، وكأنها تخاطب نفسها: «إذا الواحد ما حسّ وهم يسخّمون وجهه، ما يندري إذا كان يحسّ وهم يسوون به شيء ثاني» وقطعة التي كانت غاضبة وخائفة ومحرجة، وكانت في وقت سابق تتباهى أنها تلتقط صوت مشي القطة، حتى لو كانت في سابع نوم كما كانت تقول، ردت على النظرات والابتسامات بأنها كانت شديدة التعب من السفر والركض طوال الأيام السابقة!

وفي الليلة التالية بقي في غرفة موضي فأر ميت، وقد تسبّب بالكثير من الفزع والصراخ، ووصل الأمر الى علم دغيم، مما حمله على الاسراع بترتيب سكن القادمين، بعد أن رابط ساعات من اجل مقابلة السلطان ومباحثته في الأمر!

سيدة القصر، الأميرة فضة، كانت مشغولة بالسلطان وانتظار المولود، ولذلك لم تستطع أن تلتقي بالقادمين الجديدين إلا لفترة قصيرة، وأثناء الغداء الخاص الذي أقامه السلطان على المائدة الداخلية، بعد أن أقام في اليوم الذي سبقه غداء دعا اليه الكثيرين، وأشار أثناء الحديث الذي سبق الغداء، أن فتر جاء ليبقى في موران، وقال أيضاً، وهو يتسم ويتطلع اليه.

- وما تمر كم سنة إلا ونزوجه ونفرح به!

وفتر الذي غرق في ملابسه الفضفاضة، وغرق أكثر من ذلك بالخجل والعرق، لم يعرف كيف يتصرف حين كان في الديوان ثم أثناء الأكل.

أما الاهتمام الذي أبداه السلطان في استقبال الذكر الثالث الذي ولد له من فضة، فقد فاق كل حد، فالأفراح التي اقيمت في القصر، والخراف التي ذبحت، ثم الهدايا والأعطيات تجاوزت المألوف، وجعلت عدداً من مسني العائلة يفاتح السلطان بعد أن هدأت الضجة. قالوا له في احدى الليالي:

- ... وتعرف، يا طويل العمر، أن الله، سبحانه وتعالى، هو من يعطي، ومن يجعل النطفة ذكراً أو أنثى، وهو على كل شيء قدير...

ولما بدا له أنهم يريدون أن يتكلموا في أمر آخر، ولكي يشجعهم على ذلك، قال وهو يضحك بصوت عالٍ:

- اللي تقولونه ما عليه خلاف، يا طويلي الأعمار بس أشوف بوجوهكم سالفة ثانية!

قال دحيم، العم الكبير للسلطان:

- يا أبو منصور، حنا معك أن يكون لك ذرية بعدد حبات التراب، وأن تفرح بكل مولود جديد، بس لازم تعرف أن الولد من صلب أبوه، وما دام الأب

واحد، وما دمت أنت أب الأولاد، يلزم تعدل بينهم، وما يلزم تقول هذا ابن فلانة وهذا ابن فلانة، هذول كلهم أولادك، الكبير قبل الصغير، والموجود قبل اللي عند علام الغيوب، ورأينا انك ما تميز بين واحد والثاني.

قيل هذا الكلام نتيجة اشاعات سرت في القصر، وانتقلت، همساً، من مخادع النساء الى ديوان الرجال، حول ما ذكرته موزة عن رهان بين السلطان وفضة، إذا كان المولود الثالث ذكراً، فقد قيل ان السلطان ابدى استعداده، إذا خسر الرهان، أن يجعل واحداً من أبناء فضة سلطاناً بعده، وقد توافق ذلك أيضاً مع أخبار متزايدة تؤكد غضب السلطان على خزعل. نقل اثنان من الحرس الخاص لدحيم أنهما سمعا السلطان يقول لخزعل بغضب «انحش عن دربي ولا تخلني أشوف وجهك». وقد سافر خزعل بالفعل مع عدد قليل من المرافقين والحرس، لا يعرف إلى أين أو كم سيقى. وقال كلمات أخرى لم يسمعاها.

هذا ما دعا مسني العائلة لأن يقولوا ما قالوه، والسلطان الذي سمع بانتباه، وكانت الابتسامة تملأ وجهه، ردّ عليهم.

- اللي قالوا لكم، يا جماعة الخير، ما صدقوا وياكم، وانتم تعرفون، البني آدام كل يوم يطلع له قلب، وما فيه طرف، فإذا أعطينا آدانا لكلام يأخذنا ولكلام يردنا، ولو احد يقول فلاني، والثاني تركاني تراها وقعت بينا، وانتم تعرفون مثلي وأحسن مني: إذا اختلف الرعيان، أو إذا تصادقوا، ضاعت الغنم!

هز رأسه عدة مرات ثم فجأة التمعت صورة خزعل وسفرو، قال موضحاً:

- وخزعل حنا طرّشناه، كلّفناه بعمل، قلنا له تسوّيه وترجع من يومك، وإذا سمعتم غير هذا الكلام فهو غير صحيح!

وتغيرت النبرة:

- ويسفرتنا لعين فضة قلنا لفر: هذا حدّك مع اخوالك يا فر ويلزم تكون معانا، وجبناه وجينا، وقبل أيام شافوه الخويا وقالوا ذهين وما مثله، وانتم

تعرفونه، يلزم يكون قريب منا ويتعلم، وإنشاء الله يشيل هو واخوانه الحمل عنا. فلا تخافوا يا جماعة الخير واكلوا الله، وانتم تعرفون المثل اللي يقول: لا اتوص حريص، وإنشاء الله بوجودكم وشوركم وحرصكم ما يصير إلا كل خير!

تأثروا لكلام السلطان، وتأثروا أكثر أن السلطان لم ينس فتر، خاصة بعد أن مرض، وقال الأطباء الذين اشرفوا على علاجه ان الأمر لا يتعدى الحصر وتغير المناخ، ولا بد أن يستعيد صحته إذا احيط بجو من الرعاية والاهتمام، كما كان حاله في عين فضة. قال دحيم بصوت عميق، وصورة فتر، المختلف عن بقية الأخوة، تسيطر عليه:

- ترى يا جماعة الخير دمة اليتيم تخرق الصفا.

وتذكر الجميع أم فتر وصمتوا بحزن.

ولأن السلطان يعرف الكثير مما يصل الى الآخرين، عن طريق النساء والخدم الذين كلفهم أن ينقلوا اليه كل ما يسمعون، خشي أن تتطور الأمور ويصبح من الصعب السيطرة عليها، ولكي يبدد الشكوك، والتي قيل انها وصلت الى البادية، ووصلت تحديداً الى احوال خزعل، والى قبائل بعض زوجاته بشكل خاص، فقد أبدى تسامحاً تجاه عدد من الزوجات والأقرباء بدل القطيعة والنفور. ولم يتردد في أن يعقد على زوجة جديدة خلال الشتاء ذاته، وأن يصطحب أحدها معه في رحلة القنص التي استمرت أكثر من عشرين يوماً. أما حين بلغه أن وطفة، الزوجة التي تزوجها قبل فضة، والتي خلفت ابنتين، واجهضت بالثالثة، وقالوا انه ذكر، حين بلغه أنها انجبت ولداً ذكراً وقد سماه مفرح فقد أقام احتفالات بالمناسبة لا تقل عن الاحتفالات بمجيء الابن الثالث من فضة. قالت أمي زهوة التي كانت تصلها أصداء ما يقال في مخادع النساء: «أبو منصور أولاده عنده مثل اسنان المشط، أو مثل حب الرمان، ما يفرق بين واحد والثاني.. إلا باللون، بس الأمهات ما يشبعن لا بالليل ولا بالنهار!».

لم يكتف السلطان بذلك، فقد قام بزيارات لإثنتين من نسائه أنجبتا اثناً،

وقيل انه لم يتردد في حمل البنتين، ومداعبتهما، كما أجزل للامهات العطايا،
خلافاً لما عرف عنه في السابق. وقد تبرع الكثيرون في نقل هذه الأخبار.
حتى سيدة القصر، فضة، لم تحف امتعاضها، لكنها غلقته بالسخرية.
وحين كانت في مجلس ضم عدداً كبيراً من النساء، بمناسبة ظهور ابنها
الثالث، والذي تأخر ظهوره خلافًا لأخوته، لأنه ظل مريضاً فترة طويلة، قالت
وهي تبسم:

- حين طهروه خفت، صرخت وقلت لروحي يا ليتة كان بنتة، كان ما عذبوه
هذا العذاب كله.

ولما سمعت كلمات الاستغراب والإنكار، أضافت وهي تلتفت، وكانت
ابتسامتها تركز على بعض الوجوه:

- وبهذي الأيام ما عاد في فرق بين الولد والبنتة، إلا اذا كانت الأم بغیضة
وجابت بنتة!

قالت موزة، وكانت تملك دالة على الجميع:

- لا يا ستي، في فرق، وهذا طوله!

وأشارت بالسبابة والأبهام الى المقدار الذي تعني!

قالت احدي الزائرات وكانت لا تخفي ضحكتها:

- كبرتیه أكثر من اللازم.. يا موزة!

ردت وهي تفهقه:

- لا تخافي يا بنت الحلال بس يكبر يكبر.. والله يستر بنات العالم!

ولم يقتصر الأمر على ذلك، فالسلطان الذي كان يقوم بنفسه، أو يكون
حاضراً حين تتأكد هزيمة الخصوم، لكي يقبل الاستسلام، ولكي يصدر أوامر
القتل أو العفو، والذي كان يروق له أن يقدم دروساً في فنون القتال
والشجاعة، والأخلاق والشهامة، لسمعها خصومه بوضوح، ولكي تنقل عنه

بعد ذلك، يتخلى لأول مرة عن القيادة لخزعل. قال له يوصيه، وكان في المجلس عدد من كبار العائلة:

- ... والخويا اللي معاك يا خزعل الواحد منهم بمية، مجربين وأنت تخبرهم، والقواد صيتهم سبقهم، وما مثلهم بموران وبغير موران، فأريدك يا خزعل تبيض الوجه وترجع لنا سالم وغانم، ورأس ابن الحرام على سن ورمع لشته بحتل ما به ملح .

تنفس ملء صدره وأضاف يخاطب المسنين وينظر الى خزعل:

- أملنا بك كبير يا خزعل، وهذا ما هو بس راي ورأي الجماعة؛ ولا تبطي علينا بالأخبار الزينة، ومثل ما قالوا جماعتنا: ما خاب اللي يعطي الصنعة سيدها، ومن الله النصر والتوفيق.

ورغم أن العملية التي أنيطت بخزعل لا تتعدى تأديب قبيلة صغيرة، كانت منازلها قريبة من الحدود، وكانت عرضة لمؤثرات عديدة، وقد اختلف ولاؤها أكثر من مرة، تبعاً للضغط الذي يقع عليها، فقد سرت في قصر الروض همسات تؤكد أن السلطان أرسل خزعل لكي يتخلص منه، لكن هذه الهمسات تراجعت وانتهت بتوالي الأخبار، ثم بتأكيد الكثيرين أن خزعل ذهب الى القنص ولم يذهب الى الحرب!

وقيل أيضاً ان السلطان أرسل عمه قبل أن يتقضي اسبوع على تحرك خزعل، وأوصاه بإلحاح أن يتولى كل شيء بنفسه، لخشيته أن تقع أخطاء تصعب معالجتها في وقت لاحق، خاصة بالنسبة لرئيس القبيلة، والذي كان يريده حياً لأسباب كثيرة: ليكون قوة له على الحدود بدل أن يكون أداة بأيدي الخصوم، ولكي يبرهن للذين يقولون أن خريط لا يعرف سوى القتل، انه يعرف كيف يعفو ويسامح، وقد أكدت النتائج أن ما حدس به خريط كان في مكانه، وأن العم تدارك الكثير، الكثير، لكن، مع ذلك، عاد خزعل منتصراً، واعترف له أنه بلغ مبلغ الرجال!

وقبل أن تنقضي السنة أرسل السلطان خريط ابنه فتر بزيارة رسمية للتهنئة

الى بريطانيا، بناء لاقتراح مستشاره، والذي اكد للسلطان أن العائلة الملكية البريطانية تربي أولادها على تحمل المسؤولية وتكلفتهم مهمات الى البلدان الأجنبية، ليتعرفوا على هذه البلدان ويتعلموا منها، ولكي يتعرف عليهم الملوك والرؤساء.

طوال السنوات التي قضاها فتر في قصر الروض ظل غريباً. لم يستطع أن يكون جزءاً من القصر، أو جزءاً من القوى الخفية التي تتجاذبه وتؤثر فيه. صحيح أن أباه قرّبه، وأخذ إعجابه به يزداد شهراً بعد آخر، إلا أنه كان يخشى عليه من تأثير خاله عمير، خاصة وأن عميراً منذ أن وصل إلى موران لم يدخل لسانه في حلقه، كما يقول السلطان.

ليس ذلك فقط، فقد نقل للسلطان أن عميراً ما إن يترك قصر الروض حتى يغشى المجالس واحداً بعد آخر «هذا يصير وهذا ما يصير. هذا حلال وهذا حرام». والسلطان الذي تبلفه الأخبار يهز رأسه بغيظ ويقول لنفسه: «ناسبناهم حتى يرضوا ويسكتوا، لكن بعد ما خلصنا من منير جانا مناور، بعد ما خلصنا من الدربويش جانا هالحين عمير، لكن يخس». فإذا التقى به السلطان، يسأله عن أبيه وعن المطر في عين فضة، وفي ذلك تلميح لا يخفى أنه حان الوقت لعودته، فيجيبه عمير إجابات عامة، بعيدة، مع ابتسامة كبيرة للتدليل على أنه راضٍ ومرتاح لإقامته في موران. أما حين اعتل فتر، فقد أصبح لدى عمير المبرر القوي للبقاء. قال ذات يوم للسلطان يشعره بضرورة وجوده واستمراره:

- ومثل ما تشوف عينيك، يا طويل العمر، الصغير تعبنا وممروض، وأخاف إذا تركناه يحصر.

- وكلّ الله يا ابن الحلال، فتر الجميع حاطينه ببطن عيونهم ويدارونه.
- لكن مداراة الخال شكل ثاني، يا طويل العمر.
- المداراة الزائدة تفسد يا عمير.

- الحق اللي تقوله، طال عمرك، بس الى أن يتعافى، ويصير على كتفه لحيمات.

- العافية من الله، يا رجال، ويلزمك تعرف: حرار الطيور ما تسمن.

جرى مثل هذا الحوار مرتين أو ثلاث مرات، وعمير يتظاهر أنه لا يفهم، فقد جاء بقصد الإقامة، وليكون قريباً من فتر، وليشرف أيضاً على تربيته وتوجيهه. والسلطان الذي أسف لأنه ترك ابنه كل تلك السنين في عين فضة، وعرف مدى تعلق فتر بأحواله، كان يريد أن يمتحن مدى قدرته على انتزاع الصبي من ذلك العالم وتلك الأفكار، دون أن يلجأ الى العنف أو القوة، خاصة وأن الأطباء الذين أشرفوا على علاجه، اكدوا عدم وجود علة يمكن أن يعزى إليها سبب مرض فتر، فقالوا: تغير المناخ. وقالوا، الحصر. ولذلك يجب أن يعتنى بحالته النفسية، وأن يبذل جهداً خاصاً من أجل أن يتكيف مع الجو الجديد.

وفتر مثل النبتة الغضة، تمرض إذا عطشت، وتمرض إذا زاد عليها الماء. يمرض دون مسبب، ويتعافى فجأة. والسلطان الذي تطالعه العينان الواسعتان أينما ذهب، أينما تلفت، وتتابع الأذنان كل كلمة يقولها، كان حائراً. قال لعمه دحيم ذات ليلة:

- ... وإذا طالعت، يا مبارك، أشوف بس عيون تناظر، يسمع بعيونه وقلبه وآذانه، ويلزم هذا الخبل، عمير، أن ما يملا راسه بسوالف الآخرة وحدها.

- بس يتعافى بالخير والسلامة يلزمه يتعلم القنص.

- الحق اللي تقوله يا عم، وظني أنه مع القنص يلزمه بارودة حربية، ويبلش بهذول اللي مدوخينا هنا وهنا.

ولم يتأخر السلطان لكي يصطحبه في واحدة من غزواته. قال لخاله عمير قبل أن يتحرك:

- ترى عين فضة تعجب اذا وفّت، وانشاء الله برجعتنا نشوفك هناك، يا عمير.

قال مهيب، رئيس الحرس الخاص للسلطان، بعد سنين طويلة يتذكر تلك الغزوة:

«كانت سنة خير، أمطارها كثيرة والناس راضية. وما عندها الا تدور رزقها. وطويل العمر أوامره واضحة: يلزمتا نحارب يا مهيب، إذا ما هو هنا، بمكان ثاني. وحنّا نثلفت، نثفن، وما نلقى أحد. العشيرة الفلانية بمشتاها. الثانية بالمكان الفلاني. وما أحد ببالة الحرب. يوم من الأيام، وحنّا بخبرة سنيّة جانا بدوان وقالوا: التجار تسلّوا. ركضنا ندور اللي سلبوهم، لكن الله وقع بأيدينا جماعة غيرهم، كان بينهم واحد مطلوب. وما إن شافهم طويل العمر إلا وأصدر أوامره: ارموهم. كانوا سبعة. والله صفيناهم وكان أولنا فتر، وما إن قال السلطان ارموا حتى رمينا. ذبحناهم. دفناهم ومشيئاه.

يهز مهيب رأسه، وتبدو على وجهه ابتسامة حزينة، تغير نبرة الصوت، وهو يتابع: «قال طويل العمر: هذي ما هي بشي، يلزمتا نخليه يحارب بأسنانه، ولا بد يحس بالخطر. بعد ثلاثة أيام، أو أربعة، بالليل، آخر الليل، قلنا لعشرين من جماعتنا تروحون للمكان الفلاني، ومن هناك ترمون حوالينا، ما هو علينا. عطيناهم فشك يكفي أمة الثقلين، وقلنا لهم ترمون، بس لفوق، فوق روسنا، وتتحدرون زين. وحنّا نقابلهم ونرمي، وقلنا ساعة زمان وتغيبون. وهذا اللي صار. بس الحذر ما يرد القدر. حنا ماث، وكل واحد بيده سلاحه، وما قلنا لجماعتنا وين يرمون، خوف ما تنكشف سالفتنا، حتى لو انذبح كم واحد من اللي يقابلونا، لكن، ومثل ما يقولون: بآخر الليل تجي الدواهي. الفشك حيّد عنا كلنا، وفشكة ميتة، نازلة من السماء، أصابت فتر. إصابته بيده عند الكتف. خاف طويل العمر، لكن لما شاف الجرح قال وهو يضحك: هذي لك شهادة يا وليدي، ولا تخف. مات من الجماعة قبلنا سبعة أو ثمانية، ومنا ثلاثة مجاريح وواحد انقتل، وما عرفنا وين جته الفشكة.

قال السلطان لعمه دحيم في الشتاء اللاحق، وكان معه في رحلة قنص،

ومعهما عدد من أبناء جلالته:

- وبعد ذيك الليلة، يا عم، صار قلبه مثل الصوان.

وضحك السلطان وهو يتابع فتر، وكان يهيه طيوره للقصص:

- لما ذبحنا البدوان خاف. ناظرته وشفته. قلت لروحي: أخطينا، لكن

تعرف، يا عم، هذا الدرب ما منه ردة. قلت: نتوكل على الله، ومشيينا.

وبعد كم يوم حضر الجماعة اللي قلنا لهم عليه، وهالمرّة شفته: لا والله:

تنشط، وصار براس الجماعة، ويأذني سمعته يصيح: هبت هبوب الجنة

وين أنت يا باغيها.

قال دحيم وهو ينسجم:

- الصعبة هي النوبة الأولى، يا أبو منصور، بهذي الشغلة وبكل شغلة، فإذا

مرت كل اللي بعدها أخف منها.

قال الذين استيقظوا على أصوات البكاء والنحيب في قصر الروض، «انه

قبل أن يصبح الصباح، والناس نيام بسابع نوم، وإلا ذاك الصوت اللي يفزع

اللي ما يفزع. وكل واحد بين مصدق ومكذب، وكل واحد يسأل روحه: ها

احترقنا؟ مات أحد؟ دهمنّا النيل، والا منام من المنامات؟ لكن بعد الصوت

الأول صوت ثاني، وهذي المرة قريب. ركض الناس هنا هنا الى أن وصلوا

الى جناح الأمير فتر: ها يا جماعة الخير، علمونا شنهو اللي صار واللي

جرى، قطعة تناظر الناس وتشوير وتصيح، وموضي، من داخل، تصيح وما

تستريح. علمونا يا جماعة الخير ويش هي البلية؟ ولا أحد يتكلم أو يجيب.

دخلن النساء على موضي، لقنها بين الحياة والموت، يدها على

كتفها وتصيح: تعوّر فتر، انذبح فتر. قالن لها: وكلي الله يا بنت الحلال، فتر

مع السلطان، فتر ما أحد يصله، فتر بالقنص وما هو بالحرب. وأبد: تعوّر فتر

انذبح فتر. والى الصباح ما استراحت ولا خلت أحد يستريح. وقبل ما تطلع

الشمس طرش ابن السرهود أكثر من طارش، وقال لكل واحد منهم: بوجهك

تصل طويل العمر تأخذ العلوم وترد. وما هديت الا بالويلاه. تعبت وارتمت،

لكن ما رفعت يدها عن كتفها ودمعتها ثلاثة أيام ما نشفت. في اليوم الثالث،

وبرجعة الطارش، وبعد ما حلف الف يمين ويمين، والشيخة هي اللي حلفته، قال ان جرح فتر مثل الدوحاس، أو مثل لطة الجمر، وما عليه خلاف، يمشي ويسولف. وقال الطارش، وهو يقسم من جديد، أن السلطان حرق له عصابة وداواه بنفسه، وانتهى كل شيء على خير.

خلال الأسبوع الأول مرضت موزي. لم تقرب الطعام، رغم إلحاح الكبار والصغار، فيما عدا بعض السوائل، ارغمت على شربها، فقد رفضت كل شيء، حتى أن الكثيرين خافوا عليها أكثر مما خافوا على فتر، خاصة بعد أن انفردوا بالطارش الأول، ثم بالذي يليه، وتأكدوا من المعلومات، وعرفوا أن جرح فتر بسيط، وأنه عوفي تماماً.

في الأسبوع الثاني وافقت موزي على تناول وجبات خفيفة، لكن الحزن والبكاء لم يفارقاها، وظلت مرابطة في غرفتها، وكانت قطعة تطمئن الزوار، وتؤكد لهم أن سيدتها تماثل للشفاء، وترجوهم ألا يثقلوا عليها لأنها بحاجة الى الراحة والنوم والدواء كما قالت الحكمة الانكليزية والزوار بين رغبتهم في أن يتأكدوا من تحسن صحة موزي، وبين أن يتفرسوا في وجهها وفي عينيها ليكتشفوا هذه القوة الخارقة التي جعلتها تحبس، بل وتتأكد أن فتر أصيب.

في الأسبوع الثالث استعادت موزي صحتها. غادرت غرفتها عدة مرات الى الشرفة، وإلى لقاء عدد محدود من الزوار، لكن القلق لم يزايلها، وظهر الشحوب على وجهها واضحاً، وكان يدعو الى الحزن والشفقة. وظلت كذلك الى أن عاد السلطان.

لما عاد فتر الى موران، الى قصر الروض، ثم الى الجناح الذي يسكنه مع موزي، ورأى وسمع ما حصل لأخته، وموزي تتابع كل حركة وكل كلمة تصدر عنه، ثم لما استفسرت كيف أصيب، وفي أي مكان، وفي أي وقت، وكانت تهز رأسها دلالة المعرفة والتأكد، فإن الدهشة التي ارتسمت على الوجوه، والنظرات التي تبادلها الذين يسمعون، جعلت الجميع يتساءلون ويحارون فيما حصل. وفتر لم يكن أقل منهم دهشة وحيرة وتساؤلاً.

تهاني التي لازمت موزي خلال فترة مرضها، لم تكن خائفة أو قلقة، بل

وأكدت أنها في صغرها كانت مثل موسى ، وصدف أن توقعت أموراً بعينها، وقد وقعت! أما بعد أن تقدم بها العمر، فقد «تشوش فكرها» كما تقول بحزن «ولم أعد أعرف الجمعة من الخميس». ومع ذلك طمأننت كل من سألها عن موسى؛ كما أرغمت موسى على تناول بعض السوائل التي أعدتها لها بنفسها، وهذا ما ساعد وعجل بالشفاء!

أما الجدة التي جاءت الى موران خلال هذه الفترة لزيارة «جبات القلب: فئر وموسي وعمير» خاصة وأن أخبار عمير انقطعت تماماً عن عين فضة، فلم تكن تعرف شيئاً مما حصل، وحين وصلت القصر، وأبلغت أولاً بسفر فئر، ثم بمرض موسى، فقد قالت لقطمة، التي حاولت أن تطمئننها وأن تبسط الأمور:

- لو ما جيت لكان أخير وأسلم، وهالحين أحمل يا قلب إن كان بك تحمل.

وبعد قليل، وبعد أن الفت نظرة على موسى التي كانت نائمة.

- فال الشيطان ولا فالك، يا مقرودة، على هذي الأخبار.

هزت رأسها بحقد وتساءلت:

- ومتى يرجعون؟

- علمي علمك، يا محروسة السلامة.

- الله لا يسلم بك عظم، وهالحين نداري من ولا من، نلتفت هنا ولا هنا؟ وتابعت تخاطب نفسها:

- بعد عين فضة راحت أيام السرور، وهالحين نشوف أولادنا يموتون وينذبحون وما نقدر نسوي شي.

خفضت صوتها وبحقد:

- الله يجازي الظلام واللي ما بي بقلوبهم رحمة.

ويتحسن صحة موسى، ثم بعودة فئر، استعادت الجدة صحتها وقوتها، مع أن الكثيرين توقعوا لها موتاً سريعاً! أما عمير الذي بقي أياماً في موران، بعد سفر السلطان، فقد غادر فجأة، ولم يذكر لأحد وجهته، أو المدة التي

سيفيها، ولا يعرف ما إذا كان سيعود إلى موران أم يذهب إلى عين فضة. هذه النبوءة التي شغلت الكثيرين في قصر الروض، ونقلت بأشكال لا حصر لها، إذ ذكرت النسوة أن الموضع الذي كانت موضي تشد عليه، عند الكتف، لم يكن مماثلاً للموضع الذي أصيب فيه فتر فقط، وإنما أكدت ثلاث أو أربع منهن، واكتفت الأخباريات بالصمت، أن بالموضع علامة زرقاء تشبه الجرح المندمل. وزادت لولوة على ذلك، ونقلت الأمر إلى سيدتها، أنها رأت بعينها، في الأيام الأولى، دماً يسيل من الكتف!

كان يمكن لهذه النبوءة أن نظل حديث الكثيرين، إلا أن الأحداث اللاحقة التي مرت على قصر الروض جعلتها تراجع ثم تنسى، أو بالأحرى لا تعاد إلا إذا جاء بما يذكر بها!

فأثناء عودة السلطان إلى موران، وفي العجيرة، حيث راق للسلطان أن يتوقف للراحة، ولكي يتيح لعبيده محاصرة منطقة مشهورة بوفرة الغزلان فيها، أثناء هذه الاستراحة، وصل فجأة، وعلى غير توقع أو انتظار: صاحب، أو هاملتون.

وصل هاملتون، والذي أطلق عليه السلطان اسم صاحب، وقيل إن هاملتون اقترح الاسم ووافق عليه السلطان، كان عائداً من رحلة، وبرفقته عدد من عبيد السلطان وحرسه، بعد أن قام بتحديد المواقع المناسبة لحفر مجموعة من آبار المياه، وأعد خارطة لحدود المنطقة الشمالية. وذكر الذين رافقوه أن صاحب قضى وقتاً طويلاً في نبش تلة الذيب، القرية من المخيم الذي أقامه، واستخرج منها أصناماً، وأشاروا إلى ثلاثة جمال كانت تحمل هذه الأصنام.

كان اللقاء ودياً إلى أقصى حد، وتخللته احتفالات كبيرة أعدت على عجل. فالسلطان الذي لم يتوقع اللقاء بالصاحب، في هذا المكان، أو في هذا الوقت، فوجيء تماماً. ولكي يعبر عن المودة والقوة، فقد أوعز إلى عدد من رجاله «أن لا يتركوا فناً، وأن لا يتركوا مرحلة إلا ويلزم صاحب يشوفها» ولذلك جرت سباقات الخيل، والنيشان، ومطاردة الغزلان، إضافة إلى الغناء

والعروضات، وصدف أن كان الطقس مؤثياً، لذلك اعدت الاحتفالات جميعها في الهواء الطلق، في النهار، وليس عند الفجر أو الغروب، مما أضفى عليها طابعاً مشرقاً، الأمر الذي ولد مزيداً من الفرح والمتعة، ولم يخف صاحب انفعاله، إذ قال للسلطان، وكان حوله عدد محدود من رجاله: - اللقاء بجلالتكم، وفي مثل هذا المكان، يُنسى الانسان التعب، بل ويجعله يتمنى البقاء هنا الى الأبد.

استخف المديح السلطان، وكان تواقاً لأن يقنع صاحب، وأن يستميله لكي يبقى، رد وهو لا يخفي فرحه:

- حنا، إله يسلمك، نحتاج الى معونتك، ومعونة الخيرين أمثالك. وعسى أن الله يقدرنا على مجازاتكم.

وجرت أحداث أخرى كثيرة، لكن هاملتون الذي يلتقي بفنر لأول مرة، وبعد أن راقب باهتمام ودقة، وبعد أن سمع من معارفه وأصدقائه حول غزوة السلطان، راقه كثيراً أن يتحدث مع الأمير. ومثلما فعل قبل سنوات، حين وصل الى موران أول مرة، إذ قضى مع خزعل أياماً في القنص، وقيل انه تبارى وإياه في النيشان، فقد نظر طويلاً الى فنر، وراقب تصرفاته وحركاته، كما سأل الذين يعرفهم كيف جرح فنر وأين، لأنه لم يشأ أن يزعج الأمير بهذه الأسئلة، ولم يشأ أن يثقل على السلطان.

قال هاملتون للسلطان، في الليلة الأخيرة، قبل السفر، وكان القمر بدرأ، والريح الربيعية تهب منعشة:

- ... وهذا الشرق، يا طويل العمر، مهبط الوحي وموطن الرسالات، ولا يمكن لأحد أن يفهمه إذا لم يعيش فيه.

والسلطان الذي كان يهز رأسه مثل حردون، في ضوء القمر، رد بصوت عميق:

- الحق الي تقوله، يا صاحب، وأظنك قررت تعيش معنا، وتعاوناً.

- لقد فكرت طويلاً بهذا الأمر، يا صاحب الجلالة، وكنت أنوي، بعد أن

انتهت مهمتي بوضع الخرائط لحدود بلادكم الشمالية، أن استأذن جلالكم
وأسافر... .

وابتسم وهو ينظر الى عيني السلطان، وتابع:

- لكن رغبات جلالكم لا يمكن أن ترد، خاصة وأن لهذه الأرض سحراً لا
يقاوم!

بدا السلطان فرحاً مثل طفل، وتأكد في تلك اللحظة أنه حقق في هذه
الرحلة أهدافاً عديدة وهامة، وتذكر، وهو يمسد لحيته، الجهد الذي بذله مع
الصاحب لإقناعه بالبقاء. قال لنفسه: «رب صدقة خير من ميعاد».

هاملتون ليس واحداً، إنه الكثير في شخص، ومجموع الأشخاص في واحد، والكثير والواحد يجمع بينهم الجوار، ويقدر التفاهم الذي يوحدهم فان العداء كثيراً ما أدى الى الخصومة والافتراق. فهو محب لا يستطيع أن يخفي حبه، ومبغض الى درجة الحقد. هادئ اغلب الأحيان، لكن في لحظة يتحول الى حيوان ذئبي كاسر لا يشبع من الدماء ولا يمل النظر اليها. رغبة الاكتشاف والمعرفة لديه قوية ومستمرة. فإذا حاصرته الأسئلة امتلأ شعوراً بالحيرة واللاجدوى. مسيحي وزنديق، ولا يتردد في أن يجرب أدياناً أخرى أيضاً! مخلص للأباطورية وشديد الكره لها. المال بالنسبة له وسيلة تعامل، وقدرة على التأثير، كما أنه قوة مستقلة لذاتها. يتمنى أن يكون ملكاً لا يمل الناس من النظر اليه، وأن يكون انساناً مجهولاً لا يعرفه أحد. يقول لنفسه في لحظات الصفاء: «كلما ازداد الانسان قوة ومعرفة كلما ازداد ضعفاً وضياًعاً وجهلاً».

يقول للذين يسألونه لماذا لا يتوقف عن الركض، ولماذا يتعب نفسه هكذا:
- قيمة الانسان بالمعرفة وبخدمة الآخرين. وعلى الفرد ألا يتوقف لحظة واحدة عن التعلم وعن مساعدة الناس، لأنهما المصدر الأساسي للمتعة، والمبرر الوحيد لاستمرار الانسان على الأرض.

حين يكون على ظهر ناقته، تحت وهج الشمس الحارقة، والصحراء تنطوي تحته كما تنطوي صفحات كتاب، يشعر أنه الوحيد القادر على القيام بهذا العمل، وأن قوة خارقة انتدبته له. فإذا وصل الى المكان الذي يقصده

أحس بالضالة وبالظلمة الكثيفة، ولا يعرف لماذا كان على هذا القدر من الغباء لكي يجيء الى موران، ويمارس مثل هذا العبث الأخرق.

يعتبر نفسه من كبار الحمقى، لأنه جاء الى هذه الصحراء الملعونة، وفي اللحظة التالية يتصور نفسه نبياً لموران ولما حولها، لأنه يشير بدين الغرب، ويريد لهذا الدين أن يعم ويسود، ولا يمكن لأحد غيره أن يفعل وأن يصل. في الليل يمتلىء قناعة أن قومه أرسلوه الى هنا لكي يتخلصوا منه. وفي النهار يتأكد أن القوة الخارقة التي انتدبته للمجيء الى هنا، هي ذاتها التي تملي عليه أن ينقل، ليس للأمبراطورية وحدها، وإنما للغرب كله، الأديان القديمة، والتي بدونها لا يمكنهم أن يملكوا أي دين. العرب، بالنسبة له، شاهد حي على أصل الانسان القديم، ومثل لإمكانية استمرار الانسان بحالته الاولى. أما قومه فإنهم مجموعة من المخلوقات الحديثة الصنع ليس لها مستقبل الا بقدر ما تستطيع أن تمتد جذورها الى الماضي. وبين العرب، ومعهم وحدهم فقط، رغم كونهم خبيثاء ومكروهين، يمكن أن يكون هناك دين جديد: الدين القديم بأيدٍ جديدة.

كيف خلق هاملتون هكذا، أو لماذا هو هكذا؟ لا يستطيع أن يجيب إجابة مرضيه، رغم أنه فكّر بهذا طويلاً. يعزو الأمر، في لحظات معينة، الى الطبيعة. فأن يولد في إحدى مستعمرات الامبراطورية، وأن يتعرف على شمس الشرق ورواحه، وأن يرى تلك الوجوه الداكنة أو السمراء تطوقه من كل جانب، يجعل بريطانيا بنظره، والقارة كلها، ثم بعد ذلك العالم الجديد، شيئاً مصطنعاً أقرب الى العاب الأطفال.

لا يطيق أن يكون مجرد موظف في جهاز ليس له مهمة سوى تطبيق القوانين وجباية الأموال والضرائب. كما لا يتصور نفسه مجرد جندي، ليس له سوى الرقم والسلسلة، ويحارب من أجل قضية لا يدركها.

أنه يمتلىء حينئذٍ إلى النور والظلمة يتداخلان ويتصارعان ويتصادمان لكي يولد منهما ويتكون شيء أكثر صلابة وقوة، وانسان أكثر ذكاء ونبالة، وجنونا ايضاً. أما المدرسة التي انتزعت من أقصى الشرق، لكي يصبح في لندن طالباً

مجدداً بنظر أولئك المدرسين الذين يضعون نظاراتهم على أطراف أنوفهم، ويحشون الذاكرة بكل ما هو جدير بالنسيان، فقد زادت رغبة أن يكتشف ثقافة بدون مدرسين ولا بلبس النظارات، وخارج أسوار الجامعة، ثقافة تكونها الحواس، وتكون أكثر عمقاً وأقل تهذيباً.

قال لأبيه، حين قرر اختيار اللغات الشرقية:

- لا يمكن معرفة الغرب دون معرفة الشرق، ولا يمكن معرفة اللغات الحديثة دون معرفة اللغات القديمة.

وأبوه الذي لا يزال يحن الى الشرق، ويتمنى من أعماقه أن يكون ابنه امتداداً له، ليس بحاجة الى هذه المبررات للاقتناع. قال له، ولا يزال هاملتون يتذكر ذلك بوضوح:

- خلق الشرق ليكون ملعباً لخيولنا وفرساننا!

يقول هاملتون: قال أبي الكلمة الأخيرة بطريقة لذيذة، حملت معها كل ارث الأجداد. وكنت فخوراً، لأنني من خلال اللغات التي اخترتها، اخترت الشرق. وعرفت أنني خلقت لمهمة عظيمة، ولا بد أن أؤديها بنجاح.

«والشرق»، كما أصبح يردد «ليس مكاناً جغرافياً فقط، أو مجرد ديانات وطقوس، إنه كتلة من العناصر مزجت بطريقة فذة، وربما تدخلت، أو غلبت فيها الصدفة، لكي يكون عصباً على الفهم الأول أو السهل؛ الشرق بدء الحياة، وربما نهايتها، إذ بمقدار الفرح الذي يفيض أيام الخصب، فإنه مستودع لجميع عذابات الانسان وهمومه واحزانه، لأنه ذاكرة البشرية، وهو بؤرة تناقضات الحياة أيضاً. والشرق بقدر ما يبدو هادئاً راضياً يحمل في أعماقه قوة البراكين وجنونها. طفولة البشرية وشيخوختها بتأخ يذكر بالجد الذي يمسك بيده الحفيد يريد أن يطلعه ويعلمه سر الحياة».

هكذا يقول لنفسه في لحظات معينة. لكنه ليس متأكداً، «لأن اللغة المعاصرة» كما يقول بحيرة «تبدو ليثة، رخوة، وبالتالي عاجزة عن إعطاء الفكرة دقتها وشمولها، ومع ذلك، تبقى هذه اللغة وحدها الوسيلة الوحيدة، أو

ربما الممكنة، لوضع الأشياء في سياق من أجل أن تُحدّد لكي تُفهم. ومع ذلك يجب أن نظل في حالة من الانتباه الشديد، لئلا نقع في المصائد التي تنصبها لنا عقولنا الضعيفة، والتي تعودت على الرخاوة والكسل، وأصبحت تميل إلى السهولة والبساطة، لكي تتجنب المعتم والخشن والقاسي. ذلك هو الامتحان الأصعب الذي واجهه الإنسان في هذه الحياة، وقلّما استطاع اجتيازه إلا الأقوياء المنذرون لإعادة صناعة التاريخ، ولا بد أن يدفعوا ثمناً، وثنماً كبيراً، من أجل أداء هذه المهمة، وربما عدم الوصول أيضاً!.

لا يتوقف هاملتون عند هذا الحد من المقارنة، يقول لنفسه: «إذا ولد الإنسان في الشرق فإنه يولد للحياة، أي للتجربة والموت. في الغرب يولد ولديه الحنين دوماً إلى النسيان، ولذلك يلجأ إلى الغضب لكي يمتلك قوة إضافية تساعد على التذكر أو أن ينتهي. فإذا هدا الغضب أو نام فلا بد أن يلجأ إلى الطبول والمظاهر لكي يخلق في دماغه فرحاً، لكن في مواجهة نسيان جديد.

«في الشرق لا يكابرون. يعتبرون أنفسهم شيئاً من الطبيعة، امتداداً لها، أو شكلاً آخر من أشكالها، ولذلك ينظرون إلى الحياة والموت نظرة تختلف عن نظرة الغربيين. يعتبرون الموت الوجه الآخر للحياة. ومثلما لا يستطيع الإنسان أن يرد المطر أو أن يحجب الشمس، فإنهم غير مبالغين، أو لا يتصورون أنهم بحاجة إلى مقاومة الطبيعة أو تحديها. إنهم ينسجمون معها، وأول خطوة هي في أن يفهموها، ثم بعد ذلك، أن يتألفوا معها، حتى تصبح جزءاً منهم ويصبحوا جزءاً منها. وأكبر خطيئة يرتكبها غير الشرقيين، وبرعونة، هي تلك المحاولات البلهاء من أجل مقاومة الطبيعة، لا من أجل فهمها والتكيف معها. الشرقيون، ولا أقصد الذين يعيشون الآن فقط، أكثر واقعية وأبعد فكراً وإحساساً، لأنهم ينظرون إليها بإكبار، يتعاملون معها بمحبة، وحتى إذا أرادوا رشوتها، فإنهم يفعلون ذلك بكثير من الخضوع والتوسل، تماماً كما يفعل الطفل مع أمه حين تغضب عليه، إذ رغم فارق السن، واختلاف النظرة، فإن قدراً كبيراً من الفهم والحنان يقوم بين الطرفين من خلال طريقة التعامل، وهذا نتيجة الاحساس العميق بالامتداد والتواصل بين الطرفين».

لا يقول هاملتون ذلك بصوت عالٍ، أو أمام الآخرين، لأنه ليس متأكدًا من سلامة أو قوة الأفكار التي تدور في رأسه وتعبير خياله. إنها تراوده بمكر، وتجاوزبه بغموض، خاصة وهو يقطع تلك المسافات على راحلته، أو حين يتمدد على الرمل، ويتطلع إلى السماء، والنجوم تتدلى منها كالفوانيس: لامعة، قريبة، ودافئة أيضاً.

لكن فجأة تنطوي صفحة الحلم لتبدأ أخرى ليس لها علاقة بما قبلها. فحين وافق، وبصعوبة، أو هكذا تظاهر، على البقاء في موران، إلى جانب السلطان، فقد نحى جانباً تلك الأسئلة الحارقة التي تقلقه، وأصبح متأكدًا أنه بعمله الجديد لا ينصب ملكاً وإنما يقيم مملكة من طراز جديد، لأن هذا الشرق الذي يتعبه ويستهو به في آن واحد، يعج بالملوك الصغار، ولا يعني له كثيراً أن يستبدل ملكاً بآخر. ما يريده شيء مختلف، وقد عثر على بداياته، أو توهم، في خريط، ثم في فتر من بعده.

مرت في ذهنه صور من التاريخ، وأخرى من الواقع، ولم يتأخر، لكي يبدأ. قال في نفسه: «الملوك الذين تقدموا بالسن يحتاجون إلى من يقول لهم كيف يجب أن يعملوا، ليواصلوا الحكم، أما الصغار فيجب أن يقول لهم: ماذا يجب أن يعملوا».

أصبح لخريط مثل ظله، لا يفارقه ولا يفترق عنه، إلا حين يبلغ البوابة الصغيرة، في ذلك السور الطيني، المؤدي إلى جناح الحريم. وخريط لا يصدق أن صاحب وافق على البقاء، ووافق أن يكون قريباً منه هكذا. في رحلاته السابقة، ومع الآخرين، كان يقضي أياماً ثم يغادر. وخريط يعرف أنه غادره إلى منافسيه، وبعض الأحيان إلى خصومه، لكنه لا يقوى على السؤال أو الكلام. الآن يضع هاملتون بين يدي السلطان كل وقته وذكائه وعلاقاته، بل أكثر من ذلك يتبدى له وحده الصديق الذي يمكن اتئمانه والاستعانة به على كل شيء، وفي كل وقت.

ولأن هاملتون قرأ كثيراً عن الصحراء وبشر الصحراء، يريد الآن أن يصنع شيئاً عجز عنه الآخرون، ولذلك فإن من جملة ما فعله أن قطع الصحراء

العاتية المجهولة من الشرق الى الغرب، ويخطط لقطعها من الشمال الى الجنوب، وكان فخوراً أنه فعل ذلك. قضى شهوراً طويلة في مضارب البدو يسمع منهم، ويأكل معهم، ولم يتردد أيضاً في أن يرتدي ملابسهم.

بدأت له الملابس العربية، حين ارتداها أول الأمر، مثل الخرق البالية، ثم اكتشف أنها وحدها التي تلائم وتلائم الصحراء. وتذكر، بحزن، زميلاً سبقه الى موران، وكيف ظل مكروهاً ويخشى منه لأنه رفض أن يتخلى عن ملابسه، ثم كيف قتل هذا الزميل في معركة حربية خاضها بعصبية، فقط ليثبت لهؤلاء البدو أنه شجاع.

لقد بلغ الأمر بهاملتون أن ادمن الملابس العربية، فلا يستطيع التخلي عنها. أما حين يضطر الى ارتداء زيه القديم، لكي يمتطي الطائرة ويسافر، فكان يشعر أنه يتنكر. كان يتطلع الى نفسه في المرآة ويبتسم ثم يقهقه، ويفعل الشيء عينه أصدقاؤه حين ينظرون اليه بالملابس الافرنجية.. ويتبسمون!

والصحراء كالمرآة، بمقدار ما تبدو هادئة، بسيطة، لينة وجميلة، فإنها بحاجة الى الفهم والتعاطف، لأن لها وجوهاً لا حصر لها. حين تغضب أو تجن تبدو وكأن ليس لها علاقة بما كانته من قبل. وهي في الليل غيرها في النهار. وفي الشتاء تختلف عن الصيف، وعن باقي الفصول. إنها أكثر من ذلك، إنها هي ذاتها ولا تشبه نفسها أبداً. تتغير كل لحظة، تتكون في كل لحظة، عالم في مرحلة التكوين المستمر.

هكذا كان يردد هاملتون لنفسه، لكي يبقى باستمرار شديد التنبه والحذر، ولئلا يطمئن الى قناعات خادعة ونهائية. صحيح أن الصور والمفاهيم التي ملأت رأسه من قبل اهتزت وتغيرت، بل وأخذ يسخر منها، ويعتبرها تصورات وأوهاماً اخترعها عدد من الأفاقين الأدعياء، وهم من الرخاوة التي كانت تسيطر على أجسادهم وعقولهم بحيث لم يستطيعوا التقدم الى الأمام، أو أن يقدموا أنفسهم بجدارة الى الصحراء الحقيقية، فاكتفوا بتلوين ملاحظات، أقرب ما تكون الى الأكاذيب، أملتها عليهم خيالاتهم المدوّمة والمليئة بالأفيون، أو

طرائف التقطوها من أزقة المدن القديمة، ومن أفواه المخشئين والخصيان، ومن أفواه البغايا، خاصة في مباغي المدن الساحلية، حيث قضوا معظم وقتهم وهم يكتشفون الصحراء!

ويشر الصحراء هم النبات الحقيقي لهذه البيئة، وأحد مظاهرها وتجلياتها، إذ رغم البساطة والانكشاف الكامل، فإنهم طبقات من الحراشف القاسية المتينة تراكم بعضها فوق بعض بحيث يصعب معرفتها من النظرة العابرة، أو إقامة صلة معها من خلال التملق. صحيح أنهم يشمعون، لكنهم، في الغالب، يفكرون فيما سمعوه، ويفهمونه بطريقتهم الخاصة. وهم كثيرون الشك، لا يتفنون بسهولة، أما حين يقطعون، فإنهم يفعلون ذلك بقسوة وحسم وإذا أعطوا فإنهم يعطون بسخاء. صحيح أنهم يعطون قليلاً أول الأمر، لكنهم إن فعلوا، فإنهم لا يتوقفون بعد ذلك عن العطاء.

الآن، وبعد أن جال موران من أقصاها الى أقصاها، وعرف الأماكن والبشر والأشياء، واختبر الذئاب المتنافسة، كتب الى رؤسائه ما يلي: «... وخريط يعتبر أصلح المتنافسين، لأنه يعترف بالجميل الذي اسديناه له، وأكثرهم ذكاء واستعداداً، ثم إن القوى التي تسانده، ويمكن أن يحركها، تشتعل بحماسة دينية منقطعة النظير، وهذه الميزة الأخيرة لا تتوافر لمنافسيه، وهي ذات تأثير كبير في موران إذا أحسن استخدامها والاستفادة منها». ولم يتأخر رؤساؤه في تأييد وجهة نظره.

في النهار، في المجلس، يريض هاملتون، كقط، غير بعيد عن السلطان. يستمع، يهز رأسه دلالة الفهم والموافقة، والسلطان يفيض بالأحاديث، لكي يقوي عزائم الرجال ويعبئهم لمعارك قادمة، ولكي يؤكد لهاملتون أنه يملك من القوة والقدرة ما يجعل كل شيء سهلاً، فقط يجب أن يقتنع «الصاحب والخوياه»، كما لا يمل السلطان من ترديده.

إذا تكلم هاملتون فإنه لا يتجاوز، في الغالب، سؤالاً أو تعليقاً. ورغم أن الكثيرين لا يتكلمون بحضرة السلطان، إلا إذا سئلوا، أو كان لديهم شيء هام

يقولونه، إلا أن صمتهم يختلف عن صمته. كانوا يعتبرون أنفسهم كتلة واحدة، وبالتالي فإن لسان أي منهم يعبر عنهم، ولذلك لا يضير أي واحد إذا تكلم هو أو تكلم غيره. أما هذا الغريب، الطارىء، فإن صمته يثير الارتياب أكثر من كلامه، ونظراته تجول في الوجوه فتترك في القلوب تساؤلاً مرأً: لماذا جاء وماذا يريد؟ لكن هذا التساؤل لا يتجاوز الصدور الى الألسنة، لأن ثقة السلطان تجعلهم يحارون ويصمتون.

في الليل، وكان السهر يمتد ويطول، فإن هاملتون شخص آخر: - ... وتعرفون، يا طويل العمر، ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية مضطرة لأن تأخذ بعين الاعتبار ظروف المنطقة وردود الفعل. ورغم أنها تؤيد جلالته تأييداً كاملاً، وهذا واضح من خلال المساعدة، ومن وجودي معكم أيضاً، لكن لا تستطيع أن تستفز الآخرين، أو أن تجعلهم في صف أعدائهم، ولذلك فهي توافق ضمناً، ودون إعلان، أن تتخذوا الاجراءات المناسبة لتصفية المنافسين، كل ما علينا أن نخرج الموضوع بصورة مقبولة ومقبولة.

لقد قال هاملتون هذا الكلام في وقت متأخر، وبعد أن تأكد من أمور عديدة، والسلطان الذي كان ينتظر هذه الموافقة لم يتأخر.

ومع كل خطوة لا بد أن يكون السلطان أكثر ادراكاً لما يقوله هاملتون:

- وإذا أمكن ضم هذه المنطقة سلماً، من خلال استمالة القبائل والشيوخ، أفضل من ضمها بالقوة وحرباً. وإذا استطعنا ان نفعل ذلك سرأً، أو دون ضجة، أفضل من أن نفعله علناً، أو من خلال إثارة الآخرين.

وشهراً بعد آخر، سنة بعد أخرى، لم يعودا طرفين. أصبحا توأماً سياسياً، جسداً برأسين. فإذا افترقا أواخر الليل، فإن ساعات الليل الأولى، ثم ساعات النهار كلها، تكفي لأن يتحدثا في كل شيء. كيف تفكر بريطانيا، وكيف يفكر أهل الصحراء. ماذا تريد بريطانيا، الآن وفي المستقبل، وماذا يريد السلطان. أما ما تبقى من الوقت فللحديث عن الخيل والتاريخ واسباب القبائل ومعارك الماضي، فإذا تعبنا من الكلام، فإن

المنتظرين، والذين لديهم الكثير ليقولوه لا حصر لهم، عديدون وجاهزون. وحين يتكلمون تبدو الدهشة على وجه هاملتون، ثم يملكه السرور، ويصبح شديد العجب: «هؤلاء البسطاء المنسيون، الذين لم يتعلموا، كيف يمتلكون هذا الذهن الخصب والذكاء النادر؟».

حين يفكر هاملتون بالأمر يعزو السبب الى التأمل وصعوبة الحياة، ثم الى ذلك التراث الخفي، الذي ينتقل من الآباء الى الأبناء، من الجدات الى الأحفاد. أما ملكة الحفظ التي تميزهم فإنها نتيجة البيئة والمناخ، لأنه دون حفظ الأماكن ومعرفة الأشياء فإن الانسان في هذه الصحراء القاسية معرض للهلاك والفناء.

ويهز هاملتون رأسه بإعجاب، وهو يضيف محدثاً نفسه: «والليل في الصحراء، بقمرة ونجومه، ثم انتظار المواسم والأمطار، وحتى القوافل، يجعلهم شديدي الاستعداد لأن يفتحوا عيونهم وآذانهم، وحتى أنوفهم، لكي يتلقفوا أي جديد، ويتعلموه بسرعة، لكن على طريقتهم الخاصة».

ويتذكر كيف أصبح نجم «يعرف» الانكليزية من خلال ملازمة ادورد هيرست، الذي جاء من بريطانيا لاقامة مراكز للتلفراف، إذ لم تمض بضعة شهور، إلا وأصبح نجم قادراً على التفاهم. صحيح ان انكليزيته متواضعة، وتدخلها الاشارات، لكنها تكفي، لأن هيرست، وبعد ثلاث سنين قضاهما في موران، لم يستطع أن يتعلم إلا عدداً من الكلمات العربية لاتتجاوز العشر. وكان ينطقها كالأطفال، وتثير الضحك، اكثر مما تساعد على أن يفهم!

أما حين استولى السلطان، بعد سنين، على الحويزة، فقد قال له هاملتون:

- قرأت في بعض الكتب، يا صاحب الجلالة، أن من يريد أن يضع يده على ممتلكات جديدة، ويود الاحتفاظ بها، أن يجعل نصب عينيه دائماً امرين في منتهى الأهمية: أولهما إبادة الأسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما عدم إحداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها.

والسلطان الذي هز رأسه، وكان منتشياً بنصره، كان يطبق، غريزياً، ما قاله هاملتون، دون أن يقرأ ذلك في كتاب، ودون أن يسمعه من أحد. وقد عرف هاملتون، في وقت متأخر، أن الأوامر التي اعطاها السلطان بالتخلص من حاكم الحويزة ومعظم افراد عائلته، قد أعطيت في وقت مبكر!

وفتر لا يكاد يترك مجلس أبيه. ويوماً بعد آخر أصبح موضع اهتمام هاملتون ورعايته. والسلطان الذي يرقب الأمور بعناية بدا مسروراً من هذه العلاقة، لكن حين تذكر عمير، قال في نفسه: «يجي يوم ونصفي حسابنا ويشوف».

«... تربية مخلوق بشري، خاصة إذا كان قد تكوّن ونما، أصعب من ترويض وحش غير قابل للترويض» هكذا قال هاملتون، عندما طلب منه السلطان أن يعتني بفنر، وأن يبعده عن عمير، وأن يبعد أفكار عمير عنه.

وقال هاملتون: «مهما كانت الخبرة أو القراءة، فإن إنساناً لا يشبه الآخر، يضاف الى ذلك مدى استعداد الطرف الآخر ورغبته» أما حين فكر بملازمة فنر، وأن يكون قريباً منه، فقال لنفسه: «لا يمكن ملاحظة التغير الذي قد يطرأ إذا كان قريباً جداً، فالمسافة القريبة تجعل الرؤية ملتبسة، لا تميز بين الأمس واليوم».

أما وهو يحاول التفكير باحسن الوسائل التي يمكن أن يعتمد بها، فقد قال وهو يضحك: «إذا كانت التربية تعتمد على الكتب والمعرفة النظرية، فإن احتمالات الفشل أكثر من احتمالات النجاح ! خاصة إذا بدأنا الكتب من الصفحة الأولى!».

هكذا بدت اللعبة محيرة لهاملتون. وهكذا استمرت خلال فترة غير قصيرة من علاقته بفنر. فهذا الصبي ليس عادياً، بأي مقياس. كما أن التأهيل الذي يحتاج اليه يجب أن لا يكون عادياً، لأنه مشروع ملك أو سلطان. وإذا كانت تربية الملوك أو أولادهم عملية متعبة ومملة، حتى في البلاطات العريقة، والتي تنوء بالتقاليد الصارمة، فإن تربية الملوك في الصحراء المكشوفة، والمعرضة للرياح من الجهات الأربع، تصبح مغامرة محفوفة بمخاطر لا نهاية لها. فإذا أضيف إليها أن ذلك الصبي مملوء بالحذر الأقرب الى الخوف

والتوجس، كأي بدوي مسن يقابل عالماً جديداً وغريباً، مع هذا الكم الهائل من الابتهالات والبخور والسحر، وتلك الرؤى التي تتخفى بأشكال لا حصر لها، نتيجة الوحدة والتأمل والحزن، وأخيراً المرض، وما يخلفه من مشاعر الألم والكراهية، فإن هاملتون يراهن على قضية خاسرة بكل تأكيد، وهو بموافقة على أن يقوم بهذه المهمة، وكأنه يريد معاقبة نفسه، ربما كتكفير عن شيء دفين، لكنه لا يريد أن يعترف بالخسارة في وقت مبكر.

خلال فترة طويلة، وبأساليب لا حصر لها، حاول مع فنر، لكي يحمله على الكلام، كما يوصي علماء النفس: كيف كانت حياته في عين فضة. ماذا يحب وماذا يكره. هل يحب أباه أم يكرهه. وعشرات الأسئلة التي كان يلقيها، وتبدو بريئة، وكان اللحظة أملتها، فكان يتلقى الصمت جواباً، أو ابتسامة صبي مكر، وفي حالات قليلة كلمات محدودة تزيد حيرته وارتباكته. ولم يعترف هاملتون بالهزيمة ولم يسلم.

أما أن يفصله عن خاله عمير، كما اتفق مع أبيه، فقد حقق خطوة قد تقربه من النجاح. فالسلطان الذي أرسل لعمير من يبلغه أن بقاءه في موران ليس ضرورياً، والأفضل لمصلحته أن يسافر إلى عين فضة، فقد قابل عمير هذا الطلب، أول الأمر، بعدم الفهم، ثم بعد ذلك بالنسيان. ولما توالى رسائل السلطان، وكانت أكثر وضوحاً، هز عمير رأسه بالموافقة، وقال لطالع العريفان، وكان آخر رسل السلطان إليه:

- أمر طويل العمر على العين والراس يا طالع، بس الولد ما يترك للكمفار والخصيان.

طالع نقل للسلطان، حين سأله متى يسافر عمير، إجابة مختلفة، قال له وعينه إلى الأرض:

- قال، يا طويل العمر: أمر جلالة على العين والراس، بس لو أحد يدير باله على فنر.

وبعد قليل، وهو ينظر إلى السلطان:

- وظني، يا طويل العمر، أن عمير آخذ على خاطره.
- الولد ما يربى بالدعا ويرفع اليد للسما يا طالع. الولد يلزمه يعرف الدنيا ويعرف الناس. يلزمه يحارب بيده وأسنانه، وفتر ابن سلطان، ما هو ابن شيخ مسجد.
- ولم تتأخر جدته في المجيء الى موران. وبدا انها جاءت لتبقى، وكان يروق لفتر أن يقضي معها وقتاً طويلاً. وحين اضطرت، بعد عدة شهور، للعودة، لأن الجد مريض، جاءت بعد أسابيع خالته مزنة.
- وحتى عمير الذي غاب فترة طويلة، وكاد ينساه الكثيرون، فقد أصبح يتجر بالابل في هذه الفترة، وهذا يضطره لزيارة موران بين فترة وأخرى، كما يقول، وأن يقضي فيها شهوراً لمعرفة السوق!
- إذا غاب خاله وأقاربه لأمه، فموضي لا تغيب. والذي نسيت الجدة أو مزنة أن تقوله، أو أن تعيده على مسامع فتر، فإن موضي لا تنسى. تقول لها خالتها بمداعبة:
- ما أحد يصدق أنك تعرفين هذي السوالف كلها!
- واعرف غيرها وغيرها، يا خالة.
- هكذا كانت ترد موضي، وتعني أنها تحارب في أرض تعرفها، وأنها تواجه أعداء غير مموهين! قال هاملتون للسلطان ذات ليلة:
- الطريقة الأفضل، يا صاحب الجلالة، أن يسافر، لأنه إذا تغير المكان يتغير الانسان. وفتر في هذه السن بحاجة لأن يتعرف على البلدان الأخرى، وأن يرى العالم.
- أبدى السلطان تخوفه من الفكرة، واعتبر أن الأمر لم يصل الى هذا الحد من الضرورة، قال، وهو يهز رأسه:
- نسفّره هنا أو هنا، يا الصاحب. يروح للقنص، أو يسير على جماعة من جماعتنا، أو يروح يحارب.

- الأفضل أن يسافر الى بلدان أخرى، لتغيير نظرتهم ويكتشف العالم، لأن هذه الطريقة تغيره.

- ويسافر مع من؟

- أنا أسافر معه، يا طويل العمر.

- وتركنا؟

- لا بد أن نتشاور مع لندن في أمور كثيرة تهتم جلالتهكم، وأن نصل الى حلول مناسبة، وهذه لا تتم بالمراسلة، يا طويل العمر، يجب أن تبحث مباشرة، وأن نصل إلى قرارات.

وبعد قليل وهو يتسم:

- ومن الأفضل أن يكون الى جانبي ممثل عن جلالتهكم، وسيكون هذه المرة فنر.

قال السلطان بانفعال:

- فيك البركة يا الصاحب. أنت صرت واحد منا، وتمون، وتعرف كل المشاكل والهموم.

- فرصة لفنر لكي يتعلم ويرى.

وبعد تردد لم يطل وافق السلطان، خاصة وأن هناك مشاكل عديدة معلقة، وقد طال انتظار حسمها.

قال عمير عندما عرف بسفر فنر:

- كنا خائفين عليه من كافر، هالحين أخذوه لديار الكفر.

موضي مرضت لأن فنر سافر، لكن والدها السلطان قال لها بحزم أقرب الى التائب:

- ويلزمك تعرفين: فنر رجال، ما هو حريمة، وإذا راح اليوم يرجع ثاني يوم، وما أريد اسمع كلمة.

أما لفنر، وهو يودعه، فقد قال:

- وتسلم لي على ملك الانكريز، وتقول له: أبوي يسلم عليك كثير كثير السلام!

بعد سنوات طويلة قال هاملتون:

- تعمدت أن يكون السفر بالباخرة، لأنه يتيح لنا وقتاً طويلاً يمكن خلاله أن نتحدث، ويزول خوفه أو تحفظه، ونصبح بالتالي أصدقاء. كنت أريد لهذه النقلة الكبيرة أن لا تصدمه. فأن يتشربها على مهل، أن يتملى بها، تترك في قلبه وعقله أثراً لا يزول. فالتوقف في الموانئ، والتزول فيها، ثم ركوب القطار الى لندن، يجعله اقدر على تحمل جرعات الدواء المر. لكن ما كاد يركب البحر حتى مرض. التوى عنقه وبرزت عيناه. تصورت خلال مرحلة من السفر أن الصبي سيفارقنا. لمت نفسي كثيراً، وتشاءمت. فهؤلاء البدو الذين يظهرون مقداراً كبيراً من الطيبة والتسامح لا يتساهلون إزاء موت يعتبرونه غير طبيعي، وهم كثيرو الشك بكل ما تقولهم لهم، بل ويصابون بالجنون، ولا يستردون وعيهم مرة أخرى إلا برائحة الدم، ولا بد أن يثأروا. بذلت جهداً استثنائياً، وقضيت اسبوعاً في الاسكندرية، الى أن استعاد الأمير صحته. ولا أعرف كيف ركبني الشيطان مرة أخرى، قررت أن نواصل السفر بالبحر. ربما كانت هذه الحماقة ضرورية! فما كدنا نعبّر جزر بحر إيجه، ونتجه غرباً، حتى أصبح الأمير مثل قط اليف. هل هو الشعور بالغربة؟ اختلاف اللغة؟ الريح الشمالية التي تهب من أقصى بقاع الأرض، والتي تختلف عن رياح الصحراء؟ ان شيئاً ما قد حصل، فبعد ذلك الهرب، الأقرب الى النفور، وبعد المرض الغامض، والذي لم يجد له طبيب الباخرة، ولا أطباء الاسكندرية، سبباً، أصبح يقبل عليّ وفي عينيه ذلك الرجاء: ألا أتركه.

كنت أنتظر هذه اللحظة، وقد جاءت، ومنذ ذلك الوقت لم أتخل عنه!

فتر لا يحب أن يتحدث عن رحلته الأولى الى لندن، انها تجرحه، أو تسبب له ضيقاً، حتى بعد مرور السنين. إذ رغم كلمات هاملتون المشجعة، وابتهامات الذين زارهم، فقد ظل خائفاً. كانوا ينظرون اليه

بطريقة لم يرتح لها أبداً. وكانوا يتبادلون فيما بينهم النظرات والكلمات ويتسمون. وهو لا يعرف: هل يرد على ابتساماتهم بمثلها، أو يرد على الأسئلة، خاصة من النساء المسنات، والتي كانت تسبب له حرجاً لم يكن قادراً على اخفائه.

خاله عمير الذي خاف، أول الأمر، من تلك الزيارة، لم تعد له شيئاً يذكر، نظراً لما جاء بعدها. ففي فترة لاحقة أصبح يرد على الذين يسألونه في عين فضة عن فتر وأخباره، مع ابتسامة حزينة وهزة رأس:

- يا جماعة الخير: ابن الناس، أو غرض الناس، موكل عليه ابليس، وخربط من يوم ما حط يده بيد الكفار، وسلمهم اولاده وعياله، ترى ما عاد بالدنيا خير.

وحين يعاودون السؤال عن فتر يرد بتزق:

- وفتر، إذا الله سلمه، يرد لأخواله، لأن ثلثين الولد خاله، مثل ما يقولون، وظني أن فتر ما ينسى مية عين فضة، والرحمان اذا دخل قلب النبي آدم ما أحد يقدر يطلعه منه.

كان عمير يقول هذا الكلام، وبهذه الطريقة، لأن السلطان طلب منه، وبكلمات واضحة، وتخللها لحظة غضب، أن يترك فتر. قال له، بعد أن عاد فتر من زيارته، وجاء عمير هذه المرة للإقامة بموران من جديد:

- اسمع يا عمير، اسمع وتفطن زين، فتر أبنا، ويربى بشورنا وبمعرفتنا. إذا طلع زين يطلع لنا، وإذا طلع شين حنا مسؤولين. والرجال إذا عنده سالفه، ويريد يعلمها لغيره، يعلمها لأولاده.

وبعد قليل، وقد أصبح السلطان ضيق الصدر:

- ودوخة راس يا عمير ما نريد، عندنا منها واجد، وكل واحد يدور اللي يفيده.

تهاني لا تتذكر من سفرة فتر الى ديرة الكفر سوى شيء واحد: السبحة الزرقاء التي جلبها معه، ولا يعرف ما إذا كانت هدية لها أم للشيخة، فقد

قيل، في البداية، انها لامي زهوة، وقيل، بعد ذلك، ان الشيخة رفضت أن تمسك اليها يدها، لأنها غير طاهرة. أما تهاني فتؤكد أن فخر قدمها اليها في اليوم التالي لوصوله، وقال انها فيروز أصلي. أما للشيخة فقد جلب لها شالاً رمادي اللون ظلت تلبسه سنوات وسنوات. ولم تنس تهاني ابداً ذلك. أما حين فقدت السبحة، فقد شعرت بحزن شديد، وتفسر لولوة حزنها بسبب ما ذكر عن قيمة السبحة، وقيل انها عرضتها خلال فترة للبيع.

خزعل تأخر أياماً عن رؤية فخر بعد عودته. تعتمد أن يبقى يومين إضافيين في وادي الرها، القريب من موران، بحجة أن المصالحة بين اثنين من الشيوخ المتخاصمين لم تنته، رغم أن المصالحة، كما يؤكد العارفون، تمت قبل وصول فخر بيوم واحد. علق خزعل على الكلام الكثير الذي نقل اليه حول سفرة فخر، وما رآه من عجائب، وما اكتسبه من خبرات، بحركتين وكلمة. فالحركات كانت طرقعة متقنة بلسانه، والثانية هزة من يده الكبيرة، إذ دارت في الهواء لتعطي معنى عدم الأهمية، أما الكلمة الوحيدة التي قالها فكانت: - خرطي.

وموضي أيضاً لم تكن مهمة أن تعرف أية تفاصيل حول سفرة فخر، كانت تريد عودته، وها قد عاد. ظلت ترقبه غير مصدقة، ورغم محاولته أن يهرب من نظراتها، وشروعه في الحديث عن ركوبه البحر، ورؤيته أشياء كثيرة، لكن حين همت الدموع من عينيها، وكانت دموعاً هي خليط من الفرح والحزن، فقد احتضنها، ثم بدأ يسألها عن أخبارها وصحتها، وأخبار قصر الروض وعين فضة.

السلطان وحده لم يستطع أن يخفي فرحه وإعجابه. كانت لديه أسباب كثيرة لهذا الفرح، وكان إعجابه يزداد بالصاحب وفخر. أما حين تأكد من التفاصيل، وقد سأل هاملتون أولاً، ثم عرف كيف تم استقبال ابنه في البلاط الانكليزي، وحفلات التكريم التي أقيمت له في كل مكان زاره، ثم الهدايا التي حملت اليه، والاسئلة التي وجهت للثنين، وكلها تدور حول صحة جلالتة، والصدقة التي تكنها حكومة صاحب الجلالة البريطانية لسلطان موران، والآمال المتوقعة من خلال التعاون بين البلاطين، بعد أن تأكد من

ذلك، بدا شديد الفرح، واضح الانفعال. وفي الليلة ذاتها، وبعد أن ودعه هاملتون عند بوابة السور، طلب من فتر أن يرافقه، وأن يعيد على مسامحه تفاصيل الرحلة «من يوم ما تركتم موران، الى أن رجعتن، يوم بيومه». وفتر الذي أعاد ذكر ما سمعه من هاملتون، في تلك الليلة بالذات، لكن بطريقته الخاصة، ويمقدار ما فهم، أضاف تفاصيل أخرى حول الباخرة الكبيرة، وأمطار لندن، وعظمة القصور، وسفور النساء، وكان السلطان مسروراً بالغ السرور، ويردد كلمات بذاتها: «تعينا ما راح، والجماعة يصدقون» وبعد قليل: «أي نعم التعب ما راح، والجماعة يصدقون».

ولم يسترسل السلطان في الفرح، فقد كان عقله يعمل على الأرض: ماذا يجب عليه أن يفعل غداً، وكيف يتعامل مع الآخرين، ومن هم أصدقاء اليوم، ومن هم الأعداء. لقد جاءه هاملتون ببشائر كثيرة، وعليه أن يعرف كيف يصل إليها وكيف يحافظ عليها.

قال السلطان لمهيبوب:

- ... ويلزم تعرف، يا مهيبوب: ترى الخيل إذا طال قعادها تبغل!
وحين هز مهيبوب رأسه موافقاً ومتظراً، تابع:

- وهالحين راح نطلع حيفنا وحيفها. الضامرة، بنت الأصايل، ما ينخاف عليها، والمضربة، أما تشيلنا أو نتركها طعام للنسور. ويلزم تحضر نفسك وتخبر أهلك، لأن سفرتنا هذي المرة راح تطول، يا مهيبوب، وعسى أن الله يرجعنا غانمين.

قال طالع العريفان:

- يا ناهي، يا ابن الفرخان، طويل العمر تحزم وتلزم، وشدوا روسكم يا قرعان. هالحين بلشتنا مع الحريمات والعجيان.
وبعد قليل، وهو يضحك:

- وإذا سفرته طالت، يا مبارك، هنا الواحد منا اصقى، ما يسمع إلا اللي يريده، تسمعي زين يا ناهي؟

رد ناهي وهو يقهقه:

- شنهو اللي تقوله؟

وبعد قليل، وقد تغيرت نبرة الصوت:

- مهما طالت، يا أبو جازي، ترى الحريمات ما ينسن، وما يغفرن، فاحرص وتوق، وعسى يعود غانم، لأن إذا غنم ما يتذكر إلا غنمه، وإذا خسريبلش بأقرب الناس إليه.

وما كاد الشتاء يقترب من نهايته وتبدأ أولى بشائر الربيع، حتى بدأ السلطان واحدة من غزواته الكبيرة، وكان يؤمل منها الكثير.

كان مع السلطان، في تلك الغزوة، عمه دحيم وابناه: خزعل وفنر. أما الصاحب فقد تأخر أسبوعين في موران، لأشغال طارئة، على أن يلتحق بالحملة، بعد ذلك.

واضطربت موران من أقصاها الى أقصاها، ولم يبق أحد الا وشارك فيما يجري. النسوة تملكن الخوف، الخوف من الجوع ومن فقد الرجال، وقد عبرن عن ذلك بصوت عالٍ، لكن بمرور الأيام، وتزايد الإصرار على الحرب ثم اقترابها، فقد غرقن في الصمت. والصبية الذين اقتربوا من سن الشباب - وقد اضطروا أبائهم لابقائهم عند الأمهات والأخوات، لخوفهم عليهم، ولأنهم لم يكونوا واثقين من الوعود التي أعطيت لهم - شارك هؤلاء الصبية أكثر من غيرهم في تنظيف وتزييت البنادق الجديدة، واعداد مجاند الفشك، أما الأسلحة القديمة التي استبقيت في البيوت فقد اعدوا فكها وتركيبها مرات لا عد لها، ثم جربوها، وبرع عدد منهم بالتصويب. جرى كل ذلك دون أن يعرف الآباء، ودون أن تحس الأمهات، وبلغ الحماس بالكثيرين حداً جعلهم يطالبون أن يسمح لهم بالمشاركة في الحرب!

خدم القصر الذين يعرفون أكثر من غيرهم، وكانوا يرقبون ما يجري، قالوا بثقة: الشيخة فتحت خزانها وطلعت ذهبها، وقالت لخريبط: «هذا يومك يا أبو منصور... إذا تريد الذهب فهذا هو الذهب، وإذا تريد السلاح السلاح يجي بالذهب، ما عليك إلا أن تؤمر وتغرف، والناس تنتظر كلمتك، حتى تمشي تحت رايتك» والسلطان لم ينتظر: غرف من الأموال كل ما يستطيع حمله، واشترى من السلاح حمل ألف بعير!

بعض الذين يعرفون مزاج السلطان ورغباته، كانوا على ثقة أن للشيخة علاقة بالأمير، لكن لا يعرفون الى أي حد، فأن يصطحب وطفة معه في هذه الحملة، وأن تصبح وطفة أحب النساء اليه، فلا بد أن تكون الشيخة هي التي

فرضت ذلك، ومما ساعد على انتشار هذه الأخبار أن ثلاثة من خصيان القصر، وكانوا من خدام فضة، اكدوا أن سيدتهم كانت تستعد لمرافقة السلطان، وقد هيات كل شيء لتكون معه، إذ أمرت بحزم الخيام، وجهزت أنواعاً من الحنة والبخور، وأوصت على خمسين زوجاً من صغار الحمام، إضافة الى كل ما كان عندها في الأقفاص، كما جمعت ما استطاعت جمعه من العسل، وبدت في نظر زوارها وكأنها تستعد لولد جديد أو لسفر. ونقل عن الخصيان الثلاثة، وقد قالوا ذلك وهم لا يخفون ابتساماتهم، أن السيدة كانت تصحب زائراتها لكي تريهن الحمام، أكثر من رغبتها في أن تريهن ما عندها من الجواهر والملابس، كما كانت تفعل من قبل. وأكد واحد من هؤلاء أنه رآها أكثر من مرة تتوقف عند أقفاص الحمام وتضحك بصوت عالٍ، تماماً مثل أية فرس حائل. وكانت تبدو سعيدة الى أقصى حد!

لكن فجأة يتغير كل شيء، ويراقد ذلك مع الصمت، وكأن شيئاً مفاجئاً حدث، لأن السلطان بدا مختلفاً بسلوكه وملابسه وعلاقاته مع الناس، الابتسامات يوزعها أينما سار. الأموال تدفع بسخاء، الأسلحة الجديدة ومعها الذخيرة تعطى دون سؤال عن الأسلحة القديمة، أما الوعود فلا حدود لها ولا تتوقف! سوق الحلال امتلأ بالاشاعات وكلها تؤكد، أن أسعار الجمال سترتفع الى عشرة أمثالها.

وبالغ عدد من سماسرة السوق وقالوا انها سترتفع الى عشرين أو ثلاثين مثلاً. أما من يملك حصاناً ويريد بيعه فسوف يصبح غنياً بكل تأكيد.

وعشرات الأمور الأخرى حصلت أو تغيرت. فحملة وادي الغيظ مليئة بالأخبار المتناقضة، والتي تصل اغلب الأحيان الى حد التعارض الكامل، إذ رغم الأسلحة والاعداد، فقد قيل ان السلطان فكر بالغائها أو تأجيلها، لكن فجأة هُتت طبول الحرب وسار الجند الى الجبهة. وفي وقت لاحق قيل ان السلطان كاد يقتل، اذ اكتشف في الليلة السابقة لمعركة الحويزة مؤامرة لاغتياله، فتولى بنفسه اعدام خمسة من المتآمرين. وقيل ان الهزيمة كادت تقع في معركة القلعة، وهي واحدة من المعارك المهمة، وكان من الممكن ان

تقرر مصير الحرب، أو ربما مصير السلطنة، لولا وصول امدادات كبيرة من الأسلحة، ومن المقاتلين الأشداء. واكد الذين رأوا او عرفوا بوصول المقاتلين، أن هؤلاء تولوا، وحدهم، مشاغلة العدو، أول الأمر، ثم إلحاق الهزيمة به، الى ان استطاع السلطان ان يعيد تنظيم قواته. وقيل ان هذه القوات انسحبت بعد المعركة، دون أن يعرف الكثيرون من أين جاءت أو الى أين ذهبت.

عدد من الذين كانوا يعملون في النقل والتموين، رأوا الشيخة زهوة ضمن قافلة كبيرة، وصلت على عجل، وكان معها صاحب ايضاً، وقد اتجهت شمالاً، وخيمت على مسافة تبعد نصف يوم عن القوات الأساسية للسلطان. وأكد الذين رووا الأخبار أن القوة بوصولها قلبت الأمور وغيبت النتائج، وقد رجعت القوات بعد ثلاثة أسابيع، واتجهت غرباً، لكن لم يعرف ما اذا رجعت الشيخة مع القافلة أم لا. ولم يستطع أحد أن يحدد أو يؤكد دور الشيخة في هذه المعركة!

الأمير خزعل وقع في كمين، وقد أخذ أسيراً الى قلعة الرفيعة، وحجز هناك، وبدأت مفاوضات بين عويد المشعان والخاطفين استمرت ثلاثة أيام من أجل إطلاق سراح الأمير خزعل. السلطان، حين بلغه الأمر، ابدى تساهلاً كبيراً، طلب أن تستمر المفاوضات مع الخاطفين، وأن يطلقوا امداء، مع استعداد للاستجابة للمطالب، الى أن تمكن من الانقضاء عليهم وتحرير خزعل.

وحول هذا الأمر تضاربت الأخبار والروايات. كثيرون على قناعة أن هم السلطان كان الانتصار في المعركة اكثر من تحرير الأسرى، بمن فيهم خزعل. وغيرهم قالوا ان عدداً من جنود العدو تواطوا مع السلطان، وقيل مع خزعل، بعد أن اعطاهم مبلغاً من المال. وهذا مما سهّل احتلال القلعة وتحرير الأسرى. أما الذين لا يحبون خزعل، فقد كانوا على قناعة أن الحظ والحظ وحده، هو الذي لعب دوراً في انقاذه، لأن اوامر السلطان بهذا الخصوص كانت واضحة: «دمروا القلعة»، وحين سألوه عن الأسرى، ردد نفس العبارة: «دمروا القلعة».

فتر كان ضمن المجموعة التي يقودها العم دحيم، وكانت مهمة هذه المجموعة مشاغلة العدو، إضافة الى كونها الاحتياطي الرئيسي للقوات. طلب السلطان من هذه القوات أن تستعد انتظاراً لأوامر جديدة، إذ كان يريد أن يستعين بها عند الضرورة، من أجل الضربة القاضية والأخيرة، لكي لا يعزى لغيره تحقيق النصر!

لم يكتف السلطان باستنفار هذه القوات، فقد نقل قيادته الى مواقع متقدمة، وتولى بنفسه اصدار الأوامر، وقيل أنه طلب من ابن مشعان ان لا يرحم أحداً في طريقه من رجال العدو، وقد سمعه بعض رجاله وهو يخاطب ابن مشعان، إذ قال له بالحرف الواحد:

- اذبح وامش يا عويد، ما نريد أسرى.

وحين أوعز لقوات الاحتياط ان تتقدم، كلفها وحدها، وكان على رأسها عمه دحيم، ان تقبل مفاوضة سكان الحويزة، على أن يتم الاستسلام للسلطان ذاته. أما أثناء زحفه من الجهة الجنوبية تجاه الحويزة، فقد دفع عدداً من عيونه لكي ينشروا أخبار عويد وفظائعه، وانه لا يضمن سلامتهم إلا الاستسلام للسلطان. وقد قبل فعلاً استسلام حاميات عدة وبلدات وهجرات كانت في طريقه.

الصاحب الذي ظل طوال الفترة الماضية في الخطوط الخلفية، وقد تنقل عدة مرات بين السلطان وعمه دحيم، وقائد الجند ابن مشعان، حاملاً رسائل وأوامر وذخائر، رغب في هذه الفترة أن يشارك في المعركة، رغم الاتفاق السابق الذي جرى بينه وبين السلطان على البقاء في المؤخرة، وهذا ما جرى تأكيده حين انتقلت القيادة الى مواقع متقدمة. لم يكتف هاملتون بأن يرسل للسلطان من يعلمه برغبته في الانتقال، إذ انتقل فعلاً. ولما بلغ السلطان وصول الصاحب الى هذه النقطة المتقدمة، وكان في ذلك الوقت يحكم حصاره على بعض المواقع المؤدية الى الحويزة، استشاط غضباً، وبعث بمهيوّب ومجموعة من رجاله لمنع الصاحب من التقدم أكثر مما فعل، إذ كان يخشى من هجوم معاكس، ويريد من الصاحب أن يبقى قادراً على الحركة،

وأن يلعب دوراً يتجاوز دور الجندي غير الحاذق، والذي يمكن أن يقوم به،
ويكفأة أكبر، أي من جنود جلالته، كما أنه تذكر كيف قتل فولر قبل بضع
سنين، حين أصر على المشاركة شخصياً في معركة الرحية. كانت خسارة
فولر فادحة، وقد سببت للسلطان آنذاك المأ وحزناً، جعله لا يفارق خيمته
لبضعة أيام. لا يريد الآن أن يخسر الصاحب أيضاً، ولا يريد أن يلخص دوره
الى مجرد فرد يحمل بندقية.

هاملتون الذي استجاب بضيق لرغبة السلطان بأن لا يتقدم أكثر مما فعل،
كان بشوق عارم للمشاركة في المعركة الأخيرة، والمتوقعة بين يوم وآخر، لأنه
يريد أن يعيش لحظات الخطر، كما كان يقول لنفسه، ويريد أن يشهد أيضاً
سقوط الحويزة، ومثل هذه اللحظات لا تتكرر كثيراً في حياة الانسان. كما أنه
مل تلك الأدوار المبهمة بنظر الآخرين، والتي يقوم بها في الخطوط الخلفية.
يريد الآن أن يدلل على شجاعته وبراعته ويريد أن يقول لكل انسان، الآن
وفي المستقبل، انه شارك فعلياً في الحرب. وفي لحظة انفعال تمنى لو
يجرح، ليكون الجرح علامة لا تفارقه مدى الحياة، وشهادة أمام عيون الذين
قد يتناولون عليه!

في حالات كثيرة كان يحس أن المسافة التي تفصله عن هؤلاء البدو لا
يمكنه اجتيازها ابداً. لم يكونوا يعتبرونه غريباً فقط، كانوا ينظرون اليه
بارتياب، وكان يرافق ابتساماتهم شيء ظل بالنسبة اليه عصياً على الفهم أو
التفسير، وهذا ما يعذبه. صحيح أنهم يظهرون الود، ويستمعون اليه،
والكثيرون لا يترددون في أن يتناولوا الطعام معه، لكنه بنظرهم هش، وربما
أقرب الى النساء، أو الأطفال، وكان بعضهم لا يخفي نفوره منه، سواء
بالابتعاد عنه، أو بالصمت، رغم الود الذي كان يبديه نحوهم والخدمات
الكثيرة التي يقدمها لهم.

هذه المشاعر والمواقف كانت تعذب هاملتون، تجعله دائم الاحساس انه
غريب وزائد، وأن لا أحد يحبه أو يريده. ومع تفتح الطبيعة وتغير النوء يحس
أن جسده لا يطاوعه، أنه يتمرد عليه ولا يمكن التحكم به من جديد، خاصة

بعد مرور فترة طويلة لم يلتق خلالها امرأة، إلا من خلال عمل عنيف، وليس أكثر من الحرب عنفاً يمكن أن تعيد له قدرته على ترويض جسده.

أحس السلطان، رغم انشغالاته الكثيرة، ان صاحب لا بد أن يصيبه الجنون، تماماً كما حصل لقولر، ولذلك لم ينس أن يوجه إليه عمه بعد عودة مهيبوب بيوم أو يومين. قال السلطان لعمه :

- ... ومثل الكباش، يا طويل العمر أو مثل الكلاب، إذا ما صيّت عليها الماء تظل هايجة وما أحد يحلّها. اتذكر خويّه قبل كم سنة، هاش وعنفص، وحنّا نهديّه: يا ابن الحلال، يا صاحب، وابد، اندفع مثل الثور، وبعدها صار اللي صار.

استراح، تذكر، ثم تابع :

- ويلزم ان تقول له، ان توصيه، يا عم، لأنّا نريده لسوالف ثانية أكبر من هذي.

- وكل الله يا ابن آخي، وما يصير الا كل خير.
مع دحيم كان هاملتون واضحاً :

- ... ومثل هذه المعركة لا تحصل الا مرة واحدة، ولا يمكن الكتابة عنها وتسجيلها الا اذا اتاحت لي فرصة مشاهدتها، والمشاركة فيها.

- يا صاحب.. الجماعة طرشوا لنا مراسيل وقالوا: اذا أمّنتم حياتنا وكرامتنا رمينا سلاحنا، والأمر أمر طويل العمر.

- ولماذا لا يريدني السلطان أن أكون الى جانبه، وأن أشهد استسلام الأعداء وسقوط الحويّزة؟

- طويل العمر يقول الجماعة غدارين، ويعرفون أنك أنت عدوهم، ويخاف طويل العمر من حماوة الدم، يمكن واحد تطقّ براسه ويسوي اللي ما يتسوى.

لم يظن هاملتون الى هذه النقطة بالذات. قال لنفسه «اذا تبارى البدو

والثعالب في المكر فإن الثعالب لا تجد ما تفعله بوجودهم».

أخيراً تم الاتفاق، وبعد جهد، وقد تخللته لحظات غضب وصمت، ان يتقدم هاملتون، لكن شرط الا يشترك في معركة.

كتب هاملتون بعد ذلك بسنوات طويلة:

«قضى السلطان مساء الثاني من أيار في الاستعداد للهجوم على المدينة والاستيلاء على حصنها العظيم، مصدراً تعليماته الموجزة بصدد كيفية تنفيذ الخطة، وكانت فصائل من جيشه قد قامت بقطع أشجار النخيل في واحة صغيرة قريبة، وأخذوا يصنعون منها ما يشبه السلالم للتسلق. بينما وزعت حبال الأبار التي كان يحملها الجميع على افراد فرقة المتسلقين، كي يدلوها من اعلى الأسوار، حين يبلغون اول هدف من أهدافهم.

وبدأ الزحف مشياً على الاقدام في منتصف الليل، فلم ييزغ الفجر حتى كانت الجبال على الأسوار، فقد تمكن المتسللون من اخراس بعض الحرس النيام الى الأبد. وقبل أن تفيق الحامية نفسها من الذهول الذي أصابها في الظلام كانت القلعة في أيدي جنود السلطان، فانسحب المدافعون الى الجامع، وتحصنوا هناك في انتظار ما يجد من التطورات.

وفي هذه الأثناء استولى جنود السلطان على احدى بوابات المدينة فتدفقت قوات خريبط للدخل، يطلقون الرصاص ويرددون هتافاتهم الحربية، لتزيد من قدر الذعر الذي تملك السكان، وتحمل العدو على الاعتقاد بأنه لا أمل لهم بالنجاة.

ثم ان جنود خريبط اسروا عدداً من الأعداء، فأرسلوهم الى القائد ليطلبوا منه الاستسلام، ولكي يبلغوه أن السلطان يضمن سلامة أرواح الحامية، ووجهوا للمحاصرين تحذيراً بتفجير القلعة وهدم اسوارها اذا تأخر استسلامهم..

وحينئذ لم يجدوا بداً من الاستسلام، وهكذا سقطت الحويزة».

بعد سنوات طويلة والسلطان يتذكر:

- الشهادة لله، يا جماعة الخير.. في الحويزة ما تركت احد إلا دزيت
للصاحب. نشف ريقى الى أن وافق.

وضحك بصوت عال وتغيرت نبرة الصوت:

- وهذول، يا جماعة الخير، لهم طبايغ غير طبايغنا، إذا الواحد منهم عاند،
إذا قال لا، ما أحد يقدر عليه، ويعد التي واللتيا، والله يرحمه عمي
دحيم، تولى أمره، ظل يأخذ ويعطي معه الى أن وافق يكون بالوجه، وقلت
له أطرش لك كل ساعة طارش وأخبرك بالعلوم كلها، ومن الوجه ظل يتابع
بالدربيل، ومن عندنا طارش رايح وطارش جاي، ولما استسلموا بعثت
وراه، قلت له تعال، جاء وحوطته بجماعة وحرّصتهم، خوف أن ابن حرام
دعه فاير ويسوي لنا سواية، لكن الله سلّم وانتهى كل شيء على خير..
وظل صاحب بعدها زعلان شهر أو شهرين.. وبعدها بكم شهر سافر وغاب
شهرين ولما ردّ تغيرت أمور كثيرة!

لم تكذب تمضي على معركة الحويزة سوى بضعة شهور حتى سافر هاملتون الى بريطانيا بإجازة طويلة. كان بحاجة ماسة الى تلك الاجازة، لأنه أحس بالارهاق نتيجة الجهد الكبير والمتواصل الذي بذله خلال السنين الثلاث الأخيرة، ولأنه وقع فريسة لحالة سوداوية، بسبب الاحباط الذي جعله غير مفهوم. وبالتالي غير مرغوب فيه، من أغلب الذين يحيطون به، مما دفعه لأن يعتبر العمل الذي نذر نفسه له عديم الجدوى. أما زوجته، دوروثي، فقد كانت لديها أسبابها الواضحة للسفر «لا أريد لابننا أن يولد في هذا المكان الموحش، والذي يسبب للانسان مرضاً لا يفارقه طوال حياته. أريد للطفل أن يولد في مكان طبيعي، ويظروف لا تجعله معقداً أو حاقداً على أبويه». وهاملتون الذي وافق على رأي زوجته، وبدأ يعد نفسه للسفر، تذكر طفولته في ذلك المكان النائي. صحيح أن الذكريات تبدو غائمة مشوشة، وبعبدة أيضاً، لكنها تركت آثارها على حياته، وها هو الآن يواصل دفع ضريبة الميلاد، كما يقول لنفسه، خاصة في لحظات الندم.

لم يعترض السلطان على سفر هاملتون، ولم يتردد في الموافقة على أن يصطحب معه فتر. كانت لدى السلطان أسباب لا حصر لها: فبعد أن انتصر، وخضعت له الحويزة، داهمته مجموعة كبيرة من الأعباء والمشاكل لا بد أن يتفرغ لها. وكان بحاجة ايضاً الى الأموال، خاصة المعونات التي وعد بها، إذ بعد أن دفع له قسم منها توقف دفع الباقي، وليس مثل هاملتون من يستطيع إقناع الجماعة هناك بدفع تلك المعونات، أو ربما زيادتها، الأمر يتوقف على البحث والمتابعة في لندن، لأن المراسلات طالت، والموفدين الذين جاءوا

ووعدوا لم يفوا بوعودهم . يضاف الى ذلك أنه لا بد من معرفة الموقف الجديد نتيجة معركة الحويزة . هل يتقدم أكثر في المرحلة الحالية؟ هل يوافقون على التخلي عن بعض أصدقائهم السابقين، والذين لم يعدوا نافرين أو قادرين في المرحلة الجديدة؟ هاملتون الذي كان واضحاً وحاسماً خلال الفترة الماضية يبدو الآن متردداً وأقرب الى الحيرة، أو ربما لا يستطيع أن يقرر، لذلك لا بد أن يتشاور مع رؤسائه .

أما موافقة السلطان على سفر فتر فكانت لها ملاساتها الخاصة، ففي اليوم الثالث من عودة السلطان ظافراً، وما رافق تلك العودة من أفراح وأعطيات لم تشهد لها موران مثيلاً منذ وقت طويل، وصل رسول من عين فضة يحمل خبر وفاة الشيخ عوض . والسلطان الذي استاء للمخبر أن يأتيه في هذا الوقت بالذات، أكثر مما حزن له، اضطر الى اختصار بعض الاحتفالات، وإلى تأجيل زواجه من شما زوجة امير الحويزة الذي قتل في المعركة!

خلّفت وفاة الجد لفتر وموضي حزناً اقرب الى الفاجعة، وكأنهما فوجئا، أو لم يتوقعا موته أبداً . واذا كانت موضي قد فجرت دموعها، أو تركتها تنفجر دون خشية، ودون اعتبار لرأي من حولها، فإن فتر الذي عاد من حملة وادي الفيض منتعشاً ومتفائلاً، ما لبث أن غرق في الصمت والحزن . وحين أوفد السلطان عمه دحيم لتقديم العزاء في عين فضة، فقد رافقه فتر دون استئذان، لقناعته أنه يقوم بعمل واجب الأداء، ولا يحتمل التردد أو التأجيل .

ولأن تلك الزيارة لعين فضة تأتي بعد بضع سنين من مغادرته لها، وضمن هذه الظروف، فقد جدد عمير احزانه، وبعث من يبلغ «أن الأمير فتر جاء لكي يتقبل العزاء ويستقبل المعزين» مما جعل فتر يمدد إقامته مرة بعد أخرى، وكان الحنين الى هذا المكان عاوده من جديد، أو على الأقل لكي يستقبل الذين جاءوا من أجل تقديم العزاء .

عمير اعتبرها مناسبة ليعلن نفسه رأساً للعائلة، ولكي يعلن معارضته، أو على الأقل رأيه، في كل ما يجري، وكان نصيب «الصاحب» من الأخبار والملاحظات، وحتى السخرية وافرأ! وقد وجد من نقل للسلطان ما يدور في

عين فضة، وما يقوله عمير بالذات، وأضاف واحد من الأقرباء الذين شهدوا لقاء ضم وجوه المنطقة وما حولها، أن ثلاثة من معارضي خربيط حضروا هذا اللقاء أو أرسلوا من ينوب عنهم. لما سمع السلطان تلك الأخبار التفت الى عمه دحيم وقال له:

- لما راح عمير لعين فضة قلنا استرحنا. ولما جاء ولدنا فتر لها قلنا خلصنا. لكن اللي به عادة ابد ما يتركها يا عم. وهالحين يلزم نفتح عيوننا زين، لأن عمير يريد يشيخ، وناوي على شر، ويلزم فتر يرجع اليوم قبل باكر، لأنه ابد ما يتأمن للذيب أن يسرح مع الغنم!

حين يتذكر فتر زيارته الثانية لبريطانيا، ويستعيد وقائعها، يشعر انها وحدها التي غيرته، وكانت ضرورية الى أقصى حد. فالملاحظة التي سمعها من أبيه عن الأحاديث التي دارت في عين فضة، كانت أقرب الى العتاب، وجعلته يشعر بتأنيب الضمير، إذ قال له أبوه، وهو يتسم بحزن:

- أنت، يا فتر، أملنا بعد الله، ونريدك سيفنا اللي نحارب به، وظني أنك ابد ما ترضى تكون بمكان او مع ناس يقولون علينا فلاني وتركاني.

وتغيرت لهجة السلطان، صارت أبوية تماماً:

- وخالك، يا وليدي، متوهم وراعي تمنى، يظن إذا صارت القسمة انك أنت من نصيبه، وكان ما يعرف أن فتر ابن أبوه، وأن الدم ابد ما يصير ماي. وهذي الأحلام يلزم يشيلها من راسه خالك، يا وليدي، وإلا صار مثل اللي يزرع طاية!

ولم يترك السلطان الندم يستبد بفتر، خاصة في هذا الظرف، ولذلك فان اقتراح هاملتون جاء في الوقت المناسب. فأن يسافر فتر لفترة طويلة في هذه الرحلة، لا بد أن ينسى، وخلال غيابه يمكن أن ترتب الأمور من جديد. قال له أبوه بمودة:

- الصاحب، يا وليدي، طلب وترجى، أن تروح وياه بالسفر، قلنا له: على خيرة الله. شهر قولك انت؟

وخلال بضعة أيام بدأت الرحلة.

الزيارة السابقة كانت ثقيلة، اقرب الى الواجب. يتذكر فتر ذلك بوضوح، أما الآن، وبعد الأحاديث التي سمعها من هاملتون، فقد أصبح مستعداً. وزادت رغبته حين سمع تلك الأخبار، والتي راجت همساً، عن أسر خزعل. قيل ان العملية دبرها خزعل بنفسه، وقد أثارت من السخرية قدراً يفوق ما أثارته من استغراب، مما حمل السلطان على الغضب والتهديد بأوخم النتائج بسبب هذه الخدعة التي انطلت عليه. ونقل عن عدد محدود من نساء القصر أن الشيخة أخذت في هذه الفترة تتحدث عن فتر بكثير من الحمية والاهتمام، الأمر الذي فسر أنها تريد سلطاناً بعد أبيه. وقد أكدت موزي أنها سمعت ذلك من تهاني، وأضافت أن الشيخة حين سألها بعض النسوة، مازحات، ردت وهي تبسم: «كل شي بوقته زين».

العم دحيم لما علم بنية فتر على السفر قال له وهو يربت على كتفه:
- الخير فيما اختاره الله...

وبعد قليل، وقد تغير صوته:

- وبأيماننا، يا وليدي، وكنا بعمركم، أكلنا قلوب أهلنا الى أن سمحوا لنا
نسافر، والسفر ذيك الأيام شلعان قلب، ما هو مثل هذه الأيام...
هز رأسه عدة مرات، ثم التفت الى أكثر من جهة ليتأكد ان لا أحد يسمعه
سوى فتر:

- والأحسن أن تغيب عن الوجه كم شهر بعد سؤالي عين فضة!

في اليوم الثالث لوصوله الى لندن تخلى فتر عن ملابس البادية، بناء لطلب هاملتون، وكان سعيداً أن يفعل ذلك، لكي لا يبدو بنظر الآخرين مجرد لعبة لا يملكون من النظر اليها والابتسام. وشعر بحرية أكبر حين اقترح هاملتون أن يقضوا أطول فترة ممكنة في الريف: «الريف الانكليزي هاديء وجميل. هناك لا أحد يزعجنا، والناس، بعد بضعة أيام، يالفون الزائر ويصبح مثلهم أو واحداً منهم. عكس لندن التي تسلي نفسها وتتغلب على ضجرها بالنظر الى

الوجوه، خاصة وجوه الأجانب، وتبتسم بسخريّة. فهم فتر جزءاً مما قاله هاملتون، أو بالأحرى فهمه بطريقته الخاصة. فتلك الضجة التي كانت تحيط به في كل خطوة يخطوها، في الشارع، في المطعم، في بهو الفندق، كانت تسبب له الخوف، أو على الأقل الحرج، فهو لم يتعود على مثل هذه الأجواء، ويبدو انه لن يتعود عليها أبداً.

لم يقتصر هاملتون على ذلك، قال له وهو يبتسم:

- ويجب أن تتعلم الانكليزية. إذا تعلمت الانكليزية سوف تتفوق على جميع اخوتك، وسوف تفاجيء السلطان وتفرحه الى أقصى حد، خاصة إذا توليت الترجمة بينه وبين زواره الأجانب!

وفتر الذي فتح عينيه بفضول ودهشة، رد بخجل:

- اللغة الانكليزية صعبة، ولا يمكن أن يتعلمها الواحد إلا في المدرسة.

فهقه هاملتون وهز رأسه عدة مرات، وبعد أن هدأ قال:

- كل شيء يبدو صعباً في البداية. تذكر زيارتك السابقة الى لندن، كنت خائفاً، وكنت تسألني كل يوم عدة مرات متى نعود الى موران. الآن اراك في وضع أفضل، خاصة بعد أن لبست الملابس الأوروبية. التمتعت عينا فتر، وهز رأسه موافقاً. تابع هاملتون:

- واللغة الانكليزية تبدو صعبة في المرحلة الأولى، لكن حين تخصص لها بضع ساعات كل يوم سوف تجدوها أسهل مما تتصور.
- بدون مدرسة؟

- سوف نشيء أنا وأنت مدرسة خاصة بنا...

- ضحكك، نظر الى فتر، ثم تابع:

- مدرسة ليس فيها سوى طالب واحد، وعدد محدود من المعلمين. وهؤلاء المعلمون يمكن أن يكونوا رجالاً مسنين، أو أفراد عائلة، أو...

وشرح هاملتون، بكثير من الإغراء، سهولة تعلم اللغة وضرورتها، وان ذلك سيكون في الريف، ومن خلال الاحتكاك والعيش مع عائلة، وأنه سيتولى

الامر بنفسه، ولذلك لن تكون هناك صعوبات من أي نوع، خصوصاً وأن الحاجة اليومية تتطلب أن يبذل جهداً لكي يتفاهم مع الناس اعتماداً على نفسه بشكل مباشر.

يتذكر فنر أن السبيين اللذين جعلاه يوافق: رغبته أن يتفوق على أخوته، وبالتحديد على خزعل، وأن يفاجيء أباه.

فترة طويلة ومضنية مرت على فنر. وقد تخلل تلك الفترة الارتباك، والرغبة في العودة، والتوقف عن « الدراسة »، إضافة الى المرض. لكن الطرفين أصراً، والجهد الاستثنائي الذي بذله هاملتون، واستقرارهما خلال الشهرين الأخيرين وحدهما، بعد أن سافرت دورثي والطفل الى ولز، وسافر المرافقون والحرس الى موران، بناء لاقتراح هاملتون وموافقة فنر والسلطان. كما أن اختيار مكان أقل رطوبة من الأمكنة الأخرى، كل ذلك جعل الأمور تسير سيراً أفضل. أصبح فنر قادراً على أن يتكلم مع الآخرين، وأن يعبر عن بعض ما يدور في ذهنه. صحيح أن الجمل التي كان يستعملها بسيطة جداً وقصيرة للغاية، لكنها كافية لكي ينقل ما يريد قوله.

ومما ساعد كثيراً في الوصول الى هذه النتيجة المس ماركو، عمه هاملتون، فعندها كانت المحطة الأخيرة من الرحلة، وأطولها. كانت المس ماركو أروع النساء، والاقامة عندها ومعها أجمل وامتع أيام الرحلة، لأن هذه الكهلة لم تكن تجيد الطعام الشرقي فقط، وإنما تعرف أيضاً كيف تتحدث، وكيف تحمل الآخرين على الحديث، خاصة وأن فنر كان يبقى معها أياماً طويلة متواصلة، أثناء غياب هاملتون، من أجل ملاحقة بعض الأمور الهامة المتعلقة بالسفر والعمل، كما كان يقول موضحاً ومعتذراً، لكي يقضي أياماً عديدة في لندن.

كانت المس ماركو بالنسبة لفنر خليطاً من المعلمة والأم والصديقة. والأيام التي قضاها معها في اكسفورد ظل يتذكرها، ولا يمل من استعادتها، حتى بعد مرور سنين طويلة. أما غياب هاملتون، والذي تكرر عدة مرات خلال هذين الشهرين، فلم يكن يسبب له ازعاجاً، أو فراغاً. كانت المس ماركو تعرف

كيف تنظم برنامجاً حافلاً لكل يوم، حتى الأيام الماطرة، وتلك الأيام الأخيرة، حين بدأ يسقط الثلج، كانت تجد ما يفعلانه بكثير من المتعة والرغبة! والمس ماركو التي قضت عشرين سنة في سيلان كممرضة أولاً، ثم كرئيسة ممرضات، والتي تنقلت في تلك البلاد من مكان لآخر، وعرفت دقائق وتفصيل حياة الناس وطبيعة الأرض، اكتسبت خبرات ومعلومات لم تتح للكثيرات غيرها، وقد سجلت كل ذلك في كتابين، وكانت فخورة جداً بهذا الإنجاز، لأن الكتابين يمثلان خلاصة تجربة ومعلومات وفيرة.

بعد أن تركت سيلان مختارة، ذهبت الى جنوب افريقيا، وقضت هناك سبع سنين، وكانت حصيلة تلك السنين كتاباً ثالثاً. صحيح أن الكتاب الأخير أقل أهمية من حيث المعلومات، لكنه أكثر نضجاً بالنسبة لتجربة الانسان، هكذا كانت تشير باعتزاز. أما الصفحات التي قرأتها لفنر فقد اختارتها بكثير من الحرص. كانت تضطر أثناء القراءة لأن تتوقف، لتشرح، لتعلق، لتشير الى ما وراء المعاني المباشرة، وفنر الذي كان يستمع بانتباه لم يكن قادراً على ادراك المعاني الكبيرة التي تلفت النظر اليها وتريد ايصالها، ولم تمل أبداً من إعادة القراءة والشرح. كانت تنزع نظاراتها، وتضعها في طرف القم، وتبدأ. وكثيراً ما لجأت الى الوقوف، الى التمثيل، الى تحريك يديها وتحريك قطع الأثاث أيضاً!

قبل نهاية الرحلة بأسبوع، وأثناء غياب هاملتون، حرصت المس ماركو أن تهدي كتبها لفنر. فعلت ذلك بكثير من الجلال والاهتمام، ولم تنس أن تشير الى فلسفتها في الكتابة، إذ ذكرت أن الكتابة إذا لم تكن من القلب، وانما هي نتيجة القراءة وحدها، أو التأمل وحده، فعندئذ لا تكتسب أية أهمية ولا تشكل إضافة حقيقية، وأن هذه الكتابة اذا لم تكتب اليوم فيمكن أن تكتب في وقت آخر، أما التجربة، أما حياة الإنسان، أي انسان، فإنها لا تتكرر، رغم ملايين البشر، وهي وحدها الجديرة بالتسجيل، لكي ندرك بعمق ودقة من خلالها معنى الحياة.

كان فنر مقتوناً بكل ما يراه وما يسمعه، فاول مرة في حياته يكون قريباً من

امراً بهذا المقدار. جدته، رغم حبها وحنانها، كانت كتلة من السواد والاختلاط، وبعض الأحيان من الغياب. فالملابس السوداء الفضفاضة، وذلك الانشغال بالذين حولها، ثم تلك الليالي المليئة بالصمت أو بأصوات الرياح، كانت تجعلها موجودة وغير موجودة في آن واحد. حتى في ليالي السهر أو ليالي الفرح، حين يتحدث الإنسان مع الآخرين أو يغني، أو حين يستمع إلى أحاديثهم وأغانيتهم، كانت تشغلها أصوات الأطفال وأمراضهم، وكانت تشغلها طلبات الشيوخ أو نظراتهم، فإن لم تشغل بهؤلاء فالفقط والكلاب والحيوانات الأخرى لا بد أن تسترعي اهتمامها. ولا يتذكر فتر جدته إلا وهي راكضة، وكثيراً ما كانت تنام وهي جالسة قرب الموقد، وتتظاهر أنها تتابع الأحاديث التي تدور!

المس ماركو امرأة من نوع آخر، إذ رغم تقدمها في السن، كانت تبدو مثل طائر ملون. صحيح أنه لم يجرؤ على النظر إليها طويلاً، أو التدقيق بملابسها وزينتها، لكن كانت تملأ جو الغرفة بوجودها ورائحتها، وتجعل من يجلس في مواجهتها يحس بكثافة هذا الوجود وطغيانه، ويشعر أكثر من ذلك أنها له وحده. أما إذا تحدثت فإنها تستحضر الأشياء وتعطيها ملمساً خشناً، حتى تبدو في كثير من الأحيان وكأنها تنبثق من جديد. تتكلم بهدوء، تنظر إلى العينين مباشرة، تحرك يديها بطريقة من يصنع شيئاً؛ وحين تبدأ باستعادة ذكرياتها فإنها تفعل ذلك بلذة، وكأنها تعيشها مرة أخرى.

كانت تفوت فتر، في حالات كثيرة، كلمات ترد في أحاديث المس ماركو، لكن يقدر معناها من الإشارات، من الانفعالات الذي يملؤها، وكان مستعداً لأن يكتفي بذلك، لكن المس ماركو امرأة حازمة ودقيقة، ليس بالنسبة لنفسها فقط، وإنما بالنسبة للآخرين، وبفس القدر، إذا أحست أن بعض الكلمات فاتت من يستمع إليها فلا بد أن تتوقف، أن تسأل، أن تشرح، وكانت تلك أيضاً طريقتها في التعليم.

قال هاملتون لسمو الأمير، بعد عدة سنين، وهما يستعيدان ذكريات تلك الرحلة:

- المرأة التي أثرت في حياتي كانت عمتي ماركو. أثرت في أكثر من أمني ومن جميع معلمي. لأن أمني كانت تعتبر أن إقامتنا في ذلك المكان النائي عقوبة حكمت بها علينا الامبراطورية، وكانت تحسب الأيام والشهور بنفاد صبر لكي تنتهي العقوبة ونعود الى الحرية، كما تقول، أي نرجع الى بريطانيا. عمتي ماركو كانت نمطاً آخر: جاءت الى سيلان بمحض إرادتها ورغبتها، وكانت تجد متعة في أن تكون هناك. أكثر من ذلك كانت تواق لأن تعرف كل شيء، ولم تتردد في أن تتعلم عدة لغات محلية. واليها الفضل في أن أتوجه الى اللغات الشرقية. كانت تقول باستمرار، وربما لنفسها بالدرجة الأولى، وتحب أن يسمع الآخرون: «يجب ألا نخدع بما نراه على السطح، فالشرق أعمق مما يبدو، وأخطر مما يفترض الكثيرون، لأن ما يعمل فيه من التاريخ والتقاليد والأساطير بمقدار ما يعيقه ويثقل عليه، فإنه يمدّه أيضاً بطاقة على المقاومة والاستمرار... وربما التجدد. وبداية فهم الشرق أن نعيش فيه، أن لا نتعامل معه برفض أو كراهية، وأن نتعلم لغاته، لكي نفهم كيف يفكر وكيف يعبر. فاللغة أساس فهم الآخر، وبداية حوار حقيقي.»

يصمت هاملتون قليلاً، نتيجة الأفكار التي انبعثت فجأة وعبرت في ذاكرته، لكنه لا يريد ان ينساق معها، يتابع بنفس النبرة:

- ولأنها عاشت خارج بريطانيا سنين طويلة، واحتكت بأعداد كبيرة من الأجانب، فقد أصبحت أحسن معلم للغة. تعرف كيف تعلم، وأي شيء أسهل لأن تبدأ به.

ابتسم فتر وكأنه أكتشف أنه كان ضحية مؤامرة بين هاملتون وعمته، سأل مداعباً:

- ألهذا السبب اخترتها لي لكي تعلمني اللغة؟

- اخترتها بشكل خاص لأنها تعرف كيف تتعامل مع شعوب أخرى، ولأنها تعرف ما ينبغي للملوك أن يتعلموه قبل غيره.

قهقه فتر طرباً، وبعد أن هدأ نظر في عيني هاملتون بإمعان. وهو لا يفعل

ذلك إلا نادراً. وهاملتون إذا كان يخاف أحداً أو من شيء، فتلك النظرات المكتشفة الكاسحة، التي تنفجر، كما يقول لنفسه، فجأة، من تلك الوجوه المغبرة القاسية، وجوه البدو. انها نظرات ليس هدفها الرؤية، وإنما تفسير الشخص المقابل، وتمزيق أي رداء يرتديه، ويهدف أن تمنعه كلية من أية إمكانية للكذب. سحب هاملتون عينيه بعيداً وعاود الحديث:

- والعمة ماركو تعرف ما ينبغي للأجنبي أن يتعلمه من اللغة الانكليزية، ولذلك تجعل هذه اللغة مرنة، حية، ومليئة لحاجات حقيقية. أي بكلمة أخرى: لغة محبوبة. انها تعتبر أن حب أي شعب يتطلب، بالدرجة الأولى، حب لغته، تماماً كما أحبت هي لغات الشرق، وكما جعلتني احبها أيضاً، وكما تريدك أن تحب اللغة الانكليزية... وهذا هو الأساس الحقيقي لتعلم اللغة.

وفتر الذي يشعر بالاعتزاز والتفوق ازاء اخوته، لأنه سافر وتعرف على العالم، ولأنه تعلم اللغة الانكليزية، إلا أنه ظل حتى النهاية خجولاً أو نفوراً من استعمالها. وحين يستعملها مضطراً فإن الكلمات البسيطة والعبارات القصيرة تشكل عماد هذه اللغة. أكثر من ذلك يتجنب استعمالها قدر ما يستطيع أثناء وجوده في موران، نتيجة ما سمعه من تعريض، حتى من خاله عمير، والذي كان يردد مع المسنين: « إذا كانت العربية لغة أهل الجنة، فإن الانكليزية لغة أهل النار » وقد تجنب عمير سؤاله ما إذا تعلم اللغة الانكليزية أم لا، لئلا يتغير موقفه منه، ولكي لا يشعر بخيبة أمل فيما لو عرف أنه يعرفها!

لم يكتشف فتر بتجنب استعمال اللغة الانكليزية، كان يريد أن يتفوق على الآخرين بلهجة البداوة ذاتها، خاصة وأن خزعول لا يخفي اعتزازه بأنه يتقن هذه اللهجة أفضل من أي بدوي! وإذا كانت إحدى الهويات المحببة للسلطان أن يقيم المباريات في شعر البادية وأمثالها، وكان يروق له أن تجري تلك المباريات بحضور أولاده وبمشاركتهم، وكان خزعول لا يخفي براعته، فإن ما لدى فتر من رصيد اختزنه في عين فضة، من لياليها الطويلة، ومن أحاديثها التي لا تنتهي، ثم ما جهد لأن يتعلمه في وقت لاحق، لفتا نظر الكثيرين.

قال العم دحيم ذات ليلة للسلطان:

- ... وظني، يا أبو منصور، أن النبي آدم إذا ما تعلم وهو صغير ما يتعلم إذا كبر.

لم يعترض السلطان، لكن فضل الصمت، ليفصح لعمه توضيح ما يريد قوله. تابع العم:

- وإذا ما رضعه مع حليب الأم ينظم عنه وعن الحليب جميع!

- وأكثر من هذا يا طويل العمر؟

- ذيك الليلة، وحنا نسمع كلام فتر عن أمثال عين فضة، ترى قال كلام يعجب، كلام زين، والولد فطن وذهين!

ضحك السلطان بنشوة، ولم يعلق، تابع العم:

- وعيشته مع البدوان فادته واجد، يا أبو منصور، تعلم منهم العلوم الزينة!

أما هاملتون الذي كان يحضر هذه المباريات، وكان بعض الأحيان يستعين بمن يشرح له معنى أو مغزى كلمات معينة، وكان دوره الصمت والمراقبة، فقد قال لفتر في إحدى الليالي، وهما في أكسفورد:

- ... ومن الأفضل أن لا يظهر الانسان كل ما يعرفه، خاصة أمام المنافسين، بل أكثر من ذلك يجب أن يترك لهم بعض الأشياء التي تميزهم، أو التي يفاخرون بها، لأن تركها لا يشكل خسارة بالنسبة له، وربما يشكل بالنسبة لهم وهم الربح، وفي اللحظة المناسبة، عندما تبدأ اللعبة الحقيقية نكتشف الرابع والخاسر دون خطأ!

وفتر الذي تعود الصمت والإصغاء بعلاقته مع هاملتون، كما تعود مع كبار العائلة، خاصة أبيه، لم يعلق. أما هاملتون فكان متأكد أنه يكلم نفسه، حتى تلك اللحظة، أكثر مما يكلم فتر. تنحج وخرج صوته مصقولاً:

- أن يعرف خزعل شعر البادية وأمثالها أحسن منك لا يعني شيئاً مهماً، هناك أمور أكثر أهمية، وهذا ما يجب أن تعرفه جيداً!

صمت فتر، لكن عرف، أو بالأحرى أحس، معنى كلمات هاملتون. لأول مرة، بوجود شخص آخر، يحس بالخوف وبشيء من الخطر. وإذا كان قد تعلم شيئاً مهماً في عين فضة، فالكتمان. قالت له جدته ذات ليلة، وقد سمعت كلاماً لم يرضها. قالت وهي تزفر مثل جريح عطشان:

- ... وأخذ حليلة، امك، الله يرحمها، حتى يلقم جماعتنا حجر، حتى يقول للقريب والبعيد: وهذول اخذنا منهم وصاروا رجالنا، ويلزم يسكتون. لكن أملنا فيك، يا وليدي، ويمكن على يد الله وعلى يدك تتعدل الأمور. صمتت قليلاً ثم خفضت صوتها وكأنها تتأمر:

- هذا الكلام بيتاً، يا وليدي؛ حجر بيير، لا أحد شاف ولا أحد سمع، وإذا عرفوا ذبحونا جميعاً!

بلمح البصر تذكر فتر كلام جدته، وقارن بما يسمعه من هاملتون الآن. بدا له العالم مجموعة كبيرة من الصخور تتلاطم، لكن بصوت مكتوم، ولابد أن تحطم صخرة باقي الصخور، أو مجموعة كبيرة من السكاكين الهائلة تنفرز في اللحوم، دون صوت وفي الظلمة، ولا بد أن تقضي سكين على باقي السكاكين. وجاء صوت هاملتون، من جديد، حاداً واضحاً:

- وأنت تعرف شيئاً مهماً، لا ادري أين تعلمته، لكن يجب أن تحافظ عليه: الصمت.

- تنفس بعمق، ويعد قليل تابع، وكأنه يحدث نفسه:

- الصمت سلاح الأقوياء أكثر مما هو سلاح الضعفاء أو الجبناء، لا تنس ذلك!

في لحظات معينة، وبعض الأحيان بشكل مفاجئ، وخلال زمن أسرع من البرق، يتعلم الانسان ويكتشف ويرى ما لا يتاح له عبر أزمان طويلة. فجأة يتبين ويتأكد أنه كان نائماً أو ساهياً، أو ربما كان طيماً الى درجة الغفلة. الآن، من الكلمات القليلة، غير المباشرة، وحتى الغامضة، أحس فتر أنه موضوع الرهان، واستبدت في ذهنه صورة جدته، قال لنفسه بحزن: «إذا نويت لا

تعلم بطاريك... والا رحى طعام للنسور، والأيام بينا».

وإذا كانت معركة وادي الفيض، ثم معركة الحويضة، قد غيرتا الكثير في موران، فإن عودة هاملتون وفنر، بعد هذه الرحلة الطويلة، وما رافقها من حفاوة السلطان واهتمامه، جعلت الأمور تأخذ مسارات لم تكن بالبال.

وخلال شهور الرحلة انتظرت موزي كثيراً، وبكت كثيراً، وكان لديها الكثير لتقوله لفنر بعد عودته، لكن حين رآته يعود، اختلعت دموعها بضحكتها، ولم تستطع أن تتكلم. نظرت إليه طويلاً، ثم هجمت عليه، ولم تجد إلا قبضتها وسيلة وحيدة للتعبير، إذ جمعتها وضربت كتف فنر، ضربته بقوة. فلما ضحك بصخب قالت قطعة بعتاب:

- عورتى يا بنت الحلال.. ضربتني على كتفي ذاك!

فتحت موزي عينيها بخوف، إذ تذكرت جرحه القديم. سألت بتوسل:

- صحيح تعورت؟

رد بضحكة قوية، أقوى من الضحكة الأولى. قالت قطعة:

- وأنت يا سيدي.. ما لك حق، طولت أكثر من اللازم!

قالت له موزي من بين دموعها الصغيرة:

- بعد اليوم ما راح تسافر!

قالت تهاني التي وصلت في تلك اللحظة لتسأل عن الهدية قبل أي شيء آخر:

- اللي يطول الغيبات يرجع بالغنايم.

وبعد قليل:

- وهالحين حنا فكينا شيلنا ويلزم ترمي به شي.. حتى لو حجر!

وانصرف موزي وقطعة الى فتح الحقائق وترتيب الثياب، واستخراج الهدايا، وبدأت تهاني تقص على فنر ما حدث في غيابه:

- . . . وبسفرتك، يا طويل العمر، جاك ثلاثة أخوة، وخمس خوات. وبعد ما أبوك عرسّ على شما أخذ بنت ملاهد. وأبوك تلامن مع خالك عمير. والشيخة تطريك دائماً بالخير. وأخوك خزعل عرسّ نوبة ثانية. وفضة حامل ومولدة بين يوم والثاني، ووظفة. . .

صرخت موزي من الغرفة المجاورة.

- يا معودة. . يرحم والدك، يا تهاني، يكفي، دوختي راسه!

ظلت شخصية عويّد المشعان محيرة، وتثير عواطف متناقضة في عقول وقلوب الذين يعرفونه أو يسمعون به. فهذا الرجل الذي يشبه الظل بملامحه وحجمه، والذي يختبئ في عباته كما تختبئ قطرة الماء في الغيمة، ولا يكاد يلتفت إليه من لا يعرفه، هو ذاته الذي تخيف باسمه الأمهات أولادهن لحملهم على النوم أو الصمت، أما في مجالس الرجال فقلما تخلو ليلة من حديث أو خبر يحكى عن غزواته وشجاعته وقسوته أيضاً، الى جانب الأحاديث التي تتطرق الى عدله وعزوفه عن الغنائم، بحيث يوزعها على رجاله، ولا يمدّ يده الى قشة منها. أما عن إقدامه وذكائه فإن الوقائع تختلط بالخيال أو الروم، إذ كثيراً ما ينسب إليه ما وقع لغيره، ويتبارى الرجال في رواية أدق التفاصيل عن حياته، لإظهار معرفتهم الكاملة بكل شأن من شؤونهم. حتى الذين لم يكونوا من جنده، أو لم يروه في حياتهم، فإنهم لا يترددون في الحديث عنه بثقة تصل درجة المبالغة.

ليس ذلك وحده مبعث الحيرة والتناقض في شخصية عويّد المشعان، فإن تواضعه وانعدام الفروق بينه وبين من هم في امرته، في الملبس والمأكل، ثم ذلك الحرص الذي يديه نحو كل رجل من رجاله، يجعله مختلفاً عن شيوخ العشائر الآخرين، وعن امراء الجند، ويجعله مختلفاً بشكل خاص عن رجال خريط المقربين.

يتعامل معه السلطان بطريقة مختلفة عن تعامله مع الآخرين، إذ بمقدار الاعجاب الذي لا يخفيه نحوه، ولا يتردد في أن يديه علناً، فإنه شديد الحذر

منه، خاصة وأن إحدى الصفات التي لم يتخل عنها عويد هي الصمت. فواء صمته كان يختبئ، ولذلك لا يعرف أصدقائه وأعداؤه كيف يفكر، أو ماذا سيفعل. المرات القليلة التي تحدث خلالها عما يجب أن يفعل في حملة وادي الفيض، أو في معركة الحويزة، أو غيرهما، اقتصر حديثه على أفكار واقتراحات قالها بأقل الكلمات.

بعد معركة الحويزة بسنة وبضعة شهور، جرى الحديث بين السلطان وهاملتون لأول مرة عن عويد المشعان. إذ لم يسبق لهما من قبل أن تحدثا عنه حديثاً دقيقاً أو بطريقة واضحة وكاملة. صحيح أن ذكره كان يرد كثيراً، خاصة أثناء التحضير لحملة من الحملات، لكن ما دام غائباً في البقعا، فإن الحديث عنه يرد بشكل غير مباشر، ويغيب بسرعة، ربما لأن الحيرة التي تميز شكله وشخصه تجعل الموقف منه ملتبساً، ومؤجلاً أيضاً.

ورغم الفترات التي قضاها مع السلطان، والرسل بينهما إذا كانا بعيدين، فإن ما كان يحس به السلطان، وما يرشح إليه من أخبار وأحاديث، ثم ما ينقله الرسل، يجعله في حالة من التوجس أقرب إلى الشك أو الخوف.

إذا جاء عويد إلى موران، وكانت له في السنة زيارة أو اثنتان، تتبدد الشكوك، ويسيطر جو من المودة، لأن ما يلقاه من الاهتمام والحفاوة يفوق ما يلقاه غيره من الشيوخ وقادة الجند. لقد كان جزء من الاهتمام الذي يوليه له السلطان، بالإضافة إلى ضخامة ما يحشده من القوات، نوعية رجال عويد المشعان، فهم يختلفون عن الآخرين، لأنهم يعرفون من أجل أية قضية يقاتلون. هكذا كانوا يقولون، وهكذا كان يردد عويد. كان يقول، ويخرج صوته مرتجفاً من الانفعال:

- نحارب في سبيل الله. ومن أجل إعلاء كلمة الحق. . .

ويقول لرجاله بثقة:

- أنتم مثل المسلمين الأوائل تحاربون من أجل أن ينتصر الإسلام، لا من أجل

ارض ومغنم، ولا من أجل إرضاء فلان أو فلان، فإذا انتصرتكم سدتكم في الأرض، ومن يُقتل منكم فمثواه الجنة.

ولأن الحرب كانت من أجل هذا الهدف، فإن لرجال عويد قدرة غير محدودة على الاستمرار والصبر والتحمل بنظر الجميع.

في فترة مبكرة حاول السلطان أن يسمي إلى جانب عويد عدداً من المساعدين يختارهم بنفسه، لكن المحاولة فشلت لأن الجند لم يطيعوا هؤلاء، مما اضطر السلطان أن يترك له اختيار معاونيه. أما الذين حاولوا منافسته، وأن يرفعوا قاماتهم الى مستوى قامته، بدافع الطموح أو بدفع من السلطان، فقد انتهى بهم الأمر الى التسليم الكامل له، وقد أدى ذلك الى أن يكف السلطان عن التدخل بشؤونهم.

أما هاملتون الذي تعذر عليه أن يقيم صلة مع عويد، ورغم محاولاته التي تنوعت، ولم تتوقف، إذ كان يصطدم بذلك الطبع البدوي الذي يتسم بالحذر، ويتحصن دائماً بالصمت أو التهذيب الزائد، وبعض الأحيان بادعاء عدم المعرفة، فإنه لم يسلم، ولم يتخذ مواقف العداء أو التجاهل. أكثر من ذلك فإن اتفاقاً ضمناً قام بين الرجلين: أن يتجنب الواحد منهما الآخر، ولذلك كان عويد بنظر هاملتون ضرورياً وهاماً، ولا يمكن الاستغناء عنه، أيّاً كان الموقف منه.

عويد كان له رأي مختلف، فهو لا يخاف هاملتون، لأن هذا الأخير مكشوف، لكنه كان يخاف من تأثيره على السلطان. قال، مرة، لعدد من رجاله المقربين:

- احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة. السالفة ما هي سالفة هذا الإنكيزي، هذا مصلع ومكشوف، لكن الخوف من اللي يلبسون عمام.

قال السلطان في احدي الليالي لعمه دحيم وهاملتون، دون أن يسألاه، وكان عويد المشعان قد غادر موران ذلك اليوم، وقد رافقه السلطان حتى وادي

الرها، بحجة أنه يريد مشاهدة الخيول الجديدة التي وصلت توأ. قال لهما السلطان، وكأنه يحدث نفسه:

- ابن مشعان يلزمه ما يروح الا راضي، لأنه يمون على مغرب كله.

وحين بدا أن كلامه غير مفهوم بالمقدار الكافي، أوضح:

- ولو أراد يكون مع غيرنا لكان حالنا هالحين بين صفاقين، لكن الرجال دينه قوي، وحناء، والشهادة لله، ما قصرنا معه.

قال دحيم:

- يا أبو منصور: عويد دينه أقوى من الصفا، فإذا كان معنا حنا بألف خير ومنصورين.

تنفس بعمق، وبعد قليل أضاف:

- بس يلزمك تعرف: عويد أعند من التيس، وهذا العناد يفيد ويضر، يا أبو منصور، فاحرص وتوق.

هاملتون كان بحاجة الى مزيد من المعلومات والتقدير، قال ليحرضهما:

- عويد المشعان رجل متعب وكثير الشكوك

قال السلطان بآلم:

- يا صاحب، عويد مثل الحرمة والولد الصغير، ما يرضى إلا إذا كان كل شيء على كيفة، ويلزم أن الواحد يرضيه. . . ويلزم أن يتوقى منه.

وفي تلك الليلة اتفق الثلاثة أن عويد ضروري لهذه المرحلة، ويجب أن يكون موجوداً وقوياً، وأن يعطى ما يريد، لكن يجب الحذر منه ومراقبته، أو كما قال هاملتون: العدو العاقل خير من الصديق الجاهل.

عويد وهو يعود الى البقعا، وكانت معه خمسة رؤوس من الخيل التي وصلت الى السلطان، وقد اختارها له السلطان بنفسه، وكان يغريه ويلج عليه بقبولها،

أو أن يأخذ غيرها، إذا كانت تروقه، وهو يحاول الاعتذار ويحاول الاختصار، رغم الهدايا والحفاوة التي قبول بها في موران، كانت تورقه طبيعة العلاقة بين السلطان وهاملتون، وكبأن يخاف من نتائجها. وتذكر قبل سنين، حين رأى هاملتون أول مرة. قال له السلطان:

- يا أبو محجم.. الرجال جانا بنية صافية وعاوناً بالماء. هو اللي قال: احفروا هنا وتلقون الماء، ومثل ما شار علينا، حفرنا ولقينا، وظني أنه ابن حلال ويريد لنا الخير.

هز عويد رأسه، لكنه لم يفتح.

العم دحيم تربطه بعويد علاقات مودة قديمة، ويستطيع أن يتحدث معه بطريقة تختلف عن السلطان، ولذلك تولى إقناعه بأن صاحب جاء الى موران ليس من أجل الماء فقط، وإنما لكي يساعد الناس بالطب، إذ حمل معه كميات كبيرة من الأدوية، ويريد أن يدخل دين الإسلام، لأن الله هداه. وختم دحيم حديثه بأن قال:

- ولا بد نساعد يا عويد، فإذا انشرح صدره وأعلن إسلامه تجينا، عند الله، حسنة!

ظلت الأمور كذلك فترة طويلة، وفي كل فترة تتوازي الاحتمالات الإيجابية مع الشكوك والمخاوف.

بعد حملة الحويزة أصبحت الأمور أكثر وضوحاً، قال عويد للسلطان، بعد أن انتهت المعركة:

- هالحين، يا أبو منصور، بساطنا أحمدي ويلزم نقول كل شيء.

ضحك السلطان بصوت مجلجل ورد:

- هذا بساطنا، يا أبو محجم، فهات اللي عندك.

- هذا الرجال، الصاحب، يعجب وما يعجب، يا أبو منصور، تشوفه يركض بالليل والنهار، من مكان لمكان، لا يتعب ولا يهدأ، وما ندري إذا كان يشتغل لله أو لأحد غيره.

- لا تخف، وكل الله، يا أبو محجم

عاود السلطان الضحك ليداري حرجه، ويعد أن استعرض في ذاكرته ما يمكن أن يفكر به عويد قال بحزم:

- مثل ما قال الله في محكم كتابه، يا ابن مشعان: إن بعض الظن إثم. وحنا يا البدوان ما نصديق إلا إذا شفتا بعيونا، ويلزم أقول لك إنني شفت وتأكدت، وأعرفه زين، ويكفي.

تنفس بعمق ثم تابع:

- والله وبالله وتالله، يا أبو محجم، إنني ما شفت من هذا الرجال إلا كل خير، وما شار علينا إلا بكل شي فادنا. ويعد قليل، وقد تغير صوته:

- وأنا كنت مثلك يا عويد. كنت أقول لروحي: هذا الرجال، شهنو اللي يريده منا؟ لكن بعد ما شفناه، تأكدنا. وإذا أنت تثق بخويك، أبو منصور، وتعرف معرفته بالرجال، فلا يكون لك بال.

وطوي الموضوع أيضاً.

هاملتون الذي عاد من رحلته مملوءاً بالأفكار والأحلام، وقد استعاد نشاطه وحيويته، وغادرت تلك الرؤى السوداء، كان يستعد لنقلة كبيرة: يجب أن يبدأ في موران عصر جديد.

لم يكن، بعد، متأكداً مما يجب عمله، بل وكان أقرب إلى الخوف، خاصة وإن دوي الفشل كان يملأ لندن أثناء إقامته هناك، وكان الحديث يجري معه متردداً متشككاً، لأن القوى التي تتعامل مع قضية الشرق دخلت، فيما بينها،

في صراع مكشوف وعنيف، وأصبح كل طرف من هذه القوى يلقي مسؤولية الفشل على الأطراف الأخرى، وكل طرف يشكك بجدوى أية خطة أو بمدى تحقيقها، مما اضطر هاملتون إلى تمديد إقامته أكثر من مرة في لندن، وإلى دراسة ملفات وخطط عديدة لاختيار الأفضل منها. ورغم الدراسة والمواقفات المبدئية التي حصلت، فإن التريث وإعادة النظر، وتعديل بعض الخطط، إضافة إلى التشدد بصرف الأموال اللازمة، كان المناخ السائد. ولم يستطع الوصول إلى نتائج اعتبرها مرضية إلا خلال الأسبوع الأخير.

قالوا له هناك بوضوح: «هؤلاء البدو لا يعرفون سوى شيء واحد: أن تدفع لهم باستمرار، دون أن يكلّفوا أنفسهم تقديم أي مقابل. ليس هذا كل شيء، إنهم يتشبثون فقط بما يعتبرونه لمصلحتهم، ويستندون إلى كلمات قيلت أو وعود أعطيت في أوقات سابقة واستثنائية، ولا يدركون، كما لا يقدرون، التغيرات التي حصلت في هذا العالم. إنهم يستخرجون من محافظهم القماشية أوراقاً مهترئة، لا يفهمون مما ورد فيها سوى بضع كلمات ترجمها لهم بعض البحارة أو الخدم ويهزونها في وجه الأمباطورية، مطالبين أن نفي بالوعود! لقد أصبح هؤلاء البدو متعبين إلى درجة لا تطاق، وجاء بعض رجالنا، ولا يعرف إلا الشيطان لماذا، لكي يملؤوا رؤوسهم بأحلام ودعاوى فارغة، ويجب علينا في النهاية أن نواجه هذا الكم الهائل من المشاكل والمتاعب، وكأن مشاكل ومتاعب الأمباطورية قليلة أو غير كافية!».

كان هذا جزءاً من حديث طويل سمعه في وزارة الخارجية بلندن.

في الأسبوع الأخير، وبعد إلحاح من هاملتون وصل درجة الإحراج، وافقوا أن يعود إلى موران، وأن يدفعوا المبالغ التي وُعد بها السلطان. وتمت الموافقة أيضاً على أن يعطى هاملتون فترة ستة شهور، وأقصى حد سنة، من أجل تقديم خطة متكاملة لإصلاح هذا الوضع المتردي، ولمحاولة بناء صيغة تناسب المرحلة الجديدة.

إنه الامتحان قبل الأخير لهاملتون من أجل إشادة مملكته على الأرض. فلندن

تسلم بفشل الآخرين، ولديها اقتناع أن المتاعب تتطلب عقلاً جديداً لمعالجتها، وأخيراً تطلب منه أن يتحمل المسؤولية كاملة.

في وقت سابق كان مجرد وسيط، يتصل بلندن عن طريق الآخرين، وكانت الدائرة التي يتحرك فيها لا تتجاوز السلطان وحاشيته. الآن تفرد لندن أمامه الخرائط كلها، وتطلب منه أن يتصرف.

من هنا كان مستعداً أن يتعامل مع كل شيء، ومع كل فرد، دون تحريم ودون أفكار مسبقة. يمكن أن يعيد النظر بكسل الأفكار والخطط، وأن يلتقي بالمجموعات كلها دون التزام، حتى لو كان مجرد وعد. وتذكر الفترة الأولى التي وصل فيها الى موران. انها الآن تتكرر، لكن هذه المرة لحسابه، وضمن ما يراه مناسباً أو ضرورياً. في المرة السابقة، وبعد أن بيعت تقاريره، كان يشغل نفسه بالبحث عن الآثار أو برسم خرائط الحدود، بانتظار أن تصل الإجابة، وغالباً ما تكون الاجابات: عبارات عامة غامضة، أملتها لحظة نزق أو نزوة الخمر في ليلة من ليالي الشرق الحارة.

الآن يستطيع أن يتصرف بطريقة مختلفة، وبثبت للندن أنه يستطيع النجاح حيث فشل الآخرون. لذلك لم يتردد في الموافقة على أن تبقى دورتي في بريطانيا، وأن ينسى كثيراً من قناعاته، أو نزواته كما يسميها، لأنه قرر، كما قال لنفسه: « لقد حكمتُ على نفسي بالنجاح، وبالنجاح وحده ».

الأموال التي حملها معه من لندن لم يعطها للسلطان دفعة واحدة، أعطاه نصفها واستبقى النصف الآخر، وأكد له أن البقية سوف تأتي تباعاً. والسلطان الذي كان يهمه اليوم الذي يعيش فيه، وما بين يديه من الأموال، لم يعترض. قال له في محاولة تبرير موقفه إزاء تصرف الآخرين الذين وعدوا ولم يفوا:

... وطني، يا محروس السلامة، أن الجماعة اللي وصلوا الى هنا ما نقلوا كلامنا زين للجماعة هناك، لأن الجماعة أبد ما ينسون.

وبعد قليل وهو يهز رأسه:

- وروحك كانت ضرورية، وجا من وراها الخير.

كان هدف السلطان، وهو يتكلم بهذه الصيغة، أن يعرف ما إذا كانت لندن قد تخلت عن أصدقائها السابقين، وهل بإمكانه أن يتحرك من جديد. إن هذا ما يشغله أكثر من أي شيء آخر. أما الأموال التي كان ينتظرها فقد وجد مخرجاً بالغنائم التي ربحها من الحملة، إذ ساعدته كثيراً، وحلت له ولجندته مشاكل كان من الصعب أن تحل. يضاف إلى ذلك أن أمطار السنة الجديدة كانت وفيرة، وقد خلفت لديه ولدى الآخرين اطمئناناً لم يشعروا بمثله في السنوات السابقة.

قال هاملتون بطريقة لا تخلو من مكر:

- الرحلة كانت متعبة، لكنها ضرورية، لأن تجديد العلاقة مع المسؤولين، ومناقشة كافة القضايا، يختلف كثيراً عن كتابة الرسائل وانتظار الإجابات، هذا عدا عن التأخر، وقد تتعرض إلى الإهمال أو النسيان.

- الحق اللي تقوله، لأن المواجهة، العين بالعين، أحسن من ألف رسالة.

والرسائل تذهب، في الغالب، إلى أشخاص لا يعرفون المنطقة إلا على الأطلال، وهؤلاء مهما كانوا حريصين وجادين فإنهم لا يدركون أهمية القرارات وكيفية اتخاذها، فهم مجرد موظفين يقدمون توصيات على الورق.

تنفس بعمق ثم تابع:

- أما الذين لهم علاقة، الذين يعرفون الأشخاص والأماكن والعلاقات، فإنهم وحدهم القادرون على أن يوضحوا، أن يقولوا ما يجب أن يفعل، وفي الوقت المناسب أيضاً.

لما وجد السلطان أن صاحب البيت يحاول أن يعيده:

- وانشاء الله الجماعة راضين علينا ؟

- بكل تأكيد يا صاحب الجلالة، ولولا ذلك لأخذت الأمور مجرى آخر.

- لكنهم - ويلزم ما تزعل يا صاحب - هم والجماعة هناك خوش بوش،

ولو شدوا لهم الرسن ما كان الأمر صار بهذا الشكل . كانوا قالوا لهم : هذا يصير يا جماعة وهذا ما يصير .

قال هاملتون لنفسه « هؤلاء البدو لا ينسون أبداً ما يريدون ، إنهم يتتعدون ، لكن من أجل أن يقفروا ويقتربوا ، تماماً مثل اللاعب فإنه لا يتراجع الى الخلف إلا لكي يعطي لجسده قوة اندفاع ضرورية » .

رد وهو يبتسم :

- الجماعة هناك ، يا طويل العمر ، يكون لكم تقديراً خاصاً ، ويختلف عن الآخرين كثيراً ، وسوف تتأكدون بأنفسكم .

وانتهى الموضوع أيضاً عند هذا الحد .

لم تكد أسابيع تنقضي على زيارة عويد المشعان الى موران حتى جاء من قال ان عويد غاضب أشد الغضب ، وانه طلب من عمير البقاء عنده في البقعا بعد أن اكتشف أن السلطان استدعى اثنين من أولاد أعمامه ، وبحث معهما محاصرة المنطقة .

وكما تتعكر المياه إذا دهمها السيل تعكرت العلاقات وتوترت . والسلطان الذي لم يكن يحفل كثيراً لزيارات عمير لشيخ آخرين ، تحسب وخاف من هذه الزيارة ، خاصة بعد أن نقل إليه ما يقوله عمير عن الصاحب .

قال السلطان لعمه ، وفتر موجود ويسمع :

- عمير العوض يلعب بدمه يا عم ، وأول الرقص حنجلة .

- طولة البال ما مثلها ، يا أبو منصور .

- بالننا طويل يا عم ، بس أخاف غيرنا يحسبنا خايفين أو عاجزين .

- لا تخف يا أبو منصور ، وأنت معروف ومجرب .

- قالوا جماعتنا من قبل وصدقوا : إقرأ سورة ياسين وييدك حجر .

وهز رأسه بحزن ثم تابع :

- حنا ما نريد من عمير أي شيء ، بس يكفيننا شره ، وإذا النصيحة ما فادته ،
وإذا الكلام الزين ما فاد ، فيلزم يعرف أن آخر الدواء الكي ، فإذا سكتنا كل
هذي الأيام ، ما نقدر بعد اليوم .

- فورة وتنقضي يا أبو منصور .

- لكنها طالت وزادت يا عم .

- اللهم لا توصلنا الى الندم .

قال هاملتون لنفسه : « هؤلاء البدو لا يعرفون سوى شيء واحد : المال .
المال يدير رؤوسهم ، يجعلهم أطوع وأسرع من الماء على منحدر ، ويحولهم
الى فم لا يعرف غير كلمة واحدة : نعم ، فإذا امتلكوا المال أصبحوا كالكلاب
على العظام ، لا أحد يستطيع أن يقترب منهم ، لا يتركونها ، ولا يعرفون كيف
يتصرفون بها ، وأخيراً ، بعد أن يقلبوا الأموال في أيديهم مئات المرات ، بعد
أن يضعوها تحت الوسائد ، وقريباً من الصدور ، فإنهم يتركونها تسرب تماماً
كما تسرب المياه من اليد ، لا يفعلون أكثر من شراء بندقية جديدة ، أو
يتزوجون امرأة ثانية ، أو يولمون لمن يعرفونهم ولمن لا يعرفونهم ، لكي يأكلوا
أكثر مما يطيقون ، فقط ليشتوا لهم أنهم قادرون على أن يفعلوا ذلك . ولذلك
فإن الأموال لا تحل مشاكلهم ، إنها تفسدهم ، تجعلهم أناساً غير نافعين لا
للعمل ولا للحرب ، وليس لديهم مانع أيضاً من أن يحاربوا من أعطاهم
المال ، حتى لو كان السلطان ، لأنهم يتوهمون أنهم أصبحوا أقوى منه ! » .

جر نفساً عميقاً ، وقد مرت في ذاكرته صور كثيرة ، ثم أضاف : « ومع ذلك
لا بد من إرضائهم والاستجابة لمطالبهم ، مهما كان رأينا بتصرفاتهم . » .

فتر الذي كان يسمع ويتابع كان يزداد تعباً وحيرة . قالت له موضي إنها
مشتاقة لعين فضة ، وتتمنى أن يذهباً معاً . رد في محاولة للتهرب :

- آخر مرة، بعين فضه، تعبت، والأحسن أن نؤجل الزيارة.

وحين نظرت اليه بطريقة مليئة بالعتاب، رد وهو يضحك:

- عين فضة تجينا لهنّا، وما يمر يوم والثاني إلا والجماعة يكونون عندنا!

وهكذا لم يستجب فنر لعواطفه أو لطلب موضي في الذهاب الى عين فضة، خاصة وإن هاملتون قال له والطائرة تهبط في مطار القاهرة:

- السنوات القادمة هي أهم السنوات في تاريخ المنطقة، وربما في تاريخ كل شخص، شرط أن يكون الإنسان ذكياً، ويعرف كيف يختار مواقفه وأصدقائه وعلاقاته، وأن يكون أيضاً في المكان المناسب، في الوقت المناسب.

طوال السنوات الأربع التي أعقبت حملة وادي الفيض لم تهدأ موران ولا عرفت الراحة. حركة دائمة في الاتجاهات الأربعة. زيارات يقوم بها السلطان ورجاله إلى كل الأماكن وكل القبائل. الوعود تعطى بسخاء، وكذلك الأموال. الآمال تتزايد وتتراكم نتيجة التوقعات والأحاديث. أمراء الجند وشيوخ القبائل يتوافدون على موران العاصمة، ويقضون فترات طويلة انتظاراً للأموال والأسلحة. السلطان يسمي أمراء للمناطق ويبيع بهم مع الأموال والوعود لكي يجندوا الناس. أعمام السلطان وأخوته وأبناءؤه على سفر دائم. وبين فترة وأخرى لا ينسى السلطان أن يتزوج من إحدى القبائل ليكسب ولاءها وسواعدها. بكلمة واحدة: لم يبق شيء أو أحد في موران إلا وأصابته العدوى وبدأ يتحرك.

خزعل بعد أسر قلعة الرفيعة، أحس بالذنب وامتلاً بالمرارة، خاصة وأن ما يدور همساً في قصر الروض يصله، فيندفع إلى البادية يؤدي العصاة ويفرض هيئة الدولة، هكذا اقترح العم دحيم ووافق أبوه، لكن الشرط أن يكون رحيماً، كما أكد عليه العم وهو يوصيه. قال له عندما تجهزت حملة السمرة:

- أعرف، يا وليدي، أنك، والشهادة لله، سبع وعزمك يفل الصخر، بس أريدك تفهم وتتوعى: بهذي الأيام نريد نرضي الناس حتى يصبروا ويأنا، ما نريدهم قوم علينا. ويلزم بعد أوصيك: خد وعير. نوبة تمره ونوبة حجرة والثالثة عين حمرا، وعسى أن الله يوفقك وترجع سالم وغانم.

ويضحك العم دحيم ضحكة صغيرة ثم يضيف:

- والباقي، يا وليدي، أتركه علينا.

وبين حملة وأخرى، وبعض الأحيان أثناء الحملة، يبحث خزعل لأبيه، أو يبحث له أبوه، لكي يتزوج من قبيلة يسميها، من بيت يرى ضرورة كسبه. والسلطان الذي تأتبه الأخبار أن خزعل تعلم الكثير، وأن الناس راضية عنه، والخير يسير في ركابه، كان يوافق بعض الأحيان على ما يقترح ابنه، وفي أحيان أخرى يبحث إليه ببيت من الشعر يفهم منه ضرورة إرجاء الأمر، لأن ما ينتظره في مكان آخر أفضل! ولا يتردد خزعل في الامتثال لرأي أبيه، خاصة وأنه يعرف أن الرسل، والعيون في معسكره، ينقلون للسلطان كل شيء، وكان يسر لذلك، إذ ثبت من خلال ما ينقل أنه الممثل اللائق لأبيه!

وبموازاة حملة السمرا يبحث السلطان بالرسول والرسائل الى الحكام المجاورين يطمئنهم، يتفاوض معهم، يبحث شؤون الحدود والمراعي والمياه. يبحث الى الأصدقاء طالباً القروض والأسلحة، وطالباً أيضاً الاستعداد للمعركة، ويوافق على سفر هاملتون هنا وهناك لكي يستطلع، ويتفاوض، ثم لكي يتفق.

عويد المشعان أصبح يقضي في موران وقتاً يوازي الوقت الذي يقضيه في البقعا، فبعد ما وصلت الأخبار عن غضب عويد، لأن السلطان امتثل لأوامر الكفار، ولا يريد للإسلام أن يمتد ويسود، بعث السلطان عمه دحيم اليه يزوره ويعود وإياه الى موران.

وفي هذه الزيارة، ثم بإقامته في موران، وفي جو من الانفعال الديني والحماس، والذي يصل بعض الأحيان الى درجة الهوس والقسم على القرآن، مع الخشوع والدموع، وكان السلطان يؤكد أن راية الإسلام سوف ترتفع في كل مكان، ويوضح لعويد أن ما يؤخره فقط، وليس هناك ما يمنعه أبداً، هو

المال والسلاح، ثم انتظار الوقت المناسب.

وإذ لاحظ السلطان أن عويد ينفر من هاملتون ويتجنبه، فقد كلف بأمره الكثيرين، واستعان باثنين من رجاله المقربين: عنان بسيوني وأفت شيخ الصاغة، إذ طلب أن يلازمه، وأن يكونا موضع سره وثقته، والشئ الذي لم يستطع أن يتوصل إليه هو أو عمه دحيم حققه هذان الإثنان، كل بطريقة. فعنان الذي كان مملوءاً بروح مثالية، ويريد أن يعيد تشكيل العالم على نسق جديد، والذي يكره الكفرة والملحدين، ويذوب مرارة لأنه هزم في معاركه السابقة، جاء الى موران ووضع نفسه في خدمة السلطان لكي يحقق هنا ما عجز عن تحقيقه هناك، ولكي يبدأ من الصحراء مرة أخرى كما كانت البداية الأولى.

أما أفت شيخ الصاغة، فهو على قناعة راسخة انه انسان نادر، ولذلك لا بد أن يكون عظيماً، وطريق العظمة، كما زين له رفاق السوء، هكذا يقول، وهو يتذكر تلك الحماقات التي اندفع اليها في مواجهة المحتلين الفرنسيين، لأن شهادة الطب التي عاد بها من فرنسا، لا تكفي وحدها لكي توصله الى ما يريد، فكانت النتيجة أن سقط في المعركة، ولأنه لم يتعود على السجن، أو على همجية المحتلين، والذين يختلفون عن أولئك الذين عرفهم أثناء دراسته، فقد أثر الهجرة، وحين وضع أمامه الأطلس ليختار ديار الاغتراب اختار ما بين العودة الى فرنسا أو الذهاب الى موران، ولم يتأخر في اختيار موران وأن يصبح من رجال خريط. فهو يستطيع أن يقوم بمهمات عديدة، إذ بالإضافة الى مهارته بالطب، فإنه محدث بارع وصاحب نكتة ويديهة، وملم بأداب القصور، خاصة وأن تقاليد العائلة التي نشأ فيها من الرسوخ والقوة بحيث جعلت جده الأكبر شيخاً للصاغة، ومن هنا اكتسب كنيته، واكتسب معها عراقة لم يتنازل عنها في يوم من الأيام!

السلطان حين كلف الرجلين بملازمة عويد المشعان، كان فكره رغم اضطرابه يملئ عليه « أن نأخذ الناس على قدر عقولهم، » فما دام ابن مشعان

لا يثق ولا يرتاح لهاملتون، إذن لا حاجة لصداقة مباشرة بين الإثنين. المهم أن نكسب الاثنين، والمهم أيضاً أن لا يكونا معاً، لأنهما إذا أصبحا سوية ربما تسول لابن مشعان نفسه ويطمع، أو قد يرى فيه هاملتون بديلاً أو منافساً فيستغله. لذلك فإن هذه الصيغة أفضل من أية صيغة غيرها! والمهم أيضاً أن نحشد كل القوى، لكي نحارب معركتنا الأخيرة. فتصبح موران أكبر بلد في المنطقة وأقوى دولة فيها. ومن أجل الوصول الى هذا الهدف يجب أن نرضي الكثيرين، وأن نستفيد من كل قوة لكي نتصر، وبعد ذلك لكل حادث حديث! الذين يكرهون ابن مشعان يقولون انه دخل، ومنذ فترة طويلة بالإبريق، لفرط ما أصبح متديناً، فيرد السلطان أن هذا شأنه وحسابه عند ربه. ما يهم السلطان الدنيا والانتصار على الأعداء، ومن أجل ذلك لا بد من وجود المال والرجال والسلاح.

عويد طفل في الخمسين من عمره. إذا أحب جرفه حبه، وإذا كره أعمته الكراهية. عنيد الى درجة اللجاجة وسهل مثل الثمر الناضج. إذا اقتنع لا يتبدل، وإذا وثق ليس من السهل أن يحتمل الوشاة أو الذين يوغرون الصدور. علاقته بدحيم وخريط وبقصر الروض عموماً أن هؤلاء الرجال يطمحون الى الشهادة أكثر مما يتطلعون الى الملك، وأنهم وحدهم الذين يمكن أن يقيموا العدل في الأرض بعد أن امتلأت جوراً. لقد حارب معهم في الرحبة والقويع وروضة المشتى ووادي الفيض وأخيراً في الحويزة، وتأكد من ذلك. كانت عينادحيم تمتلئ بالدموع وهو يصلي على الشهداء، وكان صوت خريط، وسط الجند، وهو يلعلع: هبت هبوب الجنة أين أنت يا باغيها. ولذلك كان متأكداً من صدق إيمانهم. أما هذا الكافر الذي لا يعرف كيف جاء أو ماذا يريد، فإنه بقدر ما يخشاه، فلم تبدر منه بادرة، حتى الآن، تجعله يتأكد من ظنونه، ثم جاءت تأكيدات دحيم بأن الرجل على وشك الدخول في دين الإسلام، ويجب أن نساعد؛ قال عويد لنفسه بنوع من السخرية المرة «جماعتنا، أهل دنيا نُحوشهم هذي الأيام للدين بالعصا، وينهزمون، وهذا

جاي من تلفات الدنيا ويريد يصير مسلم؟ ما ندرى نصدق من ولا من لكن بتوالي الليل تجينا العلوم . . . وبعدها نشوف».

هاملتون يقرب المشهد كله، متحرراً من أي التزام. يريد أن يمزج التاريخ بالجغرافيا على نحو فريد؛ فما قرأه في الجامعة عن تاريخ شعوب هذه المنطقة، وما تركه هذا التاريخ من علامات وآثار في الناس والأفكار والأشياء، ثم تلك التقارير التي أتيج له أن يطلع عليها في فترات متعددة، خاصة في سفرته الأخيرة إلى لندن، والمقارنة بين التقارير الأولى والتقارير الأخير، وحجم الفرق بين الرغبات والأوهام، وبين ما تحقق فعلاً على الأرض، ثم هذه الصحراء التي عرفها جيداً، وغامر في أن يقطعها من حدها الأول إلى حدها الأخير، ولم يجزؤ أحد قبله أن يفعل مثلما فعل، يضاف إلى ذلك أنه عرف معظم الذين يملكون القوة، وأولئك الذين يملكون الطموح، وعرف أيضاً الذين يريدون أن يعبروا من ضفة إلى أخرى، أي الذين يريدون أن يعبروا الحياة سريعاً إلى الموت، بعد أن عرف كل ذلك تجمعت لديه صورة لما يجب أن يفعل.

صحيح أن المشهد، رغم كشافته وثقله، يبدو له مهتزاً، مليشاً بالتواءات والخطر، لكنه، أصبح على يقين أيضاً، أنه الوحيد القادر على أن يفعل شيئاً، وأن يصل إلى نتائج لا يمكن للآخرين أن يصلوا إليها.

أصبح، في هذه الفترة، أقل خيلاً، وأكثر واقعية، كما دفع إلى الخلف الهوايات التي استولت عليه خلال إقامته الطويلة في الصحراء، بأن يمعن النظر في السماء، ويحاول أن يتحرى مواقع النجوم، وأن يعرف مواعيد بزوغ القمر، والزوايا، ويراهن، ويشجاعة كبيرة، على رؤية الهلال، اعتماداً على حساباته وعلى عينيه اللتين لم تصابا بالتراخوما!.

إن كل ذلك جزء من تاريخ مضى وانقضى. لم يعد يرى النجوم تتدلى فوقه كالفوانيس، أو توحى له بالكثير. وأصبح لا يتذكر القمر إلا حين يراه، وهو

ابن أيام، كما يقول البدو.

ليس القمر والنجوم وحدهما ما غاب من ذاكرته، فقد غاب أيضاً ذلك الوهم البدوي الذي كان يجعله يصدق الكثير مما كان يروى له. ففي الفترة الأولى من اقامته في موران، كان يروق له أن يستمع بشغف الى تلك الأحاديث التي تعدّد الخوارق والمعجزات، وتسمي الذين شاهدوها بأمر العين، وكيف أن الكثيرين ليس لديهم ما يفعلونه سوى انتظار تكرارها. ولكي يقنع نفسه و ينتظر معهم كان يردد في داخله: «لم يتوصل العلم بعد الى تفسير الكثير من الظواهر الكونية». فإذا بدا له أن هذا التفسير لا يناسب ثقافته وعقله العلمي، يقول لنفسه بتأكيد لا يقبل الرفض أو الشك: «لا يمكن فهم شعب من الشعوب دون فهم أساطيره وبنيتة العقلية: ما هي معتقداته؟ كيف يفكر؟ ما هي منظومة الأفكار والمعتقدات والطقوس التي تجعله هكذا».

ورغم أنه أكثر الأسئلة ظل أسئلة، فإنه لم يتوقف عن الاندماج في هذا المناخ «تمهيداً للوصول» كما يقول، حين يعجز عن الوصول الى نتيجة!

لم يعد معنياً بهذا الفيض الهائل، والذي يزيد كل يوم، من الأوهام والخوارق والأكاذيب التي تشغل ليلي الشرق. أصبح أكثر ميلاً وحرصاً على أن يفكر بالأشياء الواقعية الصلبة.

حتى أفكار خريط، صداقاته وعداواته، ما يقوله وما يطمح اليه، لا تعني له الآن الكثير؛ لا بد أن يراجعها، أن يضعها في نسق يتناسب مع الخطة الأساسية التي يجب أن تنفذ. بريطانيا نفسها فردت أمامه الخرائط وقالت له: يمكن أن تعيد رسمها. هذه هي مهمته الأساسية. وهذه المهمة التي يفرضها الواقع لا بد أن تتأثر بأفكاره، بثقافته، بإدراكه العميق لما يجب أن تكون عليه المنطقة. أما أن يصبح أسيراً «لسوالف» الشرق، كما يقول لنفسه، فلا يجد غير تلك الكلمة التي يرددها البدوانفسهم وهم يصفون كلاماً غير مجدٍ أو لا معنى له. كانوا يقولون، مع حركة من اليد: خرطي!

« أكثر من ذلك عويد المشعان ليس عدواً، أو يجب ألا يكون. عواطفه لا تعني شيئاً بالنسبة لي. أن يشتمني؟ أن يتعامل معي بهذه الطريقة؟ يجب ألا أقيم وزناً لذلك، إذا كان لا يؤثر على خطتي، على ما اعتبره أساسياً ومهماً من أجل الوصول إلى الهدف ».

كان هاملتون يقول لنفسه، وقد بدت له الصورة مغرية :

« في الشرق ينسون، أو لا يدركون، الجوهرى. أنهم أبناء اللحظة والشيء الظاهر، وربما كانت الخيمة مثلاً لتكوينهم العقلي، فهي تجسد رد فعلهم الحقيقي. فالخيمة تتأثر بالآني، ولا تملك ثباتاً أو استمراراً. الريح التي تعصف الآن هي وحدها التي تعنيها وتؤثر عليها، ولذلك فهم لا يتذكرون الريح التي مرت أو الرياح التي ستأتي. وكذلك أفكارهم أو عواطفهم، انها عرضة للتقلب والتغير بتغير المناخ ».

ما يكاد يطمئن إلى هذه القناعة، حتى تهاجمه صور أخرى: « ما يثير عجبى وتساؤلى أيضاً، أن هؤلاء البدو البسطاء، ورغم ما يملأ رؤوسهم من الخرافات والأوهام، فإنهم في أحيان كثيرة، لا ينسون ما يعتبرونه أساسياً بالنسبة لهم. خربيط، مثلاً يثير استغرابي، مهما ابتعدنا، وأينما ذهبت بنا الأحاديث وشعر النبط وأمثال البادية، فحين أودعه ليذهب إلى محرابه، حيث لا يمل من «التعب» جزءاً هاماً من الليل، وقيل لي انه يتقل من محراب إلى آخر! فإنه لا ينسى ولا يتردد في توجيه الأسئلة - الام. يسألني عن الأمور التي تعنيه، ولو بطريقة عابرة، لكنها مقصودة تماماً، ورغم تصميمي على عدم الإجابة الواضحة، من أجل أن اعطي نفسي الوقت للوصول إلى الحل، فإنه لا يكتفي بتوجيه الأسئلة، ينظر إلى عيني تماماً، ليقرأ فيهما ما إذا كنت أكذب عليه أم لا. هذه النظرات تربكني، تجعلني ضعيفاً، بل وغالباً ما كنت أضطر، نتيجة تلك النظرات بالذات، إلى الإجابة بما أفكر فيه فعلاً، أو ما أريد تنفيذه. كيف يتوارثون هذه الطريقة في النظر إلى الآخرين كيف يتعلمونها؟ حتى الأطفال الصغار، الذين لم يتدربوا بعد على تلك البذاءة - البريئة، ينظرون

اليك بتلك الطريقة، وحين تكذب، تقول لك عيونهم، بشكل جارح: إنك تكذب.

لا بد من تنحية الكثير من الهواجس والاحمال التي ارهقتني خلال الفترة الماضية، والتعامل مع كل شيء بروح واقعية. هذه هي الطريقة الضرورية، وربما الوحيدة، لإقامة مملكة من طراز جديد! ».

لم يكتف هاملتون بذلك، فقد ذهب الى آخر الشوط: الى خصوم خريط، هؤلاء الذين رأهم، وهو يعبر ذلك المحيط الصحراوي الشاسع، إذ لا بد أن يختبرهم مرة أخرى. ذهب اليهم يتفاوض من أجل المراعي والمياه والحدود. مرة يفادهم باسم خريط، وأخرى يفادهم باسمائهم، كل ذلك ليختبر قناعات واحتمالات معينة، تمهيداً، لاتخاذ القرارات المناسبة، والنهائية.

خريط الذي ظل شديد الحذر من زيارات هاملتون، وبارعاً الى أقصى حد في إظهار اللامبالاة، لم يكن قادراً على منع تلك الزيارات أو معرفة حقيقة ما يجري خلالها، بل وكان يتظاهر أنه يكتفي بما ينقله اليه صاحب. وما لا يستطيع أن يعرفه منه مباشرة، يعرفه عن طريق العيون وردود الفعل. وعلى طريقة البدو لم يكن متعجلاً أو منفعلاً. فما لا يقوله هاملتون اليوم قد يقوله غداً، أو قد يقوله غيره من الذين رافقوه. فإذا لم يتوافر من ينقل الأخبار فلا بد أن تفضحها تصرفات الأعداء وعطاياهم، ومهما برعوا وتفننوا في إخفاء الأموال التي قد يحصلون عليها، أو تسريبها الى أتباعهم دون أن يحس أحد، فإنهم لا يستطيعون إخفاء الخيول. فحين تظهر الخيول الغريبة فجأة، وترفع رؤوسها وتصل، كان خريط يقول لعمه:

- صاحت مثل الواويات يا عم، ولا بد أن نصلها قبل أن تصلنا.

ويكثر من التكم والمكر، ولكي يخلق السلطان واقعاً جديداً، يختار مجموعات خاصة من الرجال الذين يثق بهم، والمملوئين شراسة وحماسة وهوساً، وفي النصف الثاني من الشهر القمري، يرسلهم في تلك المهمات

الصغيرة، لكن المتعبة، والتي لا تجدي معها الأسلحة أو القوات المنظمة، الى الحدود، الى طرق القوافل، الى مصادر المياه، لكي يفعلوا ما يرونه مناسباً، يقول العم دحيم لقادة هذه المجموعات موصياً: « اللي تغنمونه لكم وحدكم، وحلال عليكم، بس نريدكم تخوفون اللي ما يخاف، وتخلونهم ما يعرفون حلاوة نوم ».

ولان خريط برع بهذا النوع من الغارات، ومارسه لفترات طويلة، فإنه يعرف ما يترتب عليه من نتائج: ما يكاد يقع عدد من هذه الغارات، مع ما يرافقها من صخب ومخاوف، حتى يلجأوا اليه «لتأديب العصاة وقطع دابر الأشقياء وقطاع الطرق» وييدي تمنعاً متذرعاً بصعوبة هذه المهمة، أو عدم قدرته على القيام بها، وبعد الكثير من الإلحاح والضغط، ولقاء مقابل كبير، يتم الوصول الى أكثر من اتفاق!

يقول هاملتون لنفسه: « هؤلاء البدو لا يعملون شيئاً دون مقابل، وغالباً ما يضطرونك لأن تدفع ما كنت ترفضه في السابق. انهم يحتكرون معرفتهم أو مهارتهم الى أن تصبح بحاجة ماسة الى تلك المعرفة أو المهارة... وعند ذاك فقط يفرضون شروطهم، ولا بد أن توافق على تلك الشروط، وأن تكون شاكراً لهم في نفس الوقت!

» خريط ليس بعيداً عن ذلك الذي يجري على الحدود، هذه قناعتي، لكن لا أملك دليلاً واحداً على ذلك. وها نحن نلجأ اليه وحده لكي يساعدنا ».

لا يكتفي السلطان بذلك، إذ لا بد أن ترتفع أصوات المهوسين والمتطرفين، ولا بد أن يظهر أيضاً بعض الخصوم. وإذا كان هاملتون، في كثير من الأحيان، غير قادر على مفاوضة المعتدلين، أو الوصول معهم الى لغة حوار مفهومة، فإن حالته النفسية تسوء وجسده ينهار حين تحاصره تلك النظرات الغاضبة، وتملاً أذنيه ضجة أولئك الذين جاءوا فجأة الى حيث يكون موجوداً، وقد جللهم الغبار، ولا يعرف هل هم خصوم للسلطان أم رجاله، لأن كلمات

التعريض والتهديد لا توفر أحداً أو شيئاً ومرة أخرى يلجأ الى السلطان، فيبعث السلطان عمه أو أحد أولاده مع رجاله لكي يهذبوا هؤلاء الذين لا يُعرف ماذا يريدون.

مقابل ذلك التشدد الذي يعم موران، ويتركز بشكل خاص في بعض مناطق الحدود الحساسة، فإن السلطان يكون في أصفى حالاته، إذ يفيض دماثة ورقة، ويظهر خضوعاً ما كان ليُعرف عنه سابقاً، كما أنه يميل في مجالسه وأحاديثه الى الابتعاد عن هذا الذي يشغل الكثيرين، بمن فيهم هاملتون، ويلجأ أيضاً الى الغياب، بعض الأحيان، في رحلات قنص، أو الى إقامة مباريات في الفروسية أو القصيد.

ولكي تكتمل الحلقة لا ينسى السلطان خلال هذه الفترة أن يستعين بفنر لكي يكون رسولاً ووسيطاً في أمور عديدة مع هاملتون. ويقوم فنر بما يطلب منه بكثير من الإتقان والبراعة، الأمر الذي يثير إعجاب السلطان والعم دحيم. وفي هذه الفترة بالذات، وبعد أن قام فنر بالمهمة، وكأن الأمر مفاجيء، أو حصل عفو الخاطر واللحظة اكتشف السلطان أنه تأخر في تزويج فنر!

السنوات العشرون التي مرت من حياة فنر، مرت دون أن يحس بها الكثيرون، حتى نساء قصر الروض، اللواتي يرتبن الزيجات منذ الميلاد، ويقترحن، بأصوات عالية، أن تكون فلانة لفلان، وغالباً ما يحصل ذلك، فانهن أن يقترحن له عروساً مناسبة. أمي زهوة، حين استقبلته قادماً من عين فضة، ليقيم في موران، سألت أكثر من واحدة عن عمره، حسبت على أصابع يديها، ثم أغضت عنها، ولما فتحتهما من جديد نظرت إليه بإمعان تتأكد وتقارن. وانتهى الأمر بأن نسيت. ولا تتذكر مرة أخرى إلا أثناء زواج السلطان أو خزعول، أو أثناء زواج الأعمام والأحوال. تتذكر وجهه لكنها تنسى السنوات، ويطوي الموضوع!

تهاني أكثر من الشیخة قناعة أن فنر لا يزال صغيراً. حين تزوج السلطان بفرحة سألتها الشیخة ان تعدد على مسامعها اسماء زوجات السلطان وسألتهن أيضاً أن تذكرها بأسماء الاولاد واعمارهم. بدأت تهاني بحماس، عددت

أسماء أكثر الزوجات، نسيت ثلاثاً أو أربعاً، ولم تفتن الشيخة لذلك. أما حين بدأت تعدد أسماء الأولاد، ووصلت الى الثاني عشر، فقد قالت بنفاد صبر:

- هذا حدي، يا ستي، لأن عين الشيطان حمراً!

وكان تهاني، التي تذكرت موت اثنين مؤخراً من الأطفال في قصر الروض، تذكر الشيخة، وتريدها أن تتوقف. قالت الشيخة بطريقة فخمة، وخرج صوتها صلباً:

- لا تصدقي اللي ينقال. الحياة من الله والموت من الله!

موضي مع الشيخة وتهاني، لا تزال تعتبر فئر صغيراً، ويجب أن لا يفكر بأمر الزواج، رغم أن جسدها طوال السنوات الماضية كان عبثاً عليها، وقد اقتضى الأمر أن تبقى مريضة دائمة لدى الطيبة الإنكليزية! أكثر من ذلك اقترح فئر أن ترافقه، في أول زيارة لبريطانيا، لكي تجري فحوصاً هناك.

لولوة أسّرت لعدد من نساء القصر أن لسيدتها أختاً، وإن هذه الأخت ستكون زوجة لفئر، لكن باعتبار أن فئر لا يزال صغير السن، فكل الأمور مؤجلة!

الخالة مزنة أكثر الناس حديثاً عن الزواج، تتحدث عن المبدأ، ولا تتحدث عن التفاصيل أو الأسماء. «المهم أن يتزوج، ولا يهم من» لأنها تعرف أن ابنتها، شيخة، هي الوحيدة في سن الزواج، والفتاة المحتملة لأن تكون زوجة له. فبنات عمير الثلاث لا يزلن صغيرات. أما عمير، حين يجري الحديث عن الموضوع، فإنه يقول بعصبية:

- يا جماعة.. اتركوا هذه السالفة. فئر صغير، وكل شيء بوقته زين!

فإذا ردت عليه مزنة تذكره متى تزوجت ومتى تزوج هو يجيب بنزق:

- زماناً غير زمانهم، يا بنت الحلال!

وحين تصمت حزينة يتابع :

- والمساءلة، أولها وتاليها، أنه هو اللي يقرر!

كل هذه الأحاديث كانت تجري وفتر لا يدري . المرة الوحيدة التي ذكرته خالة مزنة أنه يجب عليه أن يتزوج ، نظر إليها بطريقة أخافتها ، قال وكأنه يهدد بانتهاء العلاقة :

- ما أريد هذا الموضوع مرة ثانية!

السلطان الذي كان من السهل أن يقرر لنفسه ، أو للكثيرين حوله ، وجد نفسه حائراً . قنر لا يزال صغيراً . عدد السنين التي يحملها على كتفيه لا يكفي لتحديد عمره . المرض إذا تركه في الصيف لا بد أن يأتي في الشتاء . جسده هش ، أقرب إلى القصب . أكثر من ذلك : هذا الحزن الذي يطل من عينه وعمير الذي يتظر مثل الذئب ، لا بد أن ينقض إذا سها الراعي ولو لحظة واحدة . أمي زهوة التي تتحمس لاي زواج ، وكأنه زواجها ، حين سألها السلطان عن فتاة ثلاثم فتر ، ردت بتحذير :

- البنية ، يا أبو منصور ، تنغصب ، إذا ما كان هذا الرجال ذاك ، لكن الوليد ، إذا ما راد ، إذا ظهره ما حمي ، يخرب . . . وطني أنك ما تريد لولد من أولادك أن ما يقدرينام مع مرية!

بعد الكثير من التفكير والتساؤل ، وقد تولّت فضة جزءاً من البحث ، وتولى الجزء الآخر العم دحيم ، وافق فتر على الزواج . قال للعم دحيم :

- إذا ما منه بدّ بنت خالي سند .

وسند الذي كان يسكن في المريجة ، والذي يهتم بنخيله أكثر مما يهتم بأي شيء آخر ، والذي ترك عين فضة في وقت مبكر ، « لأن الناس في عين فضة يفكرون بالآخرة أكثر مما يفكرون بالدنيا » وقد قال ذلك الكلام ، وبغضب ، حين وجد نخيل عين فضة يتراجع ويموت سنة بعد أخرى ، نتيجة الإهمال ،

لأن أكثر الناس، وخاصة أبوه، يتحدث عن أشجار الجنة أكثر مما يتحدث عن أشجار الأرض، والناس يستمعون إليه، ويهزون رؤوسهم موافقين .

قال سند لأبيه، لأخوته الثلاثة، لمجموعة من الناس، وبعد أن حزم أمتعته وقرر السفر:

- أنا رايح . . وأقولها واسمعوها: ما أريد من هذي الديرة نواة. وحقي وميراثي وصلني .

تطلع في الوجوه بحزن، وبعد فترة ليست قصيرة أضاف:

- لكن راح تندمون .

وتغيرت النبرة، أصبحت غاضبة:

- وإذا كانت عين فضة بها خير، والناس بعدها عايشة، فالفضل لهذا النخل، ما هو لشي ثاني . فإذا تركتم النخل يموت، وبس تسولفون عن الجنة والنار، فظني أن بعد كم سنة ما يبقى أحد منكم، اما تموتون أو تهاجرون .

الشيخ عوض الذي كان يسمع بطرف أذنه، لكنه كان غائباً، قام بعصية وغضب حين وجد النقاش حامياً، قال وكأنه يبريء نفسه:

- عجبي لمن آخرته بدنياه!

أما عمير الذي اعتبر تصرفات سند أقرب الى النزوة، وربما نتيجة خصومات النساء، فقد قال بحزم مشوب بالغضب:

- عيس فضة، من يوم ما الله خلق الأرض وهي بهذا المكان وبهذا الشكل، اللي يريد يزرع ما أحد يمنعه أو يرده، واللي يريد يعبد ربه، ربه يرزقه .

رد سند بعصية:

- ويلزم تعرفون: الله في كل مكان، ما هو بس بعين فضة .

وبعد قليل وهو يضحك بسخرية:

- وعين فضة مثلها مثل أي مكان غيره، ما هي مكة، ولا هي أولى القبليتين
وثاني الحرمين.

في تلك اللحظة رد الشيخ عوض بغضب ومن بعيد:

- كثيرين قبلك، يا سند، راحوا! وعين فضة ما خسرت شي.

وظلت العلاقات مقطوعة بين المريجة وعين فضة. أو بين أولاد الشيخ
عوض، لكن البنات لم ينقطعن، ومن ذلك المسرب الصغير الذي ظل قائماً
ومفتوحاً، زارت سارة أخاها في المريجة مرات عديدة، وفي كل مرة كانت
تصطحب فتر، ومنذ ذلك الوقت رأى فتر زينة وظلت في ذاكرته.

الآن، وقد حاصره العم دحيم، قال:

- بنت خالي سند

فوجيء العم دحيم وارتبك، سأل بعد أن تلفت:

- وخالك سند له بنت أو أكثر؟

.. أريد زينة!

- زينة؟

- أي نعم زينة!

ولأن السلطان في تلك الفترة يريد أن يحتفل، أن يعبر عن قوته، وأن يخلق
جواً خاصاً في موران، فقد جاءت هذه المناسبة لكي تتيح له ذلك.

الذين شهدوا الاحتفالات التي أقامها السلطان بمناسبة زواج ابنه فتر،
امتثلوا يقيناً أن السلطان سيسي فتر سلطاناً بعده. والذين لم يشهدوا تلك
الاحتفالات، وإنما سمعوا بها، كانوا متأكدين من ذلك، بل وقالوا ان
الاحتفالات أقيمت بهذه المناسبة أكثر مما هي بمناسبة الزواج. ومما زاد في
تأكيد هذه الأخبار أن خزعل لم يحضر وقيل أن فتر ذهب بنفسه الى الصغرى،
حيث كان معسكر خزعل، ودعاه، وألح في دعوته، لكن لم يستجب.

السلطان بدا أكثر شباباً من أي فترة سابقة وأكثر قوة، والصاحب كان أحد المدعويين المرموقين، وقيل انه أهدى بندقية مفضضة للعريس، لكنه أشار بتواضع إلى أنها هدية ملك الانكليز وليست منه .

أما الشيخة، أمي زهوة، فقد أكدت لولوة أنها أهدت العروسين جملاً كاملاً من الذهب، وقيل ان العم دحيم شوهد لأول مرة يرقص . أما وطفة التي كانت تنتظر أن يتزوج فتر أختها فقد أكدت، بلسان لولوة، أن أختها، تزوجت قبل زواج فتر بثلاثة شهور!

السلطان أهدى فتر حصاناً صقلاوياً عمره سبع سنين، وأكد مهيب أن لا أحد ركبه غير السلطان .

موضي قبل الخطبة، وأثناء الزواج، كانت مريضة، لكن قابلة القصر التي كانت تحجمها جاءت قبل الزفاف بدقائق حاملة عقداً ماسياً هدية للعروس من موضي .

الرصاص الذي أطلق، العطور التي صُبت على أيدي الرجال والنساء، الحلويات والدراهم التي وزعت على الأطفال والفقراء، الخراف التي ذبحت . . . وغير هذا كثير، ظل حديث موران أياماً وإياماً .

في نهاية الشتاء وبداية الربيع، بلغت الاستعدادات في موران ذروتها. جمع السلطان كبار العائلة وزعماء القبائل وشيوخ الدين وعدداً من التجار والوجهاء، إضافة إلى المستشارين، وبحو مفعم بالحماس والانفعال أبلغهم أن الإساءات والجرائم التي صدرت من سلطان العوالي، ومن القبائل الموالية له، وصلت إلى درجة لم يعد من الممكن احتمالها أو السكوت عليها، وأنه إذا لم يوضع حد لها، وبأسرع وقت، فإن موران، بسكانها وأرزاقها، بحواضرها وبواديها، بصغارها وكبارها، معرضة إلى أكبر الأخطار وأفدح المصائب. وأبلغهم أنه، شخصياً، صبر وتحمل الكثير من ابن ماضي، سلطان العوالي، لعله يعود إلى رشده، وأنه لا يفضل أكثر من السلم، ولا يريد أكثر من الأمن لموران وجيرانها. وأكد أنه لم يترك شيئاً أو أحداً إلا وحاول معه، أو عن طريقه لكي تحقن دماء المسلمين، لكن الغرور الذي ملأ عقل ابن ماضي، واستهتاره بالدين، وتعيديه على حقوق الإسلام والمسلمين، وسماحه بأن تتعرض المقدسات والحرمان للعبث والخطر، يدفعه الآن لأن يعلن، أمام الخاص والعام، وأمام صفوة أهل موران، أنه لم يعد قادراً، ولا يطيق الصبر أو السكوت.

والسلطان الذي كان مثل اللجام خلال السنوات السابقة، إذ كان يمنع رجاله من التقدم، ويتنزع لذلك بعشرات الأسباب، لم يكن بحاجة إلى هذا التحريض، أو إلى ذلك الجو الانفعالي. فقد تسابق زعماء القبائل مع شيوخ الدين، وشاركهم قادة الجند والمستشارون إلى التأكيد أن الأمور وصلت

حدها الأقصى، ولا يمكن السكوت بعد ذلك. وبالغ بعض الزعماء بأن قالوا، وبكلمات خشنة، ان سكوت السلطان خلال الفترات الماضية، ومنعهم من تأديب الأعداء، أو منعهم من الشهادة، لا يمكن أن يفهموه أو يغفروه. فقد تحملت موران أكثر من اللازم، وتناول عليها أعداؤها أكثر مما تطيق، ولولا أن السلطان جمعهم الآن لاتخاذ القرار لاتخذوه دون الرجوع اليه، ولتصرفوا بما يرضي الله ورسوله!

وأفتى رجال الدين، وأيد التجار، وحدد المستشارون ما يجب قوله للقريب وللبعيد، وأبدى قادة الجند استعدادهم بكثير من الرضا والفخار، وبارك الوجهاء كل ما قيل وزكوه، وتركوا للسلطان، بعد أن جددوا تأييدهم وأثنوا على حكمته، أن يتصرف بالطريقة التي يراها مناسبة. ولم يبق أحد من الذين ضمهم السراشق الكبير، بمن فيهم الخدم والحرس وصانعو القهوة والسواس والرواة والخصيان، والصبية الذين رافقوا آباءهم، وبعض المتسولين الذين كانوا في أطراف الخيمة، إضافة الى خمسة من العميان كانوا يقودون بعضهم، ويجب أن يحضروا كل حفل وكل مأتم، ولا بد أن يقرروا أو يشتركوا في تقرير أمور الحرب والسلم، لم يبق أحد من هؤلاء إلا انفعل واهتز، وطلب أن يكون ضمن الجيش وأول من ينتقم من سلطان العوالي!

عويد المشعان الذي رفض المجيء الى موران خلال الشهور الثمانية الأخيرة، وكان أكثر غضباً وشتيمة من أية فترة سابقة، وقال علناً، ولرسل السلطان بالذات، انه لم يعد يثق بأحد، ولا بد أن يفعل ما يأمره به الله، أياً كان رأي السلطان. . . عويد لم يأت الى موران، هذه المرة، إلا بعد أن زاره دحيم، عم السلطان، وأكد له في هذه الزيارة: «أن كل شيء انتهى، وهذا اليوم يومك يا أبو محجم». وبعد أن استوثق وتأكد، جاء، الآن، وهو يرى هذا الحشد، ويسمع هذا الكلام، ويحس الانفعال الحار يسري من جسد الى جسد، من روح الى أخرى، يلوم نفسه أنه كان سيء الظن، ولم يثق بالآخرين. كان يريد أن يهاجم السلطان، أن يعتبره متخاذلاً أو متواطئاً، لكن

بعد أن رأى وسمع سكت. حاول السلطان أن يستشير حميته، نظر إليه عدة مرات وهو يتكلم. أشار إليه، حين تحدث عن منع رجاله من مهاجمة حدود العوالي، ولما تطلعت إليه العيون لترى وتعرف، قال عويد، دون أن يرفع رأسه:

- اللي نبغيه رفع راية الإسلام أو الشهادة، وما دام طويل العمر أمر حنا لها!

ابن مياح كان أوضح وأكثر صراحة، قال:

- يا خريط، أني أقول كلمة وإن كانت تغيظك: كنا نتحدث فيما بيننا ونقول: قد بدل خريط الشجاعة بالجبانة، وكنا، قبل قدومه، نتمنى قدومه، أما اليوم فصرنا نقول: ليه ظل في بلده بعيداً عنا، فإن كان هناك دليل شرعي يؤخرنا عن القدوم فبينه لنا حتى نتيه، وما نحن إلا خدام الشرع، وإذا كان لا قصد لك غير الشح بأنفسنا عن الموت فما أحد يموت قبل يومه. وما نتمنى والله إلا أن نموت شهداء، فاي قتال أفضل من هذا القتال، وأي عمل جاء فيه الضرر للإسلام والمسلمين أكثر من عمل سلطان العوالي وأولاده.

وكان آخرون يريدون أن يتكلموا، فالإنفعال كان يزداد، والجو يمتلئ بالتوتر، لكن دحيم، الذي كان يجلس الى جانب السلطان، وقف. دق الأرض بعصاه وقال:

- يا جماعة الخير...

تطلع ملياً في الوجوه وهو يتسم بحزن، ثم تابع:

- ترى ما هو كل اللي يعرف ينقال...

التفت الى السلطان، تطلع اليه وهو يهز رأسه، ثم عاد الى الجمع:

- هذا الرجال، والشهادة لله، تحمل الكثير. حمل اللي ما تحمله الجبال، وكان بين نار قلبه ونار الآخرين.

دق الأرض مرتين، وكان بين دقة وأخرى فترة، وأضاف:

- تحمل منكم وتحمل من غيركم، وهو ما يريد إلا رفع راية الله ورسوله، وما يريد إلا مصلحتكم. وهالحين ما يلزم إلا شيء واحد: أن نكون كلنا قلب واحد، ويد واحدة، نمشي وراءه، وهذي هي الساعة، وهذا هو اليوم اللي تبين فيه المرحلة، ويثبت الواحد نفسه. فإما نتنصر أو نستشهد، وما بعد هاذا الكلام كلام!

سيطر التأثير والصمت على الجميع.

قال ابن مياح:

- ما عندنا وقت، يا جماعة، ونمشي هالحين أحسن ما نمشي باكر أو اللي عقبه.

قال عويد المشعان:

- ما لأحد حجة، ويلزم نتوكل على الله ونمشي.

قال السلطان، وهو يجيل النظر بالوجه:

- بارك الله فيكم وكثر من أمثالكم، وأقول لكم اني أشوف الجنة بوجه كل واحد منكم!

وهز رأسه عدة مرات وتابع:

- ويزنودكم وقوة قلوبكم إنشاء الله حنا منصورين.

في لحظة صمت قال أحد العميان الخمسة:

- الحرب خطاها قصار، وتاليها ندم يا خريبط. وأنتم يا أهل موران إذا كان عدوكم ما يشوف يلزم تحذروه، لأن دم المسلمين يتحاسب عليه في الدنيا والآخرة.

التفت الرؤوس الى مصدر الصوت، وقد خيم الوجوم، قال السلطان لعمه

بصوت سمعه من كان منه قريباً:

- البصير: حمد الشايح نوبة ثانية؟

وأضاف وهو يتسم بأسف:

- أولاد الشايح ما تخلص سوافهم إذا ما لوصوا بأعراض الناس يلوصون بخراهم!

والتفت الى الخلف ليرى حرسه وخدمه، ولكي يلومهم بنظراته أنهم تركوه،
وبعد قليل:

- الحق ما هو عليه، الحق على اللي تركوه يصل الى هنا!

وانفض المجلس بعد أن قال السلطان بصوت حازم، أقرب الى الحدة:

- عشاكم عندنا يا جماعة الخير، ويلزم أن ندبر الأمور كلها وما نضيع ساعة واحدة.

هاملتون الذي لم تكن تعني له هذه الأحاديث أو التفاصيل شيئاً، كان قد اتفق مع السلطان، وبعد الكثير من التأجيل والتسويق والتدقيق، أن الأمور لم تعد تحتل أو تقبل السكوت. فابن ماضي، سلطان العوالي، لم يعد إنساناً متعباً فقط، بل أصبح مرفوضاً أيضاً. فالمحاولات التي جرت معه طوال الفترة السابقة لكي يكون حاكماً معقولاً، كالأخرين، لم تؤد الى نتيجة.

كانت هناك كمية هائلة من المشاكل والمسائل المعلقة، وبقدر ما كان خريبط يلح لكي يسمح له بمهاجمة العوالي والاستيلاء عليها أو على قسم منها، فإن هاملتون يريده أن يتفهم الظروف، وأن يؤجل ويتنظر، إلى أن تحين الساعة المناسبة، فابن ماضي ليس مجرد خصم أو واحد مثل الحكام الكثيرين حوله، إنه العدو الحقيقي، وإذا كان يلوم هاملتون، والإنكليز الآخرين الذين زاروه، أو الذين التقى بهم في أكثر من مكان، على حمايتهم له، أو التعامل معه، فلم يستطع أن يقتنعهم بالتخلي عنه، أو حتى الوقوف

على الحياد. لقد حاول كثيراً، لم يترك فرصة واحدة تفوته. أكد لهم أنه الوحيد القادر، وأن لديه من الوسائل والقوى، ما يمكنه أن يصل معهم إلى نتائج ترضيهم، لكنهم، مثل البغال، لا يفهمون ولا يتحركون إلا حسب مشيئتهم وحسب أهوائهم.

قال له عمه، ذات ليلة، وهما يتساءلان لماذا يرفض الإنكليز الموافقة على التقدم نحو العوالي:

- يا ابن أخي... الانكريز مثلهم مثل ذيك المرية...

هز رأسه وابتسم. والسلطان الذي ابتسم مجاملة لم يفهم كلامه، تابع دحيم:

- ذيك المرية يا أبو منصور أما تكون لها وحدها، أو هي تصير لكل الناس.

- هز رأسه عدة مرات، وتغيرت لهجته:

- الانكريز، يا ابن أخي، أما تكون معهم، وأنت لهم وحدهم، أو يخلون بوجهك ألف نباح ويسدون بابك بألف عدو وعدو. الإنكريز يا أبو منصور، وحناء نعرفهم، ومن زمان، إذا ما كان كل شيء لهم ما يرتاحون ولا يخلون أحد يرتاح. وهذا صاحبك، الصاحب، لوعنا. كل يوم بديرة، وكل يوم عند عشيرة. كل يوم يجيك بسالفة، وما تعرف على أي جنب تنام.

السلطان الذي يشارك عمه ظنونه ومخاوفه، يعرف أكثر منه أن الأمور لم تعد مجرد رغبات أو بضع مئات من الجنود، لكي يقرروا ما يجب أن يكون. لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار القوى الأساسية، والتي يجب التفاهم معها، لأنها هي التي تقرر. وهذا الكلام لم يقله المستشارون وحدهم، ولا تملية الرغبة، وإنما الواقع، فالإنكليز موجودون على الحدود الشمالية، وعلى الحدود

الشرقية، والآن الغربية أيضاً، وهم الذين أعطوا، وهم القادرون على وقف العطاء، ويمكن أن يغيروا الملوك والدول.

هاملتون، وغيره من الإنكليز الذين جاءوا الى موران قالوا كلاماً واضحاً. صحيح أن الإنسان لا يتفق معهم في أكثر ما قالوه، لكنه لا يستطيع أن يخاصمهم، أن يكون قاسياً معهم، أنهم يقولون ما يريدون بصراحة ووضوح. وهذه الصفة التي كانت تزعج السلطان الى أقصى حد، وتجعله عصبياً ومستعداً للقسوة، لم تلبث أن أصبحت بالنسبة له صفة محبة. يريد أن يعرف ماذا يريدون بالضبط، لكي يقرر بعد ذلك ما إذا كان قادراً على الاستجابة أم لا. كثيرون غيره لا يفهمون هذه الصفة، ولا يحبونها، وبعض الأحيان يرتكبون الحماقات، لأنهم يسمعون كلاماً لا يعجبهم.

العم دحيم من جيل آخر، عاش وتكوّن في ظل قيم أخرى. لكنه الآن يلمس النتائج، وهذا ما دعاه لأن يكون هكذا مع السلطان.

قبل سنوات كان يعتبر خريط مجرد شاب نزق، يملك فقط جسداً قوياً وشجاعة أقرب الى التهور. لكن بعد أن اختبره، بعد أن رآه في أوضاع وحالات عديدة ومختلفة، وبعد أن امتحنه تأكد. قال له في إحدى الليالي:

- جماعتنا، يا أبو منصور، كانوا مساكين، اللي بقلوبهم على لساناتهم، وهذا اللي سوى بينا كل هذي السوايات.

وبعد قليل وهو يتطلع إليه بإعجاب:

- واللي جرى لنا، يا ابن أخي، إنا ضيعنا المشيتين، لا حنا بدو ولا حنا حضر، لا أحد يخاف سلاحنا وغاراتنا، ولا أحد يطمع بفليساتنا ويحسب لنا حساب.

فتر الذي نما بغفلة، ولا يعرف أحد كيف، حين استشاره السلطان، وسأله عن رأيه بهاملتون، أجاب:

- العالم، يا يويه، ما عاد بس موران واللي حول موران، العالم كبير. وهذا العالم تحكمه القوة، وأنت تعرف الإنكليز والأتراك والروس والألمان، كل واحدة من هذي الدول روضت العالم، وسوّت اللي ما يصير. كانت تركيا أول وأقوى كل الدول، لكن زمانها فات. وكان الألمان، أصحاب الصناعة: الدراييل والسيارات وسكك الحديد وغيرها وغيرها. أهل العلم والقوة. والروس نفس الشيء. هالحين الانكليز. عندهم الأساطيل، وعندهم المدافع، وهم أهل السيارات والطائرات، والبلاد اللي تتبعهم ما تغرب عنها الشمس، والواحد لازم يتفاهم معهم، لأنهم الأقوى والقادرين.

لما أحس بالتعب، وبالخجل، لأنه يتكلم وأبوه يسمع، تابع بنبرة جديدة:

- أنا شفت وقرأت، يا طويل العمر. بريطانيا أهم وأكبر. وأقوى دولة في العالم، ولا يمكن لأحد أن يعاديبها، أن يقف في وجهها، وأنت تعرف أن أسطولها، مئاة السفن، آلاف السفن، وما يصدق الواحد إلا إذا شاف.

يصمت السلطان، يهز رأسه، يغيب، يفكر بأشياء كثيرة، يعرف أن ما يقوله ابنه وما رآه بعينه، من القوة والأسلحة والأموال، لا يمكن أن يستهين به، صحيح أن فتر يتكلم مثلما يتكلم الشباب، وأن عمه دحيم لم ير شيئاً، ويفكر أن بضع مئاة من السيوف ومثلها من البنادق يمكن أن تغيّر الكثير، لكن يجب عليه أن يفكر بطريقته، أن يأخذ الأمور من كل الوجوه، وأن يقرر ما يراه مناسباً، خاصة في هذه الظروف.

لما التقى خربيط في الأسابيع الأخيرة بهاملتون، بعد أن غاب عنه ثلاثة شهور متوالية، سأله، وعيناه في عيني هاملتون تماماً:

- يلزم تقول لي، يا صاحب، جماعتكم هناك، وصاروا يعرفون كل شيء، يريدوناً أم يريدون غيرنا؟

ابتسم هاملتون بحزن، وأجاب:

- إن بريطانيا، يا صاحب الجلالة، تضع كل ثقلها وثقتها الى جانب جلالتك،

ويجب أن تتأكدوا من ذلك .

- حنا ما عاد بنا صبار، ويلزم نتحرك .

رد هاملتون بصخب :

- هذا ما جئت لكي نتفق عليه ونقرره يا صاحب الجلالة .

وبعد عدة جلسات بين السلطان وهاملتون، وأغلبها كانا وحدهما، وبكثير من الاهتمام والصبر والدقة، وبعد مراجعة الخرائط ومعرفة مستلزمات الحملة، وتسمية قادة الجند وأي الطرق يسلكون، تم الاتفاق على مهاجمة العوالي وانتزاعها من يد ابن ماضي . ومن نتائج هذا الاتفاق كان الاجتماع الذي دعا اليه السلطان، إضافة الى مجموعة من الرسل الذين بعث بهم الى عدد من الدول المجاورة والأصدقاء، مع رسائل تعدد، ولا تترك صغيرة أو كبيرة، الجرائم والإساءات التي ارتكبتها ابن ماضي، وبالتالي تؤكد أنه لم يعد من الممكن السكوت عليه .

قال العم دحيم للسلطان، بعد أن تم الاتفاق على كل شيء :

- الحمد لله . كل شيء انتهى بخير وسلامة !

رد السلطان وهو يبتسم :

- هالحين يلزم، يا عم، أن نحزم للواوي بحزام أسد، ويلزم نتحذر واجد، لان ابن ماضي إذا شاف ان المصايب كثرت وتدردت فوق رأسه يمكن يلوصها، ويسوي اللي ما يتسوى !

وهز رأسه عدة مرات، وأضاف كأنه يكلم نفسه :

- وهالحين جاء دورنا يا عم، إذا هزمتنا ابن ماضي ملكنا الأول والتالي، وإذا صار غير شيء ترى الانكريز يتركونا ويدورون على غيرنا، لأنهم ما هم مثلنا ولا مثل جمالنا يصبرون ويتظرون !

وبدأت في منتصف الربيع حملة العوالي !

من جملة الامور التي تم الاتفاق عليها: ان يكون هاملتون هناك، عند ابن ماضي، بحجة الوساطة والتفاوض؛ وان يكون تقدم جيوش السلطان بطيئاً، بحيث يحكم الحصار على العوالي تدريجياً، ويضطر ابن ماضي الى التسليم في النهاية. ولكي تحقق هذه الخطة النتائج المطلوبة لا بد من ضربات موجعة، في اماكن مختارة وفي اوقات مناسبة، وتكون موجعة اكثر حين يمارسها اناس قساة، اقرب الى الجنون، بحيث تذهب مثلاً، ويتناقلها الناس من مكان الى مكان، ومن جبل الى آخر. «ولا مانع ان يعفو السلطان عن القرى التي تخضع سلباً لا حرباً، وان يجزل لاهلها العطاء».

خربيط الذي يعرف رجاله ويعرف أعداءه لم يكن بحاجة الى خطط والى اقتراحات، ولم يكن بحاجة الى من يوصيه. فقد قضى سنين طويلة ينتظر هذه المعركة ويفكر فيها، كما أن المناوشات بين موران والعوالي، خلال السنين السابقة، علمته الكثير، اضافة الى ما كان ينقله له عيونه والمسافرون عن تردي وضع ابن ماضي، وكيف أنه أصبح متعباً لنفسه ولمن حوله، ولأصدقائه الانكليز بشكل خاص، ثم كيف ضاق به الناس وضجوا بالشكوى نتيجة الضرائب والرشاوى، وأنه لم يعد قادراً على التفاهم حتى مع أبنائه وأقرب الناس إليه.

أما ان يكون هاملتون هناك، عند ابن ماضي بالذات، فإن الحذر البدوي استيقظ دفعة واحدة، وقد ظهر ذلك واضحاً على خربيط. قال له هاملتون يطمئنه:

- ان اكون عند ابن ماضي، يا طويل العمر، افضل، لأن ذلك يساعدني على ان افهم كيف يفكر وماذا يريد وكيف يجب ان يعالج الموقف، لكي اتصرف بالطريقة المناسبة.

رد السلطان وهو يهز رأسه :

- الحق اللي تقول يا صاحب.

- ويمكن ان اعرف خططه العسكرية، وانبهكم الى ما يجب ان تفعلوه للتغلب عليه.

- هذا، الله يسلمك، اللي نريده!

- ولا بد ان تكون النتائج كما تتمنى يا صاحب الجلالة.

- انشاء الله، وينظركم وجهودكم نلقى كل خير.

لم يكن السلطان قادراً على منع هاملتون ان يكون هناك، ومع ذلك يجب الا يظهر عواطفه، ان لا ييدي ملاحظة، الآ يعترض؛ وعليه ايضاً ان ينتظر ليعرف كيف تسير الامور. قال لنفسه وهو يستمع اليه: «الجماعة، مثل ما قال فتر، ما يقدرّون الا القوي، وما يعطون سرهم لاحد، ويلزم حنا نمذّ معهم، حتى نشوف، صدقهم من كذبهم، وهذي بلادنا وناسنا وحنا ادرى».

أما خطة التقدم البطيء والحصار، فإنها تثير الشك ولا تبعث على الراحة او الطمأنينة، هكذا كان يفكر السلطان. «فالبدو روحهم ضيقة، وتعودوا على الغارة، اما تعقلهم، بدون اهلهم، وتقول لهم اصبروا، فإذا كانوا ما تحملونا وهم بديرتهم، بين اهلهم وعشيرتهم، فظني انهم ما يفهمونا ولا يتحملون. ما هو بس كذا: فوق البلا عوانة؟ تقول لهم: اتركوا البرودة والهوا الزين، واقعدوا ناظروا البحر والجبل؟ لا بالله، هذه السالفة ما تمشي مع جماعتنا».

فإذا وافق السلطان ان يكون هاملتون هناك، عند ابن ماضي، ولا يستطيع ان يعترض، فإن ادارة المعركة، وتحديد سيرها، يعود اليه، وللذين يقاتلون. هذا ما سوف يتحقق فعلاً على ارض المعركة، دون حاجة الى الاعلان سلفاً، او الاختلاف بسببه مع هاملتون.

قال لعمه قبل ان تتحرك قوات عويد وابن مياح بثلاثة أيام:

- ... وتعرف، يا عم، ما اخذنا موافقة الجماعة الا بشلعان القلب ونشfan

الروح، وما لحين يلزم نحكم جماعتنا، وما يصح ان الواحد يلعب بذيله . . .
تنفس بعمق وحزن ثم تابع بصوت عميق:

- عويد وابن مياح يحسبونها ركضة عرب، ويريدونها بيوم والثاني، هذا ما يصير يا عم، لان ابن ماضي ما هو امير القويعة ولا امير الرحبية، ولا هو مثل امير الحويزة، هذا رابطها من الهند للسند، والغلطة معه كفر، فإذا ما كظيئناه كظلة فار يلوصها علينا، يصيح وما يستريح: يا غيرة الدنيا والدين، شوفوا خريط وجماعة خريط. والانكريز وافقوا بشرط: خدوا العوالي، بس لا احد سمع ولا احد دري، اما اذا سوينها طبل وزمر، فالله اعلم تنقلب علينا!

والعم دحيم الذي فهم ولم يفهم، لم يكن يعرف ما يجب عليه او ما هو المطلوب منه، فقبل اربعة ايام، وبعد الاجتماع الذي شهدته الجميع، وبعد دعوة العشاء التي أقامها السلطان، عقد اجتماعان، وقد حضرهما ابن مشعان وابن مياح، اضافة الى اقرباء السلطان واولاده. وفي هذين الاجتماعين تم الاتفاق على كل شيء، وجيء بالقرآن وتم القسم ان لا تنتهي الحرب، وأن لا تتوقف الجيوش حتى تعاد العوالي إلى ديرة الإسلام، وان يقضى على ابن ماضي وذريته الى ابد الأبدين.

قال العم بمسكنة:

- بعد يومين، ثلاثة، الجماعة ماشيين، يا ابن أخي، وكل شيء صار معلوم وتفاهمنا عليه.

- صحيح يا عم، بس أريدك تحرضهم، أن تقول لهم المي يصير والمي ما يصير؛ وأريدك تفهمهم ان السالفة طويلة، ويمكن ما تخلص بشهر واثنين.

ويكثر من الصبر افهم السلطان عمه ان الجيوش سوف تتحرك، لكن المعركة الحاسمة يمكن أن تتأخر، وقد تتغير او يطرأ عليها تعديل، لأن الظروف التي تمر بها موران والمنطقة، بصورة عامة، دقيقة وتختلف عن اي من المعارك السابقة. ويجب الا يخرجنا الجماعة، او أن يرتبوا علينا التزامات او مواقف يصعب الدفاع عنها او تبنيتها.

ليس هذا فقط، طلب السلطان من عمه ان يفهم ابن مياح وعويد ان المعركة مع ابن ماضي وهي تختلف كثيراً عن المعارك السابقة، لذلك يجب الا يتخذوا اي موقف الا بعد الرجوع اليه والتشاور معه.

ودحيم الذي فهم على طريقته، واحس أن الامر اكثر جدية مما افترض سابقاً، وعد أن يقضي الأيام الثلاثة القادمة مع عويد وابن مياح، وأن يتحدث معهما كثيراً، وبعد لحظة تفكير اقترح ان يكون ضمن هذه الحملة، لكي «نظل نقرأ على روسهم وما يسودون وجوهنا». وافق السلطان على الفكرة بحماس ثم على الاقتراح، واكد له انه سيلحقه بالحملة خلال فترة، وسوف تكون معه قوات كبيرة.

فضة، خلافاً لمرات سابقة، لم تشعر اهداً انها سترافق السلطان، رغم أن الحركة وراء السور، وفي الجناح الكبير من القصر، اخذت تتزايد يوماً بعد آخر. النسوة، في القصر والاجنحة الملحقة به، تناقلن اخباراً كثيرة ومتضاربة حول اي النساء سترافق السلطان، لكن عندما سرت اخبار قوية ان الشيخة سترافق الحملة، فقد تأكد الجميع أن لا العنود، ولا فضة، وان كان بنسبة اقل، ستكون اي منهما مع السلطان. وسرت اشاعات، ولا يعرف من اشاعها، ان السلطان سيتزوج قبل بداية الحملة، لكي ينهي الخلاف الذي وقع بين نساها، ولكي يرضي ابن مياح ايضاً. وطفة التي سمعت ولم تسمع الإشاعات والاخبار استمرت في الاستعداد، وكانت متأكدة انها وحدها التي ستسافر مع السلطان، ومما عزز هذا التوقع انها ارسلت ابنها، مفرح، الى الرمكة، خوفاً عليه أثناء غيابها. ارسلته الى امها مع توصيات وهدايا كثيرة، وكلفت لولوة بالبقاء الى جانب البنات الثلاث. ورغم ان لولوة اشاعت في وقت سابق انها سترافق سيدتها، لكن فجأة، وبسبب الخصومة والتنافس في القصر، عدلت عن السفر، فقط لتثبت ان السلطان لا يفضل امرأة على وطفة!

لم يقتصر الامر على ذلك، تهاني اكدت لكل من سألها ان الشيخة تقرر في الأمور الخطيرة في اللحظة الأخيرة، وبعد ان تبئت خيرة لمدة ثلاثة أيام متوالية. وأضافت تهاني، وهي تبسم، ان الذي سيبقى في موران هوفنر، لأن زينة في شهرها الثالث، وتبدو خائفة، وكان هذا اول اشعار بحملها وفنر الى جانبها،

وبعد أن بحث الامر مع السلطان تم الاتفاق على ذلك. قالت تهاني هذا الكلام اعتماداً على ما فهمته من خادمة زينة. صحيح ان الخادمة لم تقل ذلك بشكل واضح، او بهذه الدقة، لكن قدّرت مما سمعته ان هذا ما سوف يجري.

خزعل تردد كثيراً على قصر الررض في هذه الفترة، وكان يجزل العطاء ويقدم الهدايا لاغلب الذين يزورهم مودعاً. وقد اتضح لكل من يلتقيه او يسمع ما ينقل عن لسانه، انه سيكون في مقدمة الحملة، اي في الكواكب السيارة. وأشار الذين يحيونه، وبأسف، ان مقدمة اية حملة، خصوصاً حملة كالتى تتوجه إلى العوالي، ستواجه اخطاراً كبيرة، وكانوا يضيفون بنوع من الفخر والمباهاة «وفي المقدمة يكون عادة اهم القادة وأشجع الجنود واقوى الفرسان»

موضي، مثل اغلب المرات، كانت بين الصحة والمرض، ومستعدة ان تصدق كل شيء. حين تنقل لها احدى الخادومات انها سمعت من نساء القصر ان فرباق تفرح وتبشر كل من حولها؛ وحين تؤكد اخرى ان فربليس اقل من خزعل، ولا بد ان يسافر في طليعة الجيش، تلازم غرفتها وتنخرط بالبكاء. أما فرب حين يسأل فإنه يكتفي بأن يتسم ويهز رأسه، دون ان يجيب. وإذا اضطرت الى الاجابة فغالبا ما تكون سريعة، مبهمة، ولا يمكن ان تفهم بدقة او على وجه واضح.

والامراء الأصغر سناً، وحتى أولئك الذين بدأوا في السنين الأخيرة أو في الشهور الأخيرة، يقتربون من مجلس السلطان، بدأوا أيضاً يستعدون للحرب. ومجلس الاثنين الذي لم يتوقف عنه السلطان ولم يوقفه، امتلأ خلال هذه الأسابيع بأئلة ورسائل وأشعار وكلها تتعلق بالحرب. والسلطان الذي كان مشغولاً ومثقلًا بالوفود والزوار والرسائل التي يجب أن يعث بها، كان فخوراً أيضاً أن تكونت كتائب دون معرفته، ودون أن يحس بها، وبدأت، بأصوات عالية، وبالحاح، تطالب أن تكون ضمن الطلائع التي تسافر قبل غيرها! جو من التفاؤل لم تشهد موران من قبل، لكن الى جانب التفاؤل مخاوف وتساؤلات وبعض الاحيان تحسب وانتظار.

طالع العريفان الذي تحسب كثيراً، وقلق لسفر السلطان، قال لناهي.

- صار لنا كم سنة يا ناهاي راسنا بارد، فما دام طويل العمر موجود فهو البلشان

معهم، وحننا ما علينا الا: خذوا وهاتوا. ها لحين، اذا طالت سفرة طويل العمر، الله يستر، وإذا النساء صارن اذكريات، ترى بلشتانا ما هي قليلة، ما تعرف تداري من ولا من.

- عرفناهم وتعلمنا يا ابو جازي، لا تخف!

- ما ينحزر عليهم يا ابن الحلال، صارن جيش، ما هن واحدة ولا اثنتين.

- قولك كذا؟

- ما هوبس كذا، صارت الواحدة فصيل، كل واحدة تنجر اربعة أو خمسة، وصارت تؤمر وتنتهي.

- كان على طويل العمر ان يجندهن، فإذا صارن عماريات لا بد ويتصر، لأن جيش الحريم يتصر بأول يوم، لأنهن بدون نخوة يتخن!

قال طالع بحزن:

- ترى، يا ابن الحلال، الحرب هنا أكبر وأخطر، ويجوز أنها الزم من هناك، فما دام طويل العمر موجود كل شيء بخير وسلامة، لكن إذا راح... وضحك بسخرية ثم اضاف يهمس:

- وها لحين بعدهم صغار، بعدهم تحت خيمة العود، باكر، اذا راح، الله يستر.

- لا تخف، ولا تحزن، تدبر يا ابو جازي، ومع ذلك جماعتنا قالوا: الخيل بلا اعنة مثل الرجال بلا اسنة.

ولم يستطع الرجال ان يتوصلا الى اية نتيجة.

وكل شيء آخر في موران يحتدم ويتغير. التجار الذين باعوا كثيراً خلال هذه الفترة، توقفوا عن البيع، لأنهم طمعوا بأسعار أعلى، وخافوا انقطاع التموين. فما دامت الحملة قد بدأت لا بد ان تنقطع طريق العوالي، ولا بد ان ترتفع الاسعار من جديد. اصحاب الخيل والجمال، الذين تفاءلوا بسنة الخصب، وقالوا إن السنوات القادمة ستجعلهم في حال افضل امتلؤوا بالقلق ثم بالخوف، لأن ما اشترى من الدواب، ولا بد ان ترحل مع الحملة لن يمكنهم من الشراء مجدداً، وعليهم انتظار المواليد الجديدة او وصول دواب من اماكن اخرى. أما اصحاب الحوانيت والذين ينتظرون المواسم، فقد باعوا في الحملة كل ما

عندهم، ولم يكونوا متأكدين ان اشياء ستأتي، او سيكونون قادرين على تأمينها في المستقبل.

ومثلما حدث في حملات سابقة، بل واكثر من اية حملة، انشغلت موران بالرواتب التي وزعت، وبالأسلحة الجديدة والثياب، وانشغلت النسوة بالحزن والانتظار. أما المسنون الذين كانوا يتابعون فقد استغرقوا في الصمت والتأمل، وكانوا اشد حيرة من أية مرة سابقة: «الانكريز ما يعطون لله، وإذا كان ابن ماضي، زلمتهم، واللي ما قال لهم في يوم من الايام: لا، تركوه وقالوا لخريبط: دونك الرجال اذبحه واللي تريد تسويه به سوءه، فאלله العليم ان صاحبننا، خريبط، اما صار نصراني مثلهم، او باكر يتلفت ما يلقي احد وياه. ويلزم نبحر زين ونسمع زين، لأننا، هذي الأيام نشوف اشياء ما شفنناها من قبل».

حمد الشايح، او حمد البصير، كما يطلق عليه في موران، تلقى وهو لا يزال في خيمة السلطان، عشرات الضربات والوخزات من الحرس والجنود ورجال الشيوخ، واكد الذين تخلفوا عن متابعة موكب السلطان انهم رأوه مدمى ومشقوق الثياب، وقد ضاعت غترته او سرقت، وقيل ان جماعته العميان كانوا اول من تصدى له وضربوه، بل واكد واحد كان قريباً منهم انه ما كاد السلطان ينهض، ايذاناً بانتهاء الاجتماع، حتى انهال العميان على صاحبهم. كانوا ينادون عليه، وما ان يجيب، ويتحدد مكانه، حتى ترتفع الايدي مع الاصوات: خذ يا ابن الحرام، مع ابن ماضي وما تعلمنا؟ مع ابن ماضي وسأكت؟ مع ابن ماضي وما نعرف؟ وذهبت صيححاته في الصخب والضجة. وقيل انه ظل في الساحة القريبة من السرداق وحيداً، كان يحاول العثور على غترته وان يصلح ملابسه، الى ان جاء ثلاثة من حرس السلطان وأخذوه ولا يُعرف الى ابن!

ولم تهدأ موران ولم تنم طوال الفترة التي استغرقها الاستعداد، وقد شوهد السلطان اكثر من مرة يذهب الى وادي الرها، وشوهد أيضاً اخوة السلطان واقرباؤه، وقد ظهر البشر والتحفز على وجوههم. وسمعت عدة مرات، وفي اوقات مختلفة من الليل والنهار، طلقات رصاص، وتبرع الذين يعرفون اكثر من غيرهم في تحليل الامر بانه لوداع الافواج التي تحركت. وقيل ان الرصاص

الغزير الذي سمع ليلة الاثنين من جهة وادي الرها، كان لوداع الامير خزعل الذي تحرك على رأس الكواكب السيارة، وأكد بعض الشباب ان السلطان اول من اطلق الرصاص، إذ اخذ بندقية خزعل، عمّرها بنفسه، رفعها على كتفه واطلق. وقال آخرون ان الرصاص الذي سمع في الليل المتأخر، من ليلة الإثنين ذاتها، ومن جهة وادي الرها، هو الرصاص الذي اطلق على ثمانية من جماعة ابن ماضي، وقد قبض عليهم في اليوم السابق، وتفاوتت الروايات كثيراً بخصوص هؤلاء، قيل انه قبض عليهم يوزعون المال الذي ارسله ابن ماضي، وقيل انهم جاءوا ليرصدوا حركة الجيش وليعرفوا معلومات عن عدده واسلحته. وقيل ايضاً انهم متسبون فقراء جاءوا لشراء بعض الدواب، ومما أكد ذلك أن صرر الدراهم التي كانت معهم أثارت السخريّة لقلّة ما فيها، ولأن بعض الدراهم كان قديماً وغير متداول. أما حمد الشايع الذي ظل غائباً ولم يسمع عنه أي خبر، فقد جاء من أكد أنه اعدم مع الذين اعدموا!

ما كاد الأسبوع الأخير من آذار يقترب حتى خرج ضارب الطبل ليبلغ الناس. كان يدق طبله بقوة ويصرخ:
- ليك اللهم ليك - لا شريك لك ليك.
يستريح قليلاً ثم يتغير صوته:

- الحاضر يبلغ الغائب يا اهل موران، السلطان يقول هذا اليوم يومكم يا نشامة.
هذا اليوم اللي يمشي به يغنم، وأبد ما يندم، ويلزم الحاضر يبلغ الغائب يا
اهل موران.

ويدق الطبل دقات قوية، حتى إذا تظامن الصوت وانزلق الى الصمت، خرج صوت مبدر الذي يسير الى جانب قارع الطبل:

- يا راكب اللي هجيجها زين

ما ضيقت صدر راعيها

ممشى العشر تأخذه بيومين

تجيك ما ملّ راعيها.

وتتابعت قوافل الجند باتجاه العوالي، كان عويد المشعان على رأس قافلة، وابن مياح على رأس قافلة أخرى. وكان خزعل في قافلة ثالثة، تبعتهما بعد

عشرة أيام . أما قافلة السلطان، وكان ضمنها فنر، فقد تأخرت في التحرك ثلاثة أسابيع، وتأخرت في الطريق كثيراً، إذ أخذ السلطان الطريق الشمالي، وهو الأطول، وكان يتوقف في القرى والدساكر ليتلقى تأييد ومبايعة الذين يسكنون على جانبي الطريق، أو الذين يقدمون من أماكن أبعد حين يسمعون باقتراب قوات السلطان .

حرب العوالي، في معاركها الثلاث، في التعقيد والتشابك وتداخل المصالح ثم تضاربها وتناقض المعلومات، الى درجة تجعل من الصعب روايتها أو الكتابة عنها . فاختلاف الرواة وتناقضهم، وتغير مواقع القوى، وبالتالي تغير مواقفها، ثم غياب الكثير من الشهود، ولا حاجة للوقوف طويلاً عند أسباب غياب هؤلاء ! يحول التاريخ الى مجموعة هائلة من الأكاذيب والتلفيقات، وإذا كان التاريخ، بصورة عامة، هو تاريخ المتصرين، ووجهة نظرهم، فغالباً ما يميل المتصرون، زيادة في النكايه والسخرية، الى رواية الحدث الواحد بأشكال مختلفة للغاية، ولا يتم ذلك دائماً بسبب سوء النية أو النسيان، وإنما أيضاً نتيجة الظروف الآنية، وما تمليه من اعتبارات، ونتيجة لتراكم الأكاذيب الصغيرة، والأوهام لتصبح وحدها في النهاية وهم الصدق المطلق، أو الرواية الحقيقية الوحيدة للتاريخ الموهوم !

فخريط الذي تأخر في موران، لم يكتف بأن يأخذ الطريق الشمالي للوصول الى العوالي، وإنما اطال وقوفه في الكثير من محطات الطريق، ليتلقى البيعة، ويطمئن إلى اوضاع الرعية، ولكي يستكمل استعداداته أيضاً . أما النجائب الذي ارسله العم دحيم، قبل موقعة السمحة بثلاثة أسابيع، الى السلطان، حاملاً معلومات دقيقة حول نوايا ابن مياح، فقد وصل والسلطان على ماء عين دامة، وكان يفترض ان يحمل جواباً ويعود سريعاً، لكنه استبقى، ولم يرسل غيره . أما لماذا حصل ذلك، فحول هذه النقطة الثانوية جداً، مثلاً، احدى عشرة رواية، كما دونها أحد الباحثين، وقد قتل هذا الباحث بعد سنة من كتابة البحث وقبل نشره، في ظروف غامضة ! طبعي لا يمكن اعادة ما كتبه الباحث لأن اوراق البحث ذاتها اختفت أيضاً، وحول هذه النقطة الأخيرة وجهات نظر متعددة . قيل ان البوليس اثناء التحقيق جمع الادوات الجرمية والثياب والاعطية الملطخة

بالدماء ويصمات الاصابع ، وكانت الاوراق ضمن ما جمع . وقيل ان البوليس حين سئل عن الاوراق كانت الإجابة انه لا يهتم أبداً بالاوراق والكتب ولا بأفكار القاتل او القتيل ، لأنها لا تعني له شيئاً ، كما انها ليست من اختصاصه . وقيل : الكتب والأوراق بيعت ، مع أشياء أخرى ، باعتبار ان لا احد طالب بالتركة ، ولم يعرف للقتيل اقرباء يرثونه ! وجاء من همس ان الباحث ، قبل اسبوعين من وقوع الجريمة ، سلم المخطوطة لاحد أصدقائه لقراءتها وإبداء الرأي فيها . وهذا الصديق ، عندما سئل اجاب انه اعادها بعد ثلاثة ايام لانه لم يستطع ان يقرأ الخط . وأكد صديق آخر يعرف الاثنين ، ان المخطوطة سلمت بعد يوم واحد فقط ، ومن قبل من تسليمها للقراءة ، الى احد مستشاري السلطان ، وحين تم الاطلاع عليها- جاء من أشار بضرورة التصرف بسرعة وحزم ، لأن المرحلة تقتضي رص الصفوف وشد عزم الامة ، لا إثارة البلبلة واغلاق الراحة . أما المخطوطة ذاتها فقد اختفت ، ولا يعرف ما إذا اُتلفت ام حفظت !

أما كيف عرف أن هذا الباحث جمع إحدى عشرة رواية حول وصول النجائب الى عين دامة ، فهذا ما قاله أحد اقرباء ابن مشعان ، الذي يعرف النجائب ، وقد التقى به في نهاية الحرب وكان هذا القريب ضمن من قابلهم الباحث لسمع منهم ، وبعد أن روى له ما سمع ، ابتسم الباحث وقال : هذه هي الرواية الحادية عشرة !

وكما تبدو هذه الرواية مشوشة ، وربما مدخولة ، فإن الروايات الاخرى لا تقل عن ذلك . مهيبوب ، رئيس حرس السلطان اشار أن رسالة النجائب ، وكانت شفوية ، اثارت الريبة لدى السلطان ، ولذلك حجز النجائب ، دون أن يُشعره . بذلك ، إذ كلف به ثلاثة يرافقونه ولم يسمح له بمغادرة المعسكر . عنان بسيوني الذي رافق السلطان في هذه الحملة ، يؤكد ان السهو هو الذي أدى الى عدم الإجابة ، لأن مشاغل السلطان كانت هامة وكبيرة ، ولا يشير بعد ذلك الى هذه المشاغل أو إبراز اهميتها . شيخ الصاغة ، يتذكر أنه سمع بوصول رسالة ورسول من العم دحيم ، لكن لا يتذكر ما بعد ذلك . أما السلطان فيعتبر أن كاتبه عرفان الهجرس ، هو المسؤول عن نسيانه . فرغم أنه أوصاه ، منذ وقت طويل ، بضرورة أن يذكره بالامور المهمة او التي تستحق التذكير ، «لأن عقل النبي آدم ما هو دفتر» الا أن ابن الهجرس لم يذكر السلطان في

عين دامة. عرفان اسر لبعض الذين يثق بهم من الاقرباء، وقد نقلت احدى قريباته، وكانت قد سمعت منه أن السلطان تعمد النسيان، وقد ذكره عرفان بالأمر ثلاث مرات في ثلاثة أيام متوالية، وكان في كل مرة يهز رأسه ويتسم؛ وعرفان يفهم معنى الحركة والابتسامة، أو ما يعني باختصار: الأمر لا يستحق الاهتمام!

اقوى الروايات وأكثرها تداولاً، على الأقل خلال الفترة الأولى، تلك التي رويت عن لسان دحيم، عم السلطان. إذ بعد أن وصلت طلائع الجند الى الصفا، وكان يفترض أن تخيم وتبقى هناك الى حين وصول جند الامير خزعل، او اوامر من السلطان لمتابعة المسير، بدأ ابن مياح يعد العدة، وبسرعة، للوصول الى السمحة. اكثر من ذلك بدا غير مستعد لسماع اية وجهة نظر أخرى، وكان، بين خاصته، يهدد ويتوعد أن يجعل السمحة أثراً بعد عين، وقد ادى هذا الموقف إلى خلاف مع دحيم، وإلى حدة في العلاقة بين الإثنين، مما دفع دحيم الى البقاء في الصفا. ولم يتردد ابن مياح، في إحدى المرات، وأثناء مناقشة مواصلة الزحف والخطة التي يجب اتباعها أن قال لدحيم:

« اترك، يا ابن الحلال، أنا والسلطان، من حلقة لاذني، قال: ما هو كل يوم نقدر على ابن ماضي، وما دام صار لنا فلا تترك حجراً على حجر، ولا تترك أحد يعتب عليك، ولا تسمع أي شيء من أحد ثاني!

أما ما كان يجب ان يفعل، ولماذا لم يفعل، ومن المسؤول، فإن اختلاط الوقائع وتشابكها لا يترك مجالاً لحسم الكثير من النقاط.

لكن قبل إصدار الأحكام أو تقييم النتائج، لا بد من السؤال الأساسي: ماذا حدث؟

حتى هذا السؤال الذي يفترض ان لا يكون موضع خلاف كبير، فإن الإجابة عنه تتفاوت أشد التفاوت.

احد الذين كتبوا سيرة السلطان، وقد جرى ذلك، بعد حملة العوالي بسبع سنين، كتب ما يلي: «وابن مياح، ذلك المتعصب، الضيق الافق، والذي كان يمتلىء غروراً وطموحاً، لم يمثل لاوامر السلطان، إذ اندفع، كما تندفع

الحيوانات الهائجة، واستغل عنصر المفاجأة، ليهاجم السمحة، وكانت جنود حاميتها في غفلة عما يجري، إضافة إلى أنها حامية قليلة العدد. وبعد معركة لم تدم سوى بضع ساعات اندحرت الحامية، وأعلن من فيها التسليم، لكن ابن مياح طلب من جنده ان يلاحقوا رجال الأعداء ويفنؤهم عن بكرة أبيهم. وقد امتثل الجنود للأوامر، وقاموا بأعمال قاسية، وحين وصلت الأخبار الى صاحب الجلالة السلطان استشاط غضباً، ثم غرق في الحزن، وقد شاهده الكثيرون يبكي والدموع تساقط على لحيته. ويحث ابنه فتر على عجل لكي يضع حداً للمجازر والاساءات التي ارتكبها ابن مياح.

احد «المؤرخين» الذين سجلوا تاريخ موران، كتب عن موقعة السمحة الآتي: «ثم اندفع جند موران دون أن يدري بهم أحد، واشتبك الطرفان بمعركة دامت عدة ساعات، أسفرت عن هزيمة جنود ابن ماضي، وقد رابط عدد من هؤلاء الجنود في الهضاب القريبة، وشرعوا يطلقون مدافعهم على المجاهدين الزاحفين، ودامت الحال ثلاثة أيام دون فائدة، تدفقت بعدها قوات موران على المدينة. وفي هذه الأثناء أخذ بعض الاهلين يطلقون الرصاص على جيش موران، مما ادى الى مذبحة رهيبة لم تقف الا بتدخل ابن مياح ذاته، ولما درى السلطان بذلك أصدر أوامره المشددة بعدم التعرض للسكان الأمنين المسالمين، وأمر بدفع التعويض لجميع الذين سلبت أموالهم أو أصيبوا بفقد عزيز، وأمر بتأليف لجنة خاصة لهذا الغرض النبيل».

وكتب باحث جاء الى موران متأخراً ليقوم بمهمات كثيرة، بما فيها كتابة التاريخ، كتب عن تلك الموقعة: «دخل جند موران السمحة كالسيل الجارف، وهم يكبرون ويهزجون ويطلقون بنادقهم في الفضاء، ثم طفقوا يطلقونها في الأسواق، وهم يطوفون المدينة، فقتلوا عددا من الابرياء...

«وكان قد تخلف في المدينة جماعات من البدو، ناهيك بمن دخل مع الجيش، فاختلطت هذه الجموع في ظلمات الليل، وكانت ساعة الهول والفرع. راحوا يطرقون الأبواب ويكسرونها فيدخلون البيوت اما قهراً واما بعد أن يؤمنوا أصحابها، ثم يعملون فيها أيدي السلب، وكانوا يقتلون في سبيل السلب».

أما هاملتون، فكتب عن موقعة السمحة، بعد سنوات ما يلي وقد اعتمد على اليوميات: «فلم يلق جيش موران مقاومة تذكر، وحين اندحر جيش العوالي، فرّ مع الجيش الآلاف من السكان والمصطافين. وطارد جنود موران القوات المتقهقرة واللاجئين، فقتلوا جميع الشاردين منهم، واشتبكوا مع قوات العوالي ففر جند ابن ماضي في حالة من الاضطراب عبر المنحدر الجبلي العميق. أما ابن مياح مع بقية جيشه فقد أعمل السيف في سكان السمحة واخضعهم لحكم اربابي، قاتلاً المشركين. ونهب جيشه كل بيت وكل انسان».

ويضيف هاملتون «كان هذا كافياً لبث الرعب والذعر».

وفي وقت متأخر كتب مؤرخ محايد حول تلك الوقعة «وقد استولى جند موران على خزين الذخائر العسكرية في السمحة، واستيحت لمدة ثلاثة أيام، وفر الكثير من أبنائها، وسقط المتبقون صرعى بأيدي جند ابن مياح».

والباحث الذي جاء الى موران والعوالي ليدرس ويدون تاريخ المنطقة وجغرافيتها كتب عن الأيام الثلاثة التي أعقبت دخول المدينة ما يلي: «وبدخول ابن مياح أمر بجمع السلاح وبفتيش البيوت، فاضطر لذلك أن يخرج الأهالي منها، فسيقوا نساء ورجالاً وحبسوا في حديقة عامة ثلاثة أيام، ثم أطلق سراحهم وأذن لمن شاء منهم بالخروج من المدينة»

لم تكن معركة السمحة، إذن، واحدة من معارك عديدة يمكن على ضوء نتائجها أن يتقرر مصير الحرب، ومصير ابن ماضي. كانت البداية، وكانت النهاية معاً.

فالذين شكّوا بقوة خريبط، او الذين كانوا يشكون بإمكانية أن يغزو العوالي، رأوا بأم أعينهم جنده يندفعون فلا يقف في وجوههم احد، وحتى المقاومة الضعيفة هنا أو هناك كانت بهدف المشاغلة والتأجيل، من أجل ترتيب صيغة ما لابن ماضي. والذين أكدوا أن الإنكليز لن يسمحوا بتقدم قوات خريبط، اكتشفوا انهم كانوا مخطئين، فالإنكليز هم الذين طلبوا من خريبط أن يغزو العوالي، ومما عزز هذه القناعة وأكدها أن الأموال التي صرفت، والأسلحة التي ظهرت، إضافة الى العدد من المستشارين الذين كانوا يأتون بين فترة وأخرى، وكانوا يدربون

الجنود على المدافع الجديدة، لم يكن ليتم لولا موافقة الانكليز وتشجيعهم! ولم يكن الأمر بحاجة الى براعة أو ذكاء لمعرفة هذا التحول الذي حصل. وأن يقع هذا التحول تتحول عواطف الكثيرين ومواقفهم.

أما بعد معركة السمحة، وما جرى خلالها، فقد قال الكثيرون: «أفضل طريقة ان يراقب الانسان نطاح التيوس والأسلم ان لا يقترب منها».

فابن مياح الذي اندفع بتلك الطريقة، كأنه يريد أن تنتهي الحرب منذ أيامها الاولى، هدفه أن يكون وحده المستصر. والسلطان كان يرغب للحرب أن تنتهي في أيامها الاولى أيضاً، لكنه يريد أن يكون المستصر الوحيد، ولذلك نسي الرد على رسالة عمه، وترك الحرب تمتد شهوراً طويلة لأنه خلال ذلك سيكون أقدر على ترتيب الوضع لما بعد الحرب.

فناصل الدول كتبوا الى دولهم أن خريط يتقدم، وأنه وحده الذي يزداد قوة، في الوقت الذي يتراجع فيه الآخرون، خاصة ابن ماضي، ويضعفون. وكتب الدول الى القناصل أن يحرصوا على شيئين اثنين: ان يقيموا علاقات، لكن حذرة، بالسلطان خريط، وأن يكسبوا وده، ويجب أن يذلوا أقصى جهدهم للمحافظة على أرواح مواطنيهم والمواطنين الاجانب. أما فيما يتعلق بالمذابح التي جرت، والفظائع التي ارتكبت، والتي إقشعرت لها جلود القناصل، وابدوا تأثراً زائداً، وبالغوا بالوصف والارقام وإيراد الوقائع، فقد أشارت الدول الى قناصلها أن الامر شأن داخلي، ويحسن عدم التدخل فيه، لكن يجب، مع ذلك، مراقبة كل شيء وتقصي أدق المعلومات، لأن الوقائع والمعلومات ستكون ذات فائدة في المستقبل!

ورغم ان رسائل القناصل كانت تفيض بالعاطفة وتمتلئ بالتفاصيل، ولم يتورع قنصل هولندا عن تسجيل اسماء عدد من العائلات التي أيدت، وتعداد الاموال التي سلبت، وقد أورد القنصل جميع ذلك اعتماداً على مشاهدة رجل عيان، فإنه لم يذكر اسم الشاهد، وكان جواب هولندا الى قنصلها: «في الشرق غالباً ما تكون الحروب بهذا الشكل، ولذلك نرى أن تتحرى بدقة، وأن تكون شديد الحذر في علاقاتك مع الذين يزودنك بالاخبار»!

الامهات اللواتي كن يعرفن اسم عويد المشعان، وكن يخوفن أولادهن باسم هذا الوحش، فجأة تراجع هذا الاسم، واصبح اسم ابن مياح على كل شفة ولسان. وبالغت النساء في رواية الروايات عما حصل في السمحة، وقد ادى ذلك الى غضب الرجال، لأن الحديث، حين كان يجري كان يولد ظلالاً من الشهوة، هذا، على الأقل، ما يستشعره الرجال في أحاديث النساء، وكان غضبهم يتغلف بشجاعة خائفة، او بذلك المزيج من التقدير مع الكراهية!

ابن ماضي لا يريد ان يصدق ما حصل، فغضبه يزداد يوماً بعد آخر، ومع الغضب الشتائم وتحريك القطع العسكرية، والتدخل بكل صغيرة وكبيرة، حتى ما يكتب في جريدة «الزمان» من مقالات كان يقضي ساعات في مراجعتها و«تعزير همتها» كما يقول، حين يستبدل كلمات بأخرى، أو حين يضيف بعض الكلمات والعبارات أو أبياتاً من الشعر. ومع زيادة التدخل، وفقدان الثقة بالآخرين، أو الشعور بفثور حماسهم، تزداد الاخطاء، وتتراكم الهزائم، ويزداد معها الشعور بالإحباط وخيبة الامل.

لماذا وقع كل هذا وكيف حصل التحول بهذا الشكل وبهذه السرعة؟ ولماذا يصبح حتى الابناء والأقرباء وأكثر الناس صلة، وخاصة الكبار، خصوصاً؟ لماذا يتحولون؟ لماذا يتكلمون في الوقت الذي يجب أن يصمتوا، ويقدمون أفكاراً وإقتراحات مليئة بالجبن وإن كان ظاهرها الشجاعة؟ حتى الشجعان الذين يريدون أن يموتوا، فإنهم يفتقرون إلى الأسباب الوجيية التي تجعل موتهم مبرراً أو ذا معنى!

وإذا كان ابن ماضي يجد نفسه في هذه الدوامة من الهزائم وخيبة الامل وتراكم الأخطاء وعدم الفهم، وحتى التنكر، فأكثر ما يعز عليه، وأكثر ما يؤلمه، إن لا احد يفهمه، حتى زوجته التي يحبها، ويسمع منها الكثير، يجدها مع الآخرين أكثر مما هي معه، فالأبناء والمستشارون حين يجدون صعوبة في التفاهم معه، فإنهم يلجؤون إلى الأميرة، كما يسمونها، ويبالغ بعضهم فيسميها الملكة؛ ويطلق بدائية، ويحيل مكشوفة، وتلك القصص التي يتناقلها السقا والخدم يملؤون رأسها، فإذا امتلأ لا بد أن تفرغه، ولا تجد غير زوجها

والاولاد الصغار. كان ابن ماضي يعاني أشد المعاناة. كان يصرخ، يعربد، يرفض أن يستقبل هؤلاء المجانين الذين وفدوا عليه دفعة واحدة. ولا يعرف كيف او من دفعهم. فإذا استطاع لهم ردا، أو استطاع بما تبقى لديه من قوة ودهاء أن يتكلم معهم بطريقة توضح لهم أكثر مما ترصيههم، كان يجدها في القسم الخلفي من القصر، أو في الليل المتأخر، تنتظره لكي تقص عليه، ما يعرفه الصغير والكبير، وبالتالي لكي تطلب منه طلبات لا يعرف كيف أمكن للآخرين أن يقنعوها بها، أو كيف استطاعت هي أن تقنع بها. عندئذ يثور، يحطم، يصرخ، وأخيراً لا يجد سوى الوحدة ملجأ ومهرباً!

قال بعض خدمه، إنه لا يفعل شيئاً سوى أن يدير رأسه من ناحية إلى أخرى. أصبح رأسه، كما يقول مفرح، خادمه الذي لا يكاد يفارقه: مثل بندول الساعة، لا يتوقف ولا يهدأ. فإذا أراد أن يستريح فإنه يغير اتجاه حركة الرأس من الحركة الأفقية إلى الحركة العمودية.

الرسائل التي تأتيه من أولاده، ومن قادة الجند، وحكام المناطق، وحتى من شيوخ القبائل أو الاحياء، لا بد أن يعرف مرسلها قبل أن يفضها، وكثيراً ما أعاد الرسائل أو مزقها دون أن يقرأها. كان يعرف لماذا أرسلوها، وماذا يريدون أن يبلغوه بها. ولأنه يخاف قوته مثلما يخاف ضعفهم، فقد ظل حريصاً على أن يبقى في تلك المنطقة العازلة. إذا لم يمثل له الآخرون، إذا لم يفهموا، بعد كل ما حدث، ويقفوا عن قناعة إلى جانبه، فإنه من ناحيته لا يريد أن يسمع كلمات الخوف والضعف، ولا يريد للذين عرفهم في اوقات سابقة وأوضاع أخرى، أن يراهم الآن، ومن خلال الرسائل، وقد ضعفوا أو تراجعوا، ليس ذلك فقط، وإنما امتلأوا فجأة بهذا الكم من العقل والحكمة! كان يتساءل، في أحيان كثيرة، كيف يمتلك الجبناء والضعفاء والمهزومون هذا القدر الكبير من الحكمة، يخرجونه كما لو أنهم يسلحون على أنفسهم. ويباعد ما بين ساقيه، يحك هناك، ويقول: «الاصدقاء الجبناء هم الذين يسبون الهزيمة، أكثر مما يفعل الاعداء».

خريط، في الضفة الاخرى، يلعب اللعبة ببراعة وأحكام: اضرب، اضرب بقسوة، حيث لا يتوقع، ولا تتركه يرتاح يوماً واحداً. تقدم دائماً، والتقدم ليس

فقط الى الامام، إنه في بعض الاحيان بالتراجع، باخلاء بعض المواقع، حتى لو كان الامر مجرد عبث، فقط لتحل الآخر يحار فيما تفعله. والعبث، او عدم المنطق، اثناء الحرب، يمكن أن يكون منطقاً، طريقة مناسبة، لإنهالك الخصم، خاصة اذا كان شيخاً، ويفترض انه امتلك الحكمة كلها! اعمل الشيء الذي لا يتوقعه أبداً. وحارب بأساليب وبقوى لم يألّفها ولم يتصور إنك تملكها. ويمكن أن تجند عليه أقرب الناس إليه. لَوْحَ لَهُم، اقنعهم، إبعث بالرسل والهدايا والوعود، ابعث كل ذلك مع أشخاص يثقون بهم، او على الأقل يعرفونهم، وليس المهم ان تكون صادقاً في الوعود او غير صادق، المهم الآن ان تخرب جبهة العدو، أن تفذ إليه من كل المسارب، وعند ذاك، وبعد ان تصل إلى المواقع التي تريدها، تبدأ بمفاوضته من حيث وصلت لا من حيث بدأت. أما الشيوخ، فإن أفسى حرب يمكن أن تشنها عليهم هي أن تدمر أعصابهم، اذ لم يبق لهؤلاء سواها، بعد أن غادرتهم قواهم وآمالهم، وعليك أن تضرب في موضع الألم، يجب أن تضرب الرأس والخصيتين، وكلما كانت ضرباتك شابة، كانت مؤثرة. الضربات الشابة هي الضربات المختلفة عمداً يتوقعون ويتنظرون، وهي التي تؤثر فيهم ويمكن أن تدمرهم.

شهور طويلة في حرب لم تتوقف يوماً واحداً. ولا يشبه فيها يوم يوماً غيره، ولا يشبه مكان المكان الآخر.

قال ابن مياح لعويد ذات ليلة، وبعد انقضاء شهور على سقوط السمحة:

- يا أبو محجم... ترى سالفتنا طالت، وهذا خريبط حاط يد على الرحمان ويد على الشيطان!

رد عويد وهو يتسم بحزن:

- اللي به عادة ما يتركها يا ابن الحلال، ومن قبل قالوا: يظل ذنب الكلب بالقصة اربعين يوم ويخرج أعوج!

- لكن حنا ما عاد بنا صبار. اهلنا وديرتنا وأولادنا، فإذا ما مشى، وحدنا مشينا، وإذا ما تحركنا راحت علينا!

- حسابات الشيوخ، يا أبو جازي، طويلة وما تخلص، فإما تصبر عليهم أو يصبرون عليك، لكن أبداً ما تعرف شلون يفكرون وشنهو اللي يريدونه.

رد ابن مياح بعصبية :

- يا ابن الحلال قلنا لربنا إنها يوم والثاني ، وتذكر يوم السمحة ، كنا متفقين إننا إذا صيِّفنا هنا نَرْبِعُ بآخر العوالي ، لكن ، مثل ما تشوف عينك : الصيف انقضى ، وعقبه الشتاء ، وهذا اول ربيع ، وما ينعرف بعده كم ربيع يجي . وإذا قلنا وحكيئا يقول : طولة البال ما مثلها ، وهذا ابن ماضي العود فارق ، ها لحين أبو الزغب إذا تحمل الصيف ما يتحمل الشتاء ، وكل شيء بوقته زين .

العم دحيم الذي غضب خلال فترة معينة ، لأن السلطان لم يجب عن رسائله ، ما لبث ان اصبح شخصاً آخر . قال له السلطان بعد معركة السمحة بشهرين ، وكان هذا اول لقاء :

- . . . وتعرف ، يا طويل العمر ، هذي حرب ، وبالحرب كل شيء يصير . حنا بحاجة الى ابن مياح والى عويد . وأنت تعرف الجماعة : بين الصلاة والصلاة صلاة ثالثة ، وبين الركعة والركعة ركعة ثالثة . وكأن الواحد منهم يسلف رب العالمين ، أو أنه يتصور دينه على الله ، ها لحين ، اكبر من الجبال ، ومثل ما قلنا بموران : يلزم نأخذ الناس على قدر عقولهم ، فتركنا السمحة لابن مياح ، وهذا دين ، ويلزم نرد دينه ، اذا ما هو اليوم اللي عقبه ، والسمحة ، والشهادة لله ، ما تركت لابن حرة قلب ، كل واحد يتلمس على رأسه ويقول : الله يستر . وصل خرييط وجماعة خرييط ، ومثل ما قالوا جماعتنا : صبت الغنى ولا صبت الفقر !

رد دحيم ، وكان صوته رخيماً :

- اللهم قَدِّم اللي به الخير .

وتغير صوته قليلاً :

- وحنانريد ، يا أبو منصور ، رضا الله ورضا الوالدين !

وحين بدأ العم دحيم يتساءل ، ولا يسأل ، كيف ستكون المعارك القادمة ومتى ، رد السلطان إن الأمر يتطلب مدة ، انتظار وصول قنابل المدفعية ،

وإصلاح المدافع المعطوبة. وأشار الى أنه بعث بطلب الذخيرة والمهندسين الذين يصلحون الأسلحة.

فضة لم تكن فقط مع السلطان، وإنما كانت في أحسن حالاتها، لأنها أنجبت الولد الرابع، في هذه الحملة، ورغم أن السلطان تزوج في محطة من محطات الطريق، فقد كانت شديدة السرور بعد معركة السمحة، وطلبت، وألحت كثيراً، أن يسمى السلطان الابن الذي سيولد منصور، لكنه تردد، وانتابه الحزن وعادته الذكرى، مما اضطر فضة الى صرف النظر، واختارت، وبمساعدة اثنين من أقربائها. تسميته: فواز، وهذا ما حصل.

هاملتون الذين قضى شهوراً طويلة في بلاط ابن ماضي، وأبدى حرصاً واضحاً لكي يصل مع خريطة الى نتائج ترضي الطرفين وتنتهي النزاع، ما لبث أن صمت ثم غاب، عندما بدأت الوساطة بين الطرفين. أما الآن، وبعد أن سافر ابن ماضي، وجاء مكان ابنه المعز، فقد جاء هاملتون أيضاً في زيارة خريطة:

- ... والجماعة، يا طويل العمر، مستعدون للموافقة على أية مطالب: ترسيم الحدود، بما في ذلك المناطق التي تم الاستيلاء عليها؛ إقامة علاقات حسن جوار وصدقة؛ إنهاء منازعات المياه وإسقاط المطالب...
ويتسم هاملتون ويضيف كأنه يكلم نفسه:

- كل هذه المطالب مرفوضة، ولا بد الآن أن ترحل عائلة ابن ماضي نهائياً وتترك الامانة للامة لكي تقرر ما تراه مناسباً لمستقبل العوالي.
ويدون صعوبة يفهم السلطان تماماً.

ولم تمض شهور حتى قال السلطان لابن مياح ولعويد، وبجفاء:

- اذا كنتم تريدون تشاركون فئر المعركة فأهلاً ومرحباً، حنا حضرنا كل شيء، والمعركة بين يوم والثاني، ولا بدّ نخلص من آل ماضي ونرفع راية الإسلام.

صمت قليلاً، تطلع الى الرجلين بنوع من التشفي وتابع:

- وحنّا، إذا قلنا كلام، إذا أعطينا قول، أبداً ما يصير اثنين ولا نتراجع عنه، لكن

يلزم للبني آدم أن يتحضر، والحرب هذي الأيام ما هي مثل قبل، تحتاج،
هالحين: المدافع والذخيرة. . . وحتى الطيارات، مثل ماشفتو قبل كم شهر،
لما رمونا من السما.

تنفس ملء صدره، صمت، ثم أضاف، وكان صوته حاداً ومزهواً:

- وها لحين، وبتوفيق من الله، وبعدما حضرنا كل شيء، ترانا إذا ما مشينا اليوم
نمشي اللي عقبه، فاللي يريد يمشي معنا فأهلاً ومية مرحباً، واللي ما يريد
بكيفه!

ولم يكن أمام الرجلين سوى أن يظهرأ استعداداً وصل حد المبالغة، فقط
يحتاجان الى فترة قصيرة من أجل أن يستعدا. قال دحيم:

- نرى قوات طويل العمر كافية وزود، بس أبد منصور ما ينسى احد، وقال:
جماعتنا، وأبد ما ننساهم، ويريدكم تكونون معنا.

قال السلطان بنوع من الغضب:

- اللي قلته، يا طويل العمر، هو الصحيح، بس يرحم والديك لا تلح ولا
تخرج احد، لأن الله لا يكلف نفساً الا وسعها!

قال عويد:

- حنا حاضرين وجاهزين يا طويل العمر، وانشاء الله نبقي الوجه.

قال ابن مياح:

- لا احد يقدر يمنع مؤمناً من الجهاد في سبيل الله.

وبهذه الطريقة تم الاتفاق على معركة الطريفة، وهي آخر معارك العوالي.

أثناء الاستعداد لمعركة الطريفة، والتي يفترض أن تكون آخر المعارك في العوالي، وعلى ضوء نتائجها يتقرر مصير الحرب، وقعت اضطرابات على الحدود، من جهة الحويزة، وقد تضاربت الاخبار حولها كثيراً، الأمر الذي اضطر السلطان لإرسال ابنه خزعل على رأس حملة لقمع الفتنة وتأديب العصاة، وأوفد معه أيضاً ابن مياح والعم دحيم.

وقد أوصى الجميع، وبلمهجة قوية، وقيل غاضبة وقد شابها الخوف، ان يكونوا في منتهى الحزم، «لأن الأمور لا تحتل، وما عندنا لحية مشطة، خاصة بهذا الوقت».

ورغم أن السلطان كان على ثقة ان تلك الاضطرابات ليست بعيدة عن تأثير ابن ماضي، وهي للمشاعلة وتشتت القوات، أكثر مما هي خطرة، وتشكل تهديداً للسلطنة، فقد حرص أن يكون ابن مياح مع القوات المتجهة إلى هناك، لأنه يريد أن يتفرغ للمعركة الرئيسية هنا، وأن لا يشاركه احد في جني ثمار النصر. قال لخزعل يوصيه:

- أنت في الحويزة السلطان، أنت اللي تؤمر وتحكم، ويلزم الكل يطيعك؛ حتى عمي دحيم أنت فوقه.

بصمت قليلاً، يفكر، ويخرج صوته صلباً:

- وابن مياح إذا شاخ، إذا قال يصير وما يصير، تكسر رقبتة، وما عندنا كبير الالبعير.

أما مع عمه دحيم فتكلم بطريقة ثانية:

- ... وتعرف يا عم، الجماعة هنا يلزم لهم كم عصا، ويلزم لابن مياح ان

ينفث، فاتركوه يتناطح ويأهم الى حين ما يتعبهم ويتعب، وإنشاء الله شهر
والثاني موعداً، من جديد، بموران!

وتغير صوته :

- وخزعل يلزمه يتعلم شلون يحكم، لأن البني آدم مهما عاش آخرته
الممات، وإذا كنا هالحين عايشين وفوق راسه. ونقول له سي ولا تسو،
باكر أو عقبه يكون شوره من راسه، ويلزم أنه يكون شاف وتدرّب.

وبعد قليل وبلهجة ودودة :

- وأنتم فوق رأسه تشورون عليه، وأنا وصيته أنه ما يسوي أي شي الا بشوركم
وبمعرفةكم، وظني أن الامور هناك سهلة، وهو كان معنا أيام الحويزة ويعرف
الديرة والناس، والناس تعرفه وتحبه.

مع ابن مياح كان شخصاً مختلفاً :

- ... بالشدايد ما لنا غيرك يا أبو جازي، وأنا ما اخترتك الا لثقتي بك
ولا اعتمادي، بعد الله، عليك.

تنفس بعمق ثم أضاف :

- انا خايف يا أبو جازي أن الجماعة هناك ما تحركوا الا ومن قال لهم السلطان
والجيش كله بالعوالي، وإذا براسكم شي هذا اليوم يومكم، والجماعة ما
يقدرين يردونكم، بعيدين ومشغولين بابين ماضي

وتغيرت اللهجة :

- واريد منك، الله يسلمك، ان تثبت لهم ان يدنا طويلة، وأن إيماناً بالله ورفّع
راية الإسلام ما ياخرنا عنه شي، ويلزم يتأدبون ويعرفون حدهم، وهذول
شيوخهم واللي قالوا لهم ثوروا، اريدك ما ترحم منهم احد.

وعاد الى اللهجة الاولى :

- وخزعل مثل ولدكم تشورون عليه وتوصونه . . .

وضحك السلطان وهز رأسه، وبعد قليل :

- والاولاد، يا ابو جازي، راسهم حار ومستعجلين، والواحد يلزم ياخذهم على قدر عقولهم!

هاملتون الذي أشار على السلطان أن يبعث الى الحويزة خزعل وابن مباح كان أكثر خشية من السلطان، أو هذا، على الأقل، ما أشعره به :

- في أحيان كثيرة، يا صاحب الجلالة، تتغير الامور في اللحظات الأخيرة، وهذا تاريخ الحروب يشهد على ذلك، فكم من خدعة انطلت على اكبر القادة، وغيّرت مصائر الحروب والدول. قرطاجنة على سبيل المثال. . .

وكاد يسترسل في حديث تاريخي، لكن السلطان ابتسم وتطلع اليه باستغراب، ابتلع هاملتون ريقه وتابع :

- التاريخ يعلم الانسان الدروس، ويجعله اكثر وعياً واقدراً على اتخاذ الخطوات المناسبة.

ولما وجد السلطان بعيداً ويفكر بأمور أخرى، اضاف بلهجة جديدة :

- صحيح ان الامور في العصر الحاضر اختلفت كثيراً عن العصور السابقة، لكن مع ذلك اعتبر ان حوادث الحويزة خطيرة، خاصة في هذه المرحلة، ولا بد من معالجتها بحزم وبسرعة.

قال له السلطان وهو يتسم :

- أنتم، الله يسلمك، تعرفون بالتاريخ أحسن منا حنا يا البدو، يس حنا البدوان، ولا تزعل من هذي الكلمة، نعرف جماعتنا وديرتنا أحسن من غيرنا!

- بكل تأكيد يا طويل العمر.

- وهذول أهل الحويزة، وحنا بهم ادري، قالوا لأرواحهم مادام السلطان بعيد، نضرب بهذي الظلمة، فإذا ما حصلنا اللحم ما يفوتنا المرق.

وتغيرت ملامح السلطان تماماً، اصبحت أقرب الى الحزم :

- لكن، وبمشيئة الله، وبقدرته، سبحانه وتعالى، لا بد ينكسون وترند رماحهم لصدورهم، ويلزمنا نكسرهم ونؤدبهم زين، حتى نعلمهم ونعلم غيرهم.

وهكذا بدأت حملة الحويزة الثانية، وبدأت الاستعدادات الأخيرة للمعركة الطريفة. السلطان الذي بدا واثقاً، لم يشغل نفسه بالحملة التي تحركت الى هناك، وانما انصرف كلية إلى ما يجب ان يعمله هنا.

قال لفر، وهاملتون موجود ويريد ان يسمع:

- إذا خالصنا هنا، بالخير والسلامة، كل الباقي نوافل. هنا راس الحية، ويلزمنا نضرب، وبعدها ما تلقى احد يرفع راسه!

ما كتب عن معركة الطريفة متشابه، ويكاد يكون من كتبه واحداً! فهذه المعركة كانت بمثابة تنويع لمرحلة طويلة من الصراع والعناد والمساومة، وفي جانب اساسي منها انتهت قبل أن تبدأ. قال بعض المتابعين انها انتهت يوم السمحة. وقال من هم اخبر منهم إنها انتهت قبل ذلك بـ عدة سنين. فما تراكم خلال فترة طويلة، وما حاول الانكليز أن يخلقوه أو يؤدوه عن طريق اشخاص عديدين، أذاه خربيط وحده. وهذا، وإذا كان يشكل استثناء للطريقة التي اتبعوها في المنطقة، فإنه يؤكداه. فما دام بعض الاصدقاء اصبح متعباً وشديد الالاح على ضرورة تنفيذ وعود سابقة، أو الوقوف في وجه مشاريع اخرى، باعتبار أن هناك من هم مستعدون للقيام بأدوارهم وأدوار غيرهم، فإن المهم هو النتيجة، وهذا ما حصل بالضبط!

صحيح ان هناك تفاصيل كثيرة، وقد تختلف بين واحد وآخر، لكنها لا تختلف عن وصف عرس أو سباق خيل: ان تكون العروس، أو الفرس، وضعت رجلها اليمنى قبل اليسرى وهي تدخل أو وهي تركض؛ أن تكون بدت واثقة مهية أو خائفة؛ أن تكون قد تعرفت أو لم تتعرف ابداً... كل هذه تفاصيل ثانية. المهم ان العروس قد رُفَّت، وأن الفرس ربحت!

فخربيط دخل الطريفة في اليوم التالي لرحيل المعز، آخر امراء آل ماضي في العوالي، بعد أن عقد له النصر، وكان معه فر، وقد أدى الصلاة في جامعها

الكبير. وأولم لوجهاء المدينة. وأول المساء طمأن أهلها والقناصل، وقال انه يترك لأهل العوالي أن يقرروا ما يرونه مناسباً لهم، وهو مستعد لأن يمثل وينفذ ما يتفق عليه المسلمون.

خريط ذاته لم يصدق ما تراه عيناه. كان، وحوله جنده، يبدو، رغم حزمه والتماع عينيه، في منتهى العذوبة وهو يرد تحيات الذين اصطفوا على الجانبين، وكان في حالة من النشوة أقرب الى الخدر. فهذا اليوم الذي لم يتوقعه ولم يحلم به، أصبح واقعاً مجسداً ووحيداً. ورغم أنه كان مستعداً للموافقة على ما هو أقل من هذا بكثير، وقد حاول دون كلل مع ابن ماضي، لكي يعترف به فقط، وأن يوافق على أن يكون في موران وحدها، ورغم الهدايا والعطايا والخضوع، فإن ابن ماضي ركب رأسه ورفض أن يبعث اليه مجرد كلمة ليشره برضاه وبركاته!

الآن وخريط يدخل المدينة الأخيرة في العوالي، وقبلها بعام يضطر ابن ماضي نفسه لركوب البحر والهجرة، ويضطر ابنه المعز - والذي جاء كحل لمشكلة بدت مستعصية - على ركوب البحر بالامس ويترك العوالي الى الأبد، فإنه يشعر بغبطة لا يحتملها، تسقط من عينه الدموع، يتطلع الى الذين حوله بامتنان، ويخرج صوته متحشجاً: «ان الله، سبحانه وتعالى، يعطي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء!». .

فتر وهاملتون اللذان سبقا السلطان الى القصر، للتأكد من الحراسة والاطمئنان لمكان اقامته، لم يكونا يريدان أن يناما هذه الليلة أبداً. كانا في حالة من الانفعال اقرب الى الذهول او الهوس، وزاد انفعالهما وهما يطلان من شرفة قصر الهازعي على الساحة الكبيرة الذي جرى فيها الاحتفال، قال هاملتون:

ليلة من ليالي التحام التاريخ بالأفكار، بالاماني. ومجنون من ينام في مثل هذه الليلة، لان مثلاً لا يتكرر في حياة الانسان.

فتر لم يكن اقل تأثراً وانفعالاً من هاملتون، رد:

- هذي، يا مستر هاملتون، يسمونها عندنا: ليلة القدر!

في الليل المتأخر، حين عاد السلطان الى قصر الهازعي، بعد أن شارك في

العرضات وإطلاق الرصاص، ولم يترك أحداً إلا وحياء، وأوعز لعرفان الهجرس
الابنسى تسجيل اي شيء، بما في ذلك أسماء الذين يسلمون عليه، بغية تقديم
الهدايا لهم، وطلب بتأكيد أن يسجل اسم سويلم الذيب، قارع الطبل، ثلاث
مرات، للشعر الذي تلاه، والطرائف التي قالها وتناولت ابن ماضي، ولدقات
الطبل التي لم تهدأ ولم تتوقف طوال الليل!

حين عاد السلطان لقصر الهازعي وجد فتر وهاملتون ساهرين وبانتظاره. بعد
أحاديث سريعة، أقرب الى الغزل والنشوة، وفي لحظة انفعال، طلب الى
الجميع ان يخرجوا الى الشرفة، وهناك بدأ بإطلاق النار، أطلق ناراً غزيرة،
وكان مع كل صلية يردد: ظلينا بصدورهم ونحورهم الى أن مكنا الله منهم.
ابنه راكان، الذي جاءه ثلاث مرات، يبلغه أن أمه تريده، ولا بد أن يكلمها،
لم يتلفت الى كلماته. صحيح أنه رآه، احتضنه، لكن لم يسمع ما قاله. وحين
الح الصغير في المرة الأخيرة، نتيجة الحاح فضة، وكان السلطان في حالة
انفعال يستمع، ربما للمرة العاشرة، إلى خادمه الزين، وكان اسمه من قبل
المعتوق، والسلطان ذاته هو الذي اعطاه الاسم الجديد، يروي كيف ركب
المعز الباخرة في الليلة السابقة، وأصر أن لا يترك الطريقة إلا إذا اطلقت له
المدفعية احدى وعشرين طلقة، فكان السلطان، حين يسمع احدى وعشرين
طلقة يسأل، والضحك يملأ وجهه كله: واحد وعشرين شهو؟ فيرد عليه
معتوق: طلقة؛ ومن جديد يسأل: قلت طقعة؟ فإذا اجابه طلقة، يرد السلطان:
اي والله يستاهل، وما واحد وعشرين طقعة يستاهل ازود. أما حين الح عليه
راكان، وفي لحظة صمت، فقد سمعه الذين حوله يقول بمرح:
- يكفي يا وليدي، واليوم ما هو دورها، اليوم دور غيرها!

قال الذين شهدوا الليلة الاولى للسلطان في الطريقة، انه لم ينم ولم يترك
قصر الهازعي، او بالأحرى شرفاته: فقد تنقل من شرفة لآخرى، وعند الفجر،
حين سمع الأذان، وقد خيمت لحظة صمت، قال، وخرج الصوت من اعماق
صدره:

- اشهد ان لا إله إلا الله وأشهد ان محمداً رسول الله.

وتغير فجأة، اذ طلب، وبصوت اقرب الى الامر:

- الصلاة . الصلاة يا عباد الله .

وخرج وخرج من معه . هاملتون الذي تخلف، وكان معه عدد من خدم السلطان، قال لنفسه : «من الرائع والمفيد أن يعتقد هؤلاء السلاطين أنهم كبار وعظام، وان يكونوا واثقين هكذا، وان ينظروا الى الآخرين دون ان يرف لهم جفن . انهم شجعان حين يتحدثون، ولا بد أن يجيء وقت يتوهمون أنهم فعلاً يصنعون التاريخ، لكن من حسن حظ التاريخ، خاصة الآن، انه يصنع في أماكن أخرى، وانه رغم العلامات التي تميزه، ولا يخطيء في قراءتها الكثيرون، فإنه لا يصبر على أن يُستهلك في مكان محدد، خاصة مكان صناعته، فهو ملك مشاع، ويمكن لأي قوي ان يدعيه، كما يمكن لأي واهم أن يدعيه ايضاً، مستغلاً ضعف الآخرين أو جهلهم» .

ورغم أن هاملتون سجل في يومياته، خلال هذه الفترة، اشياء كثيرة، لكنه لم يعتبرها الاكثر أهمية، خاصة في هذه المرحلة . كان يريد أن يساهم في صناعة تاريخ منطقة في مرحلة معينة، او على الاقل يسهل لصانعي هذا التاريخ مهمتهم، ولذلك أجل الكتابة بعض الوقت، وانصرف الى امور أخرى .

بسقوط الطريفة انتهت مشاكل الحرب لتبدأ مشاكل السلام . صحيح أن عدة جيوب للمقاومة ظلت هنا وهناك ، وأخذت وقتاً واهتماماً كبيرين من البيلطان ، إلا أنه كان واثقاً فقد وصفها ، ذات ليلة لهاملتون ، وهما يتحدثان عن شؤون المستقبل ، بأنها تشبه بقايا اللحم بين الاسنان ، وأضاف وهو يضحك :

- وحنا يا البدوان عندنا بدل المسواك عشرة ، فإذا ما فاد الاول يفيد الثاني ، وبعدها الحلق مثل المسك !

ارسل عويد المشعان في حملة إلى الشمال ، وأرسل فتر في حملة أخرى إلى الجنوب ، وكان هدف الحملتين أن تجتث ما تبقى لابن ماضي من آثار ، وان تشعر القاصي والداني إن دولة جديدة قد قامت ، وان لهذه الدولة من القوة ما يمكنها أن تصل إلى أبعد المناطق ، وأقوى الاشخاص . ولم ينسَ السلطان أن يوصي قادة الحملتين بضرورة الحزم ، وبعض الاحيان القسوة .

قال لابنه فتر في الليلة الأخيرة ، قبل أن تتحرك الحملة :

- أنت ، يا وليدي ، غير الباقيين ، دارس وتفهم ، سافرت وشفقت ، بس اريد اعلمك بجماعتنا : ترى إذا رخييت مدوا ، وإذا شديت خافوا وارتدوا . العين الحمراء تخوف اللي ما يخاف ، وأريد منك ما تعطي وجه لأحد ، لأن هذول البدوان إذا اتعطوا وجه يطعمون ، وما يشبعون . اسمع من الكبار قبل الصغار ، واسمع من الشيوخ ولا تسمع من غيرهم . لا تقول لا أبد ولا تقول نعم ، خل سرك بصدرك ولا أحد غيرك يعرفك أو يحزر عليك . قبل أن تقبل على قوم خلي خويك يجوسون ويتأكدون ، لأن الطريق ما هي آمنة ، فإذا

وصلت خلي الأرض ترجف تحت رجلك، وما أحد كبير غيرك، ولا تخجل
ولا تخف يا وليدي.

كان بوده أن يضيف، أن يتكلم أكثر، أن يلخص تجربته ومعارفه لفنر وهو
يقود أولى حملاته، لكنه كان على ثقة أن فنر استوعب أغلب الدروس. لقد
اختبره في أوقات سابقة، تحدث معه طويلاً، وسأل، دون أن يشعره، الذين
رافقوه، وقد خرج نتيجة ذلك كله «أن فنر رجال وذهين وما ينخاف عليه». ومع ذلك فقد اختار له أحسن رجاله، من حيث القوة والشجاعة، وقال لهم،
بطريقة غير مباشرة، إن فنر ربما احتاج إلى خبرتهم ومعرفتهم بالأرض
والناس، وإنهم لن ييخلوا عليه، وختم حديثه مع أخلص الرجال الذين رافقوا
الحملة:

- ... وتعرفون أن العمر يعلم والإنسان ما يتعلم إلا من كيسه، بس دايماً
الكبير يعلم الصغير، واللي يعرف يعلم اللي ما يعرف، وما يلزم ابين لكم
منزلتكم عندي وكم تعزون عليّ، وإنشاء الله برجعتكم غانمين، الله يقدرنا
على مجازاتكم!

مع عريد المشعان كان السلطان مرحاً ومزهواً:

- ... الواحد، يا أبو محجم، يوصي اللي ما يعرفه، اللي ما جربه، وهذا
الشمال لك كله، بحماده ودياره، وما اظن أن الواحد يخرب رزقه بيده!

وحين تطلع ابن مشعان الى السلطان بتساؤل، تابع:

- العوالي صارت لنا يا أبو محجم، ما هي لابن ماضي أو لغيره، والناس
بذمتنا ما هم قوم علينا، فارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.
العاصي، اللي يحمل سلاح، اللي يريد يحارب الحكومة ما له بقلبنا شفقة
أو رحمة، نضربه حتى نؤدبه ونؤدب غيره، أما اللي هم على باب الله،
اللي ما بي بينا وبينهم شي، فمرحبا يا أولاد، ويا هلا بالنشامة، وكل ما
نريده منكم، يا جماعة الخير، أن تطيعوا الله ورسوله وتدعوا لطويل العمر
بالخير والسلامة.

توقف السلطان قليلاً ثم اضاف بنبرة مرحة :

- هذا الكلام يا عويد أقوله لنفسي قبل ما أقوله لأحد غيري ، وأبد ما تفهم منه شي ثاني ، وهالحين حنا نريد نسألك ...

تطلع عويد المشعان بحذر وترقب ، وخرجت الكلمة من فمه بعداء :

- سم . . يا طويل العمر .

- نسألك ، يا أبو محجم ، قبل ما تمشي : توصينا بشيء؟ تريد شيء؟ من طلبات سهينا عنها؟ طلبات لك ، لأهلك ، لجماعتك ورجالك؟

- اريد سلامتك ، يا طويل العمر ، وأنت دائماً مفضل .

- وبرجعتك ، الله يسلمك ، غانم وسالم ، راح تصير حملة العوالي أخبار وأمثال يرويها الكبير للصغير ، لولد الولد ، ويقولون عويد المشعان ، أبو محجم ، سوى وسوى . . وهذا اللي يريده النبي آدم بهذي الدنيا ، وكل ما عدها ما يسوى شي !

وهكذا خرج عويد المشعان راضياً ، وندم انه اخطأ ، في فترة معينة ، بل اكثر من ذلك لام نفسه أنه ظن الظنون بالسلطان !

نشوة النصر التي أدارت رأس السلطان ، وملأته ثقة وزهو ، واستيلاؤه على العوالي بمساحاتها الكبيرة ومدنها العامرة ، وبسكانها الاكثر وعياً وتطوراً من موران ، لم ينسه أن يتلف حواليه أيضاً . ففي هذه الفترة التي تقام خلالها الممالك أو تزول ، وأثناء رسم الخرائط الجديدة للمنطقة ، فإنه وحده الحصان الذي يمكن أن يصول ويجول ، خاصة بعد غياب ابن ماضي ، والقادر على أن يقنع الآخرين ، وأن يقتنع به الآخرون .

هاملتون الذي ظل سنوات في موران والعوالي ، لا يغادرهما الا في سفرات قصيرة ويعود ، قال للسلطان ، بعد شهر من انتهاء حرب العوالي ، وكان يستأذنه بالسفر :

- في الاماكن الاخرى من العالم ، يا طويل العمر ، يعتبرون الاجازة ، الراحة

السوية، حتى بالنسبة للعسكريين، ضرورة ومقدسة مثلما العمل ضروري ومقدس، وهناك لا يؤخرون اجازاتهم ولا يؤجلونها، لذلك يحق لي ان استأذن جلالتك في إجازة . . . بعد هذه السنين.

والسلطان الذي لم يعترض، كان تواقاً لأن يعرف: الى اين يمكن أن يصل في المرحلة القادمة؟

قال ليواصل الحديث، وبجود من المرح والالفة:

- الحق اللي تقوله يا صاحب، وجماعتنا هنا، يقولون: اللي ما يصل أهله ما يجيه ولد، فيلزم تصل اهلك وترجع لنا أنت والعيال والأخبار الزينة!
رد هاملتون بمرح ايضاً:

- انقضت سنوات، يا طويل العمر، لم أر ولدي الا بالصور، فإذا لم أذهب الآن، وأقدم نفسي، وأقول له: أنا أبوك يا مايكل، فسوف ينساني ولن يتعرف علي في المستقبل

- لا . . لا هذا أبد ما يجوز.

وبعد قليل وهو يتسم:

- ولو الله هداك، وصرت مسلم، كان زوجناك وخليناك هنا، بس ما هي باليد، قال عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

قال هاملتون، بعد ان انتهى هذا الحديث المرح وخيم الصمت:

- كنت اود، يا صاحب الجلالة، لو أن سمو الامير فتر رافقتي في هذه السفرة، لأن الأصدقاء الكثيرين له في بريطانيا سوف يفتقدونه، كما أن زيارته الآن ستكون مفيدة بعد هذه السنين من الغياب.

رد السلطان، وجو المرح لم يزايله:

- الخير بالجائيات يا محروس السلامة، وأنت تكفي وتوفي، ولا بد تسلم على

الجميع ، وخاصة طويل العمر ملك الانكريز كثير السلام ، وتقول له أن الجماعة هناك يذكرونك بالخير، ودوم دوم يسألون عن صحتك وراحتك، ويتمنون لك السعادة والسلامة .

شكره هاملتون وأكد له أن الجماعة هناك يتابعون الأخبار باهتمام وعناية وسوف يرجع أيضاً بالأخبار الطيبة!

بعد أن تحركت الحملات، وهدأت ضجة الاحتفالات، ويدخول فصل الشتاء، اخذت العوالي تبدو بنظر السلطان ورجاله غير مفهومة بالمقدار الكافي . فالناس الذين كانوا شديدي الضيق بآبن ماضي، وضجوا بالشكوى، ولم يخفوا المرارة، بل وكانوا لا يريدون لتلك الحال أن تدوم، وعبروا عن فرح مشوب بالحذر، لأن الحرب انتهت أو كادت، بدأوا يظهرن ضيقاً، وفي أحيان كثيرة يصل حدود الاستياء في تصرفات جنود السلطان ومن رجاله . فالجنود الذين كانوا خائفين في بداية الامر، وينظرون الى كل الوجه بارتياح، ما لبثوا ان شعروا بالطمأنينة والثقة، وهذا دفعهم لأن يواجهوا أي رفض أو إختلاف بالقوة، ولم يترددوا في شهر السلاح، أو ضرب الذي لا يمثلون لرغباتهم أو اوامرهم . فالإختلاف على البيع والشراء، والمزاح، وتلك التوريات بالحديث، وبعض الاحيان المناداة على السلع بالغناء والتطريب، وغير هذه من الامور الصغيرة التي كانت تميز العوالي، وتطبع ناسها في المدن الكبيرة وفي أصغر القرى، وتخلق لهم ملامح وعادات يأخذها الصغار عن الكبار، ويتوارثها جيل عن جيل، كانت هذه الامور تثير رجال السلطان وتدفعهم الى التحدي . وكثيراً ما وقعت في الاسواق الداخلية، او في الاحياء البعيدة، عمليات تعد من هذا الطرف أو ذاك . كانت في بداية الامر عابرة، قليلة ومتباعدة، ولا يذكرها أحد، لكن عندما ترافقت بذلك العناد، وذلك الاصرار الذي يبديه رجال بالسلطان، على ضرورة أن يتغير كل شيء، سواء في عمليات البيع والشراء، او بطريقة التعامل، وحتى بنظرة العيون، فإن عناداً أقوى وإصراراً أشد بدأ يظهر من الناس . صحيح ان الامر حصل بشكل عفوي، ونتيجة رد الفعل، وظل في نطاق الافراد، لكنه بدأ يتسع ويزداد .

ويدأ يتسع أكثر ويزداد أكثر حين ترافق ذلك مع التعليمات التي أخذت تصدر

تباعاً حول ما يجب على الناس من إلتزامات دينية: الصلاة في المساجد، وفي أوقاتها، ومن يتخلف يتعرض للعقوبة. التدخين ممنوع ومن يقبض عليه وهو يدخن لا بد أن يجلد أمام الناس. أما الغناء، أما اللهو فيجب أن يُنسى أمرهما لأن عصر ابن ماضي مضى وانقضى وبدأت الآن دولة الإيمان.

ظن الكثيرون أن ما نقل إليهم لا يزيد على كونه إشاعات يروجها رجال ابن ماضي؛ وفسر الذين سمعوا الأخبار من أناس ثقات أن الأمر لا يعدو أن يكون نزوة، مثل نزوات كثيرة تظهر في بدايات العهود، أو مع القادمين الجدد، ثم لا تلبث أن تسقط أو تنتهي. وقال بعض الذين يعرفون رجال خريبط أكثر من غيرهم: «يظنون أن كل الدنيا موران، وهم بكل تأكيد لا يعرفون العوالي، ولا يعرفون غيرها، ولا بد يخطون، ويعدّها يندمون».

حين قابل الوجهاء والتجار السلطان، وأشاروا، بطريقة بعيدة، الى بعض ما يجري، ابتسم ثم رد عليهم بطريقة لم يستطيعوا أن يفسروها تفسيراً دقيقاً، أو أن يتفقوا على معناها، لكنهم لاحظوا أن وجهه اعتكر وبدأ عليه شيء من الضيق، فلم يتابعوا، وتركوا الأمر الى وقت آخر، أو ظرف مناسب.

وحين أشاروا إلى ما يجب أن يكون في العوالي من العلاقة بين الحاكم والمحكوم، واستشهدوا بما قاله السلطان ذاته، فقد أكد لهم أنه سيفي بكل كلمة قالها وبكل وعد أعطاه، فقط يطلب تعاونهم والتفافهم، وإن الأمور مرهونة بأوقاتها. فلما التمسوا منه، وكان ذلك أقرب إلى الرجاء والتوسل، أن يفرج عن بعض موظفي ابن ماضي، وجنود الحامية الذين استسلموا، صاح بصوت عالٍ على ابن هجرس، والذي يقف دائماً غير بعيد، ويده دفتر وقلم: - اسمع يا عرفان.. حنا اليوم بيوم الاثنين، تبلغ الجماعة، وتقول لهم، السلطان يامرکم أن آخر حد معكم يوم الخميس، كل بريء، كل واحد ما حمل بوجهنا السلاح، وما سرق ولا نهب، يلزم يفرجون عنه. تسمع يا ابن هجرس؟

ويتطلع الى تأثير كلماته في الوجوه والعيون التي تتابعه، حتى إذا رأى رضى اقرب إلى الفرح أضاف:

- ويوم الخميس بنفسى أتأكد، وما يلوم المقصّر الا نفسه، تسمع يا عرفان، بلغهم هذا على لساني .

والتفت الى الوجهاء والتجار وقال بلهجة أبوية :

- وإنشاء الله يصلّون ويانا الجمعة جماعة .

وتغير الحديث وأخذ مجرى آخر .

ويوماً بعد آخر يفرق السلطان في دوامة المشاكل والهموم، والتي لا تنتهي، فابن ماضي الذي ركب البحر بعد أن خسر معركته العسكرية، بدأ حروبه الأخرى . بدأ بحرب التحريض وتأليب القوى والرأي العام ضد ما يجري في العوالي من فظائع : القتل، التهجير، هدم الأحياء والقرى، نهب البيوت والبشر، وكان يستغل اللاجئين والفارين من مذابح البدو، لكي يتحدثوا عما يجري هنا . أما ما يفعله رجال خريبط في أمور الدين فإنه حديث القريين والبعدين، ومن شأنه أن يستفز ويشير ويعبئ . والسلطان خريبط الذي بدا غير خائف، او بالأحرى كان واثقاً من المعركة العسكرية ونتائجها، اكتشف الآن إن هذه المعركة لم تحسم إلا القليل من المشاكل، وخلقت، بالمقابل، مشاكل من نوع آخر . وإذا كان مطمئناً أن أغلب ما يدور في الخارج لا تصل أصداؤه الى العوالي وإلى موران إلا بعد مرور فترة طويلة، وبعد أن تنكسر حدته، ويصبح جزءاً من الماضي، لعدم وجود وسائل اتصال مع الخارج، حيث تدور الأحاديث، وتنتشر الفظائع والفضائح، ولأن في العوالي صحيفة وحيدة تنشر الأخبار تصدر مرتين في الاسبوع، وما تغير فيها سوى المحرر الرئيسي، فبعد أن كان ابن ماضي نفسه في فترة معينة، جاء بعد سفره غالب الدباغ، أحد رجال الامير معزز، فلما سافر الامير سافر غالب معه، وبعد أن جاء خريبط أصبح يونس شاهين مسؤولاً عن الجريدة التي تنشر البلاغات والقصائد .

لكن بمرور الوقت أصبح الخارج يؤرق السلطان أكثر من الداخل، فقد اعتبر معركته الأساسية، والتي كانت تثير مخاوفه، قد انتهت، لكنه اكتشف أنها انتقلت من الداخل الى الخارج، ومثلما بعث بالحملات الى معظم المناطق شمالي العوالي وجنوبيها، لكي تجتث ما تبقى لابن ماضي، وتبشر بالحكم الجديد، ولكي تفرض هبة الدولة، فلم ينس أن يبعث بعدد من رجاله إلى حيث يكون

ابن ماضي . وفي هذه الفترة من الاضطرابات والتداخل وتغير الولاءات ، وكان من السهل أن يكون لكل واحد من المتنازعين عيون عند الآخر ، وأن تنتقل الأخبار والمعلومات ، حتى تلك التي تجري في غرف النوم ووراء الأبواب المغلقة ، فلما وصلت للسلطان الأخبار أن ابن ماضي لم يترك أحداً ، ولم يترك قوة أو عاصمة إلا وبعث إليها رجاله ، وإن الصحافة والناس في الخارج لا تتكلم إلا عما يجري في العوالي ، فقد تحسب كثيراً ، ولام نفسه انه ترك هاملتون يسافر ، بل وخاف من هذه السفرة .

لم تقتصر الحرب الجديدة على ما يكتب أو ما يقال ، فقد ترافقت أيضاً بالأموال ترسل الى الكثيرين في الداخل ، إلى زعماء العشائر وقادة الجند السابقين ، وإلى التجار وأئمة المساجد . وترافقت أيضاً مع الصعوبات التي تواجه الناس في تأمين ما يحتاجون إليه ، بعد أن اشترت من الأسواق المواد لحاجة الجنود وحملات السلطان . ومع الصعوبات رجال خربط وطريقتهم في التصرف والتعامل . صرخ سعيد السقاف وسط السوق ، حين لطمه أحد رجال خربط ، وكان في باب دكانه يدندن .

- أيش دا يا أبويه احنا عبيد ولأ صنف ثاني؟

وهز رأسه عدة مرة بلوعة وأضاف :

- أعود بالله جماعة ما يمكن التفاهم معهم ، تقول لهم ثور يقولوا احلبوه ، نقول لهم احنا إسلام مثلكم يقولون : تخسون . جماعة ما يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب ، لكن يومهم قريب !

ومع الصعوبات وتزايد نقمة الناس حرب الحدود . فالمعز الذي وُجد في ظروف صعبة ، واضطر ، من أجل الحفاظ على أرواح الناس ، كما يقول ، ومن أجل أن ينسوا أخطاء الماضي ، ولكي يفرض المعركة ، لا أن تفرض عليه ، بدأ . وكان متأكداً أن الظروف الجديدة ، رغم صعوبتها ، سوف تتيح له أن يعمل ويتصرف بطريقة مختلفة . ماذا يريد الانكليز؟ ماذا يريد الفرنسيون؟ ماذا تريد القبائل والناس وكل أهل العوالي؟ إنه مستعد لذلك . وندم انه ترك الطريقة سلماً . كان يمكن أن يبقى ، ويقاوم ، لكن المستشارين ، هؤلاء الذين

قال عنهم أبوه: إنهم يخصون الثيران، ويقتلون خيل السلطان، وكانوا حوله، لا يتعبون من الاختلاف والتنافس، وكان الإنكليز يملؤون جيوبهم بالمال، وعند ذاك يسمعون ويسمعون ما يجب أن يكون!

الآن، يمكنه أن يفكر دون ضغط البدو ودون صراخ اللاجئين والهاربين، ويستطيع أن يخطط بدقة للمستقبل. ماذا يملك خريبط أفضل منه؟ وهل يثقون به أكثر مما يثقون بأولاد الملوك والذين توارثوا الحكم أباً عن جد؟ والبدو... إنهم لا يريدون أكثر من الذي يؤمن لهم قوت يومهم. وإذا كانت مدن العوالي وتجارها قد أنستنا البادية فيجب أن يصحح الخطأ، وأن يُحارب خريبط بالقوى التي حارب بها.

حرب الحدود لها بداية، لكن ليس لها نهاية. ومثلما بدأ خريبط يمكن أن يبدأ هو.

وهكذا، وبانسجام مع الحرب النفسية وحرب الإعلام، ومع الأموال أيضاً، بدأت حرب الحدود. وخريبط الذي كان يخاف من الأماكن البعيدة، والتي تبدو له مجهولة، لم يكن يخاف كثيراً من هؤلاء البدو أن يأخذوا ألف طلقة لكي يطلقوا عشرة، ثم يعودون، ليأخذوا بدلها آلافاً. إنه يخاف من الطلقات البعيدة التي لم تسمع بعد، ويخاف أكثر من الذين لا يحملون البنادق الآن، أو الذين يحملونها ولا يطلقون!

لو أن الامر اقتصر على ذلك لهان ووجد حلاً، لكن رجال موران ذاتهم الذين كانوا يحاربون بحماس ودون تردد، أصبحوا الآن نمطاً آخر من البشر: يضغطون، يتكلمون بأصوات عالية، يلومون السلطان أكثر مما يلومون غيره، لأنه يمنهم من تصحيح الأخطاء، من قمع هؤلاء الذين لا يفعلون شيئاً سوى أن يجعلوا منهم مسخرة، رغم كفرهم، ولا يترددون في أن يمتنعوا عن بيعهم أو التعامل معهم.

فأهل العوالي الذين أبدوا تساهلاً كبيراً حين وصلت قوات السلطان، كانوا مستعدين للترحيب بالذين جاءوا والتعاون معهم، وكانوا كذلك خلال الأيام الأولى، ما لبثوا أن تحولوا وتغيروا. فالماء البارد الذي يخرج من

البيوت، والخضر النديّة التي يقدمونها، وتلك الابتسامات التي تترافق مع الاحاديث، كل ذلك انتهى ليحل محله نوع من الجفاء أقرب الى العداء، وسخرية سوداء بدل الإبتسامات والترحيب، اضافة إلى اجوبة تتكرر لدى الباعة والمخابز وفي الأحياء البعيدة، عند أطراف البحر أو قريباً من الصحراء: «ما عندنا يا أخوي، ما فيش، نفقنا وما تتعب روحك». وهؤلاء البدو، رجال السلطان، والذين جاءوا من ابعد الاماكن، من أجل الغنائم، أو من أجل المال والحرب، أو من أجل رفع راية الله، يجدون أنفسهم في وسط أقرب الى العداء، في وسط مليء بالصمت والريبة والاختلاف.

ولأن رجال السلطان يواجهونه كل يوم، وهم حوله وأقرب الناس اليه، لذلك لا يتركون أية حادثة، مهما كانت صغيرة، إلا ويرددونها المرة بعد الأخرى، حتى إذا وصلت إلى مسامع السلطان، صاح بغضب:

- يا عباد الله، هذي غير موران. وهذول غير جماعتنا، ويلزم تفهمون وتصبرون!

وتنقضي أيام الشتاء، وتأتي بعدها أيام الربيع، لكن شتاء هذه السنة كان أشد برودة من سنوات سابقة، وكان أقل مطراً. فإذا احتمل الناس، من أهل العوالي، أو من أهل موران، الشتاء انتظاراً لأيام الربيع، وانتظاراً للخصب وانفراج الأحوال، فقد جاء الربيع بطيئاً ضعيفاً، وانتهى بسرعة ليبدأ معه الصيف. والصيف إذا جاء مبكراً وكثيفاً هكذا فإن مزاج الناس وتصرفاتهم، وحتى عقولهم تتغير. قال أهل الحواضر في نهاية الشتاء: «انتظروا الربيع فإنه يحل المشاكل ويفرّج الهموم» فلما جاء الربيع هكذا، قالوا: «اللهم اجعلها سنة يمكن احتمالها، فإذا انقضت تنقضي الهموم» ولما حل الصيف قاسياً ثقيلاً تشاءموا، وقالوا وراء أبواب مغلقة: «اللهم نجنا من الأعظم». وضاعت خطوات الناس أصبحوا لا يخرجون إلا إلى الأماكن القريبة، ولا يلتقون إلا بالأقرباء أو الذين يعرفونهم. أما أهل البادية، وهم أقدر على تحمل سنوات المحل، فكانوا يجدون حلاً لما يعمانون بأن ينزلوا إلى أطراف المدن، أو أن يرابطوا على طرق التجارة، وهناك، وبمحاولات ووسائل لا تخلو من المكر والقسوة، أو المسكنة، كانوا

يجدون قوت يومهم، ويواصلون الحياة، رغم صعوبتها.
الآن، وقد هجمت هذه السنة العكرة القاسية، وبعد أن توقف الذين يحسنون عن تقديم الإحسان، وتوقف الذين يدعون البدو لأعمال البساتين، أو لحفر القنوات أو لنقل الحجارة، ليس لأنهم بحاجة إلى كل هذه الأعمال، وإنما لأنهم يريدون أن يساعدهم وأن يجعلوهم يعملون شيئاً مقابل ما يقدمونه لهم من الطعام والمال، فإن هؤلاء لم يعودوا متسعين أو قادرين لأن البدو ارتبطت صورتهم بصورة رجال السلطان، ولأن ليس لديهم من المال فائض يقدمونه لهم.
سنة وليست مثل أي من السنين.

قال خريط ليونس شاهين:

- اكتب يا يونس: «إن الله يرزق الناس من حيث لا يحتسبون». كتب يونس ذلك، لكن الرزق لم يأت.

قال خريط لرجاله: «لقد صبرنا من قبل؛ اكلنا الجراد، وتحملنا، فيجب أن نتحملوا. وقال أيضاً إن الله يمتحن عباده، وأنتم الممتحنون». سمعوا منه، لكنهم تلفتوا ونظروا لا يعرفون هل يوافقون على ما يقوله أم يفعلون شيئاً آخر!

قبل أن ينقضي الصيف لاحت في الأفق علامات جعلت السلطان يستعيد ثقته ويصبح أميل إلى التفاؤل: حملة الجنوب قامت بدورها وعادت، أو عاد أغلب الذين شاركوا فيها. فتر بدا لكل من رآه إنساناً آخر: لوحته الشمس وغيرته تماماً، ومع تغير الملامح تغيرت التصرفات، وحتى النظرة والعقل تغير. أبوه السلطان، بعد أن سمع منه، خلال يوم وليلتين، تفاصيل كثيرة ودقيقة حول الحملة وما واجهها، منذ أن تحركت إلى أن عادت، وكان في أحيان كثيرة يستوقفه، يستفسر ويتساءل بدهشة عن الأماكن والأشخاص، قال لنفسه: «يوم حرب ولا سنة تنجيم، لأن الواحد في الحرب شابل روحه على كفه، وما يدري شهر اللي يصير بعد ساعة، وبهذا السبب ينشد عصبه وكل يوم يطلع له قلب». أكثر من ذلك بدا له أن وجود فتر إلى جانبه، وقد كبر وتغير هكذا، سوف يساعده كثيراً.

اخبار حملة الشمال مشجعة، لكن لا تزال أمامها مهمات. وابن مشعان، منذ أن تحركت قواته، أصبح أكثر ودأ، وأكثر حرصاً على أن يظهر للسلطان التزامه. فالرسل الذين بعث بهم، ليطلعهم على تحركات الحملة وأخبارها، أوليهم له عدداً من كرام الخيل وأطياب الفاكهة، ثم ليشره أنه تزوج في الطريق مرتين، مع إشارة، لا تخفى، إن هذين الزوجين كانا ضروريين لاستمالة بعض القبائل والتقرب منها. كانت الرسائل والإشارات واضحة الدلالة: إنه ينفذ تعليمات السلطان، وإنه يكسب ود الناس أكثر مما يقسو عليهم!

أما حملة الحويزة، فرغم أنها انتهت خلال الشهور الثلاثة الأولى، لكن لا تزال هناك جيوب كثيرة، خاصة قرب الحدود، وهذه الجيوب وإن كانت لا تشكل خطراً إلا أنها شديدة الإزعاج، إذ بالإضافة إلى أنها تتحرك بسرعة من مكان إلى آخر، وفي هذا دليل لا يخفى على أن لها مؤيدين في قبائل وأماكن عديدة، فإن قربها من الحدود، وخطورتها أيضاً، يمكن أن تؤدي إلى مضاعفات أو نتائج غير محمودة العواقب.

خزعل، بعد مشاورات طويلة مع العم دحيم، وبعد رسالة إلى أبيه، قرر أن يترك ابن مياح يتابع أمر هذه الحملة، ورجع إلى موران. كان يريد أن يتابع سفره إلى العوالي، لكن السلطان طلب منه البقاء إذ لا حاجة لمجيئه.

وقبل نهاية الصيف أيضاً، وهذا ما جعل السلطان يتفائل، عاد هاملتون. عاد هاملتون هذه المرة عن طريق الحويزة. بقي هناك ثلاثة أيام، تابع بعدها السفر إلى موران. ومن موران بعث إلى السلطان رسالة رقيقة يشره بوصوله، وإن لديه أموراً كثيرة يريد أن يحبثها معه، ولا يعرف ما إذا كانت لدى السلطان الرغبة في البقاء في العوالي أم العودة إلى موران، لكي يتصرف على ضوء ذلك، خاصة وإن معلومات موران، خزعل والعم دحيم، وجميع الذين سألهم، أكدوا قرب عودة السلطان وإنها متوقعة بين يوم وآخر!

ما كاد السلطان يتسلم هذه الرسالة، حتى قال لفنر، وكان رأفت شيخ الصاغة ويونس شاهين وعنان بسيونسي، موجودين، وكان يريداهم أن يسمعوا:

- من يوم ما الله خلق الدنيا: السلاطين ما يسافرون حتى يتسلموا الرسائل،

لكن هذا أخوك يا فتر، خزل، الله يصلحه، قلنا له أمسك الأرض، اثبت بمكانك، لكن أبدا!

وزفر السلطان وكان لهياً خرج من صدره، ثم تابع:

- ترك الحويزة، قلنا على بركة الله. وصل الى موران، قال أجيك، قلنا له ظل بمكانك. واليوم جاء الصاحب، ويدل ما يندزه، حتى لو اني جاي وتحركت، قال له إسأل أبوي: «ها يا يويه: أنت جاي أو متأخر...» الى متى الواحد يظل يعلم البني آدم، وهذا البني آدم ما يتعلم؟

قال رأفت شيخ الصاغة:

- الغايب عذره معه، يا طويل العمر، ويجوز تكون هناك أشياء لا نعرفها.

قال عنان بحدة:

- لكن، يا رأفت بك، في حاجات لا يمكن التساهل فيها، ومثل ما قال جلالتة: أي واحد يريد مقابلة السلطان، أو يحمل له رسالة، يجب أن يأتي الى مقام جلالتة؛ ومن الخطأ، حسب ما أرى، أن يكون العكس.

تساءل السلطان بالم:

- لكن، يا عباد الله، حنا نواجه العدى أو نعلم جماعتنا شلون يتصرفون؟

قال عنان بسيوني:

- ارى، يا صاحب الجلالة، ولاسباب كثيرة وهامة، ان تطلب مجيء هاملتون الى هنا، حتى لو كنتم تعتممون العودة الى موران.

هز السلطان رأسه بحزن، وقال موجهاً الكلام الى فتر:

- ابعث، هالحين، كتاب، وقل لهم فيه: خلي الصاحب يتوجه نحونا.

وابتسم بحزن، وأضاف:

- وحننا يلزم أن نتحرك نحو موران، لأن غيبتنا طالت، وظني أن الغيبات الطويلة تغير كثير من الناس.

بعث فتر الرسالة ، وبدأ السلطان يستعد للعودة الى موران، وكان مقرراً أن يتوقف فترة في عين نبات ، وتوقع أن يلتقي هناك بهاملتون .
سمى امراء للمدن وكلفهم أن يراجعوه بكل صغيرة وكبيرة ، وأبلغهم أنه سيعود مرة اخرى قريباً إلى العوالي .

بقي السلطان في عين نبات، ثلاثة أيام الى أن وصل هاملتون.

وخلال الأيام الثلاثة، «والهوا يلعب» كما قال السلطان، نظراً لارتفاع عين نبات، وبعدها عن البحر، ولأنها أول المرتفعات التي تطل على موران، فقد شعر بالانتعاش والحيوية، خاصة وأنه أزاح عن كتفيه الهموم اليومية، فلم ينظر في الأوراق ولم يسمع الشكاوى التي لا تتوقف ولا تنتهي، وبدأ يعد نفسه لمرحلة جديدة. كان يريد أن يصل مع هاملتون إلى اتفاق على ما تبقى في الأطراف، لأن هذه الأطراف تشكل سكيناً في خاصرته إذا ظلت هكذا، ويمكن أن تكون نافذته وطريقه إلى آفاق كبيرة ومهمة إذا ضمها إليه. ورغم أنه في مرات عديدة سابقة، حاول إقناع هاملتون والآخرين، لأن يفعل ذلك، حتى قبل التفكير بالعوالي، لكن الإجابة كانت دائماً الرفض، ولم يكن الرفض مهذباً في كل الحالات!

الآن، وبعد أن أصبح سيد العوالي أيضاً، لا بد أن يتقدم خطوة جديدة إلى الامام. لقد تأكدوا بأنفسهم من قوته، وتأكد هو أن ما كانوا يقولونه في السابق عن ابن ماضي، وتمسكهم به، وبالمقابل منعهم له من التقدم أو التفكير بالعوالي، أو على الأقل ببعض أطرافها، لم يلبث أن سقط. لقد تخلوا عن ابن ماضي بسهولة بالغة. بل أكثر من ذلك يتذكر السلطان كلمات هاملتون في الأيام الأخيرة قبل سقوط الطريقة: قال له بوضوح: «لا يمكن التنازل.. ويجب أن يرحلوا». الآن.. يمكن الاتفاق، نعم الاتفاق، على أشياء كثيرة، خاصة وإن هاملتون أصبح صديقاً موثقاً، ويعرف المنطقة والناس، كما أنه يختلف عن الكثيرين الذين جاءوا من قبل. إنهم يريدون الحاكم صديقاً، وكلما كان هذا

الصديق أقوى ويحكم بلداً أكبر أمكن الوصول معه إلى نتائج أفضل. ماذا يفعلون بهؤلاء الشيوخ الصغار الذين لا يستطيعون أن يعملوا خيراً أو ان يردوا شراً؟ هكذا كان يفكر السلطان، وهذا ما كان يود أن يصل إليه، خاصة وان زعماء العشائر الذين ارتبطوا به، وما يتبعهم من الجند، أخذوا في الآونة الأخيرة يتساءلون ثم يسألون: اين نتوجه وماذا نفعل الآن؟ ليس ذلك فقط، اصبحوا متعبين وزادت مطالبهم بعد أن توقفت المعارك او تباعدت. وإذا امكنه أن يسيطر عليهم، أو ان يبعث بهم هنا وهناك، ويطلب منهم الصبر والانتظار، فقد لا يستطيع ذلك في المستقبل. قال ذات ليلة لفر، بعد أن انتهت حملته وعاد:

- ... ويلزم تعرف يا وليدي: الجنود بدون حرب مثل الهم على القلب، وإذا حكمتهم اول يوم يفلتون أكيد في اليوم التالي، ومن كل بد ولازم نلقى لهم درب، لانهم إذا ظلوا بوجوهنا ما نخلص من طلايهم!

الآن وقد عاد هاملتون، وخلال الساعات الأولى من اللقاء، وعلى طريقة البدو، لم يشأ السلطان أن يثقل أو أن يستبق، فقد ظلت الأحاديث تدور عامة، شخصية، طريفة، وتخللها الكثير من الأسئلة عن الصحة والعائلة والأولاد، ولم يتردد أي من الطرفين في أن يترك لعواطفه أن تفيض، ويتذكر أموراً قديمة، وأحاديث سابقة، وذكريات. كما أبلغ هاملتون السلطان بالتحيات التي حُمِلَ بها، وأشار إلى الاهتمام الذي لَمسه في الخارج، والمتابعة التي تلقاها أخبار موران والعوالي، كما نقل إلى جلالته وإلى فر نحيات ملك بريطانيا والحكومة البريطانية.

بعد بضع ساعات من وصول هاملتون الى عين نبات، وصل القنصل الانكليزي أيضاً من جهة الطريفة، وبدا وكأنهما على موعد. وهذا القنصل، الذي لم تمض شهور قليلة على التحاقه بعمله الجديد، لم يرق للسلطان منذ المرة الأولى التي التقى به. كان إنساناً صعباً، قليل التهذيب، كما أشار بسيوني، حيث كان يضع رجلاً فوق الأخرى، ويبدلهما بالتناوب كلما تعب، في حضرة السلطان، كما أنه لم يستأذن جلالته، منذ اللقاء الأول، بأن يسمع له بالتدخين، إذ أشار أنه لا يستطيع الاحتمال، كما لا يقوى على التركيز دون

أن يدخن، خاصة، «وان لقاءاتنا مستطول، وسوف نناقش قضايا حساسة» كما قال وهو يبتسم، في محاولة للتوضيح، أكثر مما كانت لطلب الموافقة. والسلطان الذي اعتبر الأمر ثانوياً، وطلب منه أن يفعل ويتصرف بحرية، ما لبث أن تبين له أن الأمر أكثر دقة وخطورة مما افترض في البداية، خاصة حين رآه رجال السلطان من الحرس والخدم والمرافقين وهو لا يكاد يتوقف عن التدخين!

أمر آخر خلق فجوة إضافية في العلاقة بين الاثنين، إن أحدهما لا يفهم على الآخر، تقريباً. فدنيس ايجلتون يعرف العربية الفصحى المطعمة باللهجة المصرية، ولا يفهم لهجة البداوة فهماً جيداً. والسلطان الذي يتكلم العربية بطريقته الخاصة، وهي أقرب الى البداوة، لا يتصور أن هناك عربية أخرى، ولقد فوجيء كثيراً حين سمع عنان بيسوني يتكلم ذات مرة مع وفد مصري زائر. استغرب الأمر وفكر فيه طويلاً، إذ تصوره إنساناً آخر، وكأنه ليس الذي يعرفه. لكن عجب السلطان أخذ يتراجع سنة بعد أخرى، وكلما ازداد عدد الوافدين الى موران من الأقطار المجاورة.

كان من السهل لهذه المشكلة أن تحل، أو أن لا تنشأ بالأساس، لو أن دنيس تكلم بالانكليزية. فعن طريق المترجمين يمكن أن يجري الحديث، ولا يتكلف أي من الإثنين مشقة إزعاج الطرف الآخر. فدنيس الذي بصرَ على استعمال العربية، عربيته، كان يضطر السلطان، بعض الأحيان، الى النظر في وجوه مستشاريه، خاصة عنان، لكي يساعده على فهم ما يقال. وحين يتكلم السلطان، يستوقفه دنيس لكي يستفسر عن معنى بعض الكلمات، أو يعيد على مسامع جلالته بعض الكلمات لكي يتأكد من دقته.

لو أن الأمور اقتضرت على ذلك لوجدت حلاً، لكنها تجاوزتها الى ما يشبه التفاوت أو الاختلاف، ووصلت في عدة حالات إلى درجة المجابهة. فالأموال التي تم الاتفاق على دفعها، والأسلحة التي كان يفترض أن تصل، والرسائل التي كان ينتظر الإجابة عنها، إضافة إلى أمور أخرى كثيرة جرت خلال الشهور الأخيرة، جعلت السلطان أقرب الى الشك والسلبية، حين يجد القنصل غير مهتم أو ليس معنياً بها بالمقدار الكافي.

ومما زاد في تعقيد العلاقة أيضاً أن أهمية الموضوعات بين الإثنين تتفاوت كثيراً. فما يعتبره السلطان أساسياً ولا يمكن إرجاؤه أو التهاون فيه، ينظر إليه دنيس بتساهل يصل أحياناً إلى عدم الاكتراث. وبالمقابل، إن الإجابة عن سؤال أو الاستفسار حول زيارة لأحد ضباط البحرية البريطانية، أو العلاقة بين موران وإحدى المشيخات، أهم من أي أمر آخر. ولا يكفي بأن يجعل مثل هذه الموضوعات أساسية، وإنما في حالات عديدة كان يعتبرها الوحيدة، أو وحدها التي تستحق الاهتمام والمناقشة. أما الموضوعات الأخرى التي يريد السلطان بحثها أو الاستفسار بشأنها فيمكن أن نتحدث حولها في الزيارة القادمة!

رغم كل شيء فقد احتمل السلطان، بل وكان يبدو مقتنعاً وراضياً، فالقنصل نافذته وطريقته الوحيدة في الاتصال، خاصة بعد سفر هاملتون. صحيح أنه لم يخف عواطفه أو رأيه في لحظات معينة، أمام بعض المقربين، لكن تلك العواطف أو ذلك الرأي لا يعني شيئاً إزاء الحاجة أو الضرورة. يجب أن يبقى هادئاً ومتماسكاً، لكي يصل إلى ما يريد، ويحصل على ما يطلب.

مجيء دنيس ايجلتون عصر ذلك اليوم غير الجو تماماً. فالسلطان الذي تصرف بهذه الطريقة، ليخلق جواً مؤاتياً لأحداث حميمة مع هاملتون، وكان يعتبر الليل وقتاً مناسباً للروح والشكوى، وأيضاً للوصول إلى نتائج حاسمة، كما حصل في عدة مرات، سواء أكان مع هاملتون أو مع غيره، فقد اعتبر مجيء القنصل شؤماً. قال لنفسه: «أبدي لهذول ما تأمن، وهم بينهم ياكل قلوبهم الشك والحسد. وما يرضي واحد منهم أن يكون قوي والكل بالكل، وهذا الأخب، اللي يحكي من خشمه، ما ترك لنا الصاحب ليلة، حتى نعرف منه ونفهم».

ومع ذلك ظل السلطان مضيقاً عذباً، لم تبدر منه أية إشارة أو ملاحظة يفهم منها الاستياء، بل وبالع في المودة واللفظ، لكي يشعر هاملتون بالذات، وإلى حد أقل دنيس، بمدى ما يكنه من العواطف والاهتمام، ولأن الليل في

عين نبات يميل الى البرودة، قياساً الى الطريقة إذ تصله نسائم الصحراء فتجعله رقيقاً، وبعض الأحيان لاسعاً، ونتيجة لتعب الرحلة، فقد كانت الليلة قصيرة، على غير ما توقع السلطان، أو ما أراد، خاصة حين استقبل هاملتون. أما بعد أن جاء دنيس، فقد بدا مسروراً أن الرجلين يفضلان تناول العشاء مبكراً، وأن يأويا الى الفراش.

ورغم أنه أعدت لكل منهما خيمة خاصة، وبعد أن انتهى العشاء وغادر الضيوف، فقد مكثا معاً حوالى الساعة. هذه الساعة أفلقت السلطان كثيراً. قال في نفسه: «الصاحب صاحبنا، لكن هذا الاشيقير أبو رجل ونصر، لا بد يكون يهودي أو عدو، وإلا ما جاء بهذي الساعة وبهذا اليوم».

والسلطان الذي بدا موزعاً بين أن يواصل سهره وأحاديثه «مع الخويا» كما فعل في الليالي السابقة، بقصد أن يستريح وينسى، ولكي يكون في أحسن حالاته، وبين أن ينعزل لكي يفكر ويرتب الأمور بطريقة يستطيع معها أن يقنع دنيس أكثر مما يرد إقناع هاملتون. فهذا «الخرندعي» كما يسمى القنصل، «مثل أولاد المكتب، ورقته والقصة، حتى ما ينسى» يبدو مهماً ومؤثراً، لأن أغلب ما أراده أو قرره حصل، سواء بالنسبة للسلاح أو بالنسبة لدفعات المال التي سلمها، ومجيئه الآن يدل على تلك الأهمية «فقبل ما يغلط صاحبنا، ويقول كذا وكيت جاء حتى يلقنه».

قال لمهبوب، والقمر دائرة سميئة كالكرة:

- ما دام الانكريز دجاج وناموا، خلنا، حنا العربان، ننزل ونطلع اللي بروسنا واللي بقلونا.

- اللي تؤمر به يا طويل العمر.

- قل للخويا: طويل العمر صدره ضاق، فخلهم يجون؛ وخلي سلمان والعنيزي وابن برقوق يولمون حالهم، لعلهم يروحون على اللي صدورهم ضاقت وقلوبهم عافت، ويمكن الرب الرحيم يفرجها وتصير أحسن من ما كانت.

وخلال فترة قصيرة، وكان الرجال ينتظرون إشارة من السلطان، انتظمت حلقة الرقص والغناء. صحيح إنهم انتحوا مكاناً قصياً، أقرب إلى نهاية المعسكر تقريباً، لكي يتركوا الضيوف ينامون، كما أشار السلطان، لكن صوت الغناء والصخب، إضافة إلى طلقات الرصاص، وذلك الحنين الذي اشتعل فجأة، وربما ساعد على تفجير ضوء القمر الذي ملأ السماء، وتلك النعمة العذبة التي كانت تهب من ناحية الشرق، والمحملة برائحة الصحراء والذكريات وأيام الطفولة، كل ذلك تكاثف وطفى. والسلطان الذي كان ميالاً الى الوحدة، أو أن يكون مع أقرب الرجال، ما لبث أن نسي أو رغب أن لا يبقى أحد الا ويشارك، وأن يشهد ليلة لا ينساها طوال حياته، خاصة بعد أن إرتفعت تلك الأصوات من أعماق القلوب، وأخذت الأودية تردد صداها، ولأن القصص التي تروى والمشاهد التي تقدم لا تحكي حكايا قديمة، أو ترجع صدى أحداث وقعت في يوم من الأيام، وإنما كانت تبتدع وتكون في تلك الليلة بالذات.

حتى هاملتون الذي آوى إلى فراشه منذ ثلاث ساعات أو أكثر، لم يستطع النوم، ففي ساعة متأخرة من الليل رآه الكثيرون يحوم، من بعيد، حول المكان، وبدا متربداً في ان يقتحمه دون دعوة، فلما أبلغ السلطان، وفي لحظة خلقت بشكل متعمد صاح جلالته:

- قولوا للمصاحب يلحق ما هي كل ليلة مثل هذه الليلة!

والتفت الى مهيب وهمس بأذنه وهو يضحك:

- ومن قبل قالوا: كل يا مجوّع ما هو كل يوم عيد!

في تلك الليلة والأيام الثلاثة التالية حاول السلطان تجنب أية موضوعات قد تثير خلافاً أو تظهر تبايناً في وجهات النظر. أكثر من ذلك تعمد الا يسأل هاملتون عن الاخبار والامور المهمة التي أشار إليها في رسالته، وأوعز، بالمقابل، لرجاله أن يرتبوا للضيوف برنامجاً حافلاً. وقد حضر بنفسه احتفال اليوم الأول، وكان مجموعة من سباقات الخيل والهجن، إضافة الى النيشان. أما رحلة القنص في اليوم التالي فقد رافق فتر الضيوف، واكتفى السلطان باستقبال عدد

من زعماء القبائل وأولم لهم ذلك اليوم، وربما تعمد ألا يكون هاملتون ودينس إيجلتون ضمن الضيوف، لثلا يساء فهم وجودهما أو الغاية التي جاءا من أجلها. أما اليوم الثالث، والمخصص للراحة، استعداداً لتحرك موكب السلطان في اليوم التالي، فقد اقترح هاملتون زيارة منطقة قريبة من عين نبات، وهي منطقة أثرية مهمة كما وصفها، لأنها كانت محطة رئيسية على طريق التجارة منذ أقدم العصور، ودينس الذي وافق على مضض، كان يريد قبل ذلك عرض صيغة إتفاق مع السلطان، ودراسة هذه الصيغة والبث بها، مستفيداً من وجود هاملتون. والسلطان الذي طلب إرجاء الموضوع، حين كان في الطريفة يرى أن الوقت لا زال مبكراً، وبالتالي فهو ليس مستعداً قبل العودة الى موران، ومعرفة كثير من الامور، خاصة بعد زيارة هاملتون الطويلة.

حين قال عنان ان القنصل باحثه في الموضوع أجاب السلطان بنزق:

- تبلغه وتقول له: القراطيس بين الأصحاب ما لها قيمة، الأهم منها الثقة...

تنفس بعمق وتابع:

- وإذا ألح أكثر تقول له: سلمونا الاوراق نطالعها وندرسها ونرد لكم الخبر.

هاملتون بدا مهتماً بزيارة المنطقة الأثرية أكثر من إجراء مباحثات، وقد أوضح وجهة نظره لدينس منذ الليلة الأولى. كان متأكداً أن السلطان لن يستجيب، أو أنه ليس في وضع يمكن الوصول معه الى نتائج حاسمة، فحول أمور أقل أهمية من توقيع معاهدة، كان يبدي تردداً ويفكر ويتنظر، بل وكان كثير الشكوك.

قال دينس لعنان الذي كلفه السلطان أن يرافق الضيوف لزيارة المنطقة الاثرية، وقد تعمد دينس أن يكون جلفاً، وأن يُسمع الآخرين، خاصة هاملتون:

- ماذا كان جواب عظمة السلطان حول الاتفاقية والاقتراح الذي تقدمت به؟

- كان موضع اهتمام جلالته.

- ومتى سنبت به؟

- عندما يأمر جلالة السلطان.
- ولكن متى؟
- هو الذي يقرر.
- أفهم من هذا الجواب أن الموضوع لن يدرس الآن، وهنا.
- إذا كان لا بد من اتخاذ إجراء فإن جلالة يرى أن تسلمونا الصيغة لكي ندرسها، وبعد أن تدرس في موران سوف نبلغكم الجواب.
- إذن كل شيء مؤجل؟
- قال فتر الذي كان قريباً ويتحدث مع هاملتون:
- مستر دنيس.. الوقت غير ملائم لبحث مثل هذه الموضوعات...
- وبعد قليل وهو يتسم:
- وبكل تأكيد سنجد الوقت المناسب لبحثها والبت بها.
- نظر دنيس إلى هاملتون بعتب اقرب الى الحقد، إذ كان على ثقة أن تصلب السلطان، أو بالأحرى رفضه، لا يمكن أن يكون بعيداً عنه.
- قال هاملتون بدعابة:
- أرى ان ندرس تاريخ الماضي لكي نفهم الحاضر، فإذا تأخرنا فلا بد أن تفسد الشمس رحلتنا، ولذلك يجب أن نتحرك!
- دنيس الذي جاء من الطريفة، و يلتقي بهاملتون لأول مرة، كان يفترض أن الظرف ملائم جداً، ليس لإجراء مباحثات ناجحة فحسب، وإنما للتوصل إلى نتائج نهائية، وهذا ما دعاه للاتصال بهاملتون، والاتفاق معه على أن يلتقيا هنا، إذ يعرف طبيعة العلاقة التي تربطه بالسلطان، ويعرف أيضاً أنه عاد من لندن بهدايا كثيرة، ولذلك لا بد للامرين معاً أن يؤثرأ على السلطان ويدفعاه للموافقة على ما كان يرفضه أو يؤجله.

الآن، وقد اكتشف أن هاملتون لا يشاركه الرأي، بل أكثر من ذلك يتواطأ مع الآخرين، ربما لإفشاله أو لإظهاره بمظهر الضعيف العاجز، فإنه لا يجد في نفسه الرغبة لأن يواصل هذه اللعبة العابثة.

قال لعنان:

- أرجو أن تبلغ صاحب الجلالة رغبتني في أن أعود الى الطريفة.

سأله هاملتون بسخرية خفية:

- الا تود أن تشاهد هذه الآثار المهمة يا مستر دنيس؟

- اشكرك يا مستر هاملتون، ثم ان لدي الكثير لأفعله في الطريفة!

قال هاملتون لفنر بعد أن غادر دنيس عائداً الى الطريفة:

- أسوأ موظفي صاحب الجلالة ملك بريطانيا اولئك الذين افسدتهم الكتب، إنهم يرون الحياة من خلال ما قرأوه بشكل رديء أو خاطيء، وبدل أن تصحح لهم الحياة ما تعلموه، يريدون أن يصححوا الحياة بتطبيق الكتب التي قرأوها عليها.

قال فنر بدعابة:

- القنصل بينه وبين هذه الديرة عداوة، ما أحبها ولا يريد يفهمها...

ويعد قليل وهو يتسم:

- الله العليم إن هواء الطريفة ما والمه!

السلطان الذي أشعر بموقف القنصل ورغبته في المغادرة، طلب من عنان ومهيب أن يرافقه الى الحلوة، وأن يبذلا جهدهما من أجل امتصاص غضبه وترضيته، وإشعاره أن الامور سوف تأخذ مجرى إيجابياً وسريعاً.

ولأن هاملتون كان في هذه المنطقة من قبل، فقد ذهب مع عدد محدود من الرجال ليلقي نظرة، وقد كتب في يومياته ما يلي: «عندما هبطنا في النقطة التي

كنا فيها، بدأت جولة في المنطقة، فرحت أجوس خلال تلك الناحية وأجمع النقوش من هنا وهناك. وكان معظمها يعود الى عهد ثمود. وقد تحولت من صخور «المذبح» الى الوادي كي أفحص الناحية الشرقية من الصخور، حتى وصلنا إلى نقطة يلتقي فيها واديان عند أقدام صخور المذبح. وخلف الطرف الغربي لتلك النقطة، وبعد أن اتجهنا شرقاً عبر طريق ضيق صغير ينحاس قليلاً عن خط امتداد صخور المذبح، وجدنا صخرة منعزلة يبدو أن الطبيعة قد نحتتها على شكل أبي الهول. ومما يستثير الإعجاب والدهشة رأسها المنبسط الذي يشبه رأس أبي الهول في مصر، وكذلك الرقبة والجسم، الامر الذي جعلني اتصور ان «المذبح» قد أقيم هنا حيث توجد الصخرة، كي يقدم الناس عليه قرايبنهم لآحد الإلهة. وقد اكتشمت أن فخذ (أبي الهول) قد كشط حتى غدا املس ناعماً، ومن ثم نقشت عليه عبارة بلغ طولها سبعة أنشات الى ثمانية. غير أن هذه النقوش كانت - بكل أسف - قد تآكلت بشكل بشع بحيث كان من المستحيل أن ينسخها أحد أو يجزم بأنها نبطية أو ثمودية. وكانت هذه الحقيقة مؤلمة فعلاً، غير أنني كنت على شبه اليقين من أننا قد اكتشفنا المذبح الذي وهب المنطقة اسمها. ولما كان الوقت آنذاك متأخراً، فقد عدنا الى المخيم مؤجلين فحص بقية المنطقة.

«رأينا أثناء جولتنا عدداً من الطيور الغريبة الشكل، لكنه لم يكن معنا ما نصيدها به... كما انني عجزت عن التعرف على أنواع هذه الطيور، أو أين تعيش. وربما كانت من الطيور المعروفة باسم سيسي، إذ انها لا تشبه الطيور المعروفة بالحبارى».

حين عاد هاملتون الى معسكر السلطان، عند الغروب، بدا له أن جزءاً من المعسكر قد تحرك، فما عدا خيام الحراسة في المقدمة، وخيمة السلطان في الوسط، إضافة الى خيمة الامير فتر، وعدد من الحرس والمرافقين، فقد بدت الارض خلاء، وأقرب ما تكون سوقاً للحلال أو ملعباً.

زيارة دنيس ايجلتون غير المتوقعة، ثم رحيله الغاضب، تركا في نفس السلطان مرارة، فهؤلاء الاصدقاء، حين يبعثون مثل هذا الشخص، وربما

بوصونه كيف يتصرف، فهم يخطئون كثيراً، لأن الكبير لا يمكن أن يصبح صغيراً، إذا عرف كيف يتصرف، ويحافظ على منزلته. ثم ان سلطان موران والعوالي أيضاً ليس مثل أي من الشيوخ الذين يدللونهم ويتعاملون معهم بهذه الطريقة.

كان السلطان يتوق لأن يسمع الكثير من هاملتون، ورغبته أيضاً في أن يتحدث عن «خوبه الأشيقر أبو رجل ونص»، لكنه شعر بالحرج أن يبدأ، إذ لا يريد أن يظهر لهفته أو تعجله، ويريد أن يترك هاملتون نفسه يبدأ.

كان يفترض أن يقضي السلطان في عين نبات يوماً وليلتين، لكي يلتقي هناك بإبن مشعان، إذ بعث إليه لأن يوافيه، ثم بعد ذلك يأخذ السيارة ليعود إلى موران، فقد طال بعده عنها وزاد شوقه إليها، وليس ما يدعوه للإبطاء، كما كان الحال أثناء مجيئه للعوالي.

هاملتون أحس ان الظرف في الليلة الأخيرة لأقامتهم في عين نبات ليس مناسباً للخوض في مواضيع جدية أو دقيقة، ولذلك أخذ يحدث السلطان عن الآثار القريبة وأهميتها، وأية حضارات تكونت في هذه المواضع، وكيف انه ينوي تخصيص بضع سنوات من حياته لدراسة هذه الآثار والكتابة عنها. والسلطان الذي كان مفتوناً بما يسمع، ويبدى دهشته لوجود هذه الآثار، وقربها من معسكره، وإنه لم يزرها أيضاً، فقد قال تعليقاً على الرغبة التي أبداها هاملتون بقضاء بضع سنوات لدراسة هذه الآثار:

- إذا خلصنا من الهموم الكبيرة، يا الصاحب، وصفي بالناء، اطلب وتمنى، وحتى هذه الحجارة والاصنام، إذا ردت، نخلي الخويا يحملونها وينقلونها للمكان الذي يعجبك!

ضحك هاملتون بصخب، وقال بعد أن هدأ:

- التاريخ لا يمكن أن ينتقل، يا طويل العمر، وكل من يريد أن يدرسه وأن يكتب عنه يجب أن يأتي اليه طائعاً مختاراً؛ ومن أكبر الاخطاء التي وقع فيها كثير من المؤرخين، أنهم جردوا التاريخ من روحه، من المكان الذي وقعت

فيه أحداثه، ومن البشر الذين كانوا جزءاً من هذا التاريخ.
رد بالسلطان مازحاً:

- ما دام هذا رأيك، الله يسلمك، فالحجارة بمكانها، وجماعتنا قالوا: الحجر بمكانه ينفع، فإذا خلصنا شغيلانا ابشر.

ولأن المسير سيكون في السرى فقد آوى الجميع الى فراشهم مبكرين.
في اليوم التالي، وأثناء الإستعداد لتحرك موكب السلطان، قال هاملتون بدعابة:

- الأصلح، يا طويل العمر، أن أتأخر عنكم أو آخذ طريق ثاني، لأن نجمي ونجم ضيفكم ما توالموا، ويكفي اللي حصل من القنصل!

ضحك السلطان، وتذكر أشياء كثيرة، قال لهاملتون وهو ينظر الى البعيد:

- إذا كان هذا رأيك ما يخالف، وبموران نسولف وما يصير الا كل خير!

بعد عودة السلطان الى موران، وما رافق تلك العودة من فرح واحتفالات، وما تخللها أيضاً من مفاجآت، خاصة في قصر الروض، إضافة الى الوفود التي جاءت من انحاء متعددة، من السلطنة وخارجها، جعلت السلطان، رغم توفقه لأن يبحث مع هاملتون القضايا الاساسية، أو التي يعتبرها أكثر أهمية من غيرها، مأخوذاً بما يراه وبما أحسه من اهتمام الوفود الاجنبية الزائرة بشكل خاص، الامر الذي اضطره لتأجيل بعض الموضوعات، وأن يركز أحاديثه وأسئلته مع هاملتون على مايجب أن يقال لهذه الوفود، وكيف يكون التصرف معها.

ليس هذا فقط، كل شيء حول السلطان يبدو جديداً، رغم أنه رأى كل ذلك ولم يمض بعد أكثر من عام.

نساؤه في القصر... كل واحدة جديدة، وكأنه لم يرها، أو لم يعرفها من قبل: الشكل، نظرة العيون، الشعر، وحتى العطر والحناء، إضافة الى الوان الملابس، وطريقة المشي ورنه الصوت، هذا عدا عن وسائل التأثير الاخرى، بما فيها الاولاد.

أما الحفاوة، أما طريقة التصرف، فإن أموراً كثيرة جدّت أو تكونت خلال غيابه. صحيح أن الصور اختلطت، وبدت غير واضحة في لحظات معينة، لكنه يعرفها ولا يعرفها. ورغم القناعات التي ترسخت لديه من قبل، وكانت أقرب الى العناد، تبين له أن لا بد من إعادة النظر. قال في نفسه «تغير الاماكن والوجوه تجعل الانسان غير متأكده وبدأ يستعيد في ذاكرته: الزوجات، الاولاد، الحرس، وحتى الخدم. تصور، إزاء بعض الوجوه، وكأنه يراها لأول مرة. قال

لنفسه: «الغريب أن الإنسان لا يرى الأشياء القريبة. لا بد أن يتعد عنها مسافة كافية، أو وقتاً غير قصير، لكي يراها بوضوح».

ورغم أنه لا يريد أن يشغل نفسه بهذه الأمور إلا أنه انشغل، وأصبح يفكر فيها.

فنسوة القصر، سواء أكنّ الامهات أم القريبات، أم حتى الخادמות، وبعض الاحيان بتحريض من الزائرات، اخذن يدفعن اليه، وبأوقات يتخيرنها بشكل مناسب، «رسل الوداد والمحبة». ولأن الاطفال كبروا اثناء غيابه، وتغيروا أيضاً، كان ينظر إليهم بكثير من الاهتمام، يريد اكتشاف الشبه أو العلاقة، وكان في غالب الاحيان يحار، لا يعرف، بل وبلغ به الامر ان يحزّر نفسه: «من ناقة لناقة». فبعد أن يمعن النظر بالوجه الصغير الذي يقابله، ويتنك العينين اللتين تضحكان، يقول في نفسه: هذا ابن فضة، او هذا ابن حفصة، او ابن العنود، وبعد أن يحزم امره على أنه ابن فلانة يسأله: شنهو اسم امك. . يا وليدي؟

في مرات كثيرة كان يخطيء. . أما المرات التي حزر فيها فكان يضم الطفل الى صدره، وبعض الاحيان يغطيه بعباءته، خوفاً من الحسد، وحسد عينيه بالدرجة الاولى، ويعتبر أن هذا الطفل محبوب ومقرب إليه اكثر من الآخرين!

بنات السلطان، اللواتي لا يستطعن الوصول الى مجلسه، او حتى الاقتراب منه، ولا يغادرن السور الا من الجهة الغربية ومع المربيات، كن بالنسبة إليه شيئاً عجيباً. فالذكور، رغم احاديث الامهات وتعليم المربيات والخدم، كانوا اقرب الى القسوة والتكبر، او هكذا كان يتبادر في أحيان كثيرة للسلطان. يتصرفون بطريقة مسرحية، ويأكبر من أعمارهم. حتى الأشعار التي يرددونها، كانت أقرب الى حفلة مدرسية مملة. البنات كن شيئاً آخر: تضحك الواحدة بطريقة ترغم أباهما على أن يشاركها الضحك ثم المرح. أما إذا مشت، أو أجابت عن سؤال، إذا نظرت إليه واصبعها بقمها، فكان لا يقوى على ان يتمالك نفسه: «لماذا لم أعرف هذه المخلوقات؟ لماذا لم أكن قريباً منها؟».

واكتشف السلطان ان العالم الكبير لا يغني عن العالم الصغير. ودون تردد، وفي محاولة للتعويض، ومن أجل أن يكون أقرب الى أبنائه، قرر أن يعيد

مجلس الإثنين، بل وفكر أيضاً أن يخصص يوماً آخر، لكن بعض الامور الطارئة جعله يرجئ قراراً من هذا النوع.

وفي مجلس الإثنين اختلط الصغار بالكبار، الاحاديث بالطلبات، الاشعار بالنكات؛ وإذا كان السلطان قد توخى منذ البداية ان يكون هذا المجلس مدرسة يتعلم فيها أبناؤه، فقد اكتشف في هذه المرحلة أن الأبناء تعلموا الكثير قبل هذه المدرسة وبدونها! أصبحوا، أو أغلبهم على الأقل، كباراً. ورغم أنه بذل جهداً واضحاً من أجل أن يعطي المجلس نسقاً ثابتاً، كما كان الحال من قبل، إلا أن الأشغال الكثيرة، والوفود الزائرة، إضافة الى الطلبات التي لا تنتهي، والمرسلة مع الأبناء، والتي أخذت تغطي على ما عداها، جعلته يفكر بإنشاء مدرسة داخل القصر، يختار لها أفضل المعلمين، من الرجال الذين يعرفهم واختبرهم من قبل، تتولى المهمة نيابة عنه. سوف يداوم على مجلس الإثنين، وإن كان مضطراً، بعض الاحيان، لاختصاره، لكن المدرسة تبقى ضرورية. يمكن أن يوعز للمعلمين أن يتبعوا طريقته ذاتها في التعليم، بل ويمكن أن يعاونهم في المرحلة الاولى، وقد يحضر بعض الدروس، حتى إذا اخذت الامور مجرى ثابتاً، سوف يكون أكثر اطمئناناً!

خزعل الذي اختص بالقسم الشمالي من القصر، وقد بنى في هذا القسم عدة أجنحة، ووسعها المرة بعد الاخرى، تبعاً لعدد الزوجات وتزايد الاولاد، وما يتبع ذلك من زيادة عدد الخدم والمرافقين والحرس؛ تخير وقتاً مناسباً لكي يستأذن أباه في أن ينتقل الى القصر الجديد الذي بناه، متذرعاً أن المكان أصبح ضيقاً؛ وأشار الى أن الكثيرين بحاجة الى هذا القسم من القصر اذا اخلاه. فوجئ السلطان بالطلب، لكنه لم يعط جواباً. ثم تبين له أن أموراً كثيرة يجب أن يعاد فيها النظر. اكثر من ذلك يجب أن يرسخ تقاليد جديدة في القصر، وفي التعامل مع الاولاد. قال لنفسه «كل ولد يصل الى سن البلوغ يجب ان نفكر بزواجه وتحضيره من أجل الزواج يلزم له هدية: «حصان ومرافق وقريشات، وبعد أن يتزوج، ويجئته الولد الاول، يقام له احتفال ويسمح له، إذا أراد، أن ينتقل لكي يؤسس عائلة ويعتمد اكثر على نفسه».

وافق السلطان على انتقال خزعل فانتقل خلال شهور قليلة الى قصر الغدير .
أما أول من حظي بالتكريم نتيجة التقاليد الجديدة ، وقد نقلت عن لسان السلطان
بأشكال مختلفة ، وفسرت تفسيرات متناقضة ، ولم يتردد بعض الخبثاء من الخدم
والحرس من إشاعة أن هذا لا ينطبق على المذكور فقط ، بل والآنث . أول من
كُرمَ كان فسر . ففي يوم من أيام جمادى الآخرة ، في بداية الربيع ، وبعد انتقال
خزعل بأسبوع واحد ، دعا السلطان كبار العائلة وعددا من وجوه موران ، وبطريقة
مليئة بالابهة والمهابة ، قدم لفنر واحداً من أحسن خيوله ، وأبلغ المجتمعين أن
حفيداً آخر ولد له . وفنر الذي بدا محرجاً ، وكان يريد أن يقي الامر دون اعلان
ودون ضجة ، وجد نفسه وسط العيون والاهتمام .

نساء القصر اللواتي راقبن الاحتفال من أماكن متعددة ، وبوسائل متعددة
أيضاً ، من الاسطحة او من النوافذ ، وقد احتطن كثيراً لثلا يراهن الرجال ،
وبعضهن ، اللواتي كن يسكن في أماكن أبعد نسبياً ، راقبن بالمناظير المقربة ، أو
عن طريق الخدم والخصيان . لاحظت النسوة اكثر ، وقبل الرجال ، غياب
خزعل . وقبل أن يسألن أو يتأكدن تذكرن غيابه اكثر من مرة ، عن المناسبات التي
تعني فنر : يوم أن عاد من سفرته الطويلة ، يوم معركة الحويزة . واضفن أنه تعمد
الانتقال من قصر الروض . أيضاً قبل مجيء الوليد الجديد بأيام .

ومثلما تنتقل الرائحة الكريهة ، وقبل أن ينتهي الاحتفال ، ودون معلومات من
أي نوع ، ملأت قصر الروض الإشاعات على أن هذا الإحتفال ليس لتهنئة
السلطان بالحفيد الجديد ، أو لتهنئة فنر بالمولود الاول ، وإنما هو احتفال لتسميته
فنر ولياً للعهد . ومما أكد هذه الاشاعات وأعطاهها رسوخاً لا يقبل الشك او
الاحتمال ، أن فنر وقف الى يمين أبيه ، أثناء استقبال الوفود وأثناء توديعها ، وأن
العم دحيم وقف الى يساره !

ومما زاد في قوة هذه الإشاعات أيضاً أن اثنين من أولاد فضة كانا مشاركين
في الإحتفال ، ومعنى ذلك أن فضة بالذات كانت على علم بما انتواه السلطان ،
وقد وافقت عليه ، ودليل الموافقة انها بعثت بأولادها الكبار أولاً ، وإنها كانت
وراء «طرد» خزعل من قصر الروض : ومما يؤكد ذلك ، ويجعله أكثر أهمية

ودلالة أن عدداً من أولاد السلطان، من هم بمثل اعمار اولاد فضة ومن هم أكبر سنّاً تغيبوا عن الاحتفال، وهذا معناه أن امهاتهم لا يعرفن بما قرره السلطان، أو كان لهن رأي آخر.

تهاني التي إنتقلت من مكان إلى آخر، لمراقبة الاحتفال، كانت ترد على الاسئلة، او نظرات التساؤل، بابتسامة كبيرة وواثقة، وكأنها تريد أن تجيب كل من يسألها، دون كلمات، أن هذا الذي يروونه من تدبير الشیخة ویموافقتها. لم تقل هذا أبداً، لكن طریقتها فی التصرف اكدت مثل هذه القناعة، ومما أكدها أيضاً ان تهاني قضت اطول فترة من فترات المراقبة فی قصر السلطان ذاته، مع فضة، ونقلت ثلاث من الخادعات، ان المرأتین تشاورتا همساً عدة مرات، رغم وجود عدد من النسوة، وفی إحدى المرات خرجتا معاً إلى غرفة جانبیة!

سرور، خادم أمی زهوة، ترك الاحتفال مرتین، وجاء الى القسم الغربی من القصر، وقيل ان الشیخة اخلت به خمس دقائق. وطلبت منه فی المرة الثانية أن یسرع بالعودة، وأكد من رآه انه بعد ان أسر بشیء لمهیوب، غادر ولم یعرف إلى أين!

وأمی زهوة، التي كان یروق لها فی حالات مماثلة، أن تمر قریباً من مجلس الرجال، وأن تحییهم، تجنبت هذا الیوم المرور، ظلت ملازمة لجناحها لم تغادره. وقيل أنها تعمدت ذلك، لكي لا یعرف إنها وراء كل ما یجری، وقيل أنها طلبت من تهاني أن تذهب الى فضة، وأن تزور عدداً من زوجات السلطان، لتعرف وتسمع، ثم لتبلغها بما سمعت.

الرجال الذین حضروا الاحتفال كانوا خالي البال مما یدور فی الاقسام الأخری من القصر. لم یلاحظ بعضهم غیاب خزعل. والذین لاحظوا، وقد حصل ذلك فی وقت متأخر جداً، لم یعتبروا الأمر مهماً، ولا یتوجب التوقف، لأن الاحتفال یعنی فتر ویعني الجد، وكل من حضر من العائلة غیر هذین نافلة. الذین یعرفون أكثر من غیرهم، كانوا مطمئنین، لأنهم على علم أن السلطان اوفد خزعل لكي يلتقي بإبن میاح بالقرب من الزعفرانة، وقيل ان السلطان دعا

ابن مياح للمجيء الى موران لكنه ادعى أنه لا يستطيع ترك الحويزة، واقصى ما يستطيعه أن يلتقي برسول عند أطرافها، وهكذا تم الاتفاق على الزعفرانة، وعلى أن يكون خزعل هو الرسول، وهذا ما حمّله على السفر، وبالتالي لأن يغيب عن الاحتفال!

عمير الذي غاب عن قصر الروض، وارتاح منه السلطان، لم يغب عن ابن مياح، فقد جاء من نقل للسلطان أنه جند كتيبة كاملة من عين فضة وما جاورها، والتحق بالحويزة في الفترة الأخيرة. لقد فعل ذلك بعد عودة خزعل الى موران بأسابيع قليلة. وأكد عدد من الذين كانوا هناك في الفترة ذاتها، أن ابن مياح لا يفعل شيئاً دون مشورة عمير وموافقة. ومما عزز هذه الأخبار أن دنيس ايجلتون سأل السلطان عدة مرات ما إذا كان يثق برجاله، وبالقادة خصوصاً، الموجودين في الحويزة ومنطقة الحدود، وحين استغرب السلطان السؤال، ثم تكرر السؤال، أبلغه دنيس أن لديه معلومات مؤكدة تشير الى وجود قوات منائفة لبريطانيا هناك، وأنها تسمى القبائل وتحرضها لعمليات واسعة، بهدف محاربة الانكليز وراء حدود الحويزة.

أما لماذا اختار عمير الحويزة، ولم يختار العوالي، ولماذا بدأ خلال هذه الفترة بالذات ومع ابن مياح بالتحديد، فقد أشار الامر مخاوف السلطان، وهذا ما دعاه لإرسال خزعل، ليسترضي ابن مياح ويعظمته ولكي ينبهه من عمير أيضاً. وهذه المخاوف تزايدت مع تزايد العمليات على الحدود، وما أدت اليه من تهديدات وتوتر. وقد استغل ابن ماضي هذه الاجواء ليحرك بعض القبائل في العوالي، وليرسل عدداً من السفن المحملة بالمتطوعين. وتواردت الاخبار من العوالي، وكلها تشير الى أن الفترة القادمة ستكون صعبة، إذا لم يبعث السلطان بنجذات كبيرة وسريعة، خاصة الى جبهة الطريفة.

ايجلتون الذي اعتبر نفسه مخدولاً ومحارباً من القصر، لا يمكن أن يسلم أو أن يسكت. والأخبار التي وصلت الى موران أكدت أنه زار عدداً من رجالات ابن ماضي وراء الحدود، وأنه قدم لهم أموالاً ووعداً، وقيل انه طلب منهم تأليب أنصارهم والرأي العام في العوالي على الحكم الجديد. ومما يحمل على

تصديق هذه الأخبار، أن الناس في العوالي أصبحوا يجاهرون بعدائهم ورفضهم، ويطالبون ان تتمتع العوالي بالحرية وأن تحكم نفسها دون أن يسيروا الى ابن ماضي. أما المشاكل التي يعاني منها الناس، والمصاعب التي أخذت تتزايد فإن كان بعضها طبيعياً، فلا شك ان القسم الآخر من تدبير أناس معادين.

مع هذه التحركات والرسائل غير المباشرة، يبعث ايجلتون أيضاً، وبعد أسابيع من عودة السلطان الى موران، بمسودة المعاهدة التي يفترض أن توقع بين بريطانيا العظمى ودولة موران. ويربط تقديم المعونة المخصصة بالموافقة وبإبرام هذه المعاهدة.

قال السلطان لهاملتون، بعد أن هدأت ضجة الاحتفالات وانتهت زيارات الوفود:

- وبغيتك، الله يسلمك، حصلت امور كثيرة، هنا وهناك، وقلنا لأرواحنا ما نسوي شيء الى ان يرجع الصاحب. وهالحين رجعت بالخير والسلامة فيلزم نسولف.

قال هاملتون وهو يتسم:

- أنا رهن إشارتك، يا طويل العمر، وكلّي آذان صاغية.

- حنا نريد نشوف... انتم شنهو شوركم؟

- حول اي القضايا، يا طويل العمر؟

- قضايانا كلها!

وضحك السلطان وتطلع بتحديد الى عيني هاملتون، وهو حين يفعل ذلك، يقول، دون كلمات: لتترك، جانباً، كل المجاملات، وتكلم بصراحة. وهاملتون الذي فهم معنى هذه النظرة، ابتسم وقال:

- تعرفون، يا طويل العمر، منذ أن وصلت الى بلادكم ونزلت بضيافتكم، كان هدفي ان أقوم بدور إيجابي، وأن أكون واسطة خير، بينكم وبين حكومة صاحب الجلالة البريطانية. وتعرفون أنه ليس لي صفة رسمية يمكن من

خلالها أن أطلب أو افرض، فليبرطانيا ممثلوها. وأياً كان الرأي بالسيد دنيس ايجلتون، فهو الوحيد المفوض أن يتكلم باسم الحكومة، وقد تبين لي أن بعض المشاكل قامت بينكم وبين ممثل بريطانيا، والآن لا أدري ماذا أستطيع أن أقدمه من خدمات وكيف أكون نافعا لجلالتكم.

ورغم نبرة الإخلاص الذي اتسم بها كلام هاملتون، إلا أنه لم يكن مقنعاً، قال السلطان:

- اسمع، يا صاحب، وهذا الكلام أقوله لك وما أقوله لغيرك: حنا عرفنا كثيرين بس ما نعرف غيرك، وانت واحد منا قبل ما تكون واحد منهم، وأنت غير هذا الخرندعي، الأشقر، ابو رجل ونص، ولولا معرفتنا وثقتنا بك كانت السالفة كلها تغيرت.

ضحك هاملتون لهذا الاطراء ولهذه الصراحة، وبعد قليل سأل بانفعال:

- ما هو المطلوب مني يا صاحب الجلالة؟

وحين تطلع إليه السلطان باستغراب، تغيرت لهجته وهو يضيف:

- إذا حددتم لي مطالبكم بدقة: ماذا تتصورون، وماذا تريدون، يمكن أن أساعد في الوصول الى نتائج مرضية.

وهذا السؤال رغم بدايته، بدا للسلطان شديد الصعوبة، وأقرب الى التحدي. صحيح أنه لم تمر عليه ليلة من الليالي دون أن يفكر بما يريد، أو بما يحلم به، لكنه الآن لا يعرف كيف يصوغ افكاره وأحلامه بمطالب واضحة ومحددة. أكثر من ذلك، يكتشف، فجأة، أن ما اعتبره محلولاً ومنتهاً، ليس محلولاً وليس منتهاً. فالحويزة التي كانت هادئة الى وقت قريب، بدأت تتلطم، أو بالاحرى تتداخل فيها القوى وتشابك، بحيث لا يعرف كيف ستطور الامور. العوالي التي أصبحت ملك يديه، وقد وافقوا على ذلك، يراهم الآن يحرضونها وكأنهم يريدون أن يقبلوها على رأسه. الاطراف التي يفترض أن تكون امتداداً له، ونافذته على الخارج، يحولونها الى قلاع محصنة ومسلحة، وليس لها هدف إلا امداد المتمردين بالأسلحة والاموال من أجل خلق المتاعب.

- أما عن المعونة التي لم تُدفع، والأسلحة التي كان يفترض ان تصل، فلم يكتفوا بتأخيرها، بل وضعوا شروطاً قاسية لاستعمالها، وبالتالي لا يفكر بالموافقة عليها. يضاف الى ذلك، أنهم بعثوا اليه بهذا القنصل الارعن، والذي يعرف اختراع الاعداء اكثر مما يقوى على كسب الاصدقاء، وزرعوه في وجهه.
وماذا أيضاً؟

لا شيء أبداً يسير كما قُدر له، أو كما اتفق والصاحب عليه. وهذا هو ما يحيره بشكل خاص ويقلقه ويجعله أقرب الى التشاؤم.
مرت هذه الافكار والصور برأسه، وسؤال هاملتون يقف مثل شوكة في حلقه.
قال بأسى:

- ... وانتم تعرفون أنكم ورطونا، قلتم سيروا وحنا معاكم، وقلتم حنا نأمن لكم كل شيء: السلاح، المال، الرجال، بس نريد نخلص من ابن ماضي، لان ابن ماضي ما عاد ينحمل. وحنا، والشهادة لله، نريد العوالي، هذه من املاكنا واملاك اجدادنا، ويلزم ترجع لنا، بس النبي آدم يمد رجله على قدر بساطه، وانتم مديتم لنا بساط له أول وما له تالي، وبعد ما تورطنا صرتم تفرضون شروطكم: يصير وما يصير، ما هو بس كذا، بدأ جماعتكم يحركون علينا، باسم الدين، بالفلوس، بالسلاح، وهالحين ما يندري انتم معنا أو قوم علينا؟

ومثلما كان السلطان صريحاً، كان هاملتون صريحاً أيضاً:
- ... لا أخفي عليك، يا صاحب الجلالة، ان من مصلحة بريطانيا ان تقوم في هذه المنطقة من العالم دولة كبيرة وصديقة، لأن الدول الوحيدة التي يمكن التفاهم معها هي الدول الكبيرة، وما دام من الممكن التفاهم مع الدول المنافسة والمعادية، فإن الدول الصديقة من السهل ان يتم التفاهم معها، كل ما هو مطلوب: تنظيم العلاقة، وإذا كان دنيس ايجلتون لم يستطيع ان يقيم العلاقة المطلوبة فيمكن استبداله. أما المال، أما السلاح، فيمكن التفاهم حولهما بسهولة.

كان هاملتون يريد أن يتابع، لكن وجد أن هذه الطريقة في الكلام يمكن أن تورطه. ابتسم وهز رأسه عدة مرات. خلق فاصلاً وحالة من الصمت، وحين نظر اليه السلطان تابع:

- ولا أخفي عليك، يا صاحب الجلالة، أن المعلومات حول هذه المنطقة من التضارب والاختلاف الى درجة كبيرة، ولذلك لم أستطع أن أتوصل أو ان اقنع الجماعة هناك بأشياء نهائية. كل ما توصلت اليه: ان أجيء الى هنا، ان أفهم التطورات وأفهم وجهات النظر، ثم أعود مرة أخرى، من أجل اتخاذ القرارات المناسبة.

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته تماماً:

- لقد استطعت، خلال هذه الشهور، يا صاحب الجلالة، أن أكون فكرة كاملة عما يجري هنا، وإذا سئلت الآن يمكن أن أقدم وجهة نظر متكاملة، قد تكون مفيدة لصانعي القرار.

سأل السلطان:

- بعد أن عرفت كل شيء، شنهورأيك هالحين؟

- السؤال كبير وعام جداً يا صاحب الجلالة، ولا يمكن أن أجيب عنه بكلمات!

وقبل أن تنتهي هذه الليلة، إتفق السلطان وهاملتون أن الطريقة المفيدة والضرورية، ان يسافر هاملتون ويسافر معه فتر، وأن يدرسوا هناك كل القضايا الاساسية، تمهيداً للوصول الى صيغة ملائمة للمستقبل.

ولم تمض أيام حتى استعد الاثنان، مع مجموعة من المرافقين والحرس. وقد أوصى السلطان الاثنين، وهو ينقل نظراته من الواحد الى الآخر، ان لا يتأخرا.

أما مع فتر، فقد قضى السلطان عدة ليالٍ، وفي هذه الليالي تحدث معه كثيراً، وحول امور لا حصر لها، وكان يريد أن يكبر، أن يختزن تجارب وذكاء يمكنه من الوصول الى نتائج مناسبة!

مس مارگو انتقلت من اكسفورد الى لندن، وكان احد أهم الاسباب لانتقالها ان تكون قريبة من مكتبة المتحف البريطاني، لأن الكتاب الجديد الذي تعده يتناول: مدى مساهمة بريطانيا في التغلب على الامراض المستوطنة في شبه القارة الهندية، وكانت بحاجة ماسة الى الاطلاع على الوثائق! أما الكتاب الذي انجزته خلال السنوات الماضية، وهو مزيج من الذكريات والانطباعات، اضافة الى القراءة، فكان يتناول جانباً من التأثيرات المتبادلة بين الثقافتين الانكليزية والهندية، وانعكاس ذلك على قصص الاطفال، تحديداً.

فتر حمل معه لمس مارگو مجموعة من الهدايا: ثلاث قطع حريرية، عقداً من الذهب يتوسطه حجر كريم بلون الزبرجد، إضافة إلى شالين من الصوف الكشمير، الاول رمادي، والآخر بلون جلد الغزال؛ ولم ينس أيضاً أن يطلب من مرافقيه شراء بساط محلي متعدد الالوان، مثل ذلك الذي رآه عندها، وقد جلبته من كولومبو، وكانت شديدة الاعتزاز به؛ وثلاثة جلود لوعول كبيرة؛ ومجموعة من الحلي الفضية والخرز.

كان بوده أن يحمل لها هدايا أخرى، لكن سفره العاجل، والذي تقرر خلال بضعة أيام، لم يمكنه. ليس ذلك فقط كان ينوي أن يزورها في اكسفورد، «مهما كان الوقت ضيقاً» كما قال «وان ابقى عندها بضعة أيام». وقد كانت مفاجاته كبيرة حين عرف أنها في لندن. هاملتون الذي أبلغه عدة مرات أن العمة مارگو تبعث إليه بتحياتها، نسي أن يخبره بانتقالها. الآن، وقد عرف، كان شديد اللفتة لأن يزورها في أقرب فرصة.

لم تتغير المس مارگو وكان السنين التي مرت أخطأتها او لم تصل إليها .
هكذا كان انطباعه في اللقاء الأول . بالمقابل أنكرت تماماً أن يكون ذلك الصبي
الذي قضى عندها شهرين قبل بضع سنين ، هو ذاته الذي تراه أمامها الآن . وفتر
الذي لم يجرؤ طوال فترة إقامته الأولى عندها على النظر إليها بتحديد وامعان ،
وجد نفسه يفعل ذلك هذه المرة . بل وطلب منها أن تضع على صدرها الشالين ،
وأن تقف ليؤكد من مدى ملاءمتها ! العقد استبقته بين يديها فترة طويلة وهي
تتمتع به ، وحين رفعت إليه وجهها ، لكي تشكره ، قالت بتلعثم :

- كان يفترض ان امتلك مثل هذا العقد قبل ثلاثين أو أربعين سنة . . وتنهدت
بحرقة ثم أضافت :

- الكثير من الاشياء الجميلة ، او الأشياء التي يتمناها الانسان ، تأتي متأخرة .
وابتسمت بحزن ، لكن لم تترك نفسها تستسلم للكآبة . قالت وهي تفرد
البساط :

- البسط تعكس نفسيات الشعوب اكثر مما تعكسها خطاب الزعماء والسياسيين !
وضحكت مثل قطة تموء ، وأضافت :

- ارجو المَعذرة ، فأنا لا أريد أن أعرض بأحد .

وبعد قليل وهي تهز رأسها :

- يمكن اكتشاف الشعوب ، ومعرفتها بدقة ، من خلال الاغاني ، والمصنوعات
النسيجية ، وقصص الاطفال

كانت تريد ان تسترسل ، لكن هاملتون تدخل :

- نسيت ان ابلغك ، يا عمتي ، ان سمو الامير رزق بولد جميل خلال الاسابيع
الماضية . . .

- لا اصدق أبداً يا هاملتون !

وبعد أن ضحكوا ، أضافت بنبرة مختلفة :

- لا أغفر لك إنك لم تخبرني من قبل عن زواج الامير !

وقطبت ما بين حاجبيها وهي تضيف:

- لكنهم في الشرق ينظرون الى الزمن ويتعاملون معه بطريقة مختلفة عنا.

ولكي لا يساء فهمها غيّرت نبرة صوتها:

- اقصد انهم يتزوجون في وقت مبكر، وليس كما في بريطانيا. ومن الطبيعي ان الذين يتزوجون مبكراً ان ينجبوا مبكراً، أيضاً!

وانصرفت الى فتر تسأله عن حياته الجديدة، وعن الطفل الذي جاءه، وتساءلت لماذا لم يصطحب معه زوجته، ولم تتركه يجيب، أجابت نيابة عنه أن الأم لا تستطيع أن تترك طفلها في الشهور الأولى، كما أنها تعتبر من غير المناسب وغير الصحي أن تصطحب، في سفر طويل، طفلاً رضيعاً.

ورغم أنها لم تتعود ان تهدي كتبها الا لمن يستحقها كما تقول لنفسها، وبعد فترة من الاختبار، وأحياناً بعد فترة من الانتظار، فقد نهضت الى المكتبة، في صدر الغرفة، واستخرجت كتابها الأخير. نظرت الى غلافه، وهي لا تزال تعطيهما ظهرها، وقالت وهي في ذلك الوضع:

- إذا استطاع الكبار ان يفعلوا شيئاً مهماً للصغار، للمستقبل، فان يحافظوا على ما تسلموه من الآباء لكي يسلموه للأبناء.

قالت هذه الكلمات، وتريد أن يفهم منها اكثر من معنى ودلالة، وحين استدارت نحوهما، تابعت وهي تسير:

- لقد اكتشفت من خلال هذا الكتاب أن العالم الذي نعيش فيه صغير، وبعض الأحيان صغير جداً. فالقصص التي ترددها الجدات في مآتال أو كمبولولا هي ذاتها التي تردد في أصغر قرى إنكلترا، مع فارق وحيد، إذ تتغير أسماء الأشخاص والأماكن فقط. وهي ذاتها التي تتكرر في أحمد آباد، وربما تتكرر عندكم أيضاً في الناصرة وبيت لحم.

جلست، نظرت الى فتر ثم نظرت الى هاملتون، وكان لديها ما تضيفه:

- صحيح أن هناك فروقاً بين مكان وآخر، وبسبب هذه الفروق بالذات،

تكتسب الاماكن نكهتها وتميزها، وهذا ما يجب أن نحافظ عليه، وأن نجعله ينتقل من جيل إلى آخر. أما إذا تشابهت بلدان العالم تماماً، أي إذا انعدمت الفروق، فعندئذ تكون البشرية قد وصلت إلى نهاية مرحلة كبيرة، ولا بد أن تنتهي، تماماً كما حصل في حضارات قديمة، عندما كانت الحضارة الأقوى تدمر ما عداها من الحضارات.

كان لدى هاملتون ما يقوله تصويماً لوجهة النظر هذه، بل وشعر ان ما جمعته عمته من معلومات في إعداد الكتاب جعلها تفكر بهذه الطريقة، تحت تأثير الجزئيات، لكن لم يجد أن الامر يستحق الاختلاف، كما أن الوقت ليس مناسباً. قال ليغير اتجاه الحديث قليلاً:

- لو اتيح لك، يا عمتي، ان تزوري آثار العوالي وموران، لوجدت اشياء كثيرة تستحق الاهتمام!

- بكل تأكيد، ولا بد لي من أن أعترف بذلك.

ولما ساد الصمت قليلاً، مدت يديها الاثنتين الكتاب الى فتر، وقالت وهي تنظر إليه:

- حينما يكبر ابنك ويقرأ هذا الكتاب، سوف يجد حوله من القصص والاساطير الكثير مما يشبهه، وسوف يتذكر الاجيال التي سبقت في هذه الحياة.

قال فتر، ولا يعرف كيف عنت له هذه الفكرة:

- وحين يكبر ويقرؤه ربما يكتب شيئاً مشابهاً، لكن عن بلادنا بطبيعة الحال!

ردت وكانت لهجتها حازمة:

- يجب أن يفعل، أرجو ذلك، وإذا لم يفعل هو فسوف يفعل غيره، المهم ألا تضيع ممتلكات البشرية وتنتهي إلى النسيان، مما يضطر الأجيال القادمة إلى البدء من الصفر مرة أخرى!

في نهاية الزيارة الاولى، قال هاملتون لعمته، وكان ينظر إلى فتر:

- يجب أن تكون ضمن اهتماماتك المبكرة زيارة موران والعوالي ، لكي تعدي كتاباً جديداً!

- بكل تأكيد ستفعلين ، مس ماركو، وإنه لشرف عظيم أن تقبلي دعوتنا، وسوف نسرّين من هذه الزيارة.

ضحكت بغبطة قبل أن ترد:

- يسعدني أن افعل ذلك، لكن لن أستطيع قبل أن أنجز كتابي . . .

وبعد قليل وكأنها تستدرك:

- او على الأقل قبل أن أهَيء المواد الأساسية.

وفي معظم أيام الاسبوع كان لدى هاملتون وفنر ما يفعلانه، فالاجتماعات لا تكاد تنقطع، والاشخاص الذين يشاركون في هذه الاجتماعات من التنوع واختلاف الاختصاصات الى درجة اثارت دهشة فنر، بل وأخافته: موظفون من الخارجية، ضباط عاملون وآخرون متقاعدون، أساتذة، بحارة، علماء لغة وتاريخ، رسامو خرائط، وأشخاص بدون صفات، أو لا يقدمونهم بصفات محددة. وفي هذه الاجتماعات التي كانت تطول وتمتد لم يترك شيء الا وجرى الحديث فيه او عنه. وفنر الذي كان يتابع المناقشات بعناية، اكتشف انه بحاجة ماسة الى معونة هاملتون، في الترجمة، في فهم بعض التعابير والمصطلحات، في السؤال عن بعض الاماكن او الوقائع التاريخية. وهاملتون، لم يكن مفيداً فقط كان ضرورياً الى اقصى حد، لأن هذا العالم من الاتساع والخطورة بحيث ان فنر كان بحاجة الى اكثر من المساعدة، كان بحاجة لأن يشعر بوقوف احد الى جانبه.

«إنهم يعرفون الكثير عن موران» هكذا قال فنر، في نهاية أحد الاجتماعات، لهاملتون، وهما يخرجان الى الهواء بعد ساعات طويلة، فردت خلالها عدة خرائط، وكانت من الاتساع الى درجة، ملأت جداراً كبيراً، وتناوب على هذه الخرائط أشخاص عديدون. كانوا يشرحون، ويشيرون بعضا طويلة: كيف يجب أن تكون الدول في هذه المنطقة!

وفتر الذي استفاد الكثير من المعلومات خلال الشهور الستة التي قضاها هنا قبل بضع سنين، يجد ان كل يوم من الأيام الحالية يعادل شهوراً، إذا لم يقل شيئاً. عزا ذلك الى انه أصبح الآن اكبر سناً، ويفهم كل أو معظم ما يقال. وعزاه أيضاً الى أن الفرصة أتاحت له هذه المرة ان يلتقي بالعديدين من الذين خدموا، او على الاقل زاروا المنطقة، ولذلك فإنهم يعرفون الكثير! لكن ما آثار دهشته واستغرابه ان الموظف المسؤول عن الخرائط، والذي كان يُسأل باستمرار ويستخرج بين فترة وأخرى خارطة تختلف عن التي سبقتها، او التي تليها، من حيث الالوان والتضاريس، لم يزر المنطقة؛ ولم يخرج من إنكلترا! وحين ابدى فتر استغرابه، تطلع إليه هذا الموظف وقال له كلمة ظلت ترن سنوات طويلة لاحقة:

- لا يكفي المرء ان يسافر هنا وهناك، في البواخر والقطارات، لينعرف، المهم يسافر في عالم يريد، ويتصميم، ان يكتشفه، وان يتعرف عليه بشكل جدي، وان يكون جزءاً منه.

ولما هز فتر رأسه إعجاباً، تابع الموظف، وكان ذا دعابة:

- كثيرون يسافرون ولا يرون شيئاً، يا سيدي، وغيرهم يديرون العالم بين أيديهم، كما يدير الله الكرة الأرضية، لكي يروا كل شيء!

المناقشات السياسية كانت تختلف، جوهرياً، عن مناقشات الجغرافيا والتاريخ واللغات. فالرجال الذين كانوا يقودونها بدوا أكثر قسوة ومباشرة، بل وكانوا، بعض الأحيان، أقرب الى الجلافة: «ماذا يريد سلطان موران؟» «كيف يستطيع أن يؤمن الموارد المالية؟» «ماذا يعود علينا إذا سمحنا لسلطته أن تمتد وتشمل كذا وكذا؟».

هكذا كانت اسئلتهم. كانوا يسألون وهم ينظرون الى العينين تماماً، يريدون ان يعرفوا كل شيء. بل اكثر من ذلك لم يترددوا في السؤال عن عمير وابن مياح وعويد المشعان. كانوا يريدون ان يعرفوا أدق التفاصيل. لم يخفوا اوراقهم ولم يخجلوا. قال مستر ادموند ريكسون في إحدى المناقشات: «لو افترضنا اننا سمحنا لموران ان تضم بعض المناطق المجاورة، ولا حاجة لان اسمي أو

احدد، ماذا يعود علينا من وراء ذلك؟ وفتر الذي لم يكن متأكداً ما إذا كان مطلوب منه الإجابة عن هذا السؤال ام لا، لا يعرف بماذا يجيب. لقد علمه ابوه ان يكون صلباً، ان لا يقبل بما يطرحون عليه، ان يساوم، لكن ماذا يستطيع ان يجيب عن هذا السؤال، علماً بأنه ليس السؤال الوحيد؟ كانت هناك عشرات الاسئلة، وكان هناك عشرات الرجال الذين يقولون الاشياء ذاتها، وان بصيغ مختلفة، ولا يعرف ماذا يجيبهم او كيف يتصرف معهم.

حتى مشروع المعاهدة الذي أرسله دنيس ايجلتون الى موران، كان لديهم نسخة عنه. استخرجوا هذا المشروع، وكان مؤشراً عليه بالاحمر والاخضر، وقالوا، او بالاحرى سألوا: هل توافق موران على هذه المعاهدة؟

بعد أن تنتهي هذه المناقشات الطويلة المتعبة، وهاملتون، أغلب الاحيان، لا يقوم بأكثر من دور الترجمة او شرح بعض الفقرات او المصطلحات، كان فتر بحاجة الى جو آخر مختلف. وهاملتون دائماً العون والسند معاً. يكون قد فكر بما يجب عمله لكي تنسى المناقشات التي جرت، الوجوه التي سدت الذاكرة، استعداداً ليوم جديد.

ففيما تبقى من النهار او الليل: جولات حرة، اطلاع على معالم لندن، زيارات لحدائق او معارف. وفي هذه الجولات والزيارات كان يستعيد فتر نفسه. كان يكتشف ان العالم ليس مجرد خرائط او ضباطاً متقاعدين. كما انه لا يُلخص بكلمات صلبة تشبه ادراج كنيسة سان بول. إن العالم اكثر اتساعاً وغني من تلك الوجوه والكلمات القاسية.

سنة أيام متوالية من الاجتماعات واللقاءات والخرائط، انتهت بوضع صفحات.

قال امرسون لفتر في اللقاء الاخير، قبل السفر بيومين، في وزارة الخارجية.

- سمو الامير...

توقف طويلاً بعد العبارة، ورغم ان الصمت ظل مخيماً، فقد اعتقد الذين يسمعون ان المستر امرسون عدل عن المتابعة، أو عنت له افكار جديدة، او

مختلفة. انتظروا، وكان فتر اشدهم لهفة لان يسمع، قال امرسون من جديد :
- سمو الامير. . .

تنحنح ثم تابع :

- اخذنا بالاعتبار الكثير من الملاحظات التي ذكرها المستر هاملتون، والتي جاءت من المستر دنيس ايجلتون، كما حصل لنا الشرف ان نسمع وجهة نظركم، وتوصلنا، نتيجة ذلك، وبعد الدراسة الدقيقة، الى مشروع المعاهدة الذي نرجو ان تحملوه معكم، وان تعرضوه على صاحب العظمة السلطان، من أجل دراسته واقاراره.

ولما وجد الصمت مسيطرأ، وليست هناك اية نية للتعليق او السؤال، تابع بنفس النبرة :

- لقد راعينا وجهات نظر عظمة السلطان، ودرسنا الامر من كل جوانبه، ونرجو ان نلقى اجابتكم خلال شهرين من الآن.

واذ استغرب فتر هذه الطريقة في عرض المشروع، أو المبررات التي سبقت من أجل القبول به، رد عبر عن ذلك لهاملتون، في الليل المتأخر، وبعد انتهاء الاجتماع بعدة ساعات، فقد كان جواب هاملتون :

- لا داعي لان اشرح لك، يا سمو الامير، طبيعة بعض موظفي صاحب الجلالة، خاصة الذين خدموا في مصر او الهند، انهم لا يعرفون الا توجيه الاوامر، ولا يفترضون الناس الا فقراء او متسولين؛ وهذا الموظف وامثاله، هم مشاكل الامبراطورية!

وهز هاملتون رأسه عدة مرات بأسى وتابع :

- وإذا كان هناك خطر قد يلحق بالامبراطورية، او قد يلحق بأصدقائها، فعن طريق هؤلاء، او امثالهم.

وبعد فترة صمت قصيرة :

- لكن ليس لنا الخيار الآن. يجب ان نسمع وقد نضطر للموافقة، لانهم وحدهم الذين يملكون القرار!

وإذا كان فتر قد تعلم من هذه السفرة الكثير، فقد تعلم قبل كل شيء ان لا يرد بلا أو نعم. وتذكر كلمات أبيه يوصيه أثناء الحملة الاخيرة. قال في نفسه: «يجب ان نسمع جيداً، ان نفهم جيداً، وان نتصرف على قدمي ما نملك من القوة».

عندما قال هذه الكلمات وجدها حكيمة وقوية، ووجد انها وحدها التي يمكن ان تساعد في الوصول الى النتائج المناسبة. هاملتون استأذن خلال الاسبوع الاخير لزيارة زوجته. كان يجب عليه ان يذهب الى ويلز.

سافر وعاد لوداع فتر، فقد كان مضطراً للبقاء اسبوعين أو ثلاثة أسابيع اخرى، من أجل متابعة بعض الامور: الخرائط، دفعات المال، الاسلحة الجديدة التي وعدت بها السلطنة، بما في ذلك اربع او خمس طائرات، وأيضاً لقضاء اسبوعين من الراحة، كإجازة، مع زوجته وابنه.

الليلة قبل الأخيرة، وكانت مع المس مارغو أيضاً.

ومس ماركو حين تبدأ بالكلام يروق لها ان يكون بسيطاً ومباشراً، ويروق لها اكثر من ذلك أن يكون حكيماً. وهذه عادة انكليزية، كما كانت تحب ان تردد وهي تبسم.

قالت المس مارغو حين أكد فتر دعوتها لزيارة موران:

- إذا امتد بي العمر، إذا استطعت، حتى لو لم توجه اليّ الدعوة فربما بعث ما لدي من العقود والاحجار الكريمة . . .

وضحكت وغمزت بعينها، ثم تابعت:

- يروق لي أن أزور الشرق، والشرق هذه المرة غير الذي كنت فيه.

هزت رأسها عدة مرات، ثم أضافت:

- شرقكم يحيرني: انه مزيج غريب، انه، وربما هذه الكلمة متداولة أو مبتدلة، لقاء الطرق والحضارات والديانات، ولذلك أصبح مزعجاً لنفسه ولغيره، أنه مثل الامرأة الحامل، وقد تجاوزت شهرها، فلا يعرف هل تلد نيباً أو مسخاً هل تتابع مسيرها ضمن منطق التاريخ والجغرافيا أم تحاول أن تكون شيئاً آخر؟

تنهدت بأسى وبعد قليل، وجاء صوتها خشناً:

- نعم، لشد ما يحيرني هذا الشرق، انه كتلة من الغموض والتناقض، ليس لنفسه فقط وإنما بالنسبة للآخرين أيضاً. إذ بمقدار ما هو مؤهل، وبمقدار ما تساعده الظروف، فإنه يبدو ثقيلاً بطيئاً تائهاً حتى لتظنه أصبح جشة لا تحتاج الا الى الدفن، لكنه أيضاً، وفي كثير من الحالات يفاجئك. ومثلما كنت اقول لهاملتون: هذا الشرق بمقدار ما يحتويه من حضارات وأساطير، وما تتوافره من رغبات وجنون، فإنه مؤهل للأميرين معاً: اما ان ينقذ العالم، او ان يكون نهاية العالم.

وتنهدت مرة اخرى وبأسى:

- سمو الامير: لا اريدك ان تقع تحت تأثير عجوز فانية، امرأة من عصر مضى، لكن لا ازال أجد في نفسي القوة لأن أقول بضع كلمات: الكتب التي الفتها، الخدمات التي قدمتها، الاحلام التي لا تزال تملأ رأسي، كل هذه تجعلني على قناعة ان في الشرق شيئاً كثيراً، ولا يزال هذا الشيء قابلاً للحركة والبقاء، وهذا سر وجوده واستمراره، ولولا ذلك لانتهى منذ وقت طويل، بسبب الأوبئة، بسبب الحروب، وتلك المصائب التي لومرت على شعب آخر لما بقي منه أي اثر.

قال فتر بدعابة:

- كل هذا الحديث عن الشرق، عن بلادنا، قبل ان تزورينا؟

ردت بنزق:

- سمو الامير. . .

وبعد فترة صمت، واهتز رأسها وجسدها مرات عديدة:

- ربما كانت الصورة عن الشرق أفضل من الشرق الآن، لكنه مع ذلك يبقى مخزوناً لكل الاحتمالات المتناقضة: وكما قلت: قد يكون مرة أخرى بداية لعالم جديد، أو نهاية لهذا العالم.

- انك شديدة التفاؤل أو التشاؤم يا مس ماركو.

- سمو الأمير... الأمر لا يتعلق بالتشاؤم والتفاؤل، إنه يتعلق، بالدرجة الأولى، بالتاريخ والإرادة. لا زلت تملكون الكثير من التاريخ، وهذا إرثكم وربما ليس لكم فضل فيه، وإن كان ملك أجدادكم، ولكنكم لا تملكون شيئاً من الإرادة أو رغبة الإرادة.

ومس ماركو التي لا تدخن إلا نادراً، وعندما تكون في حالة قصوى من حالات الفرح أو الحزن، سحبت من درج طاولة صغيرة الى جانبها علبة سجائر. عرضت على الأمير، الذي رد بابتسامة اعتذار، اشعلت لنفسها سيجارة، جرت نفسين متواليتين وواصلت الكلام:

- لا اعرف ماذا تريدون، او كيف تصلون الى ماتريدون، وليس من حقي ان أندخل في أمور لا تعنيني، كما لا أحب السياسة، بمعناها اليومي والمتداول، ولكن ما أفترضه أنه يجب ان تكون لكل شعب من الشعوب مثل عليا يعتز بها، ويحارب من أجلها عند الضرورة، وهذه المثل تكون اكبر وخطر لشعوب التاريخ، الشعوب التي كانت لها ادوار في العصور السابقة، ولذلك احس، دون ان اعرف بدقة، أن أمام بلادكم مهمات كبيرة يجب ان تؤديها.

لما وجد هاملتون ان الجو امتلأ بهذا القدر الكبير من الجدية، قال ليكسر حدته:

- ولهذا السبب نحن هنا، يا عمي!

- هنا؟

هكذا سألت بسخرية، وبعد قليل تساءلت:

- ماذا يمكن أن يفعل هنا؟

ولأنها تعرف أشياء كثيرة، ورأت في حياتها الكثير، خاصة في الأماكن التي عاشت فيها، فقد قالت كأنها تخاطب نفسها:

- لا أحب أن أتدخل في شؤون الآخرين، ولا أحب، وبنفس القدر، أن يتدخل الآخرون في شؤوني، ولذلك إذا كان يمكن عمل شيء، فيجب أن يعمل هناك.

أطفأت السجارة بعصبية، نظرت بطرف عيناها إلى فتر، ابتسمت وهي ترفع رأسها، وتغيرت لهجتها تماماً:

- مثلما قلت لك من قبل: لا أريدك أن تقع تحت تأثير امرأة عجوز، وبالتأكيد فإنك لن تفعل، لكن تجربة الإنسان في هذه الحياة يجب ألا تذهب سدى، وهذا ما أحاول أن أقوله من خلال الكتب.

- يجب أن تأتي إلى شرقنا لكي تكتبي واحداً من الكتب المهمة عن الشرق! هكذا قال الأمير فتر بدعابة.

ردت بحرارة:

- إذا عشت ما يكفي لأن أصل إلى الشرق، وكانت لدي القوة، وكان لدي ما أقوله، فسوف أفعل؛ ليس ذلك فقط ثم إن هناك الكثيرين، ممن يمتلكون الخبرة والعمر، ولديهم ما يقولونه، سوف يفعلون!

نظرت إلى هاملتون وابتسمت، وكأنها تعنيه. قال هاملتون:

- أنت التي قلت لي ذات يوم: لا يمكن لإنسان أن يكون بديلاً عن آخر، وليس هناك شعب مثل شعب آخر، ولذلك فإن ما قد تفعله لا يستطيع غيرك أن يفعله.

- لا زلت قادراً تماماً على أن تدير حديثاً ناجحاً مع امرأة عجوز...

وضحكت فخرج صوتها مثل المواء.

قال فتر:

- نحن بانتظارك، مس ماركو، هناك، وأكون شاكراً إذا حددتِ الوقت الذي يناسبك لكي نرتب الامر بشكل جيد، واعتقد انك لن تندمي ابداً.

وافترقوا على وعد ان يبقوا على اتصال خلال الفترة القادمة، وليس كما كان الحال من قبل. ولم تقل المس ماركولا ولم تقل نعم، شيعتهم الى الباب، ولما أصبحوا في الشارع لوحث لهم من النافذة، وبعد ان خيم الصمت، سحبت من درج الطاولة علبة السجائر، اشعلت السيجارة سحبت نفساً ثم آخر، وغرقت في التفكير!

توقع السلطان ان يعود فتر من لندن حاملاً معه الكثير. انتظره شهراً طويلاً مضنياً، ولما عاد كان يحمل معه فقط الاخبار والوعود والانتظار. . . ولا شيء غيرها. أما الأموال، والأسلحة، أما الموافقة على وقف تدخل الجوار، خاصة ابن ماضي، اما الموافقة على ضم بعض مناطق الحدود، فقد علق كلهما الى حين إقرار وتوقيع المعاهدة. معنى ذلك أن كل شيء مؤجل ومهدد. وزاد في تعقيد الموقف ان دنيس ايجلتون سافر بإجازة، وهاملتون تأخر، ثم اجل عودته. «هؤلاء الانكليز يعبرون جيداً حين يصمتون او يغيبون» هكذا قال عنان بيسونى للسلطان، «والا ما معنى ان يسافر الواحد ولا يرجع الثاني؟»

والمعاهدة التي عاد بها فتر لا تختلف عن تلك التي قدمها دنيس الا بتفاصيل قليلة، إذ لا تزال تعتبر السلطان مجرد حاكم صغير مثل عشرات من الشيوخ والامراء الذين حوله، وتفرض عليه من الشروط والقيود ما يضطره للعودة اليهم في الكبيرة والصغيرة، مقابل المعونة التي يدفعونها، والحماية التي يوفرونها. صحيح أنه اضطر قبل خمس عشرة سنة الى الموافقة على معاهدة تجعله مثل الشيوخ الآخرين، لكنه في ذلك الوقت لم يكن مسيطراً على موران ذاتها. الآن وقد سيطر، بالإضافة الى موران، على الحوزة والعوالي، وأصبح الوحيد الذي يتكلم باسم هذه المنطقة الواسعة، فلماذا يريدونه أن يبقى صغيراً؟ ولأي سبب يتعاملون معه بهذه الطريقة؟

ليس ذلك فقط، موران ذاتها أصبحت ترتج. إنه يستطيع ان يلتقط الاصوات الخفية، ويشعر بذلك المزاج الذي لا تعبر عنه الكلمات أو التصرفات، ولكنه يملأ الجو وخرات الهواء.

ورجاله، الذين يعتمد عليهم في كل شيء، اخذوا يتغيرون. فما بين الصمت والغياب، هناك من بدأوا يكبرون ويتمردون. وإذا كان تمردهم ما زال موجهاً ضد بعضهم، او ضد الآخرين، فإن من السهل فهم الرسائل التي يبعثون بها بين فترة واخرى. فابن مياح والذين معه على الحدود، يريدون افساد علاقاته مع الجوار جميعهم، وتخريبها مع الاصدقاء، خاصة الانكليز، لكي يقطعوا عليه خطوط الرجعة، ولكي يضطروه في الأخير الى الموافقة على ما يريدون.

وابن مشعان، في العوالي، اصبح يجمع النساء كما يجمع الخيول، ويريد ان يخضع البلد سلباً لا حرباً! فإذا تبقى لديه وقت يخطب في الناس ليعلمهم مناسك الحج ونواقض الوضوء والدخول الصحيح؛ وبين فقرة واخرى لا ينسى ان يردد على مسامع من حوله ان الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها. فإذا سئل من يعني، هل يعني ابن ماضي ام خريط، يدير رأسه الى هذه الناحية ثم الى تلك ويقول: الملوك عند الله سواسية كأسنان المشط!

الحويزة التي سكنت مثل حجر، بدأت تتلطم وتتحرك. والحدود التي ظلت هادئة طوال سنوات، إلا إذا اراد هو ان يحركها، خرجت عن طاعته، ولا يعرف ما إذا كانت لا تزال له ومعه ام ذهبت الى الآخرين.

أما ابن ماضي الذي اضطر لأن يحزم امتعته ويأخذ معه الذهب كله، ويركب البحر ذاهباً بلا عودة فقد عاد او يكاد، اذ ارتفعت اصوات مؤيديه، وامتلأت عيونهم بالحمرة والشر، وأصبح تحديدهم علناً في كل مكان، وتختلط مع أصواتهم وتحدياتهم واحتجاجهم اصوات الآخرين، الذين اخذوا يعلنون انهم ينتظرون الفرج اليوم فإذا تأخر... فلا بد أن يأتي غداً.

ولا يكفي ان يكون البشر وحدهم ضده، فالله ذاته بدأ أيضاً. بعث السنة الاولى القحط. سنة طويلة سوداء، طغت على الزرع والضرع، فجاج الناس وصرخوا، ونفقت الماشية، وانتقلت البادية الى المدن او اطرافها، ومعها جوعها وتحديدها، وبدا ان كل شيء على وشكل الانهيار والنهاية. فالأرض تهتز، وتوشك أن تنقلب. وابن ماضي يبعث بالأموال والمتطوعين، مستغلاً الجوع والحاجة والضيق، ليحرك من لم يتحرك بعد، ولكي يحرض القرييين والبعيدين. وتأتي

بعد ذلك جرائد العالم كله لتقول «أي مجرم ولدته صحراء موران، وإلى متى يبقى، ولماذا لا يذهب اليوم قبل الغد؟»

وإذا كان قد بذل كل ما يستطيع من أجل ان يقنع رجاله وأهل موران لان يصبروا ويبتصروا، فكيف يستطيع اقناع الآخرين؟ ولماذا ينتظر الآخرون، او ماذا ينتظرون؟

لو ان الامور توقفت عند هذا الحد لصبر وصبر معه الناس واحتملوا، لكن ما كادت سنة الجوع تتراجع حتى جاء الهواء الاصفر. وفي طريقة حصد الكثيرين، من الصغار والكبار، ولم يتوقف عند ابواب قصر الروض، بل تجاوزها ودخل.

فزينة التي اعتلت منذ أيام النفاس، طمأنتها قابلة القصر انها أعراض تصيب جميع البكاري، فإذا اكلت من كبدة الجمل وشربت من زيت السمك، فلن تمضي فترة حتى تسترد صحتها. ولما ظلت صحتها تتراجع جاءت الحكيمة الانكليزية، وقالت، بتأكيد جازم، ان الامر يسير، وظل يسيراً هكذا يضعه شهرور، فلما وصل الهواء الاصفر حصد الأصحاء والمرضى، فتدهورت صحة زينة، ولم يجد معها أي علاج، وهكذا غادرت هذا العالم وتركت طفلاً رضيعاً، ورجلاً يتيم للمرة الثانية.

والسلطان الذي كان يهيم فتر لكي يكون ساعده ويده، رآه يغرق في ذلك الحزن الذي لا يمكن لاحد ان ينتشله منه، فب وفاة زينة عادت ايضاً احزان عين فضة، وعاد معها الماضي بكل ذكرياته وجراحه، وأخيراً مرضت موزي، اصبحت بين الحياة والموت، ولا يعرف ما إذا كانت ستبقى ام ستلحق بالذين ذهبوا. وفتر لم يكن بحاجة الى هذه الاحزان كلها ليصبح انساناً آخر، كان يكفيه قسم منها!

وظل السلطان واقعاً في تلك المساحة الفاصلة بين الغضب والشفقة. فيوماً يغضب الى اقصى الدرجات، لأنه لا يحب حزن الرجال، يعتبره ضعفاً، ولا يريد لابنه ان يكون ضعيفاً هكذا. وفي اليوم التالي يتذكر ما عاناه فتر نتيجة فقدته لأمه، ويعده الطويل في عين فضة، وكم جر عليه ذلك من الاحزان والآثار...

وحين يراه هكذا الآن يتابع السيرة ذاتها، يمتلىء قلبه شفقة وحسرة عليه، ويتساءل لماذا يصبح الابناء الذين يفقدون امهاتهم بهذا الضعف؟ ومن اين لهم هذا الحزن كله؟

وقبل انه يمضي شهر على حزن فتر وانقطاعه، يغيب العم دحيم أيضاً.

ذلك ليلة، بعد سهر طويل، وبعد حديث أطول، حول ما يجب عمله لمواجهة الجوع وتكرار الأصدقاء وشماتة الغرباء وحصاد الموت، يتفق الاثنان ان يسافر العم دحيم الى الحويزة مرة اخرى، لكي يرتب امورها، بعد ان عجز خزل عن ذلك، وان يتفاهم مع ابن مياح على ابعاد عمير وامثاله، وان تُعطى للسلطان فرصة اخرى من اجل التغلب على المصاعب واعادة ترتيب الامور. ويتفق الاثنان ايضاً ان يسافر السلطان الى العوالي، وان يبقى هناك فترة تكفي لاعادة الامور الى ما كانت عليه.

في تلك الليلة، في نهايتها، جاءوا ليلغوا السلطان أن العم دحيم قد فارق الحياة. التفاصيل ليست مهمة. فان يكون قد تقيأ، أو شعر بأسياخ من نار تشق صدره، أو أن يكون قد صرخ طالباً المساعدة، ثم هدأ وطمان الجميع أن حالته تحسنت، ولا يحتاج إلا إلى النوم، وأن ينام، ويبقى نائماً إلى الأبد... كل هذه تفاصيل لا تغير شيئاً ولا تدفع حزناً: فقد أصبح السلطان وحيداً، فامتلاً بشعور الوحدة وسيطر عليه هذا الشعور.

خزل بين الحويزة وموران يركض مثل البعير الضائع، ولا يُعرف ان كان هنا او هناك، فإذا استراح قليلاً، فعند واحدة من نساؤه الكثر، واغلب الاحيان لا تُعرف من تكون، لأنه لا يبقى في مكان، او عند واحدة، اكثر من وصول الخبر ورد الجواب!

حتى زوجات السلطان في قصر الروض، امتلأن بالنكد الذي يولده الخوف والمرارة، وأصبحن يتعاركن مع الخدم والاطفال والمربيات، لأنهن لا يجرؤن على ان يتعاركن فيما بينهن. وقصص الاطفال والنساء، التي كانت محصورة بطالع وناهي الفرحان، او من هم دونهما من المساعدين، اصبحت تتجاوزهم كثيراً. اخذت تنتقل على شكل شكاوي او احتجاجات، بسبب الاخطاء

والتعدييات التي تزايدت كثيراً، ولا احد يستطيع منعها. فإذا زادت الأمور عن حد معين، فلا بد عند ذاك ان تصل الى السلطان، وان تسمى الامور باسمائها.

والاولاد الذين كانوا ينتظرون بشوق ولهفة يوم الاثنين، ليحضروا مجلس السلطان، وقد لبسوا احسن ثيابهم وتعطروا، وكانوا يتسابقون لرواية الاشعار والانايد التي تعلموها من المربيات والمعلمين، وكل واحد منهم يحاول ان يتميز عن اخوته، وان يروي شيئاً جديداً او طريفاً، وقبل الآخرين، لأنه يكون قد قضى اسبوعاً من اجل ان يتعلمه. . . تحول الاولاد الى الشكوى والمشاحنات. فما لم يستطيعوا حله فيما بينهم، وبتحريض الامهات والمربيات، انتقل كل ذلك الى مجلس الاثنين. والسلطان الذي كان يبدي تسامحاً، وبعض الاحيان يوافق ان يكون قاضياً بين المتخاصمين، ما لبث أن ضاق صدره، فبدأ يؤجل مجلس الاثنين مرة بعد اخرى، وكان مطمئناً ان ما فات اولاده كيما يتعلموه منه، فإن المدرسة التي افتتحها في القصر لا بد أن تغني عنه، لأن اولاده الطلبة يواظبون على مدرستهم ودرسهم! لكنه اكتشف في وقت متأخر أن المدرسة انتهت الى يوم او اثنين في الاسبوع، ثم تحولت الى مدرسة لاولاد الخدم والحرس، الامر الذي دفع القائمين عليها الى تعليق الدروس فيها، ريثما يتسنى للسلطان الوقت من اجل استقبال القيمين على المدرسة، لكي يشرحوا له أين وصلت الامور!

حتى من بقي من الحرس والخدم، ورغم أنهم يعيشون في القصر، وفي القصر يأكلون وينامون، فإنهم ضجوا بالشكوى، نتيجة عدم دفع الرواتب وغياب الاعطيات. اما الذين يعتمدون على الرواتب لكي يؤمنوا اكلهم وثيابهم ومعاشهم، فقد سبقوا الخدم والحرس الى الشكوى والاحتجاج، والكثيرون طلبوا أن يلحقوا بالجند في الحويزة أو العوالي. والذين اضطروا للبقاء اخذوا يسرقون ويبيعون ما يصل الى أيديهم من أجل تأمين ما يحتاجون إليه.

والسلطان الذي كان قادراً على تأمين المال، في أصعب الظروف، يستخرجه من باطن الارض، او يستزله من اعالي السماء، كما يقول الذين يقدرون مواهبه، اصبح الآن حائراً، ولا يفعل الا ان يبعث بالرسل الى هنا وهناك:

«دين» ، قرصة حسنة ، يا جماعة الخير ، وكم يوم نورد دينكم وحة مسك» فيعود الرسل بصبر صغيرة لا تكاد تفي بحاجات القصر ، او يعودون بصمت ولا يريدون ان يقابلوا السلطان ، لئلا يحملهم مسؤولية الفشل . «كلها منكم وجوهكم تقطع الرزق وتنشف الغدران» .

قال طالع العريفان لناهي بسخرية مرة :

- الحق روحك يا ابن الفرخان ، دَوّر لك على شغيلة هنا . . هنا ، قبل ما تسلب بهذا المكان . . . وتندم .

- وتذكر يا أبو جازي سؤالقه قبل ما يروح للعوالي ؟ «يا النشامة ، يا قرابتنا وجماعتنا ، يا اللي يريد دنياه وآخرته جميع ، هذا اليوم يومكم ، اللي يسير معنا يطلب ويتمنى : الخيل ، الاباعر ، الغنائم . . كل شيء له» وراح يوم وجاء الثاني ، وهالحين تشوف عينك : «اصبروا يا اولاد الحلال ، وكل واحد له حق يصله ، بس يلزم نصبروا وتطولوا بالكم» وشهر بعد شهر الناس فاتحين حلوقهم وينتظرون !

- مثل ما قلت لك يا ناهي ، واليوم أحسن من اللي عقبه ، يجوز تلقى اليوم شغيلة بسوق الحلال . تسرح بغنم ، يطرشونك بأباعر . . . خاف باكر تدور ما تلقى .

ومثلما كانت موران تحتال على المصاعب ، او تقاومها ، بأن تبعث بأبنائها الى الاماكن البعيدة بحثاً عن الرزق ، أو بأن تشجعهم على استعمال القوة لدفع الذين يريدون مزاحمتها على رزقها ، وقد فعلت ذلك خلال معظم العصور ، فإن اغلب الابناء الذين كانوا يذهبون بعيداً ، يجدون انفسهم مضطرين للعودة في يوم من الأيام . كانوا يعودون بدوافع غامضة . فرغم الخضرة والمياه والرزق الوفير في الاماكن التي كانوا يعيشون فيها ، يحسّون ، فجأة ، وقد امتلأوا بأحزان لا يعرفون كيف تسربت اليهم وطلعت على البيع والشراء ، وعلى كل ما هم قِيم من ثراء او راحة بال ، واضطرتهم لأن يفكروا بموران مرة اخرى . تعربد في رؤوسهم افكار غريبة اقرب الى الجنون . ومثلما كانوا مجانيين حين تركوا موران ، واقسموا ، كاذبين ، الا يعودوا اليها مرة اخرى ، بسبب ما لاقوا فيها من العنت وصعوبة

الحياة، فإن موران الغافية في اعماقهم، المتظاهرة بالغياب، لا تلبث ان تنفجر مرة اخرى، وبنفس قوة الجنون التي دفعتهم ذات يوم الى مغادرتها، وهذه القوة ذاتها هي التي تدفعهم الى العودة مرة ثانية.

الذين تركوا موران الى اقصى الارض، فوصلوا جاوة وسومطرة، وصلوا الى زنجبار ومباسا، ولم يكونوا يتصورون ارضاً بعد موران، او ابعد منها، وغامر بعضهم فوصل الى الارض الجديدة، بحثاً عن موران اخرى هناك، ولأنهم لم يجدوا، او لم يقتنعوا بغير مورانهم، فقد بقوا فترة ثم تركوا جزءاً كبيراً من ارزاقهم، او تركوا وكلاءهم يصفون ما بقي لهم من الرزق، وعادوا.

إن شيئاً في أهل موران يستعصي على الفهم او المنطق. فهم نمط من الناس مشدود دوماً الى حيل السرة. انهم يذهبون بعيداً، يتصرفون، بعض الاحيان، كما يتصرف الآخرون. يتعلمون ويعيشون، لكنهم يظلمون دوماً مختلفين. وهذه الصفة تحددهم اكثر مما تميزهم. حتى الذين تعلموا، واصبحوا جزءاً من الاماكن الاخرى، فإن في اعماقهم ما يدعوهم الى الاعتزاز، انهم من موران، ولو لم يكونوا منها لما أصبحوا هكذا.

وفي سنوات الجوع والمصاعب، اكثر من سنوات الرخاء، فإن اهل موران المسافرين يحسون بحاجة لان يكونوا مع اهلهم، او ان يعيشوا الى اهلهم ما يستطيعون.

لقد حصل ذلك مرات لا حصر لها. الجدات في ايام الرخاء، حين لا يعرض الجوع، ولا يحصد الموت او تقسو الحياة، لا يملن من ذكر القصص التي تذكر الصغار بالأقرباء الذين عادوا فجأة، لكي ينقذوا ويساعدوا، في الوقت الذي لم يتوقع احد ولم ينتظر عودتهم. بل ان هؤلاء قد نسوا وغابوا من الذاكرة، لأن غيرهم، من هم اقرب منهم، لم يسمعو او لم يستجيبوا.

في هذه السنة الصعبة رجع الى موران عثمان العليان.

قضى عثمان سنيناً في جاوة. قال الذين يعرفون طرفاً من حياته، إنه قضى هناك اثنتي عشرة سنة. كان طفلاً او صبياً حين وصل الى هناك مع عمه. ومثل

القصص التي تروى أيام الشتاء، فتح الله على عثمان ورزقه . فبعد ان كَوّن ثروة، وتاجر بكل التجارات، وسافر الى كل الأقطار، إستقر به المقام في مصر . ولا يعرف كم من السنين قضى هناك . الذين يحبون مصر يقولون ان رزقه كله جمعه منها، والذين يخافون مصر او لا يحبونها يقولون إنه جاء بأمواله من الأماكن الاخرى، وفي مصر لم يفعل اكثر من أن يتزوج امرأة ثم ثانية، وأن يستعين ببعض المصريين لكي يعتنوا بخيوله . أما أمواله فكانت على ظهور المراكب او موزعة في اماكن عديدة في البصرة وغزة والشام، وقيل انها وصلت الى مانشستر البريطانية .

المهم ان عثمان العليان وجد نفسه في يوم من أيام الربيع، وكان في بلبس، يكي حيناً الى موران . الذين يعرفونه يقولون إنه ترك موران وعمره اربع عشرة سنة، وغيرهم يقولون ابن سبع سنين . وفي لحظة هي بين الغضب والوجد وضيق النفس، قرر أن يعود الى موران . لقد غاب اثنتين وثلاثين سنة، وبعض الذين يكرهونه يقولون إنه غاب أربعين . لكن مثلما يخفي ما عنده من أموال فإنه يخفي عمره، خاصة أمام النساء!

هكذا فجأة قرر ان يعود . وخلال اسابيع قليلة صفى ما له من أرزاق في مصر وغيرها، وقيل إنه لم يصف شيئاً أبداً، إذ جمع ما له من الديون، واستبقى غيرها، وكلف وكلاء عليها، وعاد . عاد إلى موران يبحث عن أهل وأقارب، ولا أحد يعرف ما له أو ما عنده، ولأن موران لا تنسى أبناءها، ولأن في مجلس السلطان يلتقي الغرباء والمغامرون الذين يبحثون عن الأقارب والأصدقاء فسرعان ما وجد عثمان أقاربه .

وبعد أن رأى وسمع وعرف قرر ان يكون في خدمة السلطان .

علاقة السلطان بابن العليان غامضة، غريبة الى اقصى حد . فكان الاثنین كان أحدهما ينتظر الآخر منذ زمن طويل، وما ان التقيا حتى اصبحا اكثر من صديقين . قال بعض الناس ان عائلة العليان ترتبط مع عائلة السلطان بصلة قرابة . وجاء من صحح هذا الخطأ، وقال إن العلاقة هي علاقة نسب . وقال غير هؤلاء إن العلاقة بين الإثنین ليس لها صلة بالقرابة او النسب، وإنما

بالمصلحة، وقيل لها صلة بالمزاج وتقارب السن. وقال غير هؤلاء، إن الواحد منهما يكمل الآخر، وإنهما بحاجة بعضهما الى بعض.

لم تكد تمر بضعة شهور وباعتبار ان عثمان العليان، يعرف التجارة والمحاسبة، «ولديه اموال يريد ان يشغلها»، حتى اتضح كل شيء، كما قال يونس شاهين، فقد «وضع شحمته على فطيرة السلطان» وهذا تعبير يونس ذاته، لكنه لم يقله علناً او في حينه، وإنما قاله بعد بضع سنين حين اصبح عثمان العليان امير المال ومدير شؤون السلطان.

القصص والاخبار، وحتى الاشاعات، التي تتناول موضوع العلاقة، ثم موضوع الاموال، واموراً أخرى ايضاً من الشعب والتناقض نتيجة اختلاف الرواة والدوافع، الى درجة لا يمكن معها الوصول الى الحقيقة او الى جزء منها.

بعد أن إنتهت سنة القحط، وبعد ان انتهى الهواء الاصفر، بدا وكأن السلطان قد اجتاز أصعب الأيام واقسى التجارب والظروف.

في الفترة التي عاد خلالها عثمان العليان، او على التحديد بعد شهرين من ذلك، عاد ايضاً، وبعد غياب دام ستة شهور، هاملتون، أما دنيس ايجلتون فقد بقي في بريطانيا. وحول بقائه تتناقض الروايات، لكن اكثرها ترجيحاً انه اختلف مع زوجته. فالزوجة لا تريد ان تعود، وقد هددت بالطلاق إذا أجبرها على العودة. ولأنه يحبها فقد طلب ان تسمح له الوزارة بالبقاء فترة اضافية، ريثما يسوي هذه المشكلة. وافقت الوزارة على ان يبقى، ولم تصغ الى ما عدها، ولم تكثف بذلك، فقد اتخذت بسرعة قراراً وعينت في الوقت نفسه بديلاً عنه. ولأن هذا البديل من طبيعة مختلفة، سواء بالتصرف او باللغة، فقد جاء الى موران ليقدم احترامه الى السلطان، ويطلب تأجيل مناقشة اي موضوع «الى حين استكمال دراسة الملفات» وابدى رغبة كبيرة «للتعاون وتذليل الصعاب».

أما كيف استطاع عثمان العليان ان يدبر المال للسلطان، فإن الإجابات تتعدد وتتنوع وتتناقض بقدر عدد الذين يجيبون، خاصة وأنه لم يبق احد في موران الا واجتهد وافتى! فالتجار في موران والعوالي، الذين وجدوا أنفسهم مضطرين لدفع مبالغ حددت حسب امكانيات كل واحد منهم، لا يعرفون هل ما يدفعونه ضريبة

ام دين ، ام زكاة ، لأن الإجابة ، حين سألوا ، كانت تتراوح بين الزكاة والدين ، مع تأكيدات لا تنفك تتزايد ، ان كل ما أخذ منهم سوف يرد اليهم ، وإذا اُضاف بعض رسل السلطان « . . . وفوق الدين زودة » فإن المتشددین خافوا ، وقالوا : لا نأخذ على اموالنا الربا ، والمتساهلين سمو ذلك ربحاً ، ولم يجدوا غضاضة في الموافقة ، لكن تساءلوا : متى يعاد الدين والربح ؟ أما غيرهم ، والذين تأخروا في إخراج الزكاة ، فقد اعتبروا ان الله عاقب عباده بالقحط والوباء لأنهم لم يصرفوا حقوق الله ، ولذلك دفعوا برضا وسماحة ! وغيرهم دفعوا خائفين ، (لأن مع كل موظف ، او مع كل رجل من الذين ارسلهم ابن عليان ، كان عدد من حرس السلطان) ، وكان هؤلاء يقلّبون نظراتهم فيما حولهم ، وكأنهم يقدرّون ممتلكات كل واحد ، او يحدّدون ما يجب ان يأخذه اذا امتنع او تردد عن اداء ما يُطلب منه .

هكذا فسرت او فهمت الاموال التي اخذت من التجار . ومع ذلك ، لم تكن كبيرة ، ولا تكفي لكي يواجه السلطان اعباء الحملات وحاجات الجند ، ولتأمين المواد الضرورية . خاصة بعد ان تزايدت المصاريف ، فقال الكثيرون : « هذا غطاء لما يفعله ابن عليان » .

خدم القصر ، الذين يدققون بعيون الصقور ، وبيرون الصغيرة والكبيرة ، ويظلّون ، أغلب الوقت ، صامتين ، لاحظوا في هذه الفترة ، أن الشيخة التي اعتزلت الناس فترة طويلة ما لبثت أن خرجت ، وقبل انها خافت خلال الفترة السابقة من الهواء الأصفر ، ولم تكن تفعل طوال شهور ، خاصة بعد وفاة عدد من سكان القصر ، سوى أن تحرق الملح ، وتكثر من استعمال ماء الورد ، وتمنع أي واحد من الخدم الاقتراب من جناحها . وقيل انها لم تأكل يوماً واحداً مما كانت تعدّه مطابخ القصر ، كانت تهاني تعد لها الطعام ، وتشرف هي بنفسها عليه .

خروجها الآن لا يفسره انحسار الوباء فقط ، إذ قيل ان عدة خلوات جرت بينها وبين السلطان ، وقد حضر عثمان العليان معظم هذه الخلوات ، ممّا جعلها تقتنع بإخراج ما تحت يدها من مال !

حين سئلت تهاني عن الامر لم تجب بكلمة، لكنها ابتسمت وبرقت عيناها.
وحار الذين سألوها في تفسير ذلك.

ومما يشجع على الاعتقاد أن شيئاً ما له علاقة بالشيخة قد حصل، طريقته
في التصرف. فقد بدت أكثر فتوة، واستبدلت بملابسها السوداء أخرى رمادية.
وقيل حول الموضوع الكثير، فهناك من قال ان السلطان طلب منها ذلك لكي
تساعد فتر على ان يخرج من حزنه، وهناك من قال، مع ابتسامات مأكرة، إن
القرابة التي تحدث عنها الكثيرون، بين السلطان وآل عليان، يراد تجديدها، ولا
يستبعد ان حديثاً جرى في إحدى الخلوات حول الموضوع! وغير هؤلاء قالوا ان
ابن عليان تعهد ان يعيد، وسريعاً، للشيخة، مع الربيع، ما يستدان منها قبل
ان يحول الحول، وقد ضمن السلطان ذلك.

الذين سافروا وعرفوا البلدان الاخرى، خاصة الذين عرفوا مصر وعاشوا او
مرو فيها - ومن عادة مسافري موران ان يسألوا ويتقصوا - قالوا: ان أموال ابن
عليان لا تأكلها النيران، وما اعطاه للسلطان، وهو بالتأكيد دين بأجل، وعليه
شهود وكتب بأوراق، اعتبره تجارة؛ ومثلما كان يمول الكثيرين، ويبعثهم
بتجارات الى الشام والعراق والبحرين، وغيرها من البلدان، وهو متأكد انه
سيسترد ما اعطاه، وربما رهن له السلطان قصوره وخيوله الى حين استيفاء
الدين.

وقال بعض الذين سافروا، وكانوا لا يخفون سخريتهم، ان ابن عليان لا يبول
على يد مجروح، ولذلك لا يمكن ان يخرج شيئاً من ماله، ولكنه اشار على
السلطان ان يتصل بأهل موران المسافرين في الأماكن الذين يقيمون فيها، وقد
سمى له عدداً منهم، وكتب رسائل وبعثها مع اقرباء، مع تحيات ووعود كثيرة،
وقد مهر السلطان الرسائل بخاتمة، وحمل الرسل، مع الرسائل، تمرأ جيداً وطيباً
وحنة، وقيل أيضاً حملهم مجموعة من البسط والحذيانات والعباءات، وقد تم
اختيارها بعناية، وأرسلت الى هؤلاء، وسلمت اليهم بكثير من الاهتمام والحفاوة
وهذا ما دفعهم لأن يقدموا القروض بسخاء.

ولأن السرقات بدأت تتزايد في قصر الروض، وكانت في الغالب تستهدف

الاشياء الثمينة من الذهب والاحجار الكريمة، فقد اقترح عثمان العليان على السلطان تخصيص غرفة كبيرة في القصر، وان تجهز بالاقتال الالمانية القوية، ويتولى رجاله حراستها ليل نهار، وهذا ما وافق عليه وفعله السلطان، أما مفتاح هذه الغرفة، وهو المفتاح الوحيد، فقد استبقاه معه. وطلب من نساء السلطان ان تضع كل واحدة ما عندها من الذهب والمجوهرات والنقود في صندوق صغير، وان تقفله بنفسها، لكي توضع الصناديق جميعها في الغرفة. وهذا ما فعلته النسوة، بعد تردد، ويعد أن اقتنعن نتيجة السرقات العديدة التي جرت.

أما ماذا حصل بعد أن اودع الذهب والمجوهرات، فقد اختلفت الروايات كثيراً: رواية تؤكد ان السلطان باع الذهب كله في اسواق حيفا ويافا. ورواية اخرى ان ابن عليان حمله كله وسافر الى الهند وهناك باعه. واكد من يعرفون اكثر من غيرهم ان بيعاً نهائياً لم يجر، وإنما تم إيداع الذهب او رهنه في بغداد لدى عدد من الصاغة والصيارفة اليهود، مقابل مبالغ دفعت لاجل وبفائدة.

المهم أن الضائقة التي كادت تفتك بالسلطان توقفت ثم أخذت بالتراجع. صحيح أن الأمر تم ببطء وترافق مع الخوف والشكوك، وترافق أيضاً مع الاشاعات التي لم تتوقف يوماً واحداً، لكن حين وصل تجار الابل يحملون كميات كبيرة من الطحين والشاي والخام والسكر، وقالوا إنهم يفضلون أن يبيعوا هنا أكثر من أي مكان آخر، لأن الأرباح هنا كبيرة ومضمونة، ولأن الدفع يجري دون تأخير ودون تحويل... عند ذاك بدأ الأمن يدخل الى قلوب الناس.

ولأن هؤلاء التجار وصلوا في نهاية الخريف وبداية الشتاء، ثم جاء المطر الوسمي مبكراً ووفيراً في هذه السنة، فلم يبق احد الا وتفاءل. قال الناس بصوت عالٍ: الأيام الصعبة انتهت، ونرجو الله ان تكون خاتمة الاحزان والمصائب.

ومع اخبار المطر في موران، تواردت الاخبار عن سقوط امطار في العوالي لم تشهد مثلها منذ سنين عديدة، فبدأ المسنون يتذكرون متى جاءتهم امطار مثل هذه. اما الذين تأخروا في الزرع، لأنهم كانوا خائفين ان تكون هذه السنة مثل

باقي السنين، فقد تراكضوا بسرعة ليتداركوا هذا التأخير، ومع الزرع والبيع والشراء بدأ الغناء وبدأ المزاح، فكان يسمع رجال السلطان الغناء والمزاح لكن يتظاهرون انهم لا يسمعون!

قال السلطان لعثمان:

- اذا مرت هذه السنة على خير، يا عثمان، ترى السنين اللي تعقبها تنسي الناس مصاييها، وعسى أن تفرج.

رد عثمان العليان وهو يجرم من صدره نفساً عميقاً:

- انتهت، يا طويل العمر، السبع العجاف وبدأت السبع السمان، وإذا عشنا نشوف!

- حنا نريد سنة سمينة واحدة، وبعدها الله كريم.

- لا تخف يا طويل العمر، وهذا الله يمكن عليك خزائن الارض كلها!

قال عنان بسيوني الذي كان يسمع هذا الحوار المتفائل:

- ربنا... كفافنا، خبز يومنا.

وضحك بقهقهة ثم اضاف:

- هذا ما نتمناه ونرجوه.

قال السلطان وهو ينظر الى البعيد:

- كل عقدة ولها حلال.

وتطلع الى فوق، الى السماء، وقال، وخرج صوته هادراً:

- ان الله على كل شيء قدير!

اللقاءات بين السلطان وهاملتون كانت مزيجاً من الاستطلاع والاستفسار والعتب. فبعد هذه الفترة الطويلة من الغياب، والتي بدت غير مفهومة وغير مبررة، يريد السلطان أن يعرف أين موقعه وكيف يتصرف. وهاملتون الذي كان محرجاً، وبدا حزيناً في بعض اللحظات، خلال الأيام الأولى، ما لبث أن استجمع نفسه. قال للسلطان، وهما على عين المليحة، وقد خرجا في رحلة، خلال يوم من أيام الشتاء الدافئة.

- وتعرفون.. يا صاحب الجلالة، أن الرجال الذين بيدهم القرار هناك، يكونون أغلب الأحيان مضطرين إلى أخذ الكثير من الاعتبارات قبل أن يقرروا شيئاً نهائياً. كانوا في اليوم الأول يستمعون إلينا، وفي اليوم نفسه، أو في اليوم التالي، يستقبلون وفداً أرسله ابن ماضي، ويستمعون إليه ويناقشونه، ثم يعثون وراء ممثلي صاحب الجلالة في المنطقة لستمعوا منهم أيضاً، وبعد ذلك يفاوضون الفرنسيين والأميركيين وغيرهم من القوى، حتى إذا توصلوا إلى بعض الصيغ الأولية، تبقى كلها خاضعة لإعادة النظر والمراجعة والضغط، ثم مفاوضة الأطراف جميعاً مرة واثنين، وفي النهاية، وغالباً ما يحدث ذلك، تعلق مرة أخرى المفاوضات، ريثما تدرس من جديد، أو يتهيا الوقت المناسب، أو تتوافر بعض الشروط.

كانا يسيران على أرض بدأ نباتها يخضر نتيجة المطر المبكر، وكانت تعد بربيع خصب، خلافاً لسنوات سابقة، خاصة بعد أن تابعت الأمطار، ورافقتها ريح جنوبية مشبعة برائحة أمطار جديدة. والسلطان الذي اختار هذا المكان،

وهذا الوقت من النهار، كان يشعر أنه هنا أقدر على الوصول الى موقف يطمئن اليه، خلافاً لفترة سابقة، حين كان يفضل الليل. لقد تذكر كلمات عنان بسيوني وهما يتناقشان ويتساءلان حول احتمالات المستقبل، وكيف أن غياب هاملتون ثم دنيس لا يبعث على الطمأنينة. قال له عنان بسيوني: « كل ما كانوا يقولونه، يا طويل العمر، مجرد وعود، وكانوا ينسون في اليوم التالي ما قالوه في الليلة الفائتة، تماماً كما يقال: كلام الليل يمحوه النهار! »

وهاملتون الذي أحس أن السلطان، حين اختار هذا المكان، كان يهدف الى أن يكونا بعيدين عن أعين الكثيرين، لذلك قرر أن يكون معه صريحاً، وأن يوح له بأفكاره وهواجسه.

ورغم وجود الكثير من المشاهد التي تستدعي السؤال أو التعليق في المليحة، وفي هذا الوقت بالذات، إلا أن الإثنين كانا مشدودين الى عالم داخلي يبعدهما عما حولهما. قال هاملتون بعد فترة صمت غير قصيرة:

- لا أريد أن أذكر لك، يا صاحب الجلالة، المصاعب والمشاكل التي واجهتنا خلال الشهور الماضية، ربما يكون سمو الأمير فر قد شهد بعضها، وحدثك عنها، لكن بعد سفره، وبعد كثير من المؤتمرات والإتصالات، ومع جهات متعددة، بدا لي أنه من المستحيل الوصول الى نتائج... بل وأكثر من ذلك، كنت أفكر أن أطوي أوراقى وأقرر واحداً من أمرين: اما البقاء هناك دون التفكير نهائياً بالعودة الى هنا، أو أن اتخذ قراراً معاكساً...

ولما بدت الجملة الأخيرة غير واضحة تماماً، خاصة وأنه رافقتها ابتسامة من هاملتون، فقد تطلع اليه السلطان وانتظر بقلق. تابع هاملتون بلهجة مرحة:

- طبعي إذا كنتم تقبلون أن أكون ضيفكم، وإذا كان وجودي هنا مفيداً لكم.

ضحك السلطان وتطلع الى البعيد، تابع هاملتون بلهجته الأولى:

- لا أنكر، يا صاحب الجلالة، أننا توصلنا الى بعض النتائج المهمة، لكنها

دون ما كنا نريد أو نتمنى . ورغم الجهود، والانتظار، فقد تأكدت أن هذا هو أقصى ما نستطيع الوصول إليه .

وتغيرت النبرة، أصبحت محايدة :

- هذا ما استطعت الوصول اليه شخصياً، وتبقى الأمور مرتبطة بالمفاوضات التي ستجري هنا، وأرى ان تتشددوا، وأن تحاولوا بكل ما تستطيعون من الجهد والقوة لكي تقنعوهم لتقديم تنازلات إضافية .

وخلال بضع ساعات، وهما يسيران، وهما يجلسان قريباً من العين، أو يتوسدان الرمل، شرح هاملتون للسلطان، أن الظروف في المرحلة الحالية، اختلفت كثيراً عن السابق، قبل سنتين أو ثلاث سنوات . فالمرحلة الجديدة أخذت صيغتها شبه النهائية، ولم يبق إلا أن ترتب الأمور هنا وهناك، وان توقع الاتفاقات .

ورغم وضوح الكلمات ودقتها، وفهم معانيها، إلا أن الصورة، مع ذلك، لم تكن واضحة . فالمشاكل التي تعاني منها السلطنة كثيرة ومتداخلة . والإنكليز ليسوا بعيدين عن معظم هذه المشاكل، بل أكثر من ذلك، كان يحس السلطان أنهم وراءها . والآن لا يعرف كيف يفأوضهم، أو كيف يتفق معهم .

قال السلطان بعد أحاديث متنوعة :

- اللي قلتة ، يا الصاحب ، مفهوم ، وعلى الراس والعين، بس أريدك تعلمني : جماعتك، هناك، بعدهم يريدونا أو غيروا صار هواهم صوب ثاني؟

- بكل تأكيد يريدونكم، يا صاحب الجلالة .

- بس أشوفهم حاطين رجل بالسهل ورجل بالوعر . . . يا الصاحب .

ولم يفهم هاملتون ما عناء السلطان، سأل بلهجة بدوية :

- سم يا طويل العمر؟

- أقول: كل ما وصلنا تقولون: على مهلكم، يواش يواش، وكل ما تسالنا وقلنا اتفقنا يقولون: خلنا تفكر، وكأنهم مراهنين على غيرنا. . .

لم يعلق هاملتون. كان يريد من السلطان أن يتابع، أن يقول كل ما عنده. تنحى السلطان، جلا صوته، وأضاف، فجاء صوته من الصدر:

- حنا من سنين كنا طالين رأس ابن ماضي، يا صاحب، وكنا قادرين عليه بس كل ما شدينا تحوشونا عنه، تقولون ما يصير، وحا نعص على جروحنا ونسكت. وراح يوم وجا الثاني، وشفتم شلون صار، وما وافقتم معنا إلا بعد شلعان القلب. . .

واستدار السلطان لكي ينظر الى عيني هاملتون:

- ما هويس كذا. . . هالحين، ابن ماضي، بلياكم، وحده، وبدون معونتكم ما يقدر يسوي شيء. وما ندرى نغير عليه، ونطارده، أو نخليه يحرق الديرة ويسوي اللي ما يتسوى!

قال هاملتون باستعجال ورد فعل:

- أظن أن مسألة ابن ماضي منتهية، يا صاحب الجلالة، ويمكن أن تطوى، فقط تحتاج الى أمرين: الأول أن لا تقترب السلطنة من أصدقاء بريطانيا، ألا تطمع ببلدانهم، وأن لا تهددهم أو تزعجهم؛ والثاني، أن يتم الاتفاق بين السلطنة وبريطانيا، وأن يتحدد هذا الاتفاق على شكل معاهدة. . .

وتغيرت لهجته، سأل وكأنه تذكر الأمر عرضاً:

- لم أسمع من جلالتك وجهة نظركم بخصوص المعاهدة التي حملها سمو الأمير فتر؟

وخلال أسابيع من التفكير والاستعداد، وبعد أن بعث السلطان الى الحويزة والحوالي عدداً من رجاله المباشرين، لكي يطلعوا على الأوضاع هناك، ويتقصوا الأخبار بدقة، وبعد أن قلب الأمور وسأل الكثيرين رأيهم بالمعاهدة،

والموقف الذي يجب أن يتخذه، والمطالب التي يجب أن يطالب بها، وصل إلى الطريقة ولیم بتلر.

لقد سبق للسلطان أن التقى بتلر عدة مرات، وكانت تربطهما علاقة أقرب إلى المودة والصداقة، أو بالأحرى هذه هي عواطف السلطان. فهذا العسكري الذي خاض حروباً عديدة، وعاش في أماكن كثيرة، اكتسب، بالإضافة إلى اللون البرونزي، طباع البلدان التي عاش فيها، وقدرة على التفاهم مع الآخرين. يتذكر السلطان أن المفاوضات التي جرت بينهما، أكثر من مرة، جرت في الهواء الطلق، وفي جو من الحفاوة والمودة والتفاعل، وقد ساهم بتلر ذاته في خلق هذا الجو، ثم في الوصول إلى النتائج.

الآن وقد وصل بتلر إلى الطريقة، كان يفكر أن يواصل سفره إلى موران، وأن يلتقي بالسلطان هناك، لكن السلطان، بمجرد أن عرف بوصوله، بعث إليه يخبره أنه متوجه إلى العوالي، ويقترح عليه أن يلتقيا في عين دامة أو عين نبات، وأبلغ عنان بسيوني، الذي حمل الرسالة والاقتراح، أن يؤكد على أن يكون اللقاء في أحد هذين المكانين.

الذين شهدوا لقاء الإثنين في عين نبات، وقد وصل السلطان قبل ضيفه بيوم، يقولون أن مشهداً مثل هذا لا يقع إلا في الصحراء، وبين فرسان حقيقتين.

فبتلر الذي وصل إلى عين دامة بالسيارة عند العصر، هياً نفسه لأن ينتقل من هناك إلى عين نبات على ظهر جواد، والمسافة بين المكانين لا تتجاوز العشرين كيلو متراً، لكنه يريد أن يقطعها بموكب يليق بالفرسان، وأن يستمتع بالطبيعة أيضاً. ولذلك هياً نفسه للانتقال في الصباح الباكر من اليوم التالي. ولأن الأمر أعد سلفاً، فقد جُهزت الخيول في عين دامة قبل أيام، وهىء الموكب، بمن فيه نافخ البوق وضارب الطبل، إضافة إلى المرافقين والحرس، والحاشية. وكان ضمن الموكب أيضاً القنصل وعدد من العاملين معه.

ولأن عنان بسيوني وآخرين انتقلوا بين عين دامة وعين نبات عدة مرات، وقد استعملوا السيارات في انتقالهم، فقد تم الاتفاق على الكثير من التفاصيل، بما فيها مكان التقاء الفارسين، وتوقيت وصولهما، وما يتطلب لذلك من الاحتفال والتعبير عن الاهتمام والحفاوة.

على مسافة مائة متر من الظهرة، حيث تتفرع التلال هناك، لتشكل فيما وراءها مجموعة من الأودية، وحيث تنبسط الأرض انبساطاً طلقاً، حتى تبدو مثل منصة، تشرف على التلال من ناحية، وعلى الأودية وتشعباتها من ناحية ثانية، التقى بتلر والسلطان.

وصل السلطان الى الظهرة قبل بتلر بنصف ساعة، باعتبار أن عين بنات لا تبعد إلا مئات الأمتار، ومع أن المسافة قريبة، فقد زكب إليها واحداً من أهم جياده، ولأنه المضيف، فقد تعمد أن يكون هناك قبل وصول ضيفه.

بتلر وصل بالموعد المحدد. ترجل عن جواده قبل مسافة مناسبة. توقف للحظات، عدل ملابسه وقبعته الفلينية المقاومة للشمس ثم سار بخطوات واثقة قوية باتجاه السلطان، وسار السلطان باتجاهه. التقيا في منتصف المسافة، تعانقا طويلاً، وشد الواحد على يد الآخر، وكانت يد كل منهما تطوق كتف الآخر، وقد ترافق ذلك مع صيحات البوق، وصهيل الجياد، وضربات الطبل، وبعض طلقات في الهواء.

كان لقاء مؤثراً حافلاً الى أقصى حد، وكأنه مشهد تمثيلي يجري في هذا المدى الرحب اللامتناهي. ورغم أن أغلب التفاصيل قد تم الاتفاق عليها، وحضرت بعناية، فإن المشهد، مع ذلك، تجاوز التمثيل أو المظاهر. الذين شهدوا تلك اللحظة قالوا ان الرجلين اكبر من تحضير الآخرين وأقدر. فالسلطان الذي أراد أن يقود ضيفه الى نهاية الظهرة، لكي تكون البداية، المرور فوق أنهار الدماء، حيث حُضرت عشرات الخراف، وكان في الوسط كبش كبير، وقد اقترح يونس شاهين أن يذبح في نفس الوقت، وأن يمر السلطان وضيفه

في الوسط . . . ان هذه اللحظة التي تهيأت بعناية كبيرة، واستعد لها الكثيرون تم تأخيرها، لأن بتلر أحب أن يلقي نظرة على الأودية، وقد استجاب السلطان بمودة وتلقائية، ولأنهما توقفا هناك فترة أطول مما كان متوقعا، فإن أخطاء كثيرة وقعت في المراحل اللاحقة. فقد أشعلت أعواد البخور مبكراً، وضرب حاملو الطبول الخلفيون طبولهم، ونهياً الذين يصبون القهوة، في الوقت الذي كان السلطان وضيفه يعيدان عند الظهيرة!

أما كيف تقدم السلطان وبتلر بعد ذلك، وكيف أفلت رأس أو اثنان من الغنم المعدة للذبح، بعد أن حصل التأخر، وتراخى الذابحون، وكيف تم تدارك حصان أفلت فجأة، وربما جفل من منظر الذبح أو لون الدم، ثم كيف تجنب بتلر الدماء فدار حول الذبائح، وشاركه السلطان، وقد تشاءم من ذلك مهيب، وأبلغ السلطان في اليوم التالي، وغير هذه من الأمور. . . أن كل تلك التفاصيل التي راقبها الحرس والخدم، وتناقلوها فيما بينهم أول الأمر، ثم انتقلت الى المرافقين، وقيل أنها وصلت الى مستويات أعلى، لا تغيّر ولا تقلل من جو الاحتفال والإهتمام في ظهيرة ذلك اليوم من أيام الشتاء الدافئة، في عين نبات، ذلك المكان الذي كان يشكل ملتقى التلال بالأودية، وكان أيضاً نقطة فاصلة، أو بالأحرى علامة من العلامات، بين موران والعوالي. ومن هناك كانت تفرق الطرق أو تلتقي.

لماذا اختار السلطان هذا المكان بالذات؟ وهل كان يعني شيئاً أو موقفاً؟

لقد احتار المؤرخون، فيما بعد، كثيراً، بهذه التفاصيل، وفسروها تفسيرات لا نهاية لها! طبعي لا يمكن الوقوف عند كل ما قيل عن الأسباب، لكن ما لفت النظر أن المكان يقع بين العوالي وموران، ويطل على الجبال والأودية أيضاً، وقد فهم من ذلك أن السلطان مستعد للاحتمالين، معاً، وأنه قادر عليهما أيضاً!

أما ما الذي دعا السلطان لأن يأتي بحصانه الأدهم، وهل كان إنذاراً لبتلر

أو شوقاً يتوقعه نتيجة هذا اللقاء، فلم يستطع أحد أن يكون متأكداً. علماً بأن السلطان في الكثير من المعارك التي خاضها، وفي اللحظات الحاسمة، أثناء دخول مدينة، أو تقبل استسلام قائد من القادة المعادين، كان يركب فرسه المحببة الى قلبه، كان يركب الصبحة لأنه يتفاد بها.

وبعد ذلك... ما الذي دعا بتلر الى تجنب المرور فوق دماء الخراف التي نحرت؟ هل لنفور بعض الخيول، أو لإيقاد أعواد البخور في وقت مبكر، دلالات أو تفسير؟

وأن يتم اللقاء بين السلطان وبتلر يوم الاثنين، هل هو أمر عرضي أم مقصود؟ بعض حرس السلطان يؤكد، اعتماداً على حالات مشابهة، أن السلطان تعمد أن يكون اللقاء في ذلك اليوم بالذات. طبعي يبقى هذا مجرد تقدير لما يحتمل أن يكون السلطان قد أضمره، مع إشارة أنه حين بعث يخبر بتلر أنه سيكون في عين بنات، قال لعنان بسيوني، ثم لرسول آخر تبعه في اليوم التالي، ويتأكد لفت النظر، ولكي لا يترك التباساً من أي نوع، أن اللقاء سيكون يوم الاثنين. ربما لأن هذا اليوم يرتبط بذاكرته بما سمعه من جدته حول بركة هذا اليوم.

ومما عزز هذه التفسيرات أن السلطان يتفاد برؤية الهلال، وجبن يكتمل القمر، إذ يعتبر ذلك من حسن الطالع. وأن يصادف لقاءه الآن: القمر يوشك أن يكتمل، بعد يوم أو اثنين، فقد جعل ذلك بعض المرافقين والمستشارين في حالة من الغبطة أقرب الى الخفة. أما السلطان ذاته فقد مازح عدداً من الحرس، ووقف معهم أكثر مما يقف عادة، ونبههم أن يكونوا أكثر حرصاً «لأن الضيف غالٍ علينا، وحنا بالموالي ما هو بموران».

اللقاءات الأولى كانت احتفالية، فقد تبادل السلطان وضيفه الزيارات، وتخلل هذه الزيارات أحداث وذكريات، وقد شارك فيها الكثيرون. أما يوم الثلاثاء، فقد كان اللقاء في الخيمة الكبيرة، ولم يحضره سوى عدد محدود من المستشارين، وكان هاملتون يترجم.

في هذا اليوم ذكر أكثر من واحد أن الدنيا اسودت، والمطر انهمر قوياً مدراراً، كما لم يروه من قبل. كان يسقط على الخيمة الكبيرة مثل الحجارة، والرجال داخل الخيمة يتناقشون بحدة، كأنهم القسط في شباط. وقد روى يونس شاهين فيما بعد، أن بتلر في مرحلة معينة قال: لا، فرد عليه السلطان: قتلتي، ولا يمكن أن أقبل. قال بتلر: هذا كل شيء، ولا أستطيع أن أتقدم معك خطوة واحدة. قال السلطان: أخذت نصف مملكتي وجعلتني الآن عارياً أمام رعيتي، ولا أعرف كيف أقابل الناس أو كيف أنظر الى وجوههم. وكاد بتلر أن يرد على السلطان، لكنه فجأة توقف. فدموع السلطان كانت تساقط على وجنتيه بغزارة، وكانت تنصب على لجيته، ولا يعرف كيف يوقف دموعه أو كيف يتصرف. وبتلر الذي كان صلباً مثل صخرة، وكان يريد أن يصل الى النتائج التي حددها سلفاً، وكانت خارطة قد فردت على طاولة كبيرة، وقد تبادل الاثنان، وتبادل الآخرون النظر الى هذا الجسد الميت، غير المفهوم، وغير الواضح، لكن فجأة، وحين رأى بتلر دموع السلطان وانفعاله، وتأكد في لحظة من اللحظات أن السلطان سوف يغادر الخيمة، وسوف يركب حصانه ويأمر حاشيته أن تتبعه. في تلك اللحظة، «وهي لحظة ضعف مجنونة» كما وصفها بتلر في وقت لاحق، اضطر، أو وجد نفسه مضطراً، لكي يستجيب لبعض مطالب السلطان، أو أن يرضيه.

ومثل ما يحصل في لحظات الضعف، أو في لحظات القوة، ورغم أن بتلر قال كلمة اعتبرها واضحة وكاملة ونهائية، فإن القلم الأحمر الذي كان يحمله في يده، وكان يشير به اغلب الأحيان ليوضح أكثر مما يكتب أو يؤشر، في تلك اللحظة صدرت عن بتلر كلمة حادة، وقد ترجمها هاملتون. قال مخاطباً السلطان بنزق أقرب الى الضعف، وأكد ثلاثة من المستشارين وخمسة من الخدم أنهم رأوا دموعاً على خده، وقد مسحها بسرعة وغضب:

- إسمع. . . ويجب أن تسمع ذلك جيداً يا صاحب الجلالة: انني إذا أخذت منك في هذا المكان فإنما أعطيك هنا.

وأشّر بالقلم الأحمر. كانت الإشارة كبيرة أقرب الى الدائرة، أو الى البالون، وكانت في الجهة المقابلة، مما كان يعتبره السلطان حدوده ونهاية سلطته. تطلع السلطان الى الدائرة، الى البالون الأحمر الكبير. مسد لحيته، التفت الى أكثر من ناحية. وقال بطريقة مسرحية:

- إسمع يا صاحب...

ابتسم بحزن، وكانت بقايا الدموع في عينيه وعلى لحيته:

- والله وبالله وتالله، لولا معزتكُم، ولولا أن الواحد يريد يخلص، ما كنت أقبل، لكن ما يخالف...

وابتسم أكثر، ثم أضاف:

- ويلزم تعرف يا صاحب: إنكم إذا غبثونا هذه المرة لكن لا بد تعرضون علينا، وهذا دوم يحصل بين الأخوان والشركا!

هذه الليلة، وكان البدر قد اكتمل، تحولت في أعين، ثم في ذاكرة، كل من شهدها، كل من كان موجوداً، الى شيء خارق، ولم ينسها أي من الذين كانوا في عين نبات...

بعض المؤرخين الذين زاروا المنطقة في وقت متأخر، قالوا ان الريح حين تهب في هذه الفترة من السنة، تكون مفعمة بروائح زكية نفاذة، تسلب الإنسان وعيه، وتجعله أقرب الى الخدر، وهي تؤثر على المخلوقات كلها، خاصة إذا كان القمر بدرًا. أما الحيوانات فلإنها تصبح عصبية وأقرب الى الهياج.

وقالت بعثة أميركية زارت عين بنات، بعد سنوات عديدة، ان الكواكب، في هذا المكان، وخاصة حين يكون القمر بدرًا، تولد طاقة كهرومغناطيسية قوية ومؤثرة، وقد قاسوا المسافة بين التلال وفتحة الوادي، وقاسوا المسافات بين الفتحات ذاتها، ووضعوا علامات لقياس ارتفاع المياه، وقذفوا حبلًا برأسه

كرة معدنية في العين ليعرفوا أين تصل، وأخيراً قالوا ان كل ما حصلوا عليه من معلومات لا بد أن يبعثوا به الى المختبر لكي يحلّوه، لأنهم لا يستطيعون أن يفسروا بعض الظواهر، ولم يُحك بعد ذلك عن هذه الأمور!

عرف هاملتون بوفاة زوجة الأمير فتر خلال الفترة الأخيرة من إقامته بلندن .
شعر بأسى لدى سماعه الخبر . قال في نفسه : « الموت هو الحارس الأمين
والدائم ، الذي لا يفارق الإنسان ، وهو الوحيد الذي لا يتخلى عن مهمته ، ولا
يتعب منها ، لكن من حسن حظ هؤلاء البدو ، أنهم يختلفون عنا . نحن نعيش
الحياة كلها وهذا الهاجس لا يفارقنا ، حتى في أمتع لحظات حياتنا ، أما هم
فإنهم لا يتذكرونه ، مهما اقترب منهم . أكثر من ذلك يريدون أن يتجاوزوه
بسرعة ، لكي يستقبلوا الحياة الأبدية ، التي لا تعرف الموت أبداً .

ورغم أنه حاول تخفيف أثر الصدمة ، من خلال هذا التفسير ، إلا أنه وجد
نفسه يحزن على فتر ، وفي لحظات معينة اعتبر أن الأمر غير منطقي أبداً ،
خاصة بالنسبة لامرأة في عمر الزهور ، كما يقولون ، وبالنسبة لشاب يريد أن
يبدأ الحياة بقوة وعنفوان .

حين ذهب ليودع المس ماركو أبلغها الخبر . قالت وهي تشفق :

- عجيب أمر هؤلاء الناس ، أنهم يولدون ، ويتزوجون . . وأخيراً يموتون ،
قبل الأوان ويصمت ، لماذا يفعلون ذلك ؟

لم يكن سؤالها يستدعي الإجابة ، ولم يجب . تابعت كأنها تحدث نفسها :

- في أحيان كثيرة لا يعرف الإنسان أين هو الخطأ ، وربما يكون هذا هو أقسى
العذاب !

رد هاملتون بانفعال :

- وإذا ترافق عدم المعرفة مع الصمت، فعندئذ لا يستطيع الإنسان أن يساعدهم، أن يكون مفيداً لهم.

- عزيزي هاملتون، دعني أقل شيئاً محدداً: صحيح أن الحديث عن المشاكل يمكن أن ينسي الإنسان، وقد يخفف عنه جزئياً وموقتاً، لكن حين يعود الى نفسه، فإن هذه المشاكل، خاصة الموت، تتضاعف، حتى لتفادو بالنسبة له الحقيقة الوحيدة.

رد هاملتون يريد أن يغير الموضوع :

- انسا، يا عمتي، نتحدث عما نعيشه، عما نعرفه، وهو شيء خاص بنا نحن، أما بالنسبة للآخرين، فإن لهم أيضاً أفكارهم وطريقتهم في النظر والتفسير.

- لكن مع ذلك يبقى الموت هو الموت، ولقد رأيته بنفسه عشرات مرات، مئات المرات، وكان دائماً واحداً.

- ولكن هناك نظرات مختلفة، بل ومتعارضة، للشيء الواحد، بما في ذلك الموت.

تنفس بعمق وتابع بنبرة مختلفة :

- الموت بالنسبة لنا هو نهاية كل شيء، لا أريد أن أمس معتقداتك، أو أتكلم عما تعتقدينه ما بعد الموت، لكن بالنسبة لهم فإن الحياة هي مجرد محطة، نقطة عبور من حالة إلى أخرى، وهذا ما يعطيهم، بالإضافة إلى القوة والشجاعة، القدرة على مواجهة الطبيعة والفقر والأحزان وعشرات المصائب الأخرى. أنهم، في بعض الحالات، يتلذذون بما يعانونه، تماماً كما يعاني عندنا بعض الرهبان، يحسون بمتعة نتيجة هذه المعاناة لأنهم يؤملون الكثير بعد أن يجتازوا هذه التجربة القاسية، وكما هو الحال بالنسبة لرجال البحر أو الذين خاضوا الحروب، إذ بعد أن تكتمل التجربة، بعد أن يجتازوها،

يمتلؤن بالفجر والكبرياء، لأنها أصبحت تاريخاً ورصيداً معاً، وبعد ذلك يواصلون الحياة ويشعرون بمتعتها، ربما أكثر من قبل.

قالت وهي تقف الى جانب النافذة، وتنظر الى الشارع، وربما كانت تتذكر فنرحين رفع اليها يده مودعاً:

- يمكن أن نقول أي شيء، لكن، مع ذلك، اعتبر أن العدو والصديق معاً هو الموت، إنه يضع حداً، كما ينبغي الأمر، بالنسبة لأي شيء، وهو، في حالات كثيرة، يخفف الآلام، وأخيراً فإنه النقطة الأخيرة، التي تنهي الانتظار والترقب والتوقع.

في نهاية الزيارة، وبعد أن تحدثنا حول أمور أخرى، في محاولة للنسيان، سألته وهو يلبس معطفه ويتيحاً لمغادرتها:

- لا أدري فيما إذا كان يتطلب الأمر أن أكتب اليه بضع كلمات، أم تتولى أنت نقل حزني وأسفي، لحزنه وأسفه؟

- سأنقل عواطفك يا عمتي، وسوف أشعره بحزننا جميعاً.

- أرجو أن تفعل ذلك.

في موران، وبعد أن وصل بساعات، سأل عن فنر، فقبل له انه في البادية، وقد لا يعود قبل أسابيع. وحين سأل عنه السلطان، أجابه وهو يهز رأسه بأسى:

- واللي صار بغيتك، يه صاحب، ما تحمله جبال، بس يلزم أن النبي آدم يتحمل...

وظل هاملتون صامتاً ينتظر، زفر السلطان وتابع:

- والنبي آدم، يا صاحب، إذا شاف مصيبة غيره تهون عليه مصيبته، والحمد لله، فنر، هالحين أحسن من قبل، شد وتماسك، قال لي: يا يوبه أريد القنص، قلت له توكل على الله. وتعرف هالحين الصيد واجد: إذا ضرب له حبريتين ثلاث، وإذا طارد الغزلان، وإذا استراح على عين ماي

وانتظر القطا تراه ينسى ، وانشاء الله ما تمر أيام إلا ويرجع لنا فنر اللي نعرفه واللي نريده .

ولأن رحلة فنر طالت، ولأن المشاكل التي يفترض معالجتها كثيرة، ولا تحتمل التأجيل، فقد انصرف اليها السلطان ومعه هاملتون . كما أجلت موضوعات كثيرة لأن السلطان كان يريد فنر معه في هذه الفترة وهو في عين نبات ، وحين سأل بتلر عن أولاد صاحب الجلالة ، وكان يقصد فنر بالدرجة الأولى ، لأنه التقى به خلال زيارته الأخيرة الى لندن، فقد رد عليه السلطان، وهو يتطلع الى هاملتون :

- - وتعرف، يا صاحب، أن البلاد إذا ما كان رجالها يحامون عنها هنا وهنا تراها تضيع، فقلنا لخزعل انت بهذا المكان، وقلنا لفنر وانت بهذا المكان، وتراهم هالحين مع رجالهم يدافعون ويحاربون!

بعد أن عاد فنر من رحلة الصيد، تبين لهاملتون أن الأمر تجاوز حده كثيراً، لأن فنر وهو يتحدث عن الحبارى والقطا كان يتحدث بطريقة مهووسة، وكان ليس في الكون غير هذا الموضوع، قال للسلطان، وقد تخير وقتاً مناسباً لكي يحدثه على انفراد :

- . . . وأرى، في الظروف الحالية، ولمصلحة فنر بالذات، أن نساfer . . .

وحين تطلع اليه السلطان بتساؤل، أقرب الى الاستغراب، تابع :

- فنر لم يكن بهذا الشكل من قبل، يا طويل العمر، وكأنه بهذه الطريقة يريد أن ينسى، أن يهرب من المشاكل الأساسية . . .

هز رأسه، وكأنه يؤكد ما قاله، وتابع :

- إذا أخذ هذا الطريق يمكن أن يصل الى درجة يقضي عمره كله وراء الحيوانات والطيور، ولذلك من الأفضل أن نجد له طريقاً آخر. عليه مهمات كبيرة يجب أن يقوم بها، ولا بد أن يتحمل مسؤوليتها.

بدا للسلطان كلام هاملتون حكيماً، رد بانفعال:

- وبذل اللي راحت نقدر نزوجه ألف، بس أريده يكون معنا، يناظرنا زين، ويقول: ها يا جماعة الخير: تريدون مساعدة تريدون عون؟ أما إذا ظل وحده فتراه راح علينا وراح منا، وما يندري بعدها شنهو اللي يصير!

رد هاملتون بانفعال:

- في الكثير من الحالات، يا صاحب الجلالة، الصدمات تعيد خلق الرجال وتصلقهم، شرط أن تواجه هذه الصدمات بعقل وحكمة.

- الحق اللي تقوله، يا محروس السلامة.

- وأرى، في هذه الفترة بالذات، وبعد أن تم الاتفاق مع حكومة جلالة الملك، أن تبذل الجهود من أجل انتزاع اعتراف الدول لأن اعترافها قوة للسلطنة وجزء من المعركة، ويمكن لفرن أن يلعب دوراً أساسياً في الوصول الى هذه النتائج.

قبل أن يسافر فرن في رحلته الجديدة، تعمد السلطان أن يقيم مجموعة من الاحتفالات، لكي يعبر عن القوة والنصر، ولكي يواجه دعايات وتحريض ابن ماضي، والذي نشط كثيراً، ولم يترك أحداً إلا وأعلمه أن خربيط باع الديرة كلها، وليس العوالي وحدها، الى الإنكليز. ولأن الظروف تحسنت، سواء بوصول المعونات المادية، أو باستمرار سقوط الأمطار، فقد كانت الاحتفالات التي اقيمت، والولائم التي رافقتها، من الفخامة والضحامة الى درجة لم تترك أحداً إلا واضطرت له لأن يتحدث عنها بشكل أو بآخر. وهذا الذي يفعله السلطان لم يكن نابعاً من الرغبة أو الكرم الذي عرف عنه فقط، إذ ان هاملتون قال له وأكد ذلك أكثر من مرة، « ان أهمية الدولة وقوتها لا تدرك ولا تعرف إلا إذا رآها الناس رأي العين، وفي مرحلتها الجديدة والمختلفة عن السابق ».

وتذكر السلطان كيف اضطر خلال المرحلة الماضية لأن يتوسل الى الناس،

ويستدين من الكثيرين، لتأمين حاجاته الضرورية. الآن يريد أن يثبت للقريب والبعيد، للصديق والعدو، أنه تجاوز المصاعب كلها، وأصبح قادراً على أن يفعل كل شيء. ويريد بشكل خاص أن يصفى ما تبقى لابن ماضي من قوة، استعداداً للالتفات إلى الداخل وترتيب وضعه تماماً.

ولكي يصل إلى هذا الهدف وجهه عناية خاصة إلى رجال الدين وشيوخ المساجد، وإلى أولئك الذين يتحدثون كثيراً عن الآخرة، لأن لهؤلاء علاقة وثيقة بالكثيرين، بمن فيهم البدو، ولكي يثبت لهم أنه قادر أن يفعل الكثير من أجلهم.

قال لفترة الذي استعاد شيئاً من نشاطه وبدأ يستعد للسفر:

- ... جماعتنا وحنا نعرفهم: أكثر منهم سوائف عن الآخرة ما تلقى، وأكثر منهم حب للدنيا ما تلقى. يريدون الدنيا والآخرة جميعاً، لكن ظني أنهم ما يعرفون إلا الدنيا. ناظرهم شلون ياكلون، وناظر عيونهم شلون توج إذا جا طاري الحريم. أما إذا جاءت سوائف الطعام فيتلطمون وريقهم يشط.

وضحك السلطان وهو يضيف:

- وعندنا، يا وليدي، دواهم: قريشات بالجيب، وتفضلوا يا جماعة الخير، وبالليل عندهم ما ملكت أيمانهم!

وهز رأسه أكثر من مرة وهو يضيف ساخراً:

- وإذا رادوا زوديا حلت البركة: هذا نومي البصرة، وهذا الليمون، وبهم حيل بمصون ريقهم ويتلطمون!

بعد الكثير من الاحتفالات والولائم، في موران والعوالي والحويزة، وأكثر منها هدايا وأعطيات هنا وهناك، سافر فتر وهاملتون، وبدأ السلطان يستعد لمرحلة جديدة.

تعهد السلطان أن يكون عبد الله البخيت ضمن الوفد الذي يسافر مع فتر.

لأول مرة، منذ سنين، يجزؤ السلطان على اتخاذ قرار مثل هذا، فابن البخيت ليس شخصاً ضرورياً أو مهماً فحسب، وإنما لا يمكن الاستغناء عنه، أو استبداله، لأن لا أحد يستطيع أن يكونه، بل لا يمكن لعشرة أن يعوضوا عنه. ولأنه كذلك لا يسمح له بأن يمرض، أو أن يغيب أو أن يسافر. حتى عندما اراد الحج، لكي يثبت للذين يشككون بإيمانه وتقواه، أنه مؤمن ويؤدي الواجبات كلها، رفض السلطان. قال له وهو يضحك:

-حجك وحدك ما هو مقبول، يا ابن البخيت، يحتاج لك محرم!

وحين تحرك عبد الله البخيت بطريقة معينة، وباعد قليلاً ما بين ساقيه، تابع السلطان وهو يضحك:

- هذا كله ما يفيدك، ويلزم تنتظر الى أن نحج جميع!

أسباب تعلق السلطان بعبد الله البخيت من الكثرة والتنوع الى درجة أن كل ما يمكن أن يقال أو يفترض صحيح.

الذين سمعوه يحدث السلطان، ومن معه حول غزوات العرب، وما يتعلق بهذه الغزوات من التفاصيل والشعر، وما قيل فيها وعنّها، يؤكدون أن ابن البخيت راوية الغزوات، وأن السلطان يحبه ويقدمه لهذا السبب.

والذين سمعوا ابن البخيت يتلو عن ظهر قلب، ما قاله أبو علي القالي في

الأمالي، يقولون ان السنوات السبع التي قضاها في الأزهر، والعصي التي تلقاها على رجله، جعلته يحفظ درسه جيداً!

والذين وافاهم الحظ لكي يكونوا من الريع، أي مجلس السلطان الخاص، وسمعوا ما يرويه ابن البخيت من النكات، يقولون انه لم يتعلم في مصر سوى البذاءة والنكات الفاضحة. ويؤكدون أكثر من ذلك أن شيخه الأعمى، والذي علمه الصرف والنحو، علمه أكثر من ذلك دروس النساء. بل وبالفن يقولون أن وصل به الأمر الى الاختلاف مع شيخه، لأن الشيخ اكتشف أن تلميذه الفتى تجاوزه كثيراً في هذا الفن، بل أكثر من ذلك راود قطر الندى خدينة الشيخ وراودته عن نفسها، وظلت هذه المراودة، وما يستتبعها قائمة إلى أن اختلفت قطر الندى مع ابن البخيت فشكته الى شيخه فطرده الشيخ!

أما الذين يقدرّون معرفة ابن البخيت باللغة، بقواعدها، وبصرفها ونحوها، فإنهم مستعدون للشهادة أن الرجل في مصر لم يفاخر الأزهر الى سيدنا الحسين أو الى الست زينب، وقضى السنوات الطوال في ظلال المسجد، كما هو حال العلماء الأجلاء الأفاضل، الى أن أتقن اللغة هذا الاتقان.

رجال الدين لا ينظرون الى عبدالله البخيت بارتياح أو مودة، ليس لأنه لا يعرف، أو لأنه زنديق أو هرطوق، وإنما لأنه يعرف أكثر مما ينبغي، ويعرف أكثر من ذلك كيف يكشف أكاذيبهم وتلفيقاتهم، حين يريد. ليس ذلك فقط، فإنه يحفظ من الآيات والأحاديث والقصص التي تقول أي بشرهم: كيف يأكلون، وكيف يسرقون وكيف يراودون النساء. طبعي لا يتحدث في هذه الموضوعات إلا في جو آمن وأمام أناس موثوقين. فقبل أن يبدأ، يتلفت مثل ثعلب، ينظر نحو البعيد أول الأمر، الى المداخل والأبواب، فإذا اطمأن تماماً، يتسم ثم ينظر الى الوجوه القريبة، وغالباً نظرة متفحصة ويتساءل:

- ها، يا جماعة الخير، حتاكم واحد ونعرف بعضنا زين، ومثل ما قالوا: الأرض مخبورة والخطي مشبورة، فإذا أحد غيرنا يسمع الكلام لا بالله ما

عندنا شيء نقوله، أما إذا كان بيتاً . . .

ويتبارى الذين يسمعون في التأكيد أن ما سيقوله لن يبرح المكان. عند ذاك يبدأ، وهو متأكد أن الذي يقال سينقل؛ وقبل نهاية السهرة، وبعد أن يتعب الرجال من الضحك، يقول:

- اللسان ما به عظم، فاستروا، يا جماعة الخير لأنه عليه الصلاة والسلام وصى بالستر.

وتنتقل الى رجال الدين أغلب القصص التي تروى، لكن بعد أن تموه أو تحرف، في محاولة للتستر على عبدالله البخيت. ولأن أحداً لا يستطيع أن يروي كما يروي هو، إذ يعتمد الإطالة والتداخل في أغلب الأحيان، فإنه يلجأ الى إدخال أسماء من الصعب حفظها، أو يطعمها بأبيات من الشعر، فكان ينفي علاقته بالرواية التي تنقل، المنسوبة اليه، فإذا أصروا يقول بما يشبه الغضب:

- . . . وإذا تريدون خلنا نذبحها على قبلة . . .

يتطلعون اليه بعيون متسائلة، يتابع دون أن يفارقه الغضب:

- أنا أعرف مثل هذه السالفة . . . بس غير سالفتم، وإذا تريدون . . أقولها وأنتم أحكموا!

في بعض الأحيان يوافقون على أن يسمعوا، وأغلب الأحيان لا يريدون، لأنهم يخافون من قصة جديدة تضاف الى ما يُروى!

الذين يعرفون ابن البخيت في حالات خاصة، حميمة، يقولون ان أبرز مزياه صوته. فحين يغني لا أحد يتمالك نفسه أو يبقى عاقلاً. وأكد واحد من خدم السلطان، وقد قال هذا الكلام في لحظة انفعال، أن «ابن البخيت إذا غنى تسقط الحوامل وتحمل العواقر ويرمي السلطان عقاله». ويبدو أن هذا الخادم سمع جزءاً من هذا التعليق في إحدى السهرات الخاصة، ورأى مرة السلطان مأخوذاً منفعلاً، وربما رمى عقاله أيضاً!

الذين لا يحبون الغناء، ولا يطربون إلا لتجويد القرآن، يحبون قراءة ابن البخيت، رغم اللكنة المصرية والإطالة، ويبررون محبتهم « أن مخارج الحروف عند ابن البخيت واضحة وليس كما عند المصريين بقّة وإدغام » .

أما لماذا سافر عبدالله البخيت الى مصر، وكم من السنين قضى هناك، ولماذا رجع، فحول ذلك من القصص الكثير الكثير.

في كل مرة يسأله السلطان لماذا سافر الى مصر يرد بضيق :

- دائماً لقمة اليتيم كبيرة يا طويل العمر!

وحين يلح السلطان بسؤاله يلتفت الى الآخرين ويقول :

- ما ينراد لها سؤال . يا جماعة الخير، قال عليه الصلاة والسلام : أطلبوا العلم ولو في الصين، فإذا راح العبد الفقير لمصر كبيرة عليه؟

فإذا لم تعجب الإجابة السلطان، وظهر على وجهه عدم التصديق، يتابع وهو يتطلع اليه من جديد :

- الحقيقة، يا طويل العمر، وهذا الكلام بينا، رحت بنّية أرجع مع رعية غنم من طريق قنطرة شرق وغزة. رحت متسبب، لكن اللي يصل مصر ما هو مثل اللي يطلع منها. سنة بعد سنة أسوّف بالرجعة، وكل يوم أقول: باكر أو اللي عقبه، ومرت السنين، والله، سبحانه وتعالى، سادها بوجهي . والجماعة هناك يقولون: أدرس، تعلم صنعة يا ابن الحلال تأمن الفقر، لكن ما سمعت كلامهم، ومثل ما تشوف عيونكم: لا رجعت بغنم ولا رجعت بصنعة، رجعت أهني: ثوبي وعباتي . . .

ويضحك، وحين يضحك تتغير ملامحه، يصبح كتلة من المرح والنغم، فإذا أضاف :

- وإذا كانت اليد قصيرة وما بها حيلة، قلنا نشوف غير اليد، دورنا هنا . . هنا، ما طلع إلا . . .

يتوقف فجأة، يتلفت أكثر من مرة، متظاهراً، بالتردد والخوف، ثم يضيف
بنبرة جديدة:

- أي نعم ما طلع معنا إلا هاللسان، وهذا اللي رجعنا به.

وظلت الروايات حول سفره كثيرة ومتناقضة، فالذين يحبونه يميلون الى اعتبار سفره الى مصر خيراً ويسرّة ولأنه تعلم العلوم كلها، واللي ما يصدق، هذا الميدان يا حديدان». أما الذين يكرهونه أو يخافون منه أو من لسانه، فإنهم يؤكدون أن مصر علمته البذاءة والسفاهة وسلطة اللسان وشرب الحشيش، ويستشهدون على ذلك بأنه ينام الى الضحى، وأن عينيه، خاصة حين يفيق، مثل عرف الديك، كما أنه لم يتزوج رغم تقدمه في العمر!

أما من أي القبائل، أو أي الأماكن عبدالله البخيت، فإن موران التي لا تتسامح بأنسابها، فقد تسامحت معه، لأنه حين سئل أول مرة، أو بأكثر دقة، في بداية علاقته بحاشية السلطان، أجاب: تميمي. وهذا الجواب، رغم وضوحه، يعني احد امرين: انه فعلاً من تميم، وهذا مقبول، أو كما يقول البدو عادة: من ضيع نسبه قال: أنا تميمي؛ وهكذا ووفق على أنه من تميم، ولم يتقصّر أحد نسبه، كما أنه لم يكن ميالاً لأن يتحدث في الأمر. وانتهى الى أنه من هناك.

العجرمي الذي يناطح الغمام حين لا يجد أحداً يناطحه، لما سمع ما يقوله عبدالله البخيت أو ما ينقل عنه في أمور الدين، سأل باستنكار: «قلت لي ابن البخيت؟ وقلت انه تميمي؟ شوفوا.. هذي مورانا، وانقلوا هذا الكلام عن لساني: إذا راح للهند أو للسند، إذا راح لمصر أو ردّ من مصر، هذا دين محمد، ما أحد يقدر يقول فلاني وتركاني، وحنّا أهل الدين وأدرى بأموره، مثل ما هم أهل مكة أدرى بشعابها فلا يتدخل ولا يقترب

أوابن البخيت، قال وكذلك السلطان. «العجرمي اب للجميع وابد لا يُفتى ومالك في المدينة» فلما سمع العجرمي ما قاله ابن البخيت وما نقل عن السلطان، قال وهو يبتسم: «ومثل ما قلت لكم، يا جماعة الخير، الناس اللي

يفهموه، المتعلمين، اللي راحوا وشافوا، ابد ما يتعدون». واعتبر هذا الجواب مصالحة ورضا. وقد ارسل السلطان للعجرمي هدايا عديدة للتكريم، أما عبدالله البخيت فقد زاره ثلاث مرات خلال اسبوعين، وخلال الزيارات الثلاث ظل مستمعاً وسائلاً اكثر من اي شيء آخر. وهذا ادى الى علاقة ودية بين الاثنين، خلافاً لعلاقته مع رجال الدين الآخرين.

هذا كله بعض عبدالله البخيت، ولذلك اصبح يعرفه القريب والبعيد، وتأكدت المعرفة وتكرست، بعد القصة التي حصلت في حملة وادي الفيض، فأتت معركة الحويزة، وحين اكتشف السلطان محاولة لاغتياله، سَدَّ حرسه الخاص، وشدد عليهم في التدقيق والانتباه، وصدف في اليوم الاول ان جاء ابن البخيت يريد الدخول على السلطان فمنعه الحرس. قال لهم بصوت أبوي:

- يا اولاد الحلال، انا ابن البخيت، ويسموني ابو بادي، ويلزم تعرفوني، إذا مو كلكم واحد منكم، أما إذا ما عرفتم ابن البخيت، ابو بادي، فلا كنتم ولا كان سلطانكم!

وحين احمرت عيونهم ونحوه بقوة، وقالوا له:

- دونك مهيب شوفه واطلب الامر منه.

رد وهو يضحك:

- انا اطلب السماح من مهيب؟ مجانيين انتم؟ ضحكك وتغيرت نبرة الصوت:

- يا اولاد الحلال، اخبر لكم تعرفون عمكم، انا عبدالله البخيت، وخاف، اذا ما عرفتوني، باكر تندمون!

صرخ اصفر الخرس واكثرهم حركة وعصبية:

- الزم حدك ورح شف مهيب، وخله يعطيك كلمة السر او وريقة عليها ختمه، وإلا سنعناك إذا ظليت بهذا المكان!

رد عبدالله البخيت بهدوء ويغيط معاً:

- اسمع يا وليدي، انا شيبة مثل ابوك، انت جديد، وطويل العمر يريد ناس يحمونه ما يريد ناس يتحامون به، فقل لمهيبوب: عمي عبدالله، ابو بادي، وصل.

قال كبير الحرس:

- الظاهر ان جلدك يحكك يا ولد، والاحسن ان تتركنا والا . . .

صرخ عبدالله البخيت

- يا ابو منصور، يا غيره الدنيا والدين إذا ما ردتنا فأرض الله واسعة وهذا حدنا وياك.

تناقل كل الذين كانوا، او وصلوا على سماع الصوت، ان السلطان ذاته خرج اليه، وحين عرف ما حصل بينه وبين الحرس قال كلمة ترددت كثيراً فيما بعد:

- اللي ما يعرف ابن البخيت ما يعرف السلطان، واريد من كل واحد منكم يعرفه مثل ما يعرف وجهه، وابو بادي ما يقف بينه وبين حارس او بواب.

قال مهيبوب في اليوم التالي:

- . . . وهذا الصغير، اللي بعده يرضع حليب امه، واللي ما عرف شيخنا عبدالله البخيت، قلنا له: اتوكل على الله يا ولد، اسرح بالغنم او دور لك ديرة ثانية، لأننا نريد ناس يعرفون العدو من الصديق.

ومن الهوايات الاخرى التي يمارسها عبدالله البخيت خفية، ولا يعرفها الا اقرب الأصدقاء، واكثرهم به التصاقاً: الفراسة وقصّ الاثر. ولأنه لا يزال يتعلم، وغير واثق من فراسته تماماً، خاصة بالقادة العسكريين وشيوخ القبائل الذين يحيطون بالسلطان، فإنه ينفي أية معرفة بالفراسة، بل ويسخر ممن يفترض فيه مثل هذه المعرفة!

أما قص الاثر فقد عرف عنه لانه اكتشف ذات يوم بطل قصة حدثت في قصر الروض، وحيرت القصر كله. فأتثناء حملة وادي الفيض، ولأن السلطان غاب

سنة او تزيد في هذه الحملة، فقد وجد، عندما عاد، ان واحدة من احب محظياته الى نفسه، يمامة، حاملاً في شهرها الخامس. غضب السلطان وهدد وتوعد، ولما حاول ان يعرف من يكون اب الجنين، أقسمت يمامة وبكت انها لم تلتق برجل. ورغم المحاولات التي بذلت معها لكي تعترف، فاقصى ما قالتها وما تذكره ان عفريتاً اسود دخل فيها، وكانت نائمة. إذ فجأة وجدت بطنها تمتلئ، وعندما هبت خائفة من نومها، احست بشعبان اسود يخرج من بين رجلها وينساب تطلع اليها لحظة واحدة، وضحك، ثم ترك الغرفة. هكذا روت القصة لقابلة القصر، وهكذا روتها القابلة. اما حين روتها بنفسها للسلطان، فقد روتها بتفاصيل اكثر، قالت، وكان ابن البخيت يسمع:

- كنت نائمة، يا سيدي. كنت سابع نومة، ما شفت وما حسيت الا وبطني امتلأ، وان شيء دخل، وظل يزحف حتى وصل من هنا الى هنا، واشارت الى ما بين ساقيهما وحتى الرقبة. خفت اصرح او أتحرك. ظليت بمكاني. وبعد سويعة حسيت ان هذا الشيء يريد بطلع، قلت لروحي: خليه يا بنت بطلع. تركته بطلع، ما تحركت الى ان طلع كله، شوي وعلقت النور. واشوف ذاك العريد الاسود عند الباب، الله لا يراويك مثله يا سيدي، وعند ذاك عرفت ان العفريت ركبني.

ظلت يمامة مصرة على هذه الرواية، لا تغير فيها الا اجزاء صغيرة.

قال عبدالله البخيت للسلطان، وغمز بعينه:

- اي نعم، يا طويل العمر، العفاريث في الظلمة تسرح وتمرح اذا ما انقرا في البيت سورة ياسين.

بعد بضعة ايام اكتشف عبدالله البخيت العفريت: كان جدوع التكروني، سياف السلطان.

اما كيف عرف ابن البخيت فهناك ثلاث روايات على الاقل:

الاولى تقول انه جلب شعباناً وطلب من يمامة ان تربه كيف دخل وكيف خرج؛ والثانية تقول ان لولوة، خادمة الاميرة وطفة، وكانت صديقة يمامة،

لكنهما اختصمتا، أبلغت ابن البخيت أو السلطان . أما الرواية الأخيرة فتقول، إن عبدالله البخيت سكت على الموضوع اسبوعاً كاملاً، الى أن نسي او كاد . وتخيّر ليلة ليس فيها قمر، ورش كمية من الطحين من باب غرفة يمامة حتى مهاجع الحرس، وبيّالغ بعض الخدم فيقول انه رش شوالاً كاملاً، وهذا ما هدها الى جدوع التكروني، لأن الآثار بين غرفة يمامة والمكان الذي خرج منه جدوع كانت واضحة!

خلال اليومين اللاحقين، والى ان اختير سيف جديد، واستكمل التحقيق مع يمامة، قبل قتلها وجدوع، انتشرت اشاعة بين الخدم، وقد اخافتهم كثيراً، ان عبدالله البخيت مرّي وليس تميمياً، لأن لا احد يقصّ الاثر بهذه القدرة او الكفاءة الا بنو مرة، وكل التمويه الذي لجأ اليه كان باتفاق وتدبير بينه وبين السلطان، ليعرف ما يدور في القصر! ولذلك خرجت في هذه الفترة مسروقات كثيرة، كان قد مضى عليها شهور. وقد رميت في أماكن واضحة، واثارت الاستغراب والتساؤل!

بعد هذه الحادثة بعدة شهور سرت شائعة، لم يعرف مصدرها ومن اشاعها، وكان البخيت والسلطان في رحلة قنص، تقول ان ابن البخيت كان في مصر نشالاً معروفاً، وقد قضى في السجن هناك خمس سنين أو ستاً، وبعد ان انتهى سجنه طرد ومنع من العودة، وتفصل الاشاعة، فتقول، ان النشالين من الذكاء والبراعة، بحيث يختارون ضحاياهم من المغفلين والغرباء بعناية واتقان. وهذا لا يكون الا نتيجة التعليم والتدريب، تماماً مثل العلوم الأخرى! ويختمون القصة: ان ابن البخيت قضى في مصر سبع سنين، تعلم خلال الشهور الأولى النشل، ومارسه في الشهور التالية، الى أن قبض عليه وسجن، وبعد انتهاء مدة سجنه طرده فجاء الى موران وأصبح من خدم السلطان!

القصص التي تروى عن عبدالله البخيت، غريبة ومضحكة، وهي من الكثرة والتناقض الى درجة ان شيخ الصاغة قال يوماً:

- اذا كتبت مذكراتي، ذات يوم، وهذا شيء غير مستبعد، فاخشى ان يحتل عبدالله البخيت في هذه المذكرات مساحة تفوق ما يحتله السلطان!

وبعد فترة صمت اضاف :

- . . . وهؤلاء البدو، اذا افلت منهم واحد، فمن الصعب ان يلحق به احد!

اما عنان بسيوني، والذي يعتبر ان له جذوراً بدوية، فيجد في عبدالله البخيت لقاء بين الذكاء الفطري، المتمثل في صفوة البدو، وبين القدرة على التعلم واكتساب الخبرات، وامكانية تجاوز ابناء المدن، المترهلين، الكسالى، والذين لا يرون القمر الا حين يصبح بدرأ، والذين لا يميزون بين الحية والحبل!

تلك العلاقة الخاصة والحميمة التي نشأت بين ابن البخيت وبسيوني، تشبه لقاء اثنين في مكان غريب، او بين ناس غرباء، ولذلك فإن ما يتولد من هذا اللقاء يكتسب خصوصية ووداً يفوق ما ينشأ في وسط آخر.

قال عنان بسيوني ذات ليلة للسلطان :

- لا أريد ان أجاملك، يا صاحب الجلالة، ولا اريد ان امتدح الرجال الذين تعتمد عليهم، أن لهم من الكفاءة، وفيهم من الثقة، ما يجعل الانسان فخوراً انه واحد منهم.

والسلطان الذي بدا عليه السرور لسماع هذا الكلام، قال وخرج الكلام عميقاً من صدره :

- وقل على نياتكم ترزقون!

رد عنان بمرح :

- لقد عرفت في حياتي اشخاصاً كثيرين، اما مثل ابن البخيت فلا يوجد الا نادراً، اذ بالإضافة الى المعرفة، فإنه يفيض ذكاء وإنسانية. . .
وبعد قليل وهو يتسم :

- ونحن المصريين، اذا كنا نفاخر بالدم الخفيف، فقد تفوق علينا ابن البخيت!

اما لماذا اتخذ السلطان هذا القرار الصعب، بأن يستغني عن عبدالله البخيت، وان يبعثه بهذه الرحلة، والتي قد تطول، فكان لديه هدفان، الاول،

ان يسرّي عن فتره، ان يجعله يعود الى ما كان عليه، خاصة وان العلاقة التي تربط الإثنين يغلب عليها الود، ويمكن لابن البخيت أن يؤثر عليه ويعيده مثلما كان، أو كما قال بنفسه للسلطان :

- . . . وتستغرب، يا طويل العمر، إذا قلت لك : حتى الحجر يتحرك ويحس، لما يكون مع ابن البخيت!

وحين ابتسم السلطان ونظر اليه، وبعد ان امال رأسه ونظر بشكل جانبي، ليشعره بالمبالغة، تابع، وكأنه لم يسمع :

- ويلزم تسأل الخويا، قبل كم شهر، حين كنا بعين نبات : انا، بإذني سمعت، وكلهم قالوا، ان الحجر اهتز، والخيل هاجت، والنبع ارتفع لما صحت : اوف.

ولما ضحك السلطان اضاف ابن البخيت :

- وما هو بس كذا يا طويل العمر، انا بزمانى سمعت الاصفى، وحكيت الموتى، وبمصر سويت اللي ما يتسوى!

قطب السلطان جبينه وقال بجذ مصطنع :

- وشنهو عندك بعد يا عيسى ابن مريم ويا موسى ابن . . .

وضحك بقهقهة، وبعد قليل :

- صحيح يا ابن بخيت : شنهو اسم ابو موسى؟

ودارت عينها عبدالله البخيت مثل هر محاصر . وتساءل :

- صحيح . . موسى ابن من؟

وبعد ان ضحك وضحك السلطان، قال عبدالله البخيت بصوت متأمر :

- احسن شيء، يا طويل العمر، ان الواحد ما يقترب من الانبياء، لأن هذولي يشورون. ولا احتملون كلمة زائدة او كلمة ناقصة!

- القول قولك، يا ابوبادي !

اما السبب الثاني الذي دعا السلطان لأن يكون عبدالله البخيت مع فتر، فهو عمير، اذ يريد ان يخرج عمير من رأس فتر نهائياً.

قال له يوصيه :

- هذا ابني، يا عبدالله، اريده يكون سلطان، ما اريده ينتهي : قال الله وقال رسوله . يلزم يعرف شهر اللي قاله الله والرسول لكن عنده الف قضية وقضية غير هذي .

وتنفس وصمت، وبغد فترة :

- ترى عمير وامثاله يخربون ديرة، ويحوسون عشيرة، وحجتهم : قال الله وقال رسوله، وحنأ بهذا الزمان نعرف دربنا، ما نريد عمير وامثاله يحكمونا، ولا نريد هم يسوونا مثل الكدش : البراقع حول عيوننا ويقولون : امشوا .

ولم يكن البخيت بحاجة الى كل هذا التحريض . كان يعرف عمير وامثاله، وكان يريد جواً مناسباً ليقول رايه فيه . والسلطان الذي يعرف رأي ابن البخيت، قال له وهو يتسم :

- بس تدير بالك : ابد لا نجيب طاري عمير . احك عليهم كلهم، بس لا تذكره، لأنك تعرف : ثلثين الولد خاله، خاف يحفل وتنقلب عليك وعلينا .
- لا توص حريص، يا طويل العمر . خلي الامور عليّ ونام وأنت مرتاح، او مثل ما قال سحيم :

توسدني كفأ وتشي بمعصم علي وتحوي رجلها من ورائيا
واشهد عند الله ان قد رأيتها وعشرين منها أصبعاً من ورائيا

ضحك السلطان بصخب، وبعد أن هدأ سأل، وبرقت عيناه :

- يا ود، يا ابوبادي، أشوف ما عندك إلا «ورائيا»، خاف هذي وراها شي ؟

رد عبد الله بن نغم :

فيا ليتني والعامرية نلتقي نرود لاهلينا الرياض الخواليا

قال السلطان وهو يمسح لحيته ويفكر :

- برجعتك، من بد ولازم، نزوجك، رضيت ما رضيت ما هو بكيفك، يلزم
نزوجك، حتى تعرف الحياة وتخلص من حسراتك وأوجاعك .

رد ابن البخيت، وكأنه يخاطب نفسه :

- يعدن مريضاً هن هيجن داءه الا انما بعض العوائد دائيا

وبعد ايام قليلة سافر الوفد، لكي يتصل بالدول وينتزع منها اعترافاً بدولة
جديدة قامت!

وانشغل قصر الروض، أكثر من فترات سابقة، باستقبال الوفود وبأخبار المناطق، وأيضاً بمشاكله الداخلية.

أوفد السلطان ثلاثة من أكبر ابنائه مع عدد من الرجال الذين يعتمد عليهم، الى رؤساء العشائر، خاصة في مناطق الحدود، ومعهم الهدايا والدعوات لزيارة موران. ولم تمض اسابيع قليلة على هذه الدعوات حتى تقاطر الشيوخ ومعهم الاقرباء والمرافقون. وعاشت موران في جو من الاحتفال والحركة لم تشهده منذ حملة وادي الفيض. فالعروضات التي جرت، والسباقات التي اقيمت، رافقها الكثير من النشاط والحركة في الاسواق، اذ صرفت الاموال التي وزعت، او معظمها، في شراء الحاجات، مما جعل الكثيرين يشعرون ان مصاعب السنين السابقة قد مضت وانقضت، بل وأخذت تصبح ذكرى من ذكريات الماضي.

وفي هذه الزيارات والدعوات، وقد حضرها الكثيرون، بدا السلطان في احسن حالاته، اذ رغم غياب ابن البخت، والفراغ الذي تركه، فقد تمت الاستعانة بالعديدين لإضفاء جو من المرح والود على الدعوات، كما اوعز السلطان لرجاله ان يبذلوا أقصى ما يستطيعون من اجل راحة الضيوف وتلبية حاجاتهم وطلباتهم. أما اسطبل الخيول الذي كان يعتبره السلطان موازياً للجناح الغربي من قصره، ولا يقل عنه أهمية وسرية، حيث لا يصله الا اقرب الاصدقاء، فقد فتحه ايضاً. صحيح ان ذلك تم على مضض وبالتدريج، لكنه فتح. وقد حمل ذلك ابن حنيح، مسؤول الاسطبل، على تهريب عدد من الخيول المهمة والنادرة. أما مهيبوب، فحين علم بالامر، علق بنوع من الغضب امام عدد من الحرس، ولم يأبه بأن يصل كلامه للسلطان:

- جنون يا جماعة. الخيول اللي جمعناها بدم قلوبنا، من هنا وهنا، ولنا سنين وسنين نسوس بها ونربي، بين يوم والثاني صارت لها جناحات وطارت!

اما عثمان العليان الذي تفاءل كثيراً واعتبر ان المشاكل المالية قد تراجعت او زالت، نتيجة توالي الامطار، والمعونات التي وصلت، اضافة الى التدابير التي اتخذها في جمع الاموال، فقد احس في مرحلة معينة ان الامور اذا تركت إلى مزاج السلطان وأوامره، فلا بد أن تخلق المشاكل من جديد، وقد تصبح اكثر صعوبة، لأن «التجار شغلهم الوحيدة هي الحساب، حساب الربح والخسارة. صحيح انهم يعطون، بعض الايام، بسبب الخوف او الطمع، لكن يريدون مقابل قياتهم، تماماً مثل اللي يطشّ الحب. اللي يطشّ الحب يريد بدل الكيس عشرة. أما إذا انقضت السنة، وراح الحب بالقاع، أو أكلته الطيور فمن كل بد ولازم إنهم يصيحون ويلطمون وتلعلع اصواتهم: صرنا يا جماعة الخير نأكل من رأس مالنا. خسرنا الاول والثالي، وكل شيء راح، وباكراً تشوفونا نشخد!».

قال عثمان للسلطان ذات ليلة بعد أن سافر شيوخ الحوزة:

- ... وتعرف، يا طويل العمر، هذول البدو قاتلهم الطمع، وابد ما يشبعون. أما إذا تعودوا عادة فالله يستر، ما نخلص من حلوقهم ابد. قبل ما يحول الحول نلقاهم بوجوهنا، وهات اكل وقهوة وسوالف الى أن نعطيهم من جديد، وإذا ما عطيناها، ويعتبرون انه صار لهم حق، نصير مثل اللي فاتلين أهلهم...

وكاد يسترسل، لكن السلطان ضحك وقال:

- هالحين حنا بحاجةهم يا عثمان، وتشوف عينك: ابن ماضي وغير ابن ماضي، كل واحد يلوح لهم ويدز عطاياه ويطرش خوياه، ويقول لهم: تعالوا، خذوا اللي تريدونه، بس تصيرون من جماعتنا.

وبعد قليل:

- ويلزم بهذي الأيام نحرم عليهم، لأنهم صاروا العن من الحصينيات، يديرون عينهم هنا. . وهنا، ويسمعون، وينشنون، فإذا ما كنا معهم خد وعين، إذا ما عطيناها وشيماها، ترى يصير فينا مثل ما صار باللي قبلنا: قلوبهم معنا وصيوفهم مع غيرنا.

تنهد السلطان وتابع .

- والخيل، يا عثمان، إذا ما انشد عليها، تبغل، وخويك، ابو منصور، ما يزيد،
بهذي الأيام، خيول، يريد حدود وطاعة ويريد الناس تصير وينا .

رد عثمان بسرعة :

- انا معك يا طويل العمر، بس يلزم تعرف: العين بصيرة واليد قصيرة،
وأخاف، إذا كان بيدنا شيء اليوم نصبح ما نلقى .

- وكلّ الله يا رجال .

- توكلت عليه .

وضحك عثمان وبعد قليل أضاف بمرح:

- بس اريد غيري يتوكل عليه!

لقد اصبح السلطان متأكداً ان الشروط يكاد يقترب من نهايته، اذ بعد
المناقشات الطويلة، والتي تخللتها التحديات ومحاولات اثبات القوة، مع
هاملتون أولاً، ثم مع بتلر، لا بد الآن من بذل كل الجهود من اجل تحسين
الشروط والتمدد دون اعلان او موافقة، ومحاولة فرض امر واقع جديد، مع عدم
الوصول الى المجابهة او الاختلاف .

وإذا كانت لابن ماضي بقية من رمق في العوالي، ويمكن ان يبعث بعدد من
المتطوعين على ظهور المراكب، او ان يحرض بعض الائمة وشيوخ القبائل في
الداخل، فقد اصبح بعد توقيع المعاهدة مثل قط محاصر، يضرب هنا وهناك،
ليس من اجل ان يفرض الشروط، او ان يحصل على المكاسب، وانما لكي
يهرب، قبل ان تطبق عليه القبضة الأخيرة وتخنقه .

وابن العليان الذين يفهم دوافع السلطان، والضرورات التي تملي اتخاذ مثل
هذه المواقف، لم يكن قادراً على تلبية كل مطالبه او اقناعه . قال له في نهاية
المناقشة :

- يلزم على قدر بساطتنا نمد رجلينا، يا طويل العمر.

- اسمع مني زين، يا عثمان: أنت سافرت وشفيت بس يلزم تعرف: بهذي الأيام البساط مثل السيل: يمد ويجزر، فإذا جزرنا بمد اخذنا، وإذا مدينا بجزره ترانا ما تلقى شي، وأنت أدرى!

بدت الكلمات والفكرة التي قالها السلطان ذات دلالة، لكن عثمان لا يعرف كيف يترجمها. قال بعد فترة صمت طويلة:

- اللي تقوله، يا طويل العمر، صحيح، بس هذه الدنيا غدارة، وخاف يصير بينا مثل ما يصير بين الصياد والسمكة: يمدون لنا حتى يصيدونا!

- وكل الله يا رجال، وكل مشكلة ولها حلال!

وبنفس القدر من الاهتمام الذي أولاه السلطان لشيخ الحويزة، اهتم بالمعجمي «وأهل الآخرة» كما يسميهم.

كان يود لو ان ابن البخيت الى جانبه في هذه الفترة، خاصة اثناء لقاءاته مع المعجمي، فهو قادر على أن يلعب ادواراً، وليس دوراً واحداً، مع الشيخ، ومع امثاله. اذ يسعف ذاكرته ببعض الاحاديث، ويقدم له الادلة والبراهين التي تؤيد وجهة نظره، وقادر ايضاً ان يضحكه، وان يثير عجه، وبعض الاحيان يطرح عليه أسئلة، تبدو بريئة، لكنها مقلقة، ومن شأن هذا كله أن يجعل المعجمي يبحث عن البخيت ابن البخيت، كما كان يسميه، تحبباً.

رغم هذا فقد الذي احسه السلطان لغياب ابن البخيت فإنه لم يتدم، لأن الشيوخ الآخرين يتطيرون من «هامان» كما يسمونه، إذ يقعد لهم بالمرصاد ويأكل ما يافكون! ولذلك فهم لا يريدون ان يكونوا اعداء له، ولا يمكن، ايضاً، ان يكونوا اصدقاء. ولحل ان لا تشرفه عيوننا ولا تسمعه أذاننا، وبعدها كل واحد ذنبه على جنبه..

قال السلطان لهؤلاء الشيوخ ذات اليلة:

- ... وتعرفون، يا اولاد الحلال، ان الجهاد ما هو بالسيف وحده. الجهاد

باللسان، بالفعل، ويجوز بالقلب.

توقف لحظة، تنفس بعمق ثم تابع:

- السيف إذا كان وحده، وإذا كان هدفه الغنائم ما هو بسيف إيمان، وما يختلف عن سيوف غيرنا من الحكام.

وعاد الى النبرة الاولى:

- وانتم، اهل العلم والدين، تفهمون وتعرفون، وهم بعد تقدرون، ولهذا السبب، الجهاد في النفس، مع الأهل أهم من الجهاد ضد الأعداء.

اكتفى السلطان بهذا القدر من الكلام، وطلب من مهيب في اليوم التالي، أن يرسل للحاضرين هدايا تتناسب مع أهميتهم. فخرجت من القصر أعداد كبيرة من أكياس الرز والسكر، ومعها صفائح السمن، اضافة الى الخراف، وبعض الخيول. وقد وزعت بعناية، وشارك في الاشراف على التوزيع، بناء لتوجيهات السلطان: رأفت شيخ الصاغة، وعثمان العليان. كتب رأفت مع كل هدية رسالة رقيقة، وقد ختمها السلطان بخاتمه. وبعد ان اطلع عثمان العليان على اللائحة الأخيرة للتوزيعات، كتب «موافق»، ومهرها بتوقيعه! فلما وصلت هذه الهدايا الى رجال الدين وأئمة المساجد، وتأكدوا من قيمتها، وقرأوا الرسائل المرفقة بها، كانوا في احسن حالات الرضا والسرور!

كل هذه الامور كانت تجري، والجناح الغربي من القصر في حالة اقرب الى الصخب والاضطراب. إذ رغم هموم السلطان واتشغالاته، فقد تزايدت المطالبة من قبل الامهات والابناء معاً، ان تجري احتفالات تماثل تلك التي جرت لفنر، خاصة بعد ان اعتبر عدد من الاولاد انفسهم، قد بلغوا مبلغ الرجال، ومما يؤكد ذلك أن السلطان نفسه أوفدهم إلى شيوخ القبائل، وشاركوا في الدعوات ورقصوا العرضة مع الكبار، وترافق ذلك الإلحاح مع حالة الرخاء التي عمت القصور، فبدأ أن إمكانية من هذا النوع سهلة، وربما مرغوبة، لأن الوضع الجديد أصبح مهماً ومساعداً، فالاسباب للمطالبة والإلحاح قائمة.

ومما دفع فضة بشكل خاص لأن تطالب ولأن تلح: غياب خزعبل في

الحويزة، وقد طال غيابه، وترافق مع اشاعات كثيرة؛ ثم سفر فتر بعد ذلك.

وهي حين الحث على ضرورة ان يقيم السلطان الاحتفال. هيأت، بالاتفاق مع ابن حنيحن مسؤول السواس في القصر، عدداً من الخيول بعدد ابنائها الذكور، ورغم انها تعرف استحالة الموافقة على ما تريد، فقد كانت تؤمل أن يوافق السلطان على الاحتفال باثنين أو ثلاثة من أبنائها، رغم ان زاكاب كان الوحيد من هؤلاء الأبناء الذي اوفده السلطان لدعوة عدد من الشيوخ.

ومثلما حرصت وجاهدت فضة، وإن كانت بحذر وسرية، فإن كل زوجة من زوجات السلطان بذلت جهداً من اجل الوصول الى هدف مماثل، او حاولت ان تمنع تكريماً من هذا النوع. وإذا كانت تقاليد القصر، وحزم السلطان، قد حالا دون أن تتقابل النسوة أو أن يتخاصمن، فإن الخدم، رجالاً ونساءً، قاموا بذلك نيابة عنهن!

المعارك التي حدثت خلال هذه الفترة، في القسم الغربي من القصر، من الكثرة والتنوع الى درجة انها لم تترك احداً الا ووصلت اليه، ولم يبق احد إلا وصار طرفاً فيها بشكل أو آخر. حتى السلطان الذي وصلت اليه قال كلمة ظلت تتردد في القصر. فبعد ان جاءه مهيب يبلغه ان ابن العريفان وابن الفرخان يطلبان مقابلته لكي يلتصبا اعفاءهما من الاستمرار في العمل، لانهما فقدوا امكانية السيطرة، نتيجة المكائد والخصومات، قال السلطان:

- الله أكبر.. الله أكبر، إنما أولادكم وأموالكم أعداء لكم...

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

- قدرنا على البعيدين والغرب، وقدرنا على العدى، وأقرب الناس ما قدرنا عليهم؟ وما ندري هم معانا أو علينا؟ وإذا هالحين بهذا الشكل يلزم للبني آدم يتوقى ويفتح عينه زين!

ولم يتأخر السلطان في إيقاع عقوبات صارمة بعدد كبير من الخدم، إذ قيل ان الجلد بدأ من الفجر واستمر إلى ما بعد منتصف النهار، كما أبعد عدداً من الخصيان، رغم الاحتجاج الذي نقل إليه. أما بالنسبة للنساء فقد ارسل اليهن

مهيوب مع تهديدات لا تنفك تتزايد وتعنف. وقد أدى ذلك الى هدوء القصر بعد ثورة السلطان. وتراجع العريفان وناهي عن الاستقالة بعد أن تم إرضاءهما، ووعده السلطان ان يكون موجوداً، وإن يتدخل ليضع حداً لهذه الفوضى. وبدأ ان هذا الدرس قد علّم الجميع: لكن اياً من النساء لم تتوقف ولم تسلم. صحيح ان واحدة بدأت قبل الاخرى، او أن واحدة تأخرت، خوفاً أو انتظاراً، لكن لم تكده عدة اسابيع تنقضي حتى هاج القصر من جديد.

قال طالع العريفان لناهي الذي رفض أن يعود للعمل مرة أخرى:

- اسمع يا ناهي . . .

صمت، حتى كاد ينسى أنه قال كلمة لينبيهه، وبعد فترة طويلة بدأ يحدث نفسه:

- صحيح أنه سلطان، يأمر وينهي، يقول يصير وما يصير، لكن كل هذا بس علينا. أما الحريمات، فكل واحدة منهن الله اكبر: إذا ما جا معها بالدادا يجي بالمرحبا، وإذا ما فاد بالإنثين، عندها . . .

وضحك بصخب، وبعد ان هدأ سأل:

- اقول او ما اقول يا ناهي؟

- يلزم تقول يا ابو جازي، فرّج وقول اللي بقلبك!

- اي نعم، كل واحدة عندها سلاحها: الشركسية تبرق، والعجمية تغنج، والسودا توج، والعربية تعج، والكرجية تناظر وتقول: وين تروح من هذا الفج!

ضحك ناهي الفرحان، حتى كاد ينقلب على ظهره، وبعد أن هدأ:

- صرت شويعر يا ابو جازي!

- والله. وبالله وتالله، اللي يعيش مع هالحريمات يلزم يصير شاعر، وإذا ما صار يصير سلطان او مجنون!

تراجع ناهي قليلاً الى الوراء، نظر الى طالع العريفان بجدية وسأل:

- وانت، يا ابو جازي، لو كنت بمكانه، شنهو اللي تسويه؟

- انا؟

- اي نعم، انت...

ضحك، وبعد قليل:

خلنا نحلم، يا ابن الحلال.

- لو كنت مكانه، اي نعم، لو كنت بمكانه: ليلة كرجية وليلة عجمية، وليلة اجمع سودا على بيضا ومعهن واحدة شركسية او تركية، وبعد ما أشبع وارنوي انام وأنا سلطان!

وبعد قليل وهو يقهقه:

- أو كان صرت مثله: أناظر يمين واضرب يسار، اغمز وحدة وأناام مع الثانية، وأقول لنفسي ولمن حولي: كافر اللي يرد عطايا الله، وكافر اللي ما يرضي عبيد الله!

- وبآخر الليل تكون رضيت واحدة وزعلت مية!

- يا ناهي، يا ابن الاوادم، وهذا الكلام يقص راس، لكن النبي آدم يلزم بقوله: لو كنت مكانه كانت تلحفت واحدة، ورضيت بولدين او ثلاثة، ويا رب الستر والسلامة، لكن إذا النبي آدم جن ما أحد يحميه وينفعه، وآخرته يرعص ويخمص، او يهز ويرجف، والله يستر من البلواي اللي جآيات.

وإذا كانت قصص القصر واضطراباتهن قد زادت عن حد معين، فلا يمكن تعالج الا من داخل القصر، ومن امرأة من نساء القصر، ما دام السلطان مثقلاً ومشغولاً.

فأني زهوة التي غابت شهوراً، وقيل حول غيابها الكثير، وبعد ان لبست الرمادي، عادت الى الاسود من جديد. قالت تهاني: «جها لفر خلاها تغير

ثيابها». وقالت لولوة. «ابن عليان عنده جيش من النسوان» وقالت قابلة القصر «المرأة تتزوج حتى تلد ولو سخل، وهذه ما بها ماء» وقال السلطان: «الشيخة شيخة ويلزم نطل شيخة».

قالت امي زهوة يوم ظهور تركي ابن وطفة، وقد جمعت معظم نساء السلطان، رغم ان وطفة لم توجه الدعوة الا لبعضهن. قالت وهي تدق الارض بعضاها:

- عندي كلمات . . . يا بنات.

ولما وجدت ان الصخب والهرج لا زالا مستمرين، صرخت تهاني، وكان صوتها حاداً كأنه بوق:

- يا جماعة: اسكتن واسمعن.

لما استمر الصخب، دقت الشيخة الارض بقوة اكبر وصرخت:

- هي . . هي . . ترى اللي تسمع أخير لها وأحسن.

ساد الصمت تماماً، وكان لا احد في المكان، قالت بحدة:

- ترى أبو منصور ترك الحبل على غاربه، وأنتن، كل واحدة منكن مثل العنز، ما إن راح عنها الراعي حتى فلتت، ويلزم تعرفن هذا القصر قصر الرحمان، وإذا كانت كل واحدة توهمت أنها كبرت وصارت، وقالت لروحها: ما أحد يردني ترى أنتن غالطين، ما هو بس كذا، إذا الواحدة منكن تريد تجرب حظها، تريد تقول: صار ما صار، تراها تمسك الباب، وهذا اللي أقوله هالحين ما هو كلام ليل أو كلام نسوان، أنا هالحين شفت أبو منصور، ومن راسي لراسه، قال لي: ما نريد طلايب ولا دوخة راس، والأحسن أن كل واحدة تحافظ على عرضها وتربي اولادها. ويعد هذا الكلام، ما عندنا كلام واللي ما يصدق يشوف بعينه أحسن.

وقع هذا الكلام على النسوة مثل الحجارة أو مثل البرد. قالت فضة في محاولة لأن تسيطر على الجو فتستعيد المبادرة:

- أنت تعبانة يا عمتي ، ويلزم انك تستريحى .

ردت امي زهوة بخشونة :

- اسمعى يا فضة ، وخلى غيرك يسمع : أبو منصور قال : الطلايب زادت ،
والحریم فجمن ، وأنا براسي ألف قضية وقضية ، فإذا كل واحدة قاعدة لي
ركبة ونص ، وتقول : ليلتي وأولادي ، ترى ما عندي ليل من نهار ، وما
عندي ولد أخير من ولد ، الكل عندي مثل حبات الرمل ومثل قطرات
الماء . . . واللي ما تفهم هذا الكلام وتلزم حدها ، نعرف كيف نخليها
تفهم . . . وتفهم زين .

وتلتفت أكثر من مرة ثم صرخت .

- يا تهاني . . .

وحين اخترقت تهاني الجمع وتقدمت منها ، قالت لها بصوت حاد :

- ابو منصور عشاء الليلة عندنا ، وأنت هالحين قاعدة هنا تقسمين سالف؟ يا
الله ، السودا بوجهك . يا الله ، امشي قدامي .

كان يمكن لهذه القوضى ان تغيب فترة لتعاود الظهور من جديد ، لولا ان
وقعت عدة حوادث في القصر .

فلولة ، خادمة الاميرة وطفة وجدت مقتولة بالقرب من الاسطبل ، وقد ظهرت
على جثتها علامات زرقاء . قيل انها تعرضت الى التعذيب قبل القتل ، ربما لأنها
قاومت ، او لاسباب اخرى . وقيل إن هذه العلامات من تأثير السم ، وقد همست
عدة نسوة ان السم كان لوطفة ، لكن بالصدفة ، ولاسباب لم تعرف ابداً تناولته
لولوة فماتت .

كان من الممكن ان تمر هذه الحادثة دون نتائج ، او بنتائج محدودة ، لولا ان
عدة امور ذات علاقة حصلت : فالسلطان الذي اعتبر ان فضة وراء الاضطرابات
التي حصلت في القصر ، أراد ان يعاقبها ، فنهجر جناحها لأسابيع ، وقد استقر
خلال هذه الفترة في جناح وطفة . صحيح انه كان ينتقل ويغيب لعدة ليالٍ هنا
وهناك ، لكن في يوم مقتل لولة كان السلطان عند وطفة ، وقيل إنه لاطف لولة

وسألها إن كان لها مطالب، وقد أكدت ثلاث من الخدمات ذلك. وقيل إن السم أعدّ للسلطان وليس لوطفة اولولة. ومما زاد في تعقيد الموقف أيضاً إن اثنين من الخصيان: الغريفي وتمام، وكانت تربطهما بلولة علاقة، قتلا بعد ثلاثة أيام، قتلاً في غابة النخيل، في أقصى الشمال الغربي، وقد سمع في الليل المتأخر إطلاق رصاص، واختلفت التفسيرات حول ما حصل. ومن الطبيعي أن يتردد اسم ابن ماضي وأسماء أخرى وقد حمل ذلك السلطان على أن يتوجه إلى الرحبي، وأن يقضي هناك أياماً امتدت إلى أسابيع. وخلال ذلك عاد ابن البخت.

لم يبق أحد في القصر الا وتذكر يمامة وقصتها بعودة ابن البخت، وترافق ذلك مع الكثير من: الحذر والمخاوف والهمس، خاصة وإن السلطان عاد إلى قصر الروض، وعاد إلى القصر النشاط والحركة، لاستقبال المسافرين ومعرفة ما حصل معهم في سفرتهم التي امتدت زهاء شهرين ونصف، وقد شملت بلداناً عديدة.

أكد عدد من الحرس الخاص للسلطان أنه أعدت لجلالته الجهة الشرقية من المضافة، لتكون ديواناً ومكاناً للإقامة والمنامة، وقد فسر الأمر لأسباب أمنية، وفسر أن غضب السلطان لم يبارحه، ولذلك يريد أن يعاقب القصر كله. وفسر أيضاً أن الاشغال الكثيرة التي تراكمت خلال هذه الفترة جعلته يبقى مع رجاله.

امي زهوة زارت السلطان في مجلسه، واسرّت تهاني لعدد محدود من صديقاتها، وبشكل مضطرب، أن الشيخة نقلت إليه أخباراً خطيرة، وحين حاولت الصديقات أن يستوضحنها، قالت بهمس لا يكاد يسمع: الواحد يشوف بعينه احسن من ان يسمع. أما مهيب فقد عقد خلال يومين متوالين اجتماعات طويلة مع ابن العريفان وناهي. وأكد الخدم الذين صبوا القهوة، أو رأوا الرجال حين خرجوا، أن الابتسامات كانت تملأ وجوههم.

أما فتر الذي خاف عليه الكثيرون، وظلت بذكريتهم صورته عندما توفيت زينة، وإلى حين سفره، فقد فوجئوا أنه عاد قوياً معافى. صحيح أن الحزن لم يبارحه بشكل كامل، لكنه بدا، في لحظات معينة، مرحاً وأقرب إلى التبسط. وقد

قضى اليوم الاول مع ابيه على انفراد. حتى عبدالله البخيت لم يكن معهما. وأكد اثنان من حرس السلطان انه في الليل المتأخر، وبدل أن ينتقل السلطان وفتر إلى الجناح الغربي من القصر، أكد هذان الحارسان انه أرسل وراء موزي فجاءت الى مجلس السلطان، في الجهة الشرقية، وقد قضت معهما ساعة او تزيد قليلاً ثم غادرت.

في الأيام التالية عاد فتر الى الجناح الغربي، وقد استقبل الكثيرين، وبدأ طبيعياً، مع شيء من التحفظ، إذ كانت إجاباته عن الاسئلة الكثيرة التي كانت تطرح، ان السفرة كانت نافعة، وانه رأى الكثير. قطعة قالت ان الأمير، وخلال فترة قصيرة سوف يغادر قصر الروض الى سكن خاص. وقد فسر كلامها كل من سمعه بشكل مختلف عن الآخر.

هاملتون لم يعد، وحين استفسر السلطان عن تأخره، اوضح له فتر ان السفرة كانت مرهقة، وقد رغب ان يقضي اسبوعين في نهايتها مع عائلته في ولز، وأكد أنه لن يتأخر عن ذلك.

الوحيد الذي ظل غائباً، وطال غيابه خزعول.

قال السلطان في إحدى المرات، عندما سئل عن أخبار الحويزة:

- طمنوا بالكم، كل شيء بخير، وابو مشعل هناك.

وبدا للكثيرين ان الامور أخذت تستقر، وان الفترة الجديدة، إذا لم تحصل خلالها مفاجآت، تختلف عن السابق.

وغرق القصر في الصخب والهمس والانتظار.

رغم فرح السلطان بعودة فخر، والاهتمام الذي خصه به، فقد ظل قلقاً: «الصاحب ما يخلي فرحة تتم، يلزم يشوف الجماعة وحده، يسولف معهم، يقول لهم فلاني وتركاني، وبعد ما يتفاهم ويأهم، يرجع ويقول: يصير وما يصير». ومع ذلك لم يعتبر السلطان أن تأخر هاملتون مثل مرات سابقة، أو يوجب الغضب. قال لابن البخيت الذي كان يحدثه عن الأسفار بطريقة عجائبية، وكيف أن «الصاحب» كان نعم الصاحب:

- ... وصاحبنا، يا ابوبادي، ما هو شلون ما كان، هذا صاحب ويعتمد عليه!
وحاول ابن البخيت ان يلفت النظر الى اهمية «الصاحب»، خاصة في انكلترا، وكيف كان يتصرف، ونظرة الآخرين إليه. قال له السلطان بمرح:
- هذا، يا ابن الحلال، عند جماعته شيخ، ولولا أن الجماعة يريدون خاطرنا، ويعرفون قيمتنا، كانوا دزوا جماعة ما تشريهم بفلس وفلسين.
- والشهادة لله، يا طويل العمر، إنه شهم وباله طويل...

وضحك ابن البخيت وتلمظ ثم تابع.

- وبعد الاحتفالات والعزائم، وبعد ما يركض هنا وهناك، يقول لنا انا وطويل العمر، فخر: ها يا جماعة إذا ما أنتم تعبانين خلنا نروح هنا او هنا، لأن النبي آدم يلزم له يشوف، يتونس ويبلّ قلبه.
يستريح قليلاً، يتذكر، ثم يضيف:

- وما خلينا شي الا وشفناه. وظني ان فتر، هالحين، احسن من قبل، ويمكن
تعتمد عليه، وهذا ما هو بس رأيي، هذا رأي «الصاحب».

ولم يتأخر هاملتون، عاد. بدا ان أموراً كثيرة لا بد أن تحسم بعودته، قال
السلطان لفتر يوصيه :

- اريدك، يا وليدي، ما تفارقه. يحبك، وتفهم عليه زين، وأريد منك تعرف
سره، لأن هذول الانكريز ما يعطون سرهم لاحد، الا إذا تأكدوا. . .

وضحك ثم تابع :

- خلنا نحاول، وما يندري بعدها نصل أو ما نصل.

- رد فتر بانفعال :

- صحيح، يا يويه، إنه منهم، لكنه يحب موران ما هو شلون ما كان. . .

وتلفت اكثر من مرة، ورغم أنه بدا متردداً، الا أنه همس :

- وقال لي كل شيء. قال: يمكن موران تصير اكبر واهم دولة، بس يلزم تعرف
كيف تتصرف، كيف تكون.

- هذا الكلام، يا وليدي، له الف معنى ومعنى، ويلزمنا ننتظر ونشوف حتى
نتأكد.

قال هاملتون للسلطان، وكانا وحدهما :

- . . . اريد، يا صاحب الجلالة، ان اعطي نفسي حرية التحدث وان اقول
لك قناعاتي وتصوري لبعض الامور، وارجو ان اجد لدى جلالتك الوقت
والرغبة. . .

تطلع اليه السلطان يريد ان يعرف ما وراء هذه المقدمة. وهاملتون الذي
يتحسب من هذه النظرة، تحمل وانتظر. قال السلطان :

- يا ابن الحلال، حنا ندور على النصيحة دواره، ونتمنى اللي يجينا ويقول لنا
اللي يلزم نسويه.

بعد فترة صمت، وكان هاملتون لا يعرف من اين او كيف يبدأ، قال بانفعال :

- لا اريد ان اتحدث كإنكليزي وانما كصديق، وليس الامر متعلقاً بتبرير الصيغة التي كانت قائمة. اريد ان اتحدث عن افكار وتصورات المستقبل، اضافة الى توضيح بعض الامور...

قاطعها السلطان :

- وحنأ نريد نسمع منك، يا ابن الحلال.

- الفترة الماضية كانت في منتهى الصعوبة والارتباك. كانت صعبة بالنسبة لكم، كما كانت بالنسبة لانكلترا، وكانت صعبة بالنسبة لي شخصياً. لقد جئت الى هنا، يا صاحب الجلالة، لكي اكون مفيداً ولاني اتصور ان هذه المنطقة يمكن ان تلعب دوراً تاريخياً. لقد اختلفت مع الكثيرين، وخصامت الكثيرين، لأنه كانت لنا تصورات مختلفة لدور موران ومستقبلها. وربما تذكر، يا صاحب الجلالة، اني ابتعدت فترة، بل فكرت ان اعتزل، ان ابقى في انكلترا نهائياً، وقررت في لحظة من اللحظات ان اهجر السياسة الى مجال عمل آخر، لكنني قاومت، ضغطت على أعصابي، ولم اترك لقناعاتي الشخصية ان تقرر موافقي، كل ذلك بهدف ان نصل الى معادلة، الى صيغة، يمكن ان توفق بين ما نطمح اليه، ما نريده، وبين ما هو ممكن.

والسلطان الذي يعرف كيف يرفع صوته فوق اصوات الآخرين، ويكون، بعض الاحيان، المتكلم الوحيد، خاصة حين يخشى «المجانين»، كما يقول لنفسه، والذين يعرفون كيف يهيجون الناس ويدفعونهم الى العنف والغضب، فإنه في أحيان اخرى، يعرف كيف يستمع، وكيف يدفع الآخرين لأن يتكلموا.

قال لهاملتون :

- والله... يا ابن الحلال، وما لك يمين عليّ، كنت اريد من زمان تفتح قلبك وتكلم وتقول...

توقف لحظة، ثم أضاف بنبرة مختلفة:

- ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل: صديقك من صدقك.

تابع هاملتون، وكأنه لم يسمع:

- السياسة ليست الرغبات، وليست الأفكار التي يتعلمها الطلاب في الجامعة. السياسة شيء آخر تماماً: إنها صراع القوى والمصالح والإرادات والممكنات، وهذا الصراع من التعقيد والتشابك إلى درجة يبدو بعض الأحيان مستحيلاً، أو دون حل، خاصة بالنسبة لأفراد وقوى، وحتى لشعوب، معزولين وبعيدين... تنهد وهز رأسه عدة مرات ثم تابع:

- هناك، في لندن، تلتقي الطرق، يا صاحب الجلالة، وحيث تلتقي الطرق تصل المعلومات والتقدير والاحتمالات، وهناك أيضاً الرجال الذين يناقشون ويقررون، ولا يملك الإنسان البعيد مثلي إلا أن يسمع الصدى، أن يتلقى النتائج، وأيضاً أن يتحمل الصدمات... .

ضحك بمرارة وأضاف:

- لقد كنت، بالنسبة لكم، غير مفهوم، وكنت شخصياً أريد الابتعاد، وكانت الأمور ذاتها في مرحلة التكوين، ومن خلال شبكة العلاقات المتداخلة والمعقدة كنتم تطالبوني بالاجابة عن أسئلة لا أستطيع الاجابة عنها، وكنتم تطالبوني بمواقف وأمور لا أستطيع اتخاذها أو البت بها، وهذا ما كان يخرجني، يجعلني غير قادر على الاجابة أو على التصرف. ولذلك كنت اصمت، وكنت اهرب...

وضحك مرة اخرى، لكن بطريقة مختلفة، وأضاف وجاء صوته متتصراً:

- الآن، بعد هذي السنين، يمكن ان اعطي رأي لجلائتكم حول بعض الأمور وأكون اكثر ثقة وأكثر اقتناعاً، لأن ما ا قوله ممكن، وقد ينفذ!

تقدم السلطان نحوه قليلاً وبدأ عليه الاهتمام، قال وقد اشتعل كله:

- اي بالله، يا صاحب، اتركنا من الشيء اللي صار، هذا فات ومات، هالحين

اريد افهم منك عن هذي الايام واللي بعدها.

قال هاملتون وهو يتطلع الى السلطان بطريقة استفزازية، وكأنه يرد على نظراته :

- المشكلة في الماضي، يا صاحب الجلالة، لم تكن موران، ولم تكن ابن ماضي او غيره. المشكلة، بالنسبة لبريطانيا، كانت اكبر من ذلك واكثر تعقيداً. . . .

هز رأسه عدة مرات ثم تابع :

- الدول الكبرى، يا صاحب الجلالة، لديها علاقات وعليها التزامات، بحيث تتعامل مع الآخرين ضمن منطق مختلف تماماً عما يكون عنده مشكلة واحدة وفي مكان محدد، ويتعامل بهذه المشكلة وحدها.

تنحنح، فجاء صوته مصقولاً :

- طبيعي لا يمكن، الآن، أن نخوض في كل الموضوعات، لكن لا بد من التأكيد أن بريطانيا كانت محرجة وحائرة تجاه أصدقائها وأعدائها معاً، لأنها لا تعرف كيف تتصرف، من ترضي ومن تغضب. أما الآن، وبعد أن تحددت الأمور جميعاً، فيمكن أن نتحدث، وأن نتفق، وأن نصل الى النتائج المطلوبة.

وفي هذا اللقاء، وبكثير من المهارة والتواطؤ وسوء النية من الطرفين، فهم السلطان أن عليه أن يطوي اعلام الفتح والغزو والضم، لأن الأمور تم الاتفاق عليها بين اللاعبين الأساسيين، وليس أمام اللاعبين الصغار إلا أن يلعبوا في الوقت الضائع، أو دون أن يشعر اللاعبون الكبار، فقط من أجل تسجيل بعض النقاط أو تحسين المواقع، وقد فهم السلطان أيضاً أن لدى بريطانيا من أبنائها من يلعبون في الملاعب الأخرى، وهؤلاء يتناقشون ويختلفون، ويمكن أن يورطوا بريطانيا أو أصدقاءها.

ورغم ان أجزاء كثيرة من المناقشة والحوار كانت واضحة الا انها لم تكن محددة، وكانت تقتضي الكثير من الجهد والمهارة من أجل تحديدها. قال السلطان في نهاية ليلة طويلة من المناقشات والاسئلة وتبادل الافكار والادوار :

- لا احد يعتب، يا صاحب، وما احد يقدر يسوي كل اللي يتمناه، او ينفذ اللي يريد، بس يلزم تعرف ان جماعتك ما حلبوا معنا صافي . . .

هز رأسه وابتسم بحزن، وربما مرت في ذاكرته صور كثيرة، وأضاف:

- كل اللي رادوه منا قلنا لهم: ما يخالف حلت البركة، وعلى العين والراس. وراحت سنة وراحت اللي بعدها، ولما التقينا من جديد: يا الله يا جماعة الخير، هالحين يلزم نسوي اللي اتفقنا عليه، لكن يخلف الله، لا أحد يتذكر. واللي حكوا معنا، اللي كانوا، ملح وذابوا، ما احد يعرف وين صاروا، وليش ما شفتناهم من بعد. وبدينا من جديد، وأنت تذكر السوالف كلها.

وخلال بضعة ايام وبضع ليالٍ من المناقشات والخلوات والاسئلة، وقد شارك فتر في اغلب هذه اللقاءات، وشارك ابن العليان ويسونس ويسوني وشيخ الصاغة في بعضها، بدا واضحاً للسلطان ان عليه الكف عن التحرش بأصدقاء بريطانيا، خاصة من جهة حدود الحويزة، وأن يلتفت الى ترتيب وضعه الداخلي، وتضمن له بريطانيا، بالمقابل، الدعم والمساندة، مالياً وسياسياً، وسوف يصبح ابن ماضي جزءاً من التاريخ الماضي.

والسلطان الذي يدرك هذه الحقيقة، بل ووافق عليها، ضمناً، مع بتلر، تظاهر بالغضب اول الامر، واعتبر ان بريطانيا خدعته وتخلت عنه، كما خدعت وتخلت عن ابن ماضي. حاول ان يذكر هاملتون بحملة وادي الفيض، وكيف ان قواته لم تقف عند حد، وكان يمكن ان تواصل زحفها، ويرفع راية الاسلام، لولا ان بريطانيا تدخلت ووقفت في وجهه، ومع الغضب تظاهر بالحرص ايضاً، اذ لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يقول لقواته، لقادته العسكريين، الذين تحملوا الكثير وانتظروا الى ان تحين الساعة المناسبة، لكي يواصلوا زحفهم. وهاملتون الذي يدرك، مثل السلطان تماماً، عدم جدوى بحث الموضوع مجدداً، قال له وفتر يسمع ويتابع:

- . . . وكما ذكرت لجلالتكم قبل ايام: المسألة تقرر في لندن، ولا نملك الحق او القدرة على تغيير النتائج.

رد السلطان بحدة :

- الحق ما هو عليكم، يا صاحب، وما اقصدك انت، اقصد الجماعة هناك، لأن جماعتنا، تجار موران، وهم يتبايعون: يتشارطون. وحين يقسمون يقولون: اوله شرط آخرته سلامة. . .

وبعد قليل وبلهجة حزينة :

- الحق علينا، كان يلزم من يوم ما تسالمننا، من يوم ما حطيت ايدينا بأيدين بعض، نقول هذه شروطنا، ونريد كذا وكذا، بس طيبتنا، ثقتنا بأصدقائنا، اوصلتنا الى هذي المواصيل، وهالحين تعال يا خرييط: فهم الناس، رضيها، وقل لهم: جماعتنا، الانكريز، سووا بنا اللي تشوفه عيونكم، وما نقدر نقول اي شي!

قال هاملتون، وخرج صوته عميقاً.

- لا اريد، يا صاحب الجلالة، ان اكرر على مسامعكم ما قلته وما فعلته في لندن من أجل ان اخدم هذا البلد الذي احببته واشعراني مرتبط به. اني لو فعلت ذلك اكون مخادعاً، ولا يهمني الا ارضائكم.

رد السلطان بحزن :

- الذنب ما هو ذنبك ابد، يا صاحب، وحننا نقدر خدماتك وافضالك. . .

ولم يدع هاملتون السلطان يتابع، رد بلهجة واثقة :

- المهم، يا صاحب الجلالة، في هذه المرحلة الدقيقة من التوازن الدولي ان تكون السلطنة دولة قوية ومؤثرة، وهذا اهم بكثير من ان تكون كبيرة وضعيفة.

هز رأسه عدة مرات، وكلم نفسه :

- نعم، ان تكون دولة قوية وجاهزة للاستفادة من التطورات العالمية. . . .
وتغيرت النبرة :

- ومثلما تغيرت أوضاع موران خلال السنين السابقة، مستفيدة مما جرى في

المنطقة، قد تنهيا الفرصة مرة اخرى، وعند ذاك يمكن ان يعاد النظر بامور كثيرة، يا صاحب الجلالة. . .

وعاد الى النبرة الاولى:

- المهم الآن أن نعمل كلنا من أجل ان تبني دولة قوية، اقوى من كل من حولها في المنطقة. والدولة القوية تستطيع ان تفرض شروطها، كما تعرفون، يا صاحب الجلالة.

السلطان الذي بدا عليه الحزن والتفكير معاً، لم يشأ ان يسلم بسهولة، او ان يعلن موافقته، قال كأنه يحدث نفسه:

- اللي قلته صحيح يا صاحب، وكل كربة الا ولها الف حلال.

ابتسم السلطان، تطلع الى فتر اكثر مما تطلع الى هاملتون واصاف:

- وجماعتنا قالوا:

فلو قولة يا ليت تطفي عن الحشى	سعير الضماير قلت ليته تهيا لي
فكل ما قضى وما فات عنا وما انقضى	غدا طرق ربيع واسمر الليل جلعال
بقي لي عوض ما فات تذكاري ما مضى	وحزني عليهم وين ما رحى يبرى لي
فلا شدة الا ويرجى لها فرج	ولا كربة الا ولها الف حلال

أي نعم، ويلزمك تسمع يا فتر: كل شدة إلا ويرجى لها فرج، والله كريم.

ولأن السلطان طرب للابيات التي ردها، وابتسم، وتطلع الى فتر بامعان ليدرك اين وصلت، فإن هاملتون شاركه الابتسام، وهز رأسه عدة مرات، دلالة انه فهم وتذوق ما يعنيه ذلك الشعر. وبعد ان طال الصمت قال هاملتون:

- وما أراه، يا صاحب الجلالة، ان الهم، في هذه المرحلة، هو كيف يمكن السيطرة فعلياً على العوالي، كيف يمكن ان تكون جزءاً عضواً من موران، لأن القضاء نهائياً على ابن ماضي مرتبط بإمكانية السيطرة الداخلية.

وبعد قليل وقد تغيرت النبرة:

- اسمح لنفسي أن أقول، يا صاحب الجلالة، باعتبار أنني عرفت بلادكم جيداً، عرفت الحوزة والعوالي، أن المشكلة الأساسية: كيف يمكن أن نكسب الناس في العوالي، فأهل هذه البلاد يعتبرون أنفسهم متقدمين، قياساً لموران والحوزة، كما يُعتبرون أهل مدن، وتقدر أن السيطرة على المدن أصعب بكثير من السيطرة على البوادي . . .

رد السلطان:

- إذا علاقة الجماعة هناك انتهت بابن ماضي، فتديره وتدير العوالي علينا، يا صاحب، وابد ما يكون لك فكر.

- لا اخفي عليك، يا صاحب الجلالة، ان العالم الخارجي كله لا يتحدث في هذه الأيام الا عن العوالي. صحيح ان ابن ماضي تحرك واتصل، وصحيح ان بريطانيا غضت النظر عن بعض تحركاته واتصالاته، لكن تبقى هناك ثلاث مشاكل أساسية: كيف يمكن أن نكسب الناس هناك، وثانياً: بريطانيا كفيلة بحل مشكلة ابن ماضي: سوف تتخلى عنه نهائياً أو تجد له تدبيراً مناسباً. أما النقطة الأخيرة فهي كيف تستطيع السلطنة ان تعيد الى الاقاص القوي التي أطلقناها من أجل القضاء على خصومها، خاصة وان هذه القوي اذا لم تجد احداً تحاربه تترد الى الداخل، ولا بد ان تحارب وتدمر قبل ان تتدمر او ان تنتحر!

هز رأسه عدة مرات، تطلع الى فتر بامعان، ثم اضاف:

- ارجو ان يفهمني صاحب السمو الامير فتر بهذه الملاحظة، كيف يمكن معالجة وضع ابن عمير ومشعان وابن مياح والآخرين الذين يشبهونهم؟ لا اقصد التحريض، ولا اقصد الاساءة، لكن امثال هؤلاء يشكلون همأ وتحدياً كبيراً للسلطنة في المرحلة الجديدة.

رد السلطان وقد شعر بالتحدي:

- هذول، يا صاحب، جماعتنا، وحنا ادري بهم، بس شنهو قولك بجماعة غيرنا؟

للمحظة ارتبك هاملتون، تطلع الى فتر قبل ان يجيب السلطان :

- كما ذكرت لجلالتكم : إذا التزمت سلطنة موران بالمعاهدة، وإذا لم تتحرش بأصدقاء صاحب الجلالة البريطانية، فإن كل الامور الاخرى سوف تجد منا التفهم الكامل والتأييد . . .

وبعد فترات صمت وتفكير، وبعد ان بدا السلطان اقرب الى الاقتناع، لكن دون ان يظهر عليه التسليم او الموافقة، وفي لحظة تخيرها هاملتون جيداً، قال :

- لدينا مفكر نعتز به، يا صاحب الجلالة، وقد قال عن بناء الدولة والسيطرة على الشعب كلاماً حكيماً، ولديه رأي لمعالجة وضع مثل وضع العوالي، وأرى ان تسمعه . . .

ضحك السلطان مثل طفل، وبعد ان هدأ، قال :

- مثل ما قلت لك، يا صاحب، قبل كم يوم، حنا ندور على النصيحة، ونعطي عليها جمل، فهات، شنو اللي قاله صاحبكم؟

ابتسم هاملتون قبل ان يبدأ :

- يقول، يا صاحب الجلالة : «على كل من يضع يده على الممتلكات، ويود الاحتفاظ بها، إن يجعل نصب عينيه دائماً امرين في منتهى الاهمية : اولهما : إبادة الاسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما : عدم احداث تبدل جوهرى في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها، وبهذه الطريقة يمكن للبلدين ان يتحدا في وقت قصير، وأن يؤلفا دولة واحدة» .

مط السلطان شفته وهز رأسه موافقاً، وبدأ كأنه يستعيد، في ذاكرته، ما قاله هاملتون . اضاف هاملتون :

- وحول نفس الموضوع، يا صاحب الجلالة، يضيف أيضاً : «في سبيل الحفاظ على الممتلكات الجديدة، فإن خير الوسائل واكثرها طمأنينة هو ان يقرر الحاكم الجديد إقامة مقره في الممتلكات الجديدة، وهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة واطول امداء» .

وفي ذلك اللقاء استعاد السلطان ما قاله هاملتون مرة ثانية ومرة ثالثة، وبدأ له انه يعرف هذا الكلام، لكن ليس بهذا الوضوح، وانه طبق جزءاً من هذه الافكار، لكنه لم يطبقها كلها. قال لهاملتون، وبدأ كأنه يخاطب نفسه :

- هذا اللي قاله صاحبكم حنا سويناه: جلسنا بالعوالي شهور وشهور، وقلنا للناس: خللكم، يا اولاد الحلال باشغالكم وأعمالكم، وكل ما نريده منكم ان تعرفوا أن دولة جديدة قامت، وأن ابن ماضي صار اثر بعد عين .

وبعد قليل وبانفعال:

- ولا بد صار لك علم: أبو مشعل، ولدنا خزعول، له شهور، ويجوز مضت عليه سنة، وهو بالحويزة، يداري الناس ويعيش معهم، وما قلنا له تعال، وهو ما جاء!

ولم يتأخر السلطان ليدرك ما هو ممكن في هذه المرحلة، ولذلك فإن أول ما فعله: بعث إلى العجربي هدايا عديدة: مصحفاً مذهباً وصله خلال هذه الفترة من الهند، وكمية وافرة من الطيب النادر، وفرساً مشهورة كثر عنها الحديث في الأشهر الأخيرة، إضافة إلى مجموعة فاخرة من الثياب. ولم ينس أن يبعث أيضاً مبلغاً من المال.

استغرب العجربي وصول كل هذه الهدايا. كاد يرتاب بدوافع السلطان. تذكر ما حصل لسلفه، محمد العلقاوي، قبل سنوات. فما كادت تنهمر عليه الهدايا من السلطان، حتى قتل بعد فترة قصيرة، وكان في طريقه لصلاة الفجر. ورغم حزن السلطان عليه، فقد سرت اشاعات قوية انه كان وراء مقتله! إلا أن الزيارتين اللتين قام بهما عبدالله البخيت، وخلال اسبوع واحد، بددت الكثير من الشكوك. الزيارة الاولى كانت بهدف ان يطلعه على ما شهده ولمسه اثناء سفرته، خاصة عن احوال المسلمين في البلدان التي زارها: الجوامع التي رآها في تركيا، والأذان الذي يرتفع خمس مرات، والناس وهم يندفعون إلى المساجد، وكيف يصلون ويطلبون الصلاة، وعن الحنين الذي يملأ صدورهم لزيارة الأماكن المقدسة.

وابن البخيت حين يتحدث يعرف كيف يثير دهشة الشيخ وإعجابه، ولا ينسى أن يورد الطرائف التي صادفته هنا وهناك، وأن يتوقف عند عجائب الطبيعة: البرودة، امطار الصيف، الخضرة على مدى البصر، الانهار الكبيرة، والتي لا تتوقف عن الجريان طوال السنة. وكاد يحدثه عن النساء في الشوارع والمطاعم، وفي كل مكان زاره، كاد يقول له أن الجمال الذي شهده: شقرة الشعر، وبياض

البشرة وعري الزنود والسيقان، إضافة الى زرقة العيون، لا يمكن للإنسان أن يصادفه الا في الجنة. كاد يحدثه عن ذلك، لكنه تردد. ثم تذكر المهمة التي كلفه بها السلطان، فانعطف مرة أخرى إلى جو التقوى!

في نهاية الزيارة الاولى، قال ابن البخيت بدعابة.

- ... ويلزم يا شيخنا، في يوم الأيام، تزور هذي البلاد، لأن الشوف ما هو مثل السوالف!

- عودة، عودة، وتريدني اروح، بأخر ايامي، يا ابن البخيت، الى ديرة الكفر؟

- حتى يزداد ايمانك، يا شيخنا، وتشوف بأي نعيم حنا عايشين!

- خلني بأرضي، يا ابن البخيت، لأن العين إذا زاغت القلب يزيغ.

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

- اللهم ثبت العقل والدين.

الزيارة الثانية التي قام بها عبدالله البخيت للشيخ المعجري كانت بعد يوم واحد من زيارة أخرى قام بها عدد من رجال السلطان، وكان معهم ابن العليان ومهيوب. وبدا من زيارة هؤلاء، ما سبقها وما رافقها، ان وراءها غرضاً مباشراً. هكذا احس المعجري، بل اكثر من ذلك بدأ يهجس بهذا الهاجس منذ الساعات الاولى لما قبل الظهر، فالخبر الذي ابلغ به في ضحى ذلك اليوم، ان وفداً من القصر سيزوره، جعله في حالة من التساؤل اقرب الى القلق. «ماذا يريد خريبط؟ وما معنى الهدايا والاهتمام؟ وهذه الزيارة، من سيأتي وماذا سيدور؟».

ومثلما يحصل في حالات كثيرة مماثلة، ورغم ان عثمان العليان همس بإذن مهيوب وغمز به ان لا يجري الحديث في الموضوع بسرعة أو مباشرة، اذ لا بد ان يخوضوا في أمور عامة وعديدة، الى أن تأتي اللحظة المناسبة، عندها تتم مفاتحته بالأمر. رغم هذا الاتفاق، ولم تكذ فناجين الشاي تأتي، بعد القهوة حتى ضحك ابن العليان، خاصة حين خيم الصمت، وقال:

- ... إذا الواحد بقمه حصوة، يا شيخنا، ما يقدر يحكي او يقول قبل ما يرميها.

رد العجرمي بمودة وحزم معاً:

- سم يا ابن الحلال، والرسول، مثل ما قالوا، مبلغ ما هو ملوم.

كان العجرمي مستعداً لكل الاحتمالات، وكان طبعه الحاد، وعناده، يجعلانه ينظر الكثيرين شخصاً صعباً. أما إذا بدأ الحديث، خاصة مع الخصوم، فإنه، اضافة الى القسوة، يعرف كيف يسخر، وكيف يحرض الآخرين. الآن، وقد استقبل وفد السلطان، كان على ثقة أن لديه ما يقوله، أو أن لديه طلباً، وكان رده بهذه الطريقة لكي يخلق طمأنينة، ولكي يهتئ لنفسه موقعاً قوياً إذا أراد أن يحارب.

سأل عثمان العليان مهيب:

- تتكلم او اتكلم؟

رد مهيب وهو يبتسم:

- سم، طال عمرك...

ولكي يهتئ العجرمي نفسياً تابع مهيب:

- ويا ليت كل التكاليفات والطلبات مثل طلبنا هالحين من ابو مشعل!

قال العجرمي بحزم، هذه المرة، ودون مودة:

- سموا... يا جماعة الخير.

فرك عثمان العليان يديه وقال:

- طلب منا طويل العمر نصلك، نبلغك تحياته، ونسأل عن خاطرك وصحتك

وطلب منا نبلغك انه يريد يناسبك، يريد بتك!

فوجئ العجرمي بالطلب، تطلع حواليه اكثر من مرة، تطلع الى الوجوه التي

تترقب منه كلمة، وغرق في الصمت. لديه ابتتان لم تتزوجا بعد، الكبيرة، وقد بلغت الاربعين، او تجاوزتها قليلاً، من زوجته الاولى، وهي بالإضافة الى ياسها من الزواج، فقد اصبحت المسؤولة عن البيت والاولاد، ولم يعد احد يفكر او يطرح مسألة زواجها، حتى هي، اصبحت تتأذى وتحند إذا جرى الحديث ليس عن احتمال زواجها بالذات، وإنما عن اي زواج. أما الثانية، من زوجته قبل الأخيرة، فإنها لم تبلغ الرابعة عشرة بعد، ولا يزال ينظر إليها كطفلة، خاصة وانها جاءت لامها: جميلة الملامح، وإن تكن صغيرة الحجم. هل يريد السلطان الكبيرة ام الصغيرة؟ وهل تصلح أي منهما للزواج.

كاد في لحظة من اللحظات ان يقول كلمة واحدة لينهي الموضوع، «ما عندي بنات للزواج». لكنه فكر في نتائج هذا الجواب، وتذكر الهدايا التي وصلته خلال الفترة الاخيرة، خاصة تلك الفرس التي أصبحت حديث موران، بعد ان ركبها مشهور، الابن الاوسط للشيخ العجومي، واخذ يختال بها في اسواق المدينة، وبدأ يهتف ويقسم مواليدها، لمن سيكون أول بطن، والبطن الذي يليه. ولام الشيخ نفسه ان تصرف بسرعة، خاصة بالمال الذي ارسله السلطان، اذ دفعه بكامله لابنه الكبير، مشعل؛ ومشعل الذي بدا غاضباً، اول الامر، لأن مشهور استولى على الفرس، لم يتأخر لكي يبعث بالمال، مع اثنين من التجار، وقد سافرا الى مصر، من أجل شراء رعية غنم، «ومعها كم راس خيل» وأوفد معهما راعياً لكي يعود بالغنم عن طريق غزة هاشم.

مرت هذه الصور والافكار برأس الشيخ، ولا يعرف كم مضى عليه وهو صامت. حين رفع عينيه الى الذين ينتظرون، قال، وخرج صوته مسكيناً:
- سلّموا على ابو منصور، وقولوا له ابو مشعل يمبرك بعد يومين، وانشاء الله يصير خير!

كاد مهيب يستوضح ويتأكد، لأنه يريد أن يحمل جواباً محدداً للسلطان، الا ان ابن العليان غمزه ان لا يفعل، إذ من اللائق، ومن الأفضل، ان يترك للاب فرصة، لا ليرفض، وإنما لكي يبرر قبوله، وليشعر ايضاً انه قادر على ان يقول لا أو نعم.

قال عثمان العليان، وهم يستأذنون للانصراف:

- قال الاقدمون، يا أبو مشعل: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الاذان» وحنأ، والله يشهد، إن كلمتنا كانت من القلب. . .

ابتسم، نظر الى مهيب، ثم اضاف:

- وما هي كلمتنا حنأ، يا أبو مشعل، كلمة طويل العمر، ومثل ما قلت: حنأ رسل، واللي علينا سويناه!

قال العجرمي، وكانت نظراته لا تستقر في مكان:

- وكلوا الله يا جماعة الخير.

بين زيارة الوفد للعجرمي وعودته، جاء من ابلغ السلطان ان للعجرمي بنتين وليس بنتا واحدة، كما ذكرت قابلة القصر، حين سئلت. وقال هؤلاء ان البنت الكبيرة كبيرة، ولا يتذكرون هل ولدت قبل السيل الذي اخذ العارض كله او بعده بسنة، لكنهم يتذكرون ان العجرمي تزوج قبل السيل بستين او ثلاث سنين، ويتذكرون ايضاً ان الولد الاول مات، وقد حزن عليه العجرمي كثيراً، وجاءت بعده بنت، ولا بد ان تكون هي هذه.

ولم ينتظر السلطان. بعث يستفسر من جديد، بعث لسؤال القابلة، وأمي زهوة، ونساء اخريات، وحين تأكد ان للعجرمي بنتين في بيته، شعر بالخطأ انه لم يسم ولم يحدد. قال امام عدد من خاصته:

- بنت الحرام وريدة، تحسب ان الدنيا والناس هم بس اللي ولدوا على يدها، وما تدري ان قبل إبراهيم نوح وقبل نوح آدم. . .

وهز رأسه بأسف، وبعد قليل صاح:

- هاتوا ابن البخيت، يمكن يلقي لنا فتوى.

حين وصل عبدالله البخيت، كانت عيناه حمراوين، ويمشي متعثراً. دخل وسلم، وكان اقرب الى الخمول والصمت. سأله السلطان، بعد ان طلب اليه القهوة، بمداعبة.

- اشوف، يا عبدالله، وكأنه عندك قصور نوم!

رد بتزق:

- تسهرونا للفجر، وبعدها تروحون تنامون، وحنّا نعدّ النجوم، فإذا اخذنا غفوة نصيحون: وين فلان وين فلان، وحنّا الواحد منا، مثل الذيب، عين مفتحة والثانية ما تعرف تجاري اختها او تنام.

- هاتوا قهوة لابويادي!

وبعد ان دارت القهوة عدة مرات، وبعد ان صحا عبدالله البخيت، وطلب السلطان من الذين كانوا في المجلس، ان يتركوه وابن البخيت، سألّه، وكان صوته مليئاً بالقلق:

- وقعنا بمشكلة، يا عبدالله، وما لنا غيرك!

استيقظت حواس ابن البخيت تماماً:

- خير، يا طويل العمر؟

وابلغه كيف بعث بابن العليان ومهيب وعدد من رجاله الى العجرمي ليخطب ابنته، وربما تكون فرصة العمر بالنسبة للعجرمي ان يزوج ابنته الكبيرة، والتي لا يعرف عمرها هل ولدت قبل سيل العارض الكبير او بعده بسنة او ستين. واضاف السلطان انه حين فكر بأن يناسب العجرمي كان يريد الابنة التي وصفتها له وريدة، وهي صغيرة وجميلة.

وإذا كان ابن البخيت يتظاهر بأنه هزم، في اغلب المعارك التي يكون فيها السلطان الطرف الآخر، فقد وجد فرصته الآن لأن يداعب السلطان، أن يشيره. قال وهو يترنم:

- لا تنكحن عجوزاً إن دعوك لها وان حبوك على تزويجها الذهب
وان اقول وقالوا انها نصف فلن اطيب نصفها الذي ذهب
اي نعم، الذي ذهب، هذا الذي قاله ابن قتيبة، في كتاب النساء، أما إذا

أردت رأيي، يا طويل العمر، فإن المرأة الكبيرة، المجربة، أفضل من الصغيرة، لأن الصغيرة لا تترك الرجل ينام، وانت تعرف ان اللي ما ينام تحمر عيونه، فإذا وغوه قبل ما يشبع نوم يصير نقمة على نفسه وعلى غيره!

- الله يخزيك، دعيناك تصير لنا عون تراك طلعت علينا فرعون!

رد ابن البخيت بجد:

- اشهد بالله ان العجومي، ابو مشعل، غال عليّ، وإذا كان الواحد غالي، فأهله غالين، وبنته الكبيرة يلزم تتزوج، يلزم تفرح. الله خلقها، مثلها مثل غيرها، وحرام ان تجي للعنيا وتروح دون ما تعرف رجال، والله سبحانه وتعالى، راح يحاسب رجال موران كلهم إذا تركوها تموت بلا زواج، دون ما تفرح.

- اسمع يا ابن البخيت: همومنا كثيرة وما نريد زود، وما لحين، ما بعثنا وراك، وما ردناك الا حتى تعاوننا، فاترك كلام الهزل واحك جدلي.

بعد ان ضحك ابن البخيت بقهقهة، قال بمرح:

- فلان تسألوني بالنساء فلانني خير بادواء النساء طيب
إذا شاب رأس المرء او قل ماله فليس له في ودهن نصيب
يرون ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب

قال له السلطان وهو ينسم:

- اتركنا من هذه السوالف يا عبدالله، وهالحين نريدك تدور لنا حل.

- تريد حل ابو موسى او عمرو بن العاص يا طويل العمر؟

- اريد يظل العجومي من جماعتنا، فإذا قال: الكبيرة، وقلنا: لا، وقعت بيننا الى قيام الساعة، وهذا ابد ما نريده.

- يعني ابو منصور يريد الصغيرة؟

- اي نعم، يا ابن الحلال، وهذا ما يتراد له سؤال!

- قال الشاعر:

يكاد حباب الماء يخدش جلدها إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلد
ولو لبست ثوباً من الورد خالصاً لخدش منها جلدها ورق الورد
يشقلها لبس الحرير لينها وتشكو الى جاراتها ثقل العقد
وأرحم خديها إذا ما لحظتها حذاراً للحظي أن يؤثر في الخد
- اسمع، يا عبد الله، اخطينا وفزعناك من نومك، لكن، والله، إذا ظلمت
تقص على شعر فلان وفلان، وتقول فلاني وتركاني، لا خليك تتزوج
الكبيرة...

وضحك السلطان، ثم تابع:

- تذكر... قبل سفرك، قلت من بد ولازم نزوجك، رضيت ما رضيت ما
يهم، وهالحين أقول للعجرمي: يا أبو مشعل: الجماعة جوا يبغون يخطبون
لابن البخيت، سمعوا عندك بنت بعمره، وخجل يقول لك، وأريدك ما
تردني يا أبو مشعل، ويلزم نقرا الفاتحة.
حاول عبدالله البخيت أن يضحك، لكن وجد أن فكاه لا يطاوعانه، وبدأ له
أن السلطين يستطيعون أن يفعلوا كل شيء، بما في ذلك اجبار الانسان على
أن يتزوج. قال وهو يعتدل في جلسته:
- اللي يريداه ابو منصور هو اللي يصير.

وبعد قليل وهو يتسم:

- وقال عليه الصلاة والسلام: «روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، إن القلوب
إذا كُلت عميت»، وأنا، وأقول الصدق، يا طويل العمر، بعدني ما غفيت،
بعدما قال المؤذن: الله واكبر، وقلت لروحي: نم لك ساعة زمان يا ابن
الحلال حتى تستريح الا والجماعة فوق راسي: «قم، قم ولا تتأخر، طويل
العمر يريدك». وقمت وجيت على نيتي، ما أعرف كبيرة او صغيرة، وانت،
طال عمرك، بلا سلام وبلا دستور: الكبيرة ما نريدها، الصغيرة نريدها، وأنا
بين التايم والصاحي، ما طلع معي الا شعر وسوالف.
وامر السلطان بالقهوة من جديد.

في نهاية اللقاء قال عبدالله البخيت:

- وكل الله، يا طويل العمر، وما يصير الا تريده!

في اليوم التالي، قبل ان يزور عبدالله البخيت العجرمي، استفسر من وريدة، وغيرها من نساء القصر، عن اسم البنت وعمرها، وفيما اذا كانت لها أخوات أخريات، ووريدة التي كانت خائفة مرتبكة، قالت إنها تعرف فقط نجمة، في سن الزواج. وعادت وذكرت حفيظة، وأكدت ان حفيظة عمرها سبع سنوات، او ربما اقل. امي زهوة، حين بعث يسألها، قالت، عن طريق سرور: «العجرمي من زوجته موزة ما عنده بنات الا نجمة، وهي وحدها بسن الزواج».

أثناء الزيارة، وقد حاول ابن البخيت ان يجعلها زيارة طبيعية، وامتداداً للزيارة السابقة، تطرق الي موضوعات بعيدة، ولكي يوحى للعجرمي بالأمان، قال، وقد تخير لحظة صمت مناسبة:

- ربما تذكر يا شيخنا ما قاله قيس بن ذريح.

هز رأسه عدة مرات وتابع:

- قال:

لو ان امرأ أخفى الهوى من ضميره لمتّ ولم يعلم بذاك ضمير
ولكن سألقي الله والنفس لم تبح بسرّك والمستخبرون كثير

وقال مسلم ابن قتيبة: «لا تطلبن حاجتك الي واحد من ثلاثة، لا تطلبها الي الكذاب فإنه يقربها وهي بعيدة، ويبعدها وهي قريبة، ولا تطلبها الي الاحمق فإنه يريد أن ينفعلك وهو يضرك. ولا تطلبها الي رجل له عند قوم مأكلة فإنه يجعل حاجتك وقاء لحاجته!».

والعجرمي الذي ابتسم لأنه اعجب بما سمع، او بما تخيره ابن البخيت، كان واثقاً ايضاً ان هذه الزيارة لها علاقة بزيارة الأمس، ولذلك بدا مبتسماً، مستعلماً، منتظراً. بل واكثر من ذلك كان يريد ان يعرف ما وراء رغبة السلطان. قال بعد أن تهيأ:

- يا عبدالله، ادرى إنك عالم قبل ما تكون من جماعة السلطان، ويلزم ان أقول لك شي ما قلته لغيرك، من قبل، قالوا: «لا تقرب السلطان إلا كما تقرب

الاسد، فإن طاووته اتعبك وإن خالفته أتعبك»، وهالحين أريد أن أسمع منك .
- انا وانت شي واحد، يا ابو مشعل . . . سم .

ولما ظل العجرمي صامتاً، ابتسم ابن البخيت، وزفر ثم قال :

- حنا، يا ابو مشعل راس مالنا نشيله ويانا وين ما رحنا وين ما جينا، وما عندنا غيره . . .

واشار الى رأسه والى صدره، وتابع :

- بس هذا ما يكفي، يلزم نداري زماناً، صحيح أنا ما نريد نصير سلاطين، لكن ما نقدر نعادي السلاطين، واذا السلطان راد . . .

رد العجرمي بنزق :

- يا ابو بادي . . المسألة ما هي مسألة نجمة، نجمة له، بس أخاف باكر يصل الكفار الى هنا ويقول لي : تعال يا أبو مشعل افتي، وهذي ما أقدر عليها!

وإبن البخيت الذي ردد اسم نجمة عدة مرات، لكي يميزها عن أختها الكبيرة نعيمة وعن اختها الصغرى جفيظة، بدا متشككاً من سرعة الموافقة، فاختلطت عليه الاسماء من جديد، قال لكي يعيد النقاش الى مجراه :

- ويلزم اقول لك، يا ابو مشعل : طويل العمر قال : راح نناسب الشيخ العجرمي، راح نطلب منه بنته نجمة، بنت المرحومة موزة. قلت له على الخير والبركة يا طويل العمر، وبالفراخ والبنين، لأن الطيبات للطيبين والطيبات للطيبات .

- ويعدها، ما بي غير شي، يا عبد الله؟

- علمي، يا ابو مشعل، يريد يناسبكم، وهذا كل شي .

- اذا كانت بس هذه فعلى خيرة الله، له نجمة والدنيا قسمة .

الاحتفالات التي اقيمت بمناسبة زواج السلطان كانت كبيرة وباذخة لدرجة لم تترك احداً الا وجعلته يتكلم او يتساءل . والسلطان الذي اراد من هذه المناسبة

ان تعبر عما وصلت إليه السلطنة من حيث القوة والرخاء، كان يريد أيضاً ان يعطي درساً لنساء قصر الروض، فالمرأة قريبة وعزيزة بمقدار طاعتها وامتثالها. وكان يريد السلطان أيضاً: ان يحاول بشكل غير مباشر، اغراء فتر، ان يجعله يغار او يقتنع أن زواجاً جديداً امر سهل للغاية، يجب أن يفكر فيه، وأن يقدم عليه بأسرع وقت ممكن. أما أن يعذب نفسه، أن يتأمرل في هذه السن، وأن يعتبر زينة بداية الخليفة ونهايتها، فعندئذ لا بد ان تكون حياته السابقة في عين فضة قد أفسدته، ولذلك لا بد من اجل اصلاحه انه يبذل جهداً، وأن ينتظر الوقت المناسب.

ابن العليان وعبدالله البخيت اللذان حضرا بداية احتفالات الزواج انسحبا في وقت مبكر، ودون أن يحسّ بهما أحد، وقد تعودا أن يفعلا ذلك حين يشعران أنهما بحاجة الى «بنزين» خاص تعودا عليه في الأماكن الأخرى، حيث عاشا. قال ابن العليان يسأل عبدالله البخيت:

- ما هو قولك بينت العجرمي؟

وحين ضحك ابن البخيت بقهقهة، وهويhez رأسه، تابع عثمان:

- حنا، يا ابو بادي، اللي بعنا وشرينا بالسوق وما نعرف اللي بعناه او اللي شريناه، وهذا ما يجوز من الله!

وبعد قليل وهو يدق كأسه بكأس ابن البخيت:

- وتأكد، باكر، اذا الله حاسبنا، إذا سأل شنهو اللي بعتهو وشنهو اللي شريتوه، راح يجلدنا الف جلدة، لأننا ما نعرف بجلد ويقول: تستاهلون يا اولاد الحرام، لان اللي ما يحضر ولادة عنزته تجيب له تيس! وما كان يلزم تبيعون سمك بماي!

هز ابن البخيت رأسه حزناً، وبعد قليل، وهو يرفع الى عثمان رأسه بميل واضح:

- لكن خويك ما تركها على غاربها. صحت على وريدة: تعالي يا ولية: هذه

البنية اللي تعبنا حتى حصلناها لطويل العمر شلونها؟ طويلة، قصيرة، حلوة،
قولي . . .

- واخذت منها حق او باطل؟

- قالت كثير، يا أبو عزيز، وفهمت من كلامها مثل ما حدثت المدائني،
والأحسن أقول لك ما قاله هذا الشيخ نقلاً عن امرئ القيس، وقد بعث
امراً لتري امرأة وتصفها له، فقالت: «أبيت اللعن لها فرع كأذنان الخيل
المظفورة، فإذا أرسلته قلت عناقيد مطورة، أسفل منه جبهة كالمرأة
المصقولة، أسفل منها عيني عبهة، لم يرعها قانص ولا قسورة، يياضها
كبياض المحض العقيق، وسوادها كسواد دامس الغسق، بينهما أنف كحد
السيف المصقول، لم يكن فيه قصر ولا به طول، حفت به وجنات
كالأرجوان، في محض بياض كالجمان، وفم كراس رمانة، شبهت بالدر
النظيم أسنانه، يتقلب فيه لسان ذو حلاوة، وبيان يحركه عقل وافر، وجواب
حاضر، تلتقي فيه شفتان كالزبد يحلجلان ريقاً كالشهد، ركب في عتق لمن
يراه، يتصل به عضدان مدملجان كأنهما في نقائهما اللؤلؤ أو المرجان،
فيهما ساعدان لا يرى فيهما زندان، شرعت فيهما كفان، فيهما بنان كالفضة
قمعت بالمقيان المدمجة، يحيط بها كالقراطيس المدرجة، تنتهي ذلك منها
إلى خصر يكاد منها، لولا رحمة الله، تبين في كفل يقعدها إذا ما قامت،
ويوقفها إذا هي نامت، يحملها فخذان مدملجان كأنهما قلبان، وساقان
أجردان، يحمل ذلك كله قدمان لطيفان محدودتان كحد السنان فتبارك الله
كيف صغرها ولطفهما، يطبقان حمل ما فوقهما، أما ما وراء ذلك، أيها
الملك فإني تركت ذكره . . .»

يعد هذا التدفق الذي بدر من عبدالله البخيت، ويبدو أنه حفظه منذ زمن
طويل، ورواه مرات كثيرة، ونتيجة للسرعة، فإن عثمان العليان لم يستطع أن
يرسم صورة واضحة عن هذا الكلام كله.

قال وهو يزفر:

- انت، يا ابن البخيت، الله خلقتك حتى تدوخ الناس، وحتى ما تقول لا حق ولا باطل!

- كل هذا الكلام وما عجبك شي؟

- حنا سألناك، يا ابن الحلال، البنت مزبونة؟ تسوى التعب وشلعان القلب أو شي ثاني؟

- شي ثاني!

- وضحك ابن البخيت بصخب، وبعد قليل أضاف:

- ناظر العجرمي: اسود مزنجر، طوله شبر وحلقه فتر، انفه قبة، وعينه ميلة شارع اليهود، ومثل قطاة ما لاقت ماي، والأم، الله يرحمها، ما شفناها، لكن خلّفت وقالت: في امان الله، وانت، يا الشيخ، رضع وفض، والباقي عندك يا ابو عزيز!

- يعني الاوصاف اللي قلتها ما تلقى منها شي؟

- إنما الشعراء يتبعهم الغاوون. لأنهم دائماً، يا أبو عزيز، بدل ما يفرحون بما خلقه الله، يخلقون أوصاف وأوهام ويضيعون فيها، ويفرحون أنفسهم عليها ويريدونا نفرح معهم، لكن النتيجة انهم لا يفرحون ولا يفرحون!

- يعني طويل العمر الليلة تزوج سخلة؟

- لا بالله تزوج تيس!

وسار ركب السلطان الى العوالي وكان ضمن المركب الخاص : هاملتون والعجرمي وفنر، اضافة الى عبدالله البخيت وعدد من المستشارين ، وكانت نجمة مع السلطان في هذه السفرة .

لأول مرة ، منذ سنوات ، يمتلئ قصر الروض بالغيط ، اكثر من الغيرة او الحقد . ولأول مرة تجمع نساء السلطان رابطة التضامن ازاء الوافدة الجديدة . واذا كانت العادة ، في زيجات سابقة ، ان ترصد العروس ، بكثير من العناية ، لاكتشاف عيوبها ، وكانت في الغالب عيوباً خفية او هينة ، سواء من ناحية الشكل ، او التصرف ، اوربما اكثر خفاء من ذلك ! فقد كان دائماً يوجد من يتصدى للدفاع عن التي تدخل القصر لأول مرة ، واذا لم يكن ذلك نتيجة الاقتناع في الغالب ، فلا اقل من محاولة ضم الطير الجديد الى سرب من الأسراب المتنازعة . كان يشار الى الجمال ، اذا كانت جميلة، والى العراقة اذا لم يسعفها الجمال . وكان يشار ايضاً الى مواضع خاصة لا تلاحظها العين بسهولة ، كصغر السن ، او دماثة الخلق ، وبعض الأحيان الى الملابس التي ترتديها ، او حتى الى العطر الذي تستعمله ويفوح ليملاً المكان ، كل ذلك ، في محاولة لتسجيل بعض النقاط .

كانت نجمة العجرمي موضع اجماع القصر في الرفض والانكار . فقبل ان تصل ، ورغم استمرار تكذيب اخبار هذا الزواج ، حتى قبل الزفاف بليتين ، فقد رسمت لها صورة تبعث على الاضحاك والشفقة في آن واحد . واذا كانت اية من زوجات السلطان لم تكلف نفسها عناء التحدث في الأمر ، لأن كل واحدة منهن تعتبر نفسها اكبر وأهم من الخوض في زواج مثل هذا ، والذي ظلت اسبابه اودوافعه غير

واضحة ، فإن الخادومات قمن نيابة عن السيدات باشاعة الأخبار : « من يوم موت لولوة والعجرمي له مثل ظله ، يكتب له حجب ويشتمه الزعوط ، وبين الاثنين يبخره ويدهنه ، وما عاد يأمن لأحد ؛ قبل ما يمد يده الى طعام يلزم الي طبخه يأكل منه ؛ وما يشرب قهوة الا من يد فرحان المدلول . ما هوبس كذا ما عاد احد يعرف وين بنام ومتى . وبعد ما تعب العجرمي ودوخه قال له : دواك عندي . وشنهو الدوا ؟ هذي المسخوطة ، المعظمة ، الي ما احد يشريها بنواة ، وهذه الي طردتها زوجته الأخيرة ، هي الي صارت الدوا » وتضحك الي تتكلم لتضيف الأخرى : والله العليم ان الصناديق الي جت معها كلها بلاوي : سفوف ودهون وسخام البين ، لأنها ما تركت احد يقرب منها ، وكانت احرص عليها من الذهب والحرير ، ما هوبس كذا ، سقرتها كلها معها ، وكانت عمتها احرص منها وهم يحملون الصناديق : ديروا بالكم ، على مهلكم ، خاف تقع ، خاف تفتح ، وعلى روسهم وهم يشيلون ويحزّمون » وتضيف الأولى « على قولك ، والا الي تريد ترجع ، الي تريد تلقى لها مكان بقصر الروض ، تطرح به شي ، تطرح ولو حجر . هذي ابد ، اخذت كل شي معها » .

وقد تأكدت الاشاعات وترسخت حين سافر العجرمي مع السلطان . لأول مرة ، يسافر . ولأول مرة يحرص السلطان على ان يكون معه . وهذا يفسر ايضاً كيف تم انتزاع الفرس التي هربتها فضة ، ثم هياتها لتكون هدية لابنتها راكان ، حين يتم الاحتفال به على انه بلغ مبلغ الرجال . انتزعها السلطان دون تردد وبعث بها الى العجرمي قبل الزواج بأسابيع .

مرافقة العجرمي للسلطان اذن لم تكن بسبب صلة النسب التي قامت خلال الفترة الأخيرة ، كما اشيع ، وانما بسبب الدور السحري الذي بدأ يمارسه على السلطان منذ ان داهمته تلك الكوابيس حول احتمال قتله او تسميمه ، وان ذلك يتم ، كما اكد بعض الذين سمعوا العجرمي ، من داخل القصر ، ومن اقرب الناس اليه .

فضة كانت اول واكثر نساء السلطان التي شعرت بالاهانة ، واوزعت لخدمها وعييدها ان لا يتركوا شيئاً يمكن ان يُروى عن العجرمي الا ويجب ان ينقلوه لكي يعم ويشيع ، وجارتها النساء الأخريات بعد بضعة ايام . حتى وطقة التي خافت ، أول

الأمر، نتيجة مقتل لولوة ثم حزنّت بعد انقطاع السلطان، لم تتأخر في الإيعاز إلى الخصيان والخدم لأن يتحركوا. ومثل عادة الخدم دائماً، فقد بالغوا كثيراً، وأكدوا أن العجرمي وراء مقتل لولوة، ودليلهم على ذلك أنه وحده المستفيد مما حصل. يضاف إلى ذلك أنه رفض الصلاة على جثمان القتيلة، حين طلب منه، وكان تبريره: «المغدورة قتلت نفسها ولم يقتلها أحد».

طالع العريفان، مثل عاداته، انشغل بتأمين مستلزمات الزوجة الجديدة، بعد أن خصّصها السلطان بواحد من الأجنحة الثلاثة الفخمة التي بنيت بعد أن ترك خزعل قصر الروض، وقد استغرب الوضع الجديد في القصر، إذ كانت العادة أن تكثر الطلبات في مثل هذه الحالات، وأن تتعارض إلى أقصى حد، بقصد خلق جو من الارتباك والتحدي أكثر مما هي لازعاج الوافد الجديد. هذه المرة بدت الأمور مختلفة. قال طالع لعرفان المهجرس الذي جلب له «فرمان» السلطان، المختوم والموقع عليه.

- ما تقول لي يا عرفان: أشوف بنت العجرمي تختلف عن غيرها من نساء طويل العمر؟ كل شي يلزم يكون ممتاز ممتازاً وبديل الواحد اثنين، ويلزم اليوم قبل باكر، ما تقول لي شن هي السالفة؟

- انت ادري، يا ابو جازي، صار لك سنين بالقصر، وتعرف الصغيرة والكبيرة. رد بتورية:

- كل كبيرة عرفناها يا عرفان، بس هذي، لأنها صغيرة، ضاعت علينا.

- لأنها شيخة وبنت شيوخ يا ابو جازي!

تطلع إليه ابن العريفان، ابتسم ابتسامة كبيرة، هز رأسه عدة مرات وقال:

- هالحين عرفنا السبب، وإذا عرف السبب بطل العجب!

كان الاثنان يشيران إلى أن العجرمي لا يُعدّ ولا يذكر حين تسمى القبائل ويسمى الشيوخ!

ومثلما كانت طلائع موكب السلطان في مرات سابقة قواته العسكرية، فقد كانه-

طلّاعته هذه المرة امواله ورسله. صحيح أنه تمهل في عدة محطات على الطريق، إذ استقبل عدداً كبيراً من الشيوخ، وأطال اقامته في عين نبات. لقد فعل كل ذلك لكي يتيح لرجاله تهيئة استقبال لائق، وتأمين وصول الأموال والهدايا الى الذين وُجّهت اليهم.

عبدالله البخيت التزم بتوصية السلطان « اريدك تلازمه مثل ظله يا ابو بادي ، وإذا سها عن الصلاة ، او تأمت عليه القبلة ، تذكره وتدّله » ، وبعد ان يتسم السلطان ، يقرب فمه من اذن عبدالله ويحس :

« وصلاتي وتسليمي على سيد البشر عدد ما زها بالنبت نوار الأرياف » .

وحين يدير ابن البخيت رأسه عجباً لأن السلطان اخذ يردد القصيد ، يضيف السلطان وهو يطبطب على كتفه :

- واريذك يا عبدالله تفهّمه انه اذا كان يعرف الله ويسبحه مرة حنا نعرفه مثله ونسبحه مئة مرة !

وابن البخيت الذي يمكن أن يقوم بهذا الدور ليوم أو ليومين ، لا يستطيع أن يمثل طوال أسابيع. ليس ذلك فقط، فإن السلطان ذاته، وفي احيان كثيرة، ومهما أبدى من الجهد، أو مهما وصل به الورع، كان يروق له في حالات التعب، ومع رجاله المباشرين، أن يسمع النكات، أن يقهقه، ولا يتردد في أن يخوض في أحاديث النساء أيضاً!

الآن ، في هذه الرحلة الطويلة والبطيئة ، ونتيجة وجود العجرمي ، فقد سادت تقاليد جديدة ، أقرب الى الصرامة ، فلم يبق احد الا واستغرب وتساءل . وما زاد في الارباك ايضاً ان نجمة كانت المرأة التي ترافق السلطان ، اذ لو كانت امرأة غيرها ، او لم يكن العجرمي اباهاً ، لاستطاع ابن البخيت ان يخترق هذا الحاجز الصلب من الجدية ، وان يجد طريقة لاشاعة جو جديد من المرح يساعد على تحمل اعباء الرحلة .

قال لابن العليان وهما في عين نبات :

- تعرف يا ابو عزيز ؟

نظر اليه عثمان بتساؤل دون ان يجيب . تابع :

- والله ، لو ان الجماعة التي سموها هذي العين عين نبات يعرفون ان شيخنا راح يمرح هنا لكان سموها عين هباب او عين غراب !

السلطان الذي كان يتمشى غير بعيد مع هاملتون وفتر ، وكانوا يستعيدون ذكريات أيام ماضية . طرقت سمعه ضحكة عثمان العليان الصاخبة ، ابتسم ، وبدأ يتوجه نحو الاثنين ، وحين أصبحت المسافة كافية لأن يتبادل معهما الحديث سأل :

- ها ، يا جماعة الخير ، اشوفكم تركتم الخويا وانفردتم ، وكأن ابن البخيت يريد يطلع قصور السوالف ، ويريد يضحك عن أجداد اجداده .

قال ابن بخيت ، وقد اتخذ مسلكاً جاداً وهو يرى العجرمي مقبلاً :

- « قيل لعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود : أتقول الشعر مع النسك والفضل والفقّه ؟

فقال : لا بد للمصدر من ان ينفث » .

لما وصل العجرمي بسلم ونقل نظراته في الوجوه ، لكي يكتشف ما اذا كان الذي سمعه هو الحديث الوحيد ام تم اختياره لأنه جاء . قال لابن البخيت :

- شنو الي قلته يا عبدالله ؟

- قلت ، طال عمرك ، كلام لعبيدالله بن عبدالله ...
- قله مرة ثانية .

- قيل لعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود : أتقول الشعر مع النسك والفضل والفقّه ؟ فقال : لا بد للمصدر من ان ينفث .

- وغيره قال ، يا ابن البخيت : « اياكم والغناء فإنه مفتاح الزنا » .

- لكن ما احد غنى يا شيخنا .

- سمعت الطريقة من بعيد ، قلت لروحي : قم وشوف شن هي السالفة ، وصلت وانت تروي الحديث .

- وتعرف يا شيخنا ان عمر بن عبد العزيز قال : « والله اني لاشترى المحادثة من عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بألف دينار من بيت مال المسلمين . فقيل له ، يا امير المؤمنين ، أتقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك وتنزهك ؟ فقال : أين يذهب بكم؟ والله اني لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف الدنانير . ان في المحادثة تلقيناً للعقول ، وترويحاً للقلب ، وتسريحاً للهم وتنقيحاً للأدب » .

قال المعجومي يخاطب السلطان مداعباً ، او ربما ساخراً :

- ابن البخيت شويخ ، ما هو شيخ ، يا طويل العمر ، يعرف الاحاديث زين ، لكن ، ظني ، إذا ماني مخطي ، دايماً يدير النار نحو قرصه !

- والله يا شيخنا كنت اظن ان رأيك بي احسن !

- رأي بك يا عبدالله زين ، بس اريدك احسن واحسن .

- ما دام ترافقنا بهذي السفرة الطويلة ، وشفنا ، وتعلمنا ، يلزم ان النبي آدم يتعلم اكثر ويصير احسن . . .

وضحك ابن البخيت وأضاف :

- واذا كنت سمعت عني شي ، من قبل ، طال عمرك ، فها لحين عرفتني وخبرتني !

هز المعجومي رأسه عدة مرات وقال :

- الي سمعته كثير ، يا ابن البخيت ، بس كنت اقول لهم دائماً : يا جماعة هذا ابن البخيت ما مثله ، عالم وصاحب ادب ، ويسفرتنا ، والشهادة لله ، تأكدت .

قال عثمان العليان ليخلق جواً مرحاً :

- اذا اعتمدنا ، يا طويل العمر ، على ابن البخيت ، مثل ما اعتمد عمر بن عبد العزيز على ابن مسعود ، ان المحادثة بألف دينار ، ترى فلوسنا كلها ما تكفيه ، لأن سوافه كثيرة !

رد ابن البخيت بمرح :

- اذا ما حصلنا حقنا بالدنيا نحصله بالآخرة ، لا تخف يا ابو عزيز ، وعلى نياتكم ترزقون !

كان عبدالله البخيت يريد ، قبل ان يغادر عين نبات ، ان يصيح اوف ، وكانت الرغبة ذاتها عند ابن العليان ، وربما عند السلطان أيضاً ، لكن ذلك الجو الثقيل ، اضطر هاملتون لأن يغادره خلال ثلاثة أو أربعة أيام متوالية ، واصطحب معه فترايضاً ، لزيارة الآثار القريبة ، مرة أخرى ، ولكي يشغل نفسه جزءاً من اول المساء في تدوين ما وصل اليه من نتائج ، اما ما تبقى من السهرة فكان يقضيه في الاستماع الى احاديث الدين والفقه ، او في معرفة اسماء اولاد فلان وفلان من المعارف !

عنان بسيوني الذي ذهب اكثر من مرة الى الطريفة وعاد ، من اجل ان يساهم ، مع الآخرين ، في ايصال الأموال التي بعث بها السلطان ، ومن اجل تهيئة استقبال بليق بهذه الزيارة ، وبعد ان حضر اكثر من امسية ، وكان ابرز المتحدثين المعجومي ، قال لابن البخيت وهما يذهبان الى النوم :

- حتى في الأزهر، الجماعة يعرفوا يتسموا، يقولوا نكتة؛ دا راجل حقنة، فالله يساعذك، يا أبو بادي، انك تحملته كل الفترة دي .

- بالنسبة لي ، يا بك ، كلها كم يوم ، وبعدها في امان الله ، لكن السؤال : شلون امله تحمله؟

- وشلون راح يتحملة ابو منصور؟

- وما من دابة في الارض الا على الله رزقها !

- الله يساعد الارض وهو فوقها والله يساعدها عندما يصير بيطنها !

الاحتفالات التي اقيمت في العوالي كانت من الفخامة والاهمية بحيث جعلت المعجومي ذاته ، يشعر بالقوة والفخر ، فهو ليس شيخ موران وحدها ، وليس قريب السلطان فقط ، انه الذي يُفتي ، والذي يعطي . وعلماء العوالي ، الذين اجتمعوا اليه عدة مرات ، وتبادل معهم الأفكار والآراء ، خرجوا بانطباع ان

« الشيخ العجرمي يمكن التفاهم معه ، لأنه ، بالإضافة الى سعة علمه ، صبور جلود ، ويعرف ان لكل مقام مقال » . أما السلطان الذي بدا فخوراً بهذه النتائج ، فقد طلب من العجرمي ومن فضيلة العلماء ان يواصلوا النقاش ، وان يتوصلوا الى النتائج المحمودة . وانصرف الى الأمور الأخرى .

العوالي التي ظلت ، خلال الفترة الماضية كلها ، قلقمة منتظرة ، وعرضة للكثير من التقلبات ، مالبت ان شعرت بالراحة ، نتيجة الامطار التي سقطت ، والأموال التي صرفت . وبدأت اصداء ابن ماضي وتأثيراته تتراجع ، فقد مل الناس الحرب ، بعد ان انهكهم الجوع والموت ، وشعروا ان الذين يتحاربون لا يعنون لهم شيئاً خاصاً او هاماً .

الفقراء في العوالي استمروا كذلك ، او ربما ازداد فقرهم ، لأن الحرب سدت امامهم اكثر السبل . أما الأغنياء فقد خافوا اول الأمر ، اخفوا اموالهم وتظاهروا أنهم فقدوا كل شيء ، بل وتظاهروا بالفقر أيضاً . لكن ، والأمر تعود الى ما كانت عليه ، فيرجع البيع والشراء ، وتمتلىء الأسواق ، اظهر الأغنياء اموالهم من جديد ، وبدأوا يشترون ويبيعون ، واصبحوا اكثر غنى من قبل ، خاصة نتيجة الأموال التي تأتي من هنا ومن هناك !

أما الذين كانوا من رجال ابن ماضي ، ومحاربون معه او باسمه ، ويعد ان انهارت الدفاعات التي بناها ، وانسحب القادة ، وتقدمت قوات خريبط ، فقد تواروا خلال الأسابيع الأولى ، حتى اذا هدأت المعركة عادوا من جديد ، وهذه المرة على أنهم رجال خريبط والمتحمسون له . ثم ما لبثوا ان اصبحوا كذلك فعلاً . وهكذا استمر السوق نفس السوق ، وزعماء الأحياء نفس الزعماء ، وكذلك شيوخ القبائل ، والذين كانوا أغنياء .

قال بعض الفقراء وهم يشهدون الدول تذهب وتأتي غيرها :

- في هذه الدنيا كل شيء يتغير الا الفقر والفقراء ، الفقري يبقى والفقراء يزدادون !

ولم يعرفوا لماذا يحصل هذا كله ، ولماذا يكون هكذا !

ابن مشعان الذي اراد ان يصل الى عين نبات لكي يصطحب السلطان ، او

ليكون في ركابه ، لم يسعفه الوقت ، فقد تأخر في ترتيب اموره واستدعاء القوات اللازمة ، فتم الاتفاق ان يكون الاستقبال بالطريقة ، وبشكل يناسب اهمية الزيارة .

قال هاملتون للسلطان :

- المهم الآن ان نكسب الناس ، ان نرضيهم ، لأن الرضا الداخلي ينعكس على الخارج ، خاصة في هذه الفترة الحرجة . والناس ليسوا مرتبطين بابن ماضي ، وانما مرتبطون بمصالحهم وامنهم ، فإذا تأمنت المصالح ، وامن الناس على ارواحهم واموالهم ، فإن الفرص المتاحة للوضع الجديد اكبر بكثير مما كانت متاحة من قبل ، خاصة وان ابن ماضي قد استبد بالناس وكلفهم ما لا يطيقون ، اضافة الى ويلات الحرب والدمار .

لم يكن السلطان بحاجة الى دروس نظرية ، كان يريد رجالاً ، وكان يريد تنفيذ شيء يمكن ان يلمسه الناس . واذا كان قد بعث عدة رسل لابن مشعان كي يتصرف بحكمة وتعقل ، وان يكسب رضا الناس ، اكثر مما يحملهم على الادعان ، فإن ابن مشعان فهم الرسائل جيداً ، خاصة بعد أن اختبر الأمر بنفسه ، فلم تمض فترة حتى أصبح انساناً آخر .

قال عبدالله البخيت ، حين كان يستعرض السلطان التغير الذي حصل لابن مشعان :

- وحنّا بمصر ، يا طويل العمر ، تعلمنا من الجماعة الكثير ، تعلمنا منهم المذهب الشافعي والنكت .

رد السلطان بمرح :

- وما قولك باللي ما يتعلم ، يا عبدالله ؟

- هذا ابد ما يصير ، يا طويل العمر .

- صار ، يا ابن الحلال !

- اذا صار يلزم انت تذبحه قبل ما يذبحه عدوك !

قال السلطان لابن مشعان في اول لقاء في الطريقة :

- العوالي ما مثلها : هواها وماها وناسها . . .
- رد ابن مشعان بانفعال :
- العوالي ، يا طويل العمر ، تقدر تقول أنها غير موران ، هنا . . .
- وتلفت الى اكثر من ناحية ؛ ثم اضاف :
- الناس هنا يقدرّون ، يفهمون ، ويمكن تصل معهم للي تريده .
- تراك نسيت ماء موران يا ابن مشعان .
- ابد ما ينسى ، يا طويل العمر ، بس يلزم الانسان يعرف الي حوله ويفهمه .
- تابع السلطان بمداعبة :
- وما تركت ديرة أو عشيرة ، يا ابن مشعان ، إلا وزرعت فيها ، وعسى أن
زرعك طاب .
- رد ابن مشعان ، وقد شعر بالجرح :
- الناس ، يا طويل العمر ، للناس ، فإذا الواحد ما ملّهم يحسبونه غريب !
- رد ابن البخيت بمرح :
- يملّهم ، ما يخالف ، بس ما يلهم ملّهم كله !
- الملّح ، يا ابن البخيت ، ذرة وينشبع منه ، ما هو مثل غير شي .
- ومثلما انصرف السلطان الى استقبال الوجوه والتجار والمشايخ وزعماء العشائر ،
كما فعل في زيارته السابقة ، فعل هذه المرة ، وزاد على ذلك بأن زار الكثيرين ،
وصل في اكثر المساجد ، وكان العجومي واغلب رجاله معه دائماً . ولم تقتصر زيارته
على الطريقة وما حولها ، فقد بدأت تتسع وتمتد ، فلم يترك مكاناً في العوالي الا
وزاره . وحين يضطر للبقاء في مكان معين اياماً يبعث بفنر وعدد من رجاله لكي
يقوموا نيابة عنه بالزيارة ، والتي يرافقها التبسط في الحديث والهدايا والسؤال عن
الزراع والمطر . وكان عرفان الهجرس دائماً واقفاً الى جانب السلطان ،
ومستعداً دائماً لأن يكتب ما يمليه عليه .
- اكتب يا عرفان ، وابد لا تنس شيء ، ومن رجعتنا تذكرني ، لأن الجماعة طلباتهم

مستقيمة ويستاهلون !

قال للعجرمي ذات ليلة ، وكانا وحدهما :

- انت ، يا ابو مشعل ، ما عدت شيخ موران وحدها ، فالعوالي تبعتك ،
والخويزة ، وكل ارض وكل ناس تبع السلطان تبع لك يا ابو مشعل !

والعجرمي الذي بدا مهموماً لثقل هذه المسؤوليات واتساعها ، كان في داخله
يرقص طرباً . فالى فترة قرية كان يرتاب بالسلطان ، ويود لو ان العلاقة بينها
بعيدة ، لكن حين لمس الحب والتقدير ، فقد انتعش وتغير . قال رداً على هذا
الكلام :

- الله يقدرنا يا ابو منصور ، لأن هذه المسؤوليات عليها حساب في الدنيا والآخرة .

- ولا بد انك لاحظت ، طال عمرك ، ان جماعة العوالي غير جماعتنا ، فيلزم ان
الواحد يطوّل باله ويأخذهم على قدر عقولهم .

وضحك السلطان ثم اضاف :

- ولا بد انك تخبر ابن مشعان شلون كان وشلون صار بهذي الأيام ؛ واهل العوالي
اذا داريناهم وشيميناهم ، اذا عطيناهم ، وقلنا لهم حلت البركة ، فهم معنا ما
هم مع غيرنا ، لا مع ابن ماضي ولا غير ابن ماضي !

- الصديق الي تقوله يا ابو منصور ، وكثيرين منهم قالوا لي هذا الكلام .

- وما يخفاك ، طال عمرك ، ان المشايخ هم عماد الدولة والدين ، فإذا ارضيناهم ،
واذا اقتنعوا ، ترانا بألف خير .

رد العجرمي بانفعال :

- اترك هذه المسألة عليّ يا ابو منصور ، وانشاء الله ما تكون الا راضي !

وبانفعال مماثل رد السلطان :

- بارك الله فيك يا ابو مشعل ، وحننا لولاكم ما نسوى شي .

ويعد قليل وبهمس :

- واذا احتجت قريشات ، يا ابو مشعل ، حتى تعطي هذا او ذاك ، ترى الفلوس واجدة ، بس انت تؤمر .
- هز المعجومي رأسه ولم يجب .

اربعة شهور متوالية لم يبدأ خلالها السلطان او احد من رجاله . ورغم التعب والسفر المتواصل ، بدا له ان النتائج التي تم التوصل اليها مرضية . لم يكن هذا رأيه وحده ، كان رأي اغلب المستشارين ، وبدا كل واحد من هؤلاء متفائلاً . حتى العجرمي الذي يفضل ان يبقى قريباً من السلطان وملازماً له ، ما لبث ان انقرد ، واخذ يقوم بزيارات خاصة ، وترافقت هذه الزيارات مع وعود كثيرة ببناء المساجد وتحسين احوال المشايخ . ورغم انه اعتبر المال ، في بداية الأمر ، مفسدة ، ويجب الا تلجأ اليه الحكومة ، فقد وجد ان حالات معينة لا يمكن ان تعالج الا عن طريق المال ، مما اضطره لاشعار السلطان . قال لجلالته ذات ليلة :

- . . . والجماعة هنا ، يا ابو منصور ، تعودوا عادات ما هو من السهل يتركونها ، وهم دراويش ومساكين ، فإذا حنا ما تصدقنا عليهم ما من احد يتصدق ، ومن رأي نخصص لهم شي .

- حلت البركة ، يا ابو مشعل ، بس انت قول .

- انا بيدي ، يا طويل العمر ، ما امسك قرش واحد ، انا اقول اصرفوا والوكيل هو اللي يصرف .

- ما يخالف ، طال عمرك ، وحننا دائماً نريدك كبير ، وهذي الأمور الصغيرة لها ناسها ، بس انتم اللي تناظرون وتأمرون ، وهم اللي ينفذون !

- على خيرة الله !

في احدى الليالي ، وعلى حين فجأة وصل القنصل البريطاني . كان السلطان بين

دائرة ودريم ، على مسافة من الطريفة ، وقد وصلها وبني معسكره ، وقرر ان يستريح بعد هذه الرحلة الطويلة .

القنصل ، رايان سميث ، رغم دمايته ، ورغبته في تقديم المساعدة ، واستعداده لتسهيل المعاملات الى اقصى حد ، عكس ايجلتون الذي كان قبله ، بدا في تلك الليلة انساناً آخر :

- ان حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى تبلغ جلالتك ، بمزيد الأسف ، انها مضطرة لاعادة النظر بعلاقاتها مع حكومتكم ، وقد تكون مضطرة لاتخاذ تدابير عاجلة في مناطق الحدود بعد الاعتداءات الخطيرة والمتكررة التي قامت بها قوات جلالتك .

فوجيء السلطان بالزيارة ، وفوجيء اكثر بلهجة القنصل الجافة والحازمة ، ولم يكن يدري بوقوع الاعتداءات . قال للقنصل بتبسط ، لكي يزيل الغضب :

- اول مرة تفهمنا ، الله يسلمك ، شنو الي صار ، ويعدها تقول لنا يصير وما يصير !

- ان حكومة صاحب الجلالة تعتبركم مسؤولين مسؤولية مباشرة عن الاعتداءات . والسلطان الذي يمكن ان يغضب ويحتد لأمور اقل من هذه بكثير ، احتمل غضب القنصل ، وقدر ان حوادث معينة وقعت ، ولم تصل الى علمه . قال للقنصل :

- كل مشكلة ، يا ابن الحلال ، ولها حل ، بس علمنا شنو الي صار .

ازداد القنصل غضباً ، فقد احس انه موضع سخرية نتيجة التجاهل الذي يبيده السلطان ، اذ لا يعقل ان اخبار الخويزة لم تصله ، لكن مثل عادة البدو دائماً : يعرفون كل شيء ، لكنهم يتظاهرون انهم لا يعرفون اي شيء ، بهدف ان يتخبروا الخصم ، ان يجدوا ثغرة في كلامه او مواقفه لكي يبدؤوا الهجوم . القنصل يعرف هذه المعلومة ، وقد اختبرها بنفسه ، ولذلك اعتبر ان السلطان يلعب معه هذه اللعبة .

وصول هاملتون وفنر، وقد تخلل اللقاء في الدقائق الاولى ، الحديث باللغة الانكليزية ، ازال الالتباس وغير الجو .

اعتذر القنصل، بشكل عابر، لأن جلالة السلطان لم تصله بعد أخبار الاعتداءات الخطيرة التي وقعت من قبل قوات ابن مياح على مناطق الحدود وعلى القوافل، وان هذه القوات توغلت الى مسافات كبيرة، والعالم كله لا يتحدث الا في هذا الموضوع . وان بريطانيا واصدقاءها، اذا كانوا قد تحملوا في الماضي، فلم يعودوا قادرين على السكوت .

بدا الذهول على السلطان لسماعه هذه الأخبار. ظل فترة طويلة صامتاً، يهز رأسه وقد ارتسمت امامه ثلاثة وجوه: وجه خزعل والذي يشبه وجه الحصان ، ووجه ابن مياح بتوئه وانفه الحاد والذي يشبه الذئب ، أما وجه عمير ، والذي كان يتداخل مع الوجهين السابقين ، فكان يتغير كل لحظة ، ولم يستطع ان يتصوره بدقة .

ظل السلطان مطرقاً مفكراً مهموماً، والعادة أن لا أحد يستطيع ان يكسر الصمت، إلا اذا سمح . والقنصل الذي تضايق من هذا الصمت، اعتبر أن اللعبة البدوية الماكرة لا تزال هي المسيطرة، وان اخذت في الطور الجديد شكلاً مختلفاً .

قال لهاملتون شيئاً باللغة الانكليزية ، رد عليه هاملتون بكلمة او اثنتين . تنحنح وخاطب السلطان :

- جئت الى هنا ، يا صاحب الجلالة ، لكي اقدم احتجاجاً باسم حكومتي على هذه الاعتداءات ، ولكي ابلغكم ايضاً ان حكومة صاحب الجلالة تحتفظ لنفسها باتخاذ الاجراءات التي تراها مناسبة ، بما في ذلك الرد العسكري .

فتح السلطان عينيه ، وعبرت نظرتة ، وقد تطلع الى الذين حوله ، عن الغضب والتوسل معاً ، وبدا انه غير قادر على الرد . تابع رايان سميث :

- وقد طلبت مني حكومتي ان ابلغها بالاجراءات التي سوف يتخذها صاحب الجلالة .

قال هاملتون :

- هل تسمح لي يا صاحب الجلالة ؟

رد السلطان بانفعال وحزن :

- انت يا صاحب معنا من يوم ما تركنا موران ، وتعرف كل شي ، وحنا ، الله الوكيل ، لا علم ولا خبر ، بس هذا الكلب ابن الكلب ، ابن مياح يريد يخربها بينا وبينكم ، ولازم هو اللي شعلها .

قال هاملتون :

- استطيع ان اشهد واؤكد ان حكومة صاحب الجلالة السلطان ليست على معرفة أو صلة بالحوادث التي يشير اليها سعادة القنصل ، واذا وقعت بعض الحوادث فلا بد أن تكون بفعل عناصر محلية موجودة هناك ، وربما تكون نتيجة استفزاز الطرفين . هذا اولاً ؛ وثانياً أن العلاقة التي تربط الحكومتين من القوة والمتانة الى درجة تؤهلها لأن يعالجا حوادث مثل التي تشير اليها ، ولا تقتضي بالتالي ان تتعرض العلاقات بين الحكومتين الى التوتر او سوء التفاهم .

بدا السلطان مرتاحاً الى اقصى حد . تحرك في مجلسه اكثر من مرة ، وكأنه يريد ان يقترب من هاملتون ، أما نظراته فقد كانت مليئة بالامتان . كان يفكر ان يقول شيئاً مثل الذي قاله هاملتون ، قد لا يكون بهذا الوضوح او بهذا الترتيب ، لكن هذا ما يعنيه .

تابع هاملتون :

- أما بالنسبة للاجراءات اللاحقة ، فأعتقد ان احدى القضايا التي ستكون لها الاولوية في المعالجة هي هذه القضية ، وسوف يتخذ جلالته الاجراءات الحازمة لمعاقبة المسؤولين اولاً ، ولعدم تكرار مثل هذه الحوادث في المستقبل .
- تمام ، يا صاحب ، هذا الي ببالنا وهذا الي راح نسويه ، ولو قدرنا اليوم قبل باكر .

هكذا رد السلطان بانفعال ، ثم أضاف بعد أن تلفت :

- وحنا ، انشاء الله ، متحركين بين يوم والثاني ، ولا بد اصل الخويزة بنفسي ،

وانت طمّن الجماعة هناك ، وسلم لنا عليهم كثير السلام ، وقل لهم : طويل العمر تأثر واجد ، وهذا اللي صار ما يهون عليه ، ولا يسمح به . أما المستقبل ، فمثل ما قال صاحب .

وهذه المحطة بين دارة ودريم المعروفة بمياهها الدافئة ، والموصوفة لامراض كثيرة ، كانت رغبة العجرمي منذ بداية الرحلة ، فالأوجاع التي تعاوده ، بين فترة واخرى ، خاصة في الركبتين والورك الأيسر ، تقعه أياماً واسابيع ، وقد ذكر له الكثيرون ، وبعضهم جربها بنفسه ، « ان غطستين بهذا الماي ، والثالثة يطلع البني آدم سليم معافى ، ما هو بس كذا يحس بالنشاط والقوة » . واكد له اثنان من المسنين زارا هذه المياه معاً ، انها كانا مقعدين ، وكانا يشكوان من آلام مبرحة بالظهر والسيقان ، اضافة الى المفاصل كلها ، وما كادا يقضيان اسبوعاً واحداً حتى عادا شابين . واسر له احدهما انه لم يصبر اكثر من شهر حتى تزوج من جديد !

والسلطان حين اختار هذا المكان ، كان يريد ادخال السرور على قلب العجرمي ، كما انه كان بحاجة ماسة للراحة والتفكير بما يجب ان يفعله في المرحلة القادمة . الآن ، بعد هذه الزيارة ، لم يستبد به القلق فقط ، وانما اصبح انساناً آخر : امتلاً بالغضب والحدة ، واعتكف في خيمته لا يريد ان يرى أحداً . أما الشتائم التي كالمها لرجاله في الحويزة ، فقد سمعها الكثيرون .

العجرمي نتيجة الاخبار والجو الذي رافقها لا يعرف هل يبدأ العلاج او يرجئه ، خاصة وان سخونة الماء ازعجته بعد ان ذهب في اليوم الأول ، فاكتفى بأن شتم عن ساقيه ، حتى الركبتين ، ودلاهما في الماء ، لكن وهو يحاول النهوض ، بعد دقائق ، انزلق ووقع على جانبه الأيمن ، فأصبح الألم الذي يعاني منه ليس مقصوراً على جانب واحد ، وانما امتد وشمل الجانبين !

قال هاملتون لغفر بعد ان انقضت الليلة الأولى ، وانقضى اليوم الذي يليها والسلطان معتكف :

- السياسة ، يا صاحب السمو ، لا تكون بالهروب منها او بالغضب ، يجب ان تواجه المشاكل مهما كانت قاسية وصعبة ، وان نتخذ قرارات مهما كانت مؤلمة .

وفتر الذي هز رأسه موافقاً ، قال كأنه يخاطب نفسه :

- جماعتنا يتصرفون بالسياسة مثل ما يتصرفون بالزواج والسفر: يلزم يبيتون استخارة ويتنظرون الخميس، يوم السعد!

بدت الفكرة طريقة هاملتون ، واستغرب انه لم يتنبه لتصرفات مثل هذه ، وبعد ان استفسر من فتر عن أيام السعد بالنسبة للزواج والسفر والحرب والبيع والشراء ، قال في محاولة لثلا يجرح :

- معظم الشعوب العريقة لها معتقداتها وطقوسها واساطيرها ، ولا يعرف الانسان كيف نشأت، أو دلالاتها الحقيقية الدقيقة!

ولم يتأخر الاثنان في الاستئذان للدخول على السلطان وبحث الأمور معه .

قال هاملتون بعد مقدمات ومجاملات طويلة :

- كنت اتمنى ، يا صاحب الجلالة ان تبقى فترة في العوالي ، لكن يبدو ان الظروف تستضطرك للسفر ، ولا بد ان اشير هنا ان الاوضاع خلال الشهور الأربعة ، اثناء وجودكم هنا، قد تحسنت كثيراً ، وربما لو اتيح لكم أن تبقىوا فترة أطول لاستطاع جلالتم ان يصفي ما تبقى لابن ماضي من رجال ونفوذ. . .

زفر السلطان مثل خنزير ، وتطلع الى فتر، وكأنه يقول له دون كلمات : « شفت اخوك خزعل ؟ »

قال هاملتون بنفس النبرة :

- ارى ، يا صاحب الجلالة ، ان نستفيد مما تحقق ، من خلال وجودكم ، وان يتابع صاحب السمو الامير فتر المهمة نيابة عنكم ، الى ان تفرغوا من امر الخويزة .

قال فتر بانفعال :

- انا رجلي على رجل ابوي ، وما يصير يروح يحارب ، يروح للخويزة ، وانا هنا بالقي والمي !

ضحك السلطان بحزن وهز رأسه عدة مرات ، وقال بعد فترة صمت :

- الحرب يا وليدي بكل مكان ، وما هي بس بالتفك ، واللي يقوله الصاحب عين الصواب .

- وانت تروح وحدك للحويزة ؟

- لا يا وليدي ، اللي يروحون كثر ، ويجوز ما اروح ، يجوز أطرش جماعة اعتمد عليهم ، ويجوز اخوك خزل كفانا شر هالاخبار .

وضحك السلطان ضحكة صغيرة وسأل :

- وخالك يا وليدي ، شلون نعامله ؟ شلون نتعامل معه ؟ هذا حيرنا وما لقينا طريقة نتفاهم معه ، يركض من هنا هنا يسبب ويصيح ...

رد فتر بانفعال :

- الدولة ، يابوبه ، اكبر مني ومن خالي ، ويلزم عمير يمك حده وما يتعداه ، واذا زاد عن الحد : لا والله ، هذا ما يصير ، وما نسكت ، لا عليه ولا على غيره !

وفي هذه الليلة تم الاتفاق على ان يكون فتر نائباً للسلطان في العوالي ، وان يبقى معه هاملتون وعدد من المستشارين ، وان يسافر السلطان خلال يومين ، واقصى حد ثلاثة ايام ، من اجل معالجة امور الحويزة .

قال هاملتون في نهاية اللقاء :

- واذا اقتضى الأمر ان اسافر لبريطانيا لمعالجة بعض القضايا ، فأنا جاهز ، يا صاحب الجلالة ، ارجو فقط اشعاري ، مع رسالة من جلالتك توضحون لي التفاصيل ، وسوف نتوصل الى نتائج مناسبة .

الشيخ العجرمي ، رغم الآلام ، لا زال يحن الى غطستين او ثلاث في المياه المعدنية ، أما حين ابلغه السلطان انه سيعود الى موران بالسيارة ، فقد قلب شفته السفلى ، فبات كأنها ملصوقة في وجهه ، وكان معنى ذلك اكثر من الرفض ، كان معناه الاستنكار .

وتأخر السلطان يوماً آخر ، لكي يصادف سفره يوم الاربعاء ! وسافرت معه

نجمة، وعدد كبير من الحرس والمرافقين . أما الشيخ العجرمي ، فقد اختار الاشخاص الذين سيقون معه ، واختار الركائب التي يفضلها ، ونقل خيمته من المكان الذي كانت فيه الى مكان أقرب من نبع المياه المعدنية في عين دامة .

لشد ما تغير قصر الروض خلال الفترة التي قضهاها السلطان في العوالي :
الإنسجام ، او الاتفاق الضمني ، الذي قام بين نسائه ، في الموقف تجاه نجمة ،
انهار قبل ان ينقضي الاسبوع الأول على السفر؛ بل اكثر من ذلك ، علاقات
التعايش التي كانت سائدة في فترات سابقة تحولت الى عداء مكشوف ، والى اشاعات
واتهامات لا تهدأ ولا تنتهي ؛ الرضا او الصمت الذي كان يميز بعض النساء او بعض
العلاقات ، اصبح تحدياً مباشراً ، مع استعداد لا يخفى للعراك والتصادم .

فضة ، ام راكان ، التي شعرت بالمدلة والانكسار لأنها فشلت في اقناع السلطان
باقامة احتفالات البلوغ ، وقد هيأت من اجل ذلك الخيول والمغنين ، واشاعت في
القصر كله ان الاحتفال الذي سيقام لراكان في القصر سوف تتحدث عنه موران
لسنين وسنين ، وفشلت ايضاً في ان تكون الزوجة التي ترافقه في سفرة العوالي ، ما
لبثت ان حوّلت هذا الانكسار والفشل الى عنف وتحديات ، اذ لم تتوقف يوماً واحداً
عن تحريض العبيد والخصيان والخدم من اجل فرض السيطرة ، باعتبارها تحتل
الجناح الأوسط في القصر ، ولأنها لا تزال اهم ، وربما احب ، الزوجات للسلطان ،
وهي ام الابن الأكبر الموجود حالياً في القصر ، وكانت تريد بكل الوسائل ان تفرض
ارادتها وتخضع الجميع .

وراكان نفسه ، الذي كان اقرب الى الخوف ، وقد ظل لأسابيع قليلة سابقة
يتخوف من الظهور أو المشاركة في مجلس الرجال ، بسبب صغر سنه ، أو لأنه
لا يعرف ما يجب أن يقول ، تحول الى التقيض بين يوم وليلة : الصوت
الخافت الخجول اصبح عالياً والخوف اصبح تحدياً ، وقد أثار ذلك استغراب

الكثيرين وتساؤلهم . وإذا كان هذا الخوف قد عزاه خدم فضة الى الاحترام وحسن التربية ، ويعزوه غيرهم الى الخجل ، فإن الأكثر معرفة يؤكدون أن راكان لم يبدأ الكلام الا في سن متأخرة ، ربما بعد الرابعة او الخامسة . والسبب موضع اختلاف أيضاً . فالذين يحبونه يقولون ان مربيته الصومالية هي السبب ، نتيجة تعلقه بها ، وعدم انسجامه مع غيرها ، لذا تأخر في تعلم العربية . ويؤكد هؤلاء أنه كان يعرف الصومالية كأحد ابنائها ، ولكن حين فصل عنها نسي هذه اللغة ! أما الذين يكرهون فضة ، أو يعادونها ، فإن لهم رأياً آخر : حين تأخر راكان في الكلام ، او على الأقل في ترديد بعض الأصوات ، اخذت فضة تضربه ضرباً مبرحاً ، وكرد فعل لهذه المعاملة فقد صام ، وكادت تيأس منه ، وهذا ما دفعها لأن تنجب ولداً ثانياً ، ثم ثالثاً بسرعة ، وان تبذل معهم جهداً خاصاً من اجل ان يتكلموا ، لكي تثبت للسلطان ان اولادها لا يشبهون خالهم ، دخل الله ، الأخرس ، رداً على اشارة السلطان في تفسير وضع راكان وقد جرحتها هذه الاشارة !

لسبب من الأسباب اذن ظل راكان بين اخوته الأكبر والأصغر ، الصامت الأعظم ، الى أن حلت عقدة لسانه . قيل ان زنجياً اعور هو الذي حلّها ، اذ بعد ان تفل في حلقه سبع مرات ، تكلم . اخواله يقولون ان صمت الصغر افاده في الكبير ، فقد تعلم الكثير ، وصرف طاقته كلها لكي يسمع . أما الذين يكرهونه فيقولون ان لسانه لا يزال مربوطاً ، ويؤكدون ان الجني المكلف بهذه المهمة ما زال في داخله ، ورغم الدوخة التي اصيب بها هذا الجني ، نتيجة رقية الساحر الأسود ، إلا انه يعاود الصحو والظهور بين فترة واخرى ، ويستدلون على ذلك ان راكان يحمل معه باستمرار نفاخة ، وكثيراً ما كان ينفث منها في حلقه ، اذ ضاق نفسه ، او اصابه السعال ، لكي ينوّم الجني ويحلّ لسانه !

الآن ، بعد غياب السلطان ، وباعتبار ان راكان اكبر الأخوة ، فقد اصبح سيد قصر الروض .

ما كادت بضعة أسابيع تنقضي على سفر ابيه ، حتى امتلأ القصر فجأة بالأخبار والاشاعات ان أمراً خطيراً وقع . لذلك عم الخوف ورافقه التحسب والانتظار ، وفرضت حراسات مشددة ، كما جرت عمليات تفتيش لعدد من اجنحة القصر ، وبدأت تسري الهمسات ان الرجال الثلاثة الذين جاءوا قبل

شهور، بحجة انهم هاربون من ابن ماضي، وقد وافق السلطان على رعايتهم وتقديم المساعدة لهم، قد قبض عليهم لأنهم حاولوا اغتيال راكان. واكدت الاشاعات ان السلطان ذاته كان هدفاً للاغتيال، لكن تغييه عن القصر، ثم سفره بعد ذلك، حالاً دون تنفيذ هذه المهمة، فاستعاضوا عن السلطان براكان، وسرت اشاعات أيضاً ان للرجال الثلاثة شركاء عديدين بين خدم القصر.

قصة الاغتيال إذن، والتي ظلت مجهولة التفاصيل، غيرت قصر الروض، وغيرت راكان بالذات.

كان يقف في ياحة المجلس، وحوله حرسه الخاص وعدد كبير من العبيد والخصيان، والرجال الثلاثة مطروحين على الارض، وقد ربطت ايديهم الى خلف ظهورهم، ويصرخ :

- ها... تعترفون ام لا ؟

ولأن الرجال لا يريدون ان يعترفوا، أو ليس لديهم ما يعترفون به، وحين يتطلعون اليه، الى الذين حوله، ويصمتون، يصيح بقوة :

- اذا ما تريدون تعترفون هالحين نشوف .

ويلتفت الى رجاله ويحزم يصدر اوامره :

- طقوهم وكسروا عظامهم .

ثلاثة ايام والعمليات ذاتها تتكرر . في اليوم الرابع، وبعد ان توقف التعذيب، قيل انهم اعترفوا . وقيل انهم اصبحوا بين الحياة والموت، ولم يعودوا قادرين على احتمال الضرب اكثر من ذلك قيل انهم اعترفوا بشيء واحد : «بعودة طويل العمر، السلطان، نقول كل شيء» ولذلك وضعوا في سجن القصر، وشددت الحراسة عليهم!

قبل ان ينقضي اسبوعان او ثلاثة على ذلك وصل عدد من اقرباء فضة : وصل اثنان من اخوتها، وأولادهم، ووصل أيضاً الكثيرون من اقرباء اقل درجة، مع رجالهم وحرسهم، مما اقتضى اجراء تبديلات في إشغال القصر، سواء الاجنحة الفارغة، او تلك التي كانت الضرورات الأمنية تقتضي ذلك. ورغم أن دغيم

السرهود احتج بشدة، نتيجة احتجاج الآخرين، فلن حالة الارهاب التي فرضت، وما رافقها من تعديات وكلمات كبيرة، خاصة من الوافدين الجدد، والذين اصبحوا حول راكان مثل السوار، اضطرت الكثيرين الى الاذعان او السكوت.

ابن العريفان الذي تخوف كثيراً ، او بالأحرى توجس ، من حالة الهدوء والانسجام التي رافقت زواج السلطان من بنت العجمي ، قال لناهي بعد القبض على الثلاثة :

- اسمع يا ناهي : من قبل قالوا : اذا ردت نذل رجال سلط عليه حريمة ، واذا ردت نذل حريمة سلط عليها العجيان ، واذا ردت تخلص من العجيان خليك بعيد عنهم !

وناهي الذي كان ضجراً نزقاً لا يعرف لمن يوجه لومه ، فبعد ان قرر مغادرة القصر، اضطرته علاقته مع ابن العريفان، اضافة الى وعود السلطان، ان يبقى . الآن لا يعرف هل يراقب ويضحك ام يحزم امتعته ويرحل .

قال لابن العريفان :

- يا ابو جازي سالتنا طويلاً ، وظني ما نقدر نكون بعيدين ، والي اشوفه : بلبلة ما بها ضوقمر ، نشيل ونرحل ، لان الجماعة اذا بلشوا ببعضهم هالحين ، باكر يدورون هنا هنا حتى يلقوا من يتعاركون معه ، وحنابوجه الطوب ، وخاف تقع بروسنا !

- لوكانوا ، يا ناهي ، ثلاثة او اربعة ، ويمكن يتفاهمون ، لقلت لك : يا الله بينا ، خلنا نرحل ، بس هذول سوالفهم كثيرة وما تنتهي ، وظني ان الدور ما يلحقنا ، إلا اذا تحرشنا ، وقلنا يصير وما يصير ، عندها يصيرون علينا مثل الذباب ، فخلنا بعيدين نشوف ونضحك !

- يا ابن الحلال ، يا ابو جازي ، والله لولا انك معرت بي لكننت انا هالحين بمصر ،

لكن قلبي ما يطاوعني اترك خوي وامشي . . .

وبعد قليل وبحزن

- واذا تسمع شورى نترك الحمل على ابن السرهود ونسرحب ونرحل ، نمشي دون ما يحس احد!

- لكن هذا شبيه ، وما عنده غير ختمه ، يا ناهي ، فياذا تركناه ، مثل الجراد ياكلونه . . .

ضحك بصخب ، وبعد قليل :

- لكن انا وانت ، يا ناهي ، ماخذين الناس على قدر عقولهم : يقولون كلمة وبعد ساعة ينسونها ، وحنا ما نسوي الا اللي بروسنا ، نقول لهم : حلت البركة ، وما يخالف ، واذا ما هو اليوم اللي عقبه ، واذا غابوا عنا ، اذا مر يوم والثاني تتغير الأمور .

- قلت لك نوبة ، يا ابو جازي : حنا وحدنا نطلع بسواد الوجه ، هذول يعصفون كيف يتفاهمون ، وياكر يقولون : «اولاد الحرام الغرب هم السبب ، وحنا ولا شي بينا» ، ويصبرون مثل السمن والعسل!

- ابد ، يا ناهي ، هذول مثل العقارب ، اذا ما تقربت منهم أنت بألف خير ، وانت تعرف : العقرب يلدغ نفسه اذا ما لقي احد يلدغه!

- ما يخالف ، بس الأيام بينا وتشوف .

- وكل الله ، يا رجال !

لو ان الأمور اقتصرت على الرجال لاخذت شكلاً عفيفاً وسريعاً . ولو ان نساء السلطان الأخريات ظلن بعيدات او متفرجات ، لاستطاعت فضة ان تفرض ما تريد ، لكن كل امرأة لديها القدرة على المقاومة حتى اللحظة الأخيرة ، وبأساليبها الخاصة والمبتكرة .

اول النساء التي وقفت في وجه فضة قريبتها : العنود .

فهذه المرأة التي ملأت قصر الروض خلال فترة معينة ، ما لبثت ان اختفت . حملت من السلطان ، وفي شهرها الثالث أو الرابع غادرت القصر ، لتقيم عند اهله ، فلما عادت بعد سبعة شهور ، كانت تحمل على صدرها طفلاً ، وقد اختارت له بنفسها الاسم ، سمته جاسر . ورغم فرح السلطان بوصول خبر الولد أولاً ، ثم وهو يراه بعد ذلك ، فقد ظلت العنود في القصر اقل من سنة ، حملت خلالها وارتملت من جديد الى اهله . وفي هذه الرحلة التي طالت ، انجبت بنتاً ، وايضاً سمته الشفاء ، لكنها ظلت بعيدة فترة كافية ، وحين جاءت من جديد مع ولديها ، كانت تريد ان تحمل وترجع ، لكن السلطان كان في الحويضة ، وقد طالقت اقامته . وطالت اقامة العنود في القصر . وفضة اذا كانت تريد ان تبقى بعيدة ، فقد حرصت ان تبقى على يد معها ، لكن الخدم ، رجالاً ونساءً ، لا يتركون شيئاً يسير كما يرغب السادة ، فمن خلال الثرثرة والاشاعات ، والاخبار التي تنتقل ، وكثيراً ما يطلب من يرويها لمن يسمعه ان يقيها سرّاً ، فقد قال الخدم ان العنود التي تزوجت السلطان مضطرة ، كانت تحب احد اقربائها ، وهذا ما كان يحملها على ان ترتحل الى هناك ، وان تبقى فترة طويلة !

كان الكثير مما يشاع يصل . صحيح انه يصل بعد فترة ، ومحرفاً ، لكنه يصل . والعنود التي كانت تنتظر الوقت المناسب لكي ترد اللطمة ، وجاءت مرات ما بين حملة الفيض ، وسفريات السلطان الى اماكن عديدة ، واستطاعت ان تحمل ، لكن لأن هذه الفترة اختلطت فيها الأمور ، وتضاربت الأوقات ، متى كانت العنود ، ومتى كان السلطان ، ولأنها رجعت بولد بعد شهور ، فقد اصبحت اقوال الخدم على السنة بعض النسوة ، خاصة حين جشن لكي يهنن ويباركن بالمولود الجديد . كانت نظرات النساء تحمل تساؤلاً : هل هو من السلطان أم من غيره ؟ والعنود التي تعرف كيف تفهم النظرات ، وكيف تفسرها ، كانت تريد الوقت المناسب لكي ترد .

قصر الروض ، رغم انه امتد واتسع ، فقد ظل من يسكن القسم الأوسط منه ، اكثر أهمية ، وبالتالي تحدد درجة العلاقة بينه وبين السلطان . ولأن العنود احتلت الجزء الجنوبي من هذا القسم ويعتبر من افضلها ، ولم يطلب منها السلطان ان تتخلى عنه ، ولم تتخل هي ، رغم غيابها ، فقد ظلت بنظر نفسها وينظر الآخرين ، احدى النساء المفضلات عند السلطان .

خلال فترة « الاغتيال » احتل راكان هذا الجناح ، بناء لطلب امه . لم يكتف بذلك ، طرد سكانه الى اقصى الأبنية الغربية في القصر . وكانت الحجة ان خطة القتل اقتحام القصر ، خاصة المكان الذي كان فيه ، ولذلك لا بد من تشديد الحراسة .

العنود عادت في هذه الفترة بالذات ، كانت خالية البال ان الجناح المخصص لها قد تم اخلاؤه ، ما كادت تعرف حتى انفجر الخلاف الكبير .

ذهبت بنفسها الى القسم الشرقي من القصر ، ورغم انها ظلت قريبة من السور ، تحت اشجار النخيل ، الا انها بعثت عبدها عريمان مع ابنها جاسر ، لكي يستدعيا راكان . ظلت واقفة وهي ترتجف حتى جاء ، قالت له بحزم اقرب الى الالهانة :

- اسمع يا راكان ، من هالحين الى ساعة ، اذا ما لقيت بيتي مثل ما كان اقلب الدنيا على راسك وعلى راس امك .

فوجيء راكان واضطرب حاول ان يستوضح ، او ان يتظاهر بعدم معرفة ما حصل ، قالت له وهي تتحرك :

- قلت لك كلام تفهمه زين ، واذا صارت الفضايح ، فأنت اللي تبغيها ، وتحمل !

قال الذين حضروا هذا المشهد ، والذي لم يستمر الا دقائق قليلة ، ان الاثنين كانا يرتجفان حين انتهت المقابلة ، وانتهى الكلام . وقالوا ايضاً ان الاثنين كانا يشتمان ، رغم ان احداً لم يسمع الآخر ، وان كل واحد اتجه باتجاه مخالف للآخر . لكن لم تمض ساعة ، او اكثر قليلاً ، حتى اعيد الجناح الى ما كان عليه قبل شهور . غادر حرس راكان ، واعيدت الاشياء التي حملت من الجناح . ورغم ان فضة تدخلت وحاولت ان تمنع ، لكن الأمور انتهت كما ارادت العنود .

قالت موزة ، خادمة فضة :

- سيدي راكان ما يحب الشر ، وما احب يزعل عمته ، قال لها اللي تؤمرين به بصير ، وما قدر يتراجع عن كلمته .

ويعد ان تنهد تضيف :

- وعمتي فضة كانت نائمة ، ما عرفت باللي صار ، ولما شافت العنود قالت لها : « وتعرفين ، يا بعد عيني : ابن ماضي دز رجاله للقصر يريد يقتلنا ، لكن ربك سلم ، وراكان الله يسلمه قال : يلزمننا رجال حولنا يحموننا ، لكنه خاف وقال : ما نقدر نتعدي على عمتي ، قلت له : عمتك العنود لو كانت هنا اول من يوافق وهالحين ، وبعد ما تأكدنا واطمنينا ، وبعد ما جت عمتك ، يلزم انك ترجع الأمور مثل ما كانت » .

قالت العنود وتريد الآخرين ان يسمعوا :

- هذا بيتي ، وبيت اولادي ، والسلطان يدري ، وما احد يقدر يشيل حجر ، واذا كان الخصيان تصرفوا هالمره ، المرة الثانية نشيل روسهم ، ويلزم كل واحد يسمع !

هذه الالهانة انتقلت بسرعة في قصر الروض ، وكانت بمثابة تعريض واضح ، لأن فضة لديها من الخصيان اكثر مما لديها من الخدم ، وكان هؤلاء أغلب الاحيان في جناح النساء ، فقد جاء من نقل ان الخصيان لا يقومون بنقل الرسائل بين فضة والسلطان فقط ، وانما لهم اعمال اخرى ، ولم يضيفوا الى ما قالوه شيئاً آخر !

كانت هذه الحادثة بداية لكسر هيبة فضة ونعديها .

وطفة التي كانت غارقة في الحزن ، بسبب مقتل لولوة وهجر السلطان ، ما لبثت ان قالت أشياء كثيرة . وتبعته نسوة اخريات . صحيح ان الكثير لم يقل مباشرة ، لكنه قيل عن طريق الخدم « فضة هي اللي قتلت لولوة ، فبعدها جت هذي المنجمة احترقت الدنيا » هكذا قالت إحدى خادمت وطفة ، وما حصل ان منجمة غجرية جاءت واستقرت في جناح قريب من فضة ، وبدأت تستعمل كل براعاتها في السحر : حضرت للسلطان دواء القوة ، فلم يفد ؛ حضرت دواء المحبة فلم يقربه ، حضرت دواء العين فلم يجد ، وأخيراً قالت لفضة : ما لنا الا دواء كسر العظم ، و حضرت هذا الدواء لكي تتناوله وطفة ، لكن موزة أخطأت حين اكدت ان هذا الدواء للمحبة ، فشرته لولوة وقضت . هكذا رويت قصة نهاية لولوة ، ومما يجعل هذا الرواية مقبولة ان المنجمة غادرت القصر في اليوم التالي ولم يرها او يسمع بها احد بعد ذلك .

أما القصص التي تتطرق الى المغامرات التي تجري بين القسم الأوسط من القصر واجنحة عديدة ، بما فيها اجنحة الخدم والحرس ، وكان الخفيان ابطال هذه القصص ، فإنها من الكثرة والتنوع والطرافة الى درجة ان الكثيرين لا يصدقونها ، او تظهر على وجوههم علامات التساؤل والاستغراب حين يسمعونها ! .

فضة لا ترد على القصص ، ولا تكلف نفسها الظهور ، سواء في الدعوات او الحفلات ، اذ تبقى أغلب الوقت معتصمة بجناحها ، ويستغرب الكثيرون كيف تستطيع ان تلازم الجناح اسابيع متتالية دون ان يراها احد ، ومع ذلك قادرة على الرد هنا وهناك ، واغلب الأحيان ، باحكام ، وبالوقت المناسب . فالمرات التي خدم وطفة الى الضرب كثيرة لدرجة تكاد تتكرر بين يوم وآخر . ودائماً هناك اسباب وجيبة ، بدءاً من النظرات المعادية ، وانتهاء بالسرقة او التحرش بالنساء .

الأيام التي خلعت من الوقائع المثيرة لم تخل من الاشاعات ، او من الأصوات في الليل المتأخر ، وبعض الأحيان اطلاق الرصاص . وحول مثل هذه الحوادث تتعدد التفسيرات والتأويلات الى درجة ان لا احد يعرف حقيقة ما حصل .

ما كادت ثلاث شهور تنقضي على هذا الجحيم ، ويعد أن بعثت موزي

رسولاً لفنر، حتى حزمت امتعتها واستعدت للرحيل. فعلت ذلك بكثير من الخفاء، ومع ذلك لم يبق الخبر سرّاً، وحين تدافعت النسوة لوداعها، كانت فضة احدى الزائرات، لكنها جاءت بمفردها، وتعمدت ان تختار وقتاً لا يكون فيه احد غيرها. لقد فعلت ذلك استثناء، لخشيته ان تنقل موزي للسلطان صورة عن القصر تمسها.

بدت فضة ودودة الى اقصى حد. عبرت عن اسفها، وبحزن ظاهر، لمغادرة موزي، وقالت انها ستبلغ السلطان بكل ما رآته وما سمعته، ولديها الشهود، وأشارت، بشكل غير مباشر، ان من الأفضل ألا يتشوس باله في المرحلة الحالية، لان الاعباء التي تثقله الآن تكفيه. ولم تنس ان تقدم هدية ثمينة لموزي، وقبلتها بحرارة، كما لم تنس قطعة ايضاً!

موزي قبل ان ترحل بساعات قليلة قالت للعنود واحدى قريباتها:

- الله يساعد اليي يعيش هذا القصر، لأن اليي ما يموت يجنّ...

وبعد ذلك، وكأنها تخاطب نفسها:

- وانشاء الله ما اشوفه بعد هاليوم.

ابتسمت العنود بحزن وردت.

- وكلي الله يا بنت الحلال، هذا قصر ابو منصور، وانشاء الله بعودته ترد الأمور مثل ما كانت واحسن.

- الواحد يتمنى، يا خالة، بس ظني ان هذا ابد ما يصير، لأن النخر وصل فوق فوق وعسى ان الله يسلم!

قالت العنود برجاء:

- واذا لي طلب عندك يا موزي، انك تقولي لطويل العمر: غيتك طالت، والقصر دون اصحابه ما يسوى، والدنيا بعدك غير دنيا...

وبعد قليل وكأنها تخاطب نفسها: وكل ما جا يوم قبل احسن وآمن!

بين عودة امي زهوة من الرحبية، حيث بقيت هناك خمسة شهور، وقد اضطرت

لقضاء الفترة بسبب الكسر الذي أصاب رجلها، وبين عودة السلطان الى موران ،
لم تتجاوز الأيام .

فالشیخة التي وصلت قبل ايام وكانت تستند الى عكاز وكثف تهاني ، وبدت
مترهلة متعبة ، وما كادت تستقر في قصر الروض ، حتى بدأت تصلها الوفود
والاخبار ، للسلام ، ولإعلامها بما حصل خلال غيابها . واذا كانت فضّلت ان تبقى
مستمعة ، لكي تعرف بالدقة الكاملة ما حصل ، فقد بدت متأثرة وأقرب الى
الغضب . ورغم ان فضة كانت اول النساء التي زارتها ، فقد احست ان هذه
السرعة في الزيارة، ليست من عاداتها، ثم ما تخللها من المجاملات والمحبّة
الفياضة ، جعلتها تشك بالدوافع ، وتميل الى تصديق ما قيل لها بعد ذلك من النساء
الأخريات ، ثم من الخدم ، وعن طريق تهاني ايضاً !

قالت الشیخة للسلطان :

- . . . وانت تعرف ، يا ابو منصور : الله يمتحن عباده ، وانا كنت ناوية ارجع بعد
جمعة او ثنتين ، لكن رب العالمين قرمني ، انكسرت رجلي وبركت ، وظني انك
انت هنا ، بموران ، ما ظني انك سافرت . بالي مرتاح ، وقلت : الى ان يفرجها
رب العالمين واتعافى . . .

تتوقف ، تجر نفساً عميقاً ، ثم تابعت :

- انت غايب ، يا طويل العمر ، وانا غايبة ، واتاري هذولا الحريمات ينراد لهن
رسن وفرك اذن ، لأن ما سمعته ما يرفع الراس .

ضحكت بحزن ، ثم تابعت :

- عندك هموم تهدّ جبال يا ابو منصور ، وما اريد ازيد همومك ، لكن ، مثل ما
قالوا : النبي آدم ما يترك ، ولا يروح بعيد ، الا اذا كان بيته وحریمه بأمان . . .

توقفت قليلاً ، هزت رأسها عدة مرات ثم اضافت :

- ما اريدك تصدق كل شي ، وانا نفسي ما صدقت ، لكن اللي صار بغيبتنا ما لازم
نسكت عليه . . .

غيرت جلستها ، اقتربت قليلاً ، وجاء صوتها اقرب الى الهمس :

- وانت تعرف ، يا ابو منصور ، هؤلاء النساء اذا انتركن الله واكبر ، ما ينقدر عليهن ، وكل ما كان الواحد آدمي ، وما يريد الشر ، يركبن ظهره ويطوطحن ، وهذا الي صار . واريد منك تسمع السوالف الي صارت بغيتنا . . .

زفر السلطان ، وبعد قليل ، وبصوت حزين :

- والله النبي آدم احتار : هنا او هنا ، مع اعدائه او مع اصحابه واهل بيته .

ولم ينتظر السلطان لسمع كل شيء ، او ليجمع الوقائع والشهود . فقد بدأ :

جمع ثمانية من الخصيان ، وخمسة من الخدم وتسعة من العبيد ، وفي يوم واحد امر بقتلهم . اخذوا الى نهاية الجهة الغربية ، غير بعيد عن اسطبل الخيول ، شدوا الى اشجار النخيل ، والى اوتاد كانت في وقت سابق مرابط للجمال ، واطلق عليهم الرصاص . لقد تم ذلك عند الضحى ، في اليوم الخامس من عودة السلطان ، ودفنوا جميعاً في حفرة واحدة .

وكان قد امر قبل ذلك ان يحضر جميع نسائه ، حضرن ، كن لأول مرة يشاهدنه منذ عودته من السفر ، جثن يعواطف متباينة اشد التباين : الشوق والخوف ورغبة الحديث . قال عرفان الهجرس بعد سنين عديدة :

- قبل صلاة الصبح بساعة او اكثر ، كنت غرقان بالنوم ، ما اشوف الا وهو فوق راسي : قم يا عرفان . والله فزّت ، قمت . قال : تعال ، مشى ومشيت وراه . كنا وحدنا بالمجلس . لا احد الا الحرس ، والحرس بعيدين . قال لي : معك ساعة واحدة يا عرفان ، ما تترك احد نايم ، والقصر تفرغه من الجماعة الي هم فيه ، كل واحدة تلقى لهاخشة وتقول لها هذا مكانك ، وهذا امر ابو منصور . وما اريد حتى كلمة ، حتى قولة نعم . تخلص وترجع ، والي يقول لا تضربه ، تدقه دقة زينة ، وتكفيه على وجهه ، وتقول : هذا امر ابو منصور . وبعدها تحبيني بهذا المكان . والله ما كذبت خبر: وصلت قصره ، صحت بأعلى صوتي : يا اهل الدار ، معكم ساعة ، وهذا امر السلطان ، وما احد يبقى بمكانه . الناس قاموا خافين ، بين مصدقين ومكذبين ، وبدون طول سالفة : واحدة تصرخ لا بد

اشوف طويل العمر . الثانية : هذا بيتي وبيت أولادي . الثالثة رح وخل
طويل العمر يحي بنفسه . والأولاد بين يفركون بعيونهم اويكون ، المهم ، بعد
ان تأكدوا ، وقلت لهم : اللي ما يشيل برضاه يشيل غصب ، والعصا حاضرة .
وأنا نفسي أقول هذا الكلام وماني مصدق ، وكأن بيطني واحد ثاني اللي يحكي
ويقول ، لكن عيون ابو منصور وهي تقدح شرار خلتي اسوي اللي ما يتسوى . ما
مضت ساعة زمان الا وكان القصر خالي . لما رجعت كانت الشمس توها
طالعة . كان طويل العمر ومعه ابن عباد وعبدالله البخيت . اعطاني وريقة بكبر
راحة اليد ، وعليها اسماء ، قال لي : تأخذ عشرة من الحرس تجيبهم ونجي .
والله سقتهم مثل الغنم . تطلع اليهم ابو منصور ، رازهم من فوق لتحت وقال :
خذهم عند الانطبل وانتظر .

بعد ساعة زمان بعث واحد : اربطهم وانتظر . ربطناهم . وما مضت ساعة
الا واشوف يوم القيامة : ابو منصور ومعه كل حريمه ، ومعه عشرة او اكثر من
حرسه الخاص . وبعد ما وصل قال : هذا اليوم ما احد ينساه بعمره .
وبعد ما اسرّ بشي لمهيوب ، التفت الى النساء ، وكان قد طلب منهن الوقوف
عند نقطة الحراسة الغربية . قال ، وخرج صوته حاداً : هالحين يلزم تبخرن
زين . وخلال دقائق انتهى كل شيء : اطلق الرصاص على ثمانية من الخصيان
 وخمسة من الخدم وتسعة من العبيد .

لقد جرى كل ذلك بسرعة ، وبصمت ، لم يكن يسمع خلاله صوت انفاس
الذين كانوا يراقبون المشهد ولا يصدقون عيونهم . وفي مكان غير بعيد ، في
حفرة كانت تذيب على اطرافها الجمال ، القيت الجثث ثم اهيل عليها التراب ،
وانتهى هذا المشهد كله .

وفي القصر ، في القسم الذي أخلي من فضة والعنود وسهيلة ، وفي القاعة الكبيرة
السفلى ، حيث كان السلطان يقيم بعض الولائم الخاصة ، طلب من نسائه جميعاً أن
يحضرن .

بعد شهور طويلة ، كتب رافت شيخ الصاغة في مذكراته : « يوم الثلاثاء ،
السابع من شهر ربيع ثاني ، من السنة الماضية ، يوم مشهود في موران ، يوم الدم
والخوف ، لأنه كان يوم الموت في قصر الروض . فقد ذكر لي من اتق بهم ان السلطان

امر باعدام اثنين وعشرين رجلاً من خدمه وعبيده ، بسبب ما نقل اليه عن الأخطاء التي ارتكبوها اثناء غيابه في العوالي . طبعي لا يمكن التحقق من صحة الاتهامات التي وجهت اليهم ، لأنه لم تجر اية محاكمات او حتى تحقيقات ، فخلال فترة قصيرة جمع هؤلاء الرجال واطلق عليهم النار . وقيل ان نساء السلطان حضرن تنفيذ هذا الحكم ، بناء لطلب السلطان نفسه ! أما بعد ذلك فقد قيل لي ان السلطان ارغم نساته على ان يلتهمن مقادير كبيرة من الملح والفلفل ، وقد دعاهن للغداء على مائدته ، وحين رفضت احدى النساء طلب من حرسه الخاص ضربها ، وقد تسببت هذه القضية في حالات مرضية اطلعت شخصياً على قسم منها ، علماً بأن الطيبة الانكليزية المكلفة بالاشراف الصحي على نساء القصر ذكرت لي ان الامراض التي عاجلتها ، وان كان معظمها متعلقاً بالمعدة ، إلا انها تشك ان تكون كميات الملح او الفلفل التي قيل ان السلطان ارغم نساءه على تناولها ، كانت السبب . لأن ذلك ترافق مع اعراض اخرى . وهذه الحالة اذا كانت تتسم بالقسوة والغرابة ، فإنها تدل على احدى طرق السلطان في التصرف .

أما حقيقة ما حصل في ذلك الثلاثاء ، فلم يعرف على وجه اليقين ، لأن الاخبار التي لم تغادر القصر خلال اليوم الاول والثاني ، ما لبثت ان اخذت اشكالاً واسباباً لا حصر لها . فمحاولة الاغتيال التي ذكر ان راكان تعرض لها ، قيل انها السبب فيما جرى . والذين يؤكدون هذه الرواية يستندون الى اعترافات الرجال الثلاثة ، وقيل انهم لم يدلوا بها الا بعد ان اعطاهم السلطان الامان ، فاعترفوا على الخدم والعبيد الذين كانت لهم علاقة بابن ماضي ، وهؤلاء الذين تم اعدامهم . وقيل ان الأمر متعلق بقضية اسبق من ذلك ، وهي قضية مقتل لولو ، وقيل ان وطفة او ربما السلطان كان المهدف ، ولهذا انتقم السلطان ليعطي درساً للذين يعملون معه ، خاصة في القصر . وما زاد في تصديق هذه الرواية ان اغلب الخصيان الذين اعدموا كانوا من خصيان فضة ، وما يؤكد هذه الرواية ايضاً الأمر الذي اصدره السلطان باخلاء القسم الذي كانت تشغله في القصر .

وغير هاتين الروایتين روايات كثيرة حول اخطاء بالغة الحساسية بالنسبة لعدد من نساء السلطان او الخادومات والمريبات . وهذه الروايات ظلت تروى بتكتم شديد ، وتختلف من واحد لآخر ، وما ساعد على قبولها ، او على الأقل قبول عدد منها ، ان

زيجات سريعة تم ترتيبها بين بعض الخادومات والمربيات وعدد من العاملين في القصر ، خاصة وان ولادات عديدة قد تمت على يد وريدة ، وقد اثار استغرابها ان اطفالاً سوداً ولدوا لآباء وامهات بيض او العكس . وقد دعا هذا الى اعادة تذكر الكثير من القصص التي كادت تغيب وتنسى في خضم الاحداث التي لم تتوقف يوماً واحداً في قصر الروض !

واذا كان الخدم والعبيد هم الذين عادة ينقلون الأخبار ، فقد اصابوا بالخرس هذه المرة ، وظلوا كذلك اسابيع وبعضهم ظل شهوراً لا يصدق ما حصل . اسي زهوة التي غابت فترة طويلة ، وكادت تنسى ، رجعت بعد هذه الشهور ، وبعدما حصل في يوم الثلاثاء ، قوية متجبرة الى درجة تثير الرعب . فقد تأكد الجميع انها وراء كل ما حصل . واصبحت في هذه الفترة ، اذا مشت في القصر ، او اذا تطلعت لانسان ، تجعله يرتجف ، بمن فيهم نساء السلطان بالذات . أما العكاز الذي كانت تستعين به في فترة النقاها فقد اصبح ملازماً لها بصورة دائمة ، وأخذت تستعمله استعمالات شتى ، حتى تحول بمرور الأيام الى جزء من شخصيتها . بل وبالع بعض الخدم ان العكاز اذا شوهد او سمع صوته ، يثير الفزع ويجعل الناس صامتين .

نجمة احتلت القسم الأوسط من القصر وحدها . فضة ، بعد اسابيع انتقلت الى الجناح الذي شغله خزرعل من قبل ، أما العنود فقد حلت في الجناح الذي خصص من قبل لنجمة . وسهلة ، والتي لم تخلف ، ماتت بعد بضعة اسابيع من يوم الثلاثاء ذاك ، وقد اختلفت الروايات حول اسباب موتها !

اولاد السلطان تعرضوا لعقوبات كثيرة : قطع المخصصات ، سحب الخيول ، تجريدهم من السلاح ، اضافة الى اعادتهم جميعاً الى المدرسة الخاصة ، مع تنبهات السلطان القاسية التي قالها للأدريسي ، المعلم الحديد الذي اختاره لاولاده :

- اللحم لك والعظم لنا ، يا شيخ ، واذا واحد قال لا علمني باسمه وما عليك .

ولف الصمت قصر الروض ، وعاش فترة طويلة في ظلام دامس . وظل هكذا الى ان تفجرت احداث جديدة ، وجرت امور لم تخطر ببال !

ابن العليان ، بوصول الاموال ، اصبح طفلاً لا يعرف كيف يخفي فرجه ، او كيف يهدأ . في اليوم الواحد يحاول عدة مرات ان يختلي بالسلطان ، من اجل ان يعرض عليه الافكار والمشاريع في كيفية توظيف الاموال ، والسلطان في عالم آخر : اذا لم يكن مشغولاً باستقبال رؤساء القبائل ، فلا بد ان يكون مشغولاً مع شيوخ الدين ، او مع الرسل والعيون الذين بعث بهم هنا وهناك يحملون الرسائل او يتقصون الأخبار . وحين يبقى لديه وقت ، او بالأحرى حين يقتطع ذلك الوقت ، فمن اجل ان يقضيه مع صاحب بشكل خاص . أما ابن العليان ، الذي تحوم عيناه كالصقر ، ويريد ان يعرف كل قادم جديد ، فلنكي يقدر كم من الاموال سيتم اقتطاعها قبل الوصول الى اتفاق مع السلطان ، كان يحس انه في سباق لا يرحم مع الزمن . قال له السلطان حين وجده ملحاً هكذا :

- انا وانت ، يا عثمان ، باقين بهالديرة ، فإذا ما سولفنا اليوم نسولف الي عقبه ، خلنا هالحين نشوف الي يسافرون اليوم او باكر .

- انا وانت باقين ، يا طويل العمر ، بس الفلوس ماهي بباقية . . .

قالها عثمان بحزن ، وحين تطلع اليه السلطان باستغراب ، تابع :

- اذا ظلتنا نعطي فلان وفلان ، على هالمنوال ، وبدون حساب ، ترى حسبتنا راح توقف .

- وكلّ الله يا ابن الحلال ، وهالحين عندنا فلوس تكفي وزود !

المعجومي الذي تأخر اربعة شهور ، وبعد ان وصله الرسول الثالث من

السلطان ، يطلب منه العودة للضرورة عاد . عاد ومعه ممرض عجمي ، هو واحد من الثلاثة الذين جاءوا الى عين دامة للاستشفاء ، وقد تولى هذا تمريضه والعناية به طوال اقامته هناك .

بدا العجمي ، بعيون كل الذين رأوه ، قوياً وأصغر سناً وأكثر سُمته . حتى العكاز الذي كان يستعين به بدا زائداً ، لكنه لم يتخل عنه ، لأنه اصبح جزءاً منه . والسلطان الذي كان عاتباً لغيابه الطويل ، لم يتمالك نفسه ان تساءل حين رآه :

- هذا اللي تشوفه عيني مشعل او ابو مشعل ؟

وحين ضحك العجمي بصخب وزهو ، قال السلطان :

- ما يصدق الواحد الا اذا شاف بعينه !

وبعد قليل :

- ويس نخلص شغيلاتنا ، يا ابو مشعل ، يلزم نمرح انا وانت شهر او اثنين هناك ، حتى نصير مثل ما صرت !

قال عبدالله البخيت لابن العليان :

- من قبل قالوا : جبة العجمي فيها سبع وسبعين رقعة ، وهذا العجمي اللي جاي أتااري عنده سبعة وسبعين دوا وما تدري شلون طبخ العجمي من جديد . وهاالحين بين آغاتي وعيني سلبه عقله ، وما تدري شنو عنده سوالف بعد .

رد ابن العليان بصخب :

- ما يغرك ، يا ابن البخيت ، وانت تعرف شلون يعلفون الضحية قبل ذبحها ، والدجاج قبل ما يبيعونه !

لم تمض اسابيع قليلة الا ورتب السلطان كل شيء ، قال لابن البخيت وهو يتسم :

- . . . تذكر سالفتنا القديمة يا عبدالله ؟

ولم يمهل له كي يتذكر ، قال وهو يقهقه :

- اللي تهرب منه ، واللي تخافه ، لا بد تلقاه ، تماماً مثل الموت والحياة ، وانا من

عندي نبت عنك وخَلَصت السالفة .

وابن البخيت الذي توجس ثم خاف ، بدا له ان السلطان يعني الكلمات التي يقولها ، تساءل ، وخرج صوته مرتجفاً :

- تمون يا طويل العمر ، بس علمني شنو هي السالفة ؟

- ما علمك عمك ؟

- عمي ؟

- اسمع ، يا عبدالله ، وبدون ما نطوّل الكلام . ذاك اليوم انا وابن العليان

نسولف ، قلنا يلزم ان عبدالله يكمل دينه ، قال لي ابن العليان : الشر يا طويل

العمر ، وبنتي جاهزة ، قلت له توكلنا على الله ، قرينا الفاتحة واتفقنا ، وانا

امرت ابن الهجرس والعريفان يحضرون كل شي .

لدقائق بدا عبدالله البخيت مدهوشاً ، لا يصدق ما تسمع اذناه ، أما الكلمات

التي ظل يرددها دون وعي فكانت : « ما هو معقول ، يا جماعة الخير ، اني آخر من

يدري » وبعد قليل يتساءل : « بالله عليك يا طويل العمر ؟ » والسلطان الذي اخذه

الفرح ، وتأكد انه اوقع بابن البخيت ضربة قاضية ، قال ليحسم الأمر تماماً :

- وحنا امرنا لك بشوية قريشات حتى تنزهب وتحضر روحك !

ولم ينتظر ، صاح بأعلى صوته :

- يا عرفان . . . يا ابن هجرس . . .

وجاء عرفان يركض . سأل السلطان :

- حضرتم كل شي لعملك عبدالله ؟

- كل شي حاضر ، يا طويل العمر !

- هات القريشات .

وبخفة قط خرج عرفان الهجرس . حتى تلك اللحظة كان عبدالله البخيت يظن

ان في الأمر مزاحاً ، او لا يتعدى مؤامرة بريئة من مؤامرات السلطان ، وكان هو ذاته

يشارك في مثل هذه المؤامرات ويبرع فيها الى اقصى حد . أما ان يكون هو ذاته

الضحية ، وبهذا الاتقان ، فقد ظل يؤمل ان ينتهي هذا الكابوس ويخرج سالماً .

لكن حين عاد ابن الهجرس ويده صرة كبيرة ، وبعد ان مجزوها السلطان ورماها لابن البخيت ، فقد تأكد ان الأمور تجاوزت المزاح ، وأصبحت شديدة الخطورة . تساءل بمسكنه :

- اريد استأنف يا طويل العمر !

رد السلطان بنفاذ صبر :

- يا ابن الحلال خلصنا ، تزوج ، افرح كم يوم بهذي الدنيا . . .

وبعد قليل وقد تغيرت اللهجة :

- واذا قلت فلاني وتركاني ، يا عبدالله ، وبعد ما اعطينا كلمتنا وقلنا موافقين ، ترى هذا حدنا وياك !

قال عبدالله بيأس :

- الي تشوفه يا طويل العمر !

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه :

- كل شي بهذي الدنيا بصير الا ان الواحد يتزوج غصب عليه . او بدون ما يدري !

- خلصنا يا عبدالله !

في وقت لاحق ، وبعد ان تأكد ابن البخيت ، سلم تماماً ، بل وفي خطوات معينة بدا مقتنعاً ، قال للسلطان في يوم تالي :

اقول بأعلى الصوت ما بي جنة وما بي الا حب من ليس ينصف ضحك السلطان وهز رأسه عدة مرات ، وقد امتلأ بشعور الظفر ، وبعد ان هداً قال :

- واريدك يا عبدالله تروز العجرمي ، ادا نفسه اشتهد خلنا نلقى له بنت الحلال الي تسّعه زين !

ضحك ابن البخيت بصخب وتساءل :

- اشوف زكاتك كلها ، يا طويل العمر ، طالعة بالجيزات !
- خلي الناس تفرح وتدعي لنا بطول العمر !
- والعجومي . . . أخاف ، يا طويل العمر ، الزيجة تلهيه عن ذكر ربه ، او تنسيه الشغيلات اللي تريدها منه !
- ما عليك ، هالحين انت روزه ، ويعدها الله كريم .

بعد الزيارة الأولى ، والحديث عن عين دامة وعين دارة ، أشار ابن البخيت ، بطريقة لا تخلو من مكر ، ان الرجل اذا تقدم بالعمر ، يحتاج الى صبية تعني به ، لتقوي عظامه وتمنحه القوة والثقة ، وذكر بالرسول والصحابة والتابعين . والعجومي الذي صمت وابتسم ، كان يصغي الى ابن البخيت بكثير من الاهتمام ، ولم يقل لا ولم يقل نعم .

في الزيارة الثانية ، وكانت بعد بضعة ايام ، ودون مقدمات ، وقد استعد ابن البخيت ، قال وهو يترنم :

اذا قبل الانسان ممن يحبه ثناياه لم يأنم وكان له اجرا
فإن زاد زاد الله في حسناته مشاقيل يحو الله عنه بها وزرا

- رد العجومي بدعابة :

- اشوفك اليوم تشعر ، يا ابن البخيت ؟

ولم ينتظر ابن البخيت ، ترنم :

بيضاء تحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو جشل اسحم
فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم

قال العجومي وهو يلوي رأسه قليلاً ويحدّق بعبدالله البخيت :

- عندك سالفة يا عبدالله ؟

- أي بالله ، طال عمرك ، وما هو بس كذا :

اصلي فلا ادري اذا ما ذكرتها اثنتين صليت الضحى ام مانيما
اراني اذا صليت اقبلت نحوها بوجهي وان كان المصل ورائيا
وما بي اشراك ولكن حبها وعظم الجوى اعيا الطيب المداويا

رد العجرمي وهو يرفع اصبعاً مهدداً، لكن بدعابة :
لئن عدت لما انت ذاكره لاصلينك في جذع من الشجر
ابنسم ابن البخيت وتابع :
امست تهددني بالقتل واحزني والقتل لي راحة والموت مقدور
رفع العجرمي يديه الاثنتين وقال، وكان صوته متواطئاً :

- كفى ، يا ابن البخيت، كفى . . .
ويعد قليل :

- هالحين تأكدنا : لا بد انك عاشق او تحمل رسالة!
- وانت الصادق، يا ابو مشعل : عاشق واحمل رسالة .
- ممن ؟

- من طويل العمر .
- هات ، علمنا ، حلقنا نسمع
- مالي صبار، طال عمرك، ويلزم اعلمك . . .

ضحك ، هز رأسه، تلفت في اكثر من اتجاه، ليتأكد ان لا احد غيرهما يسمع،
والعجرمي الذي تلفت بدوره، تأكد ان في الأمر ما يستدعي الانتباه والاهتمام،
وحين استبطأ ابن البخيت، صرك بأسنانه، وجاء صوته حاداً :

- هات ، لا تنطف روحنا .

- اسمع يا ابو مشعل . . .

وتلفت من جديد، ثم تابع :

- قبل كم يوم ، وبعد ما شافك طويل العمر ، والافادة التي حصلتها من عين
دامة، قال لابن العليان : « اسمع يا عثمان : اثنين عزيزين علينا ، أبو مشعل
وابن البخيت ، وخاصة ابو مشعل ، اخذنا منه ، ونريد ، بعد ما صار شاب ،
وبقوة الحصان ، نعطيه » قال ابن العليان « بنات موران ولا اكثر » قال له طويل
العمر : « اريد منك ، اريد بتين من بناتك ، واحدة لابو مشعل والثانية لابن

البخيت « رد عليه ابن العليان : « ما لقيت لي يا طويل العمر غير هذول الشيبان ، القاضين ، واللي ما بيهم حيل ؟ » قال له طويل العمر : « هذول اقوى من الشباب ، يا عثمان ، هذول مجربين ، والواحد منهم بعد خيره بظهره ، وما تغرك السنين او المظاهر » وسكت ابن العليان ، ما قال ولا كلمة ، وطويل العمر ، بدون سؤال او دستور ، ما خلى الأمور تمشي كذا ، ناب عني ، يا ابو مشعل ، واتفق على ان اتزوج واحدة من بنات العليان ، وهالحين قال لي شف ابو مشعل ، ان كان بنفسه خلنا تمشي ونكمل الأمور ، واذا لا عفا الله .

استراح قليلاً ، ثم اضاف :

- هالحين علمتك كل ما عندي ، يا ابو مشعل ، وما ادري انا غلطان ام لا ، لأنني قلت اللي قلته ؟

قال العجرمي ، وهو يتسم :

- اللي يريد ابو منصور يصير !

قصر الروض الذي خيم على جناحه الغربي الصمت خلال الشهور الأخيرة، حيث أصبح مثل سجن، اذ هدأت فيه الحركة، ولم تعد له مطالب، وقل زواره، بعد أن أعفى دغيم بن السرهود، وحل مكانه ابن العريفان، وبعد ان تغيرت مواقع بعض نساء السلطان، وبنيت اجنحة جديدة ناحية الغرب، ما لبث القصر ان تغير: بدأت فيه الحركة مع وصول الأموال، اعاد السلطان المخصصات، امر بأن توزع كميات من القماش والحلويات، اضافة الى تجديد بعض الأجزاء القديمة من الأجنحة.

هذه الحركة غيّرت الكثير .

الشيخة التي بدت قوية متجبرة ، وقد عُزي اليها الكثير مما جرى في القصر ، وخلقت جواً من الرعب ، أصبحت هي ذاتها اسيرة هذا الرعب . كانت تنوي ان تخرض السلطان ، ان تدفعه الى القسوة ، لكن لم تتصور ان تبلغ به القسوة الى اعدام هذه الأعداد الكبيرة . بل اكثر من ذلك شعرت بالندم ، وشعرت بتعاطف مع اغلب النساء . صحيح أنها لم تقم بزيارة اي منهن ، لكن كانت تبعث بعواطفها مع تهاني ، وكانت اكثر حرصاً ان تعرف اخبار كل واحدة من نساء السلطان . قالت لنفسها ، ثم قالت لتهاني بعد ذلك ، وكانت تريد من تهاني ان تنقل عن لسانها ، الرجال من يومهم مجانين ، او خوافين ، واولاد الساعة . يظنون حالم اقوياء حيل، لكن مثل الأطفال ما يعرفون شلون يتصرفون . اذا مدوا ايديهم ، الله يستر، يخربون كل شي ، وما يدرون شنو اللي يصير واللي ما يصير!

وهكذا بعد ان ظلت امي زهوة خلال فصل الشتاء بطوله حبيسة جناحها ، واذا خرجت قليلاً فلكي تلتقي بالشمس والهواء النقي ، ولم تقرب مجلس الرجال الا مرتين او ثلاث مرات ، وفي هذه المرات لم تتكلم ولم تسلم . . . الآن ، بعد ان شعرت بالانفراج ، او لأنها لم تعد قادرة على الاحتمال اكثر من ذلك ، فقد خرجت من جناحها ، كما تخرج الحيات : تملمت ، ثم مرت على الأجحة ، وكأنها تتفقددها ، سألت اكثر عما تكلمت ، ثم عادت بسرعة ، وكانت خائفة ، او لم تستطع التكيف .

العنود التي تعودت ان تقضي اطول فترة عند اهلها ، لم تفعل خلال هذه الفترة كلها ، ورغم ان القصص القديمة عاودتها وكذلك الاشاعات التي كانت تنتقل في قصر الروض سابقاً ، لم تفكر ان ترد عليها او ان تنتقم ، خاصة بعد ان اصبح خصومها ضحايا مثلها ، فاكثفت بأن ارسلت على امها واثنين من اخواتها ، فجشن لزيارتها وقضين معها شهوراً . ام العنود قامت بزيارة فضة عدة مرات . وكادت فضة ان تزور العنود ، لكنها ، بعد ان قررت ، عادت وأجلت الزيارة ، ثم نسيته .

قالت العنود لأمها ، لكي تنقل الكلام لفضة ولأمي زهوة :

- بقصر الروض ، يلزم كل واحد ، يكون له ظفر وناب او اكثر ، والا راح مأكول مذموم واذا الواحد ما كان اقوى منهم سلخوه واكلوه ، وما يلقي من يقول الله يرحمه !

الشيخة التي فهمت ولم تفهم ، هزت رأسها موافقة ، لكن الرسالة وصلت الى فضة ، اذ بعثت مع ام العنود تقول :

- الي خرب بيوتنا : اولاد الحرام ، الي ما يعرفون الا نقل الكلام ، وكانوا يفرحون ويرقصون اذا تعاركنا . . .

تبسم بحزن ثم تضيف :

- بس الحق ما هو عليهم ، الحق على الي كان يتعارك بدون سبب ، على الي كان يقول لهم فلاتي وتركاني . . .

وتهز رأسها :

- حنا المجانين ، وحنا اللي قلنا لهم تعالوا : كلوا لحومنا . . .
ويعد قليل ويحزن :

- وظني ان العنود تفهمني زين !

بهذه الحركة الداخلية المتحفظة البطيئة بدأت تسري روح جديدة في القصر ،
روح مأكرة اكثر مما هي شجاعة ، لكن فيها اصراراً وقدرة على المقاومة . حتى الصبية
والاطفال الذين تضاربت مواقفهم وعواطفهم تجاه ما جرى ، اصبحوا اكثر استعداداً
للتحدي ، او لتقليد ما رأوه ، في الحيوانات على اقل تعديل ، ثم ما لبثوا ان
اتخذوا مواقف اكثر عدوانية ، خاصة وقد تأثروا بأجواء البيوت والامهات
والأخوات .

نجمة التي احتلت القسم الأوسط من القصر ، لم يسمع لها صوت ، ولم يزرها
احد ، سوى عمته ، زوجة ابيها . زارتها مزارت عديدة ، لكن لم يرافق هذه
الزيارات اي تغيير في السلوك او الحركة . بل اكثر من ذلك ، حين سرت
اشاعات انها ماتت اثناء الولادة ، لم يستطع احد ان يكذب الخبر ، رغم ان
العيون ظلت شاخصة تتابع وترسم صوراً لما يمكن ان يحدث فيما لو تحقق
هذا الخبر . حتى وريدة التي اشرفت على الولادة ، تحركت بنشاط خلال
الساعات ، وحتى الأيام الأولى ، لم تقل كلمات يمكن ان تفهم او تفسر بشكل
واضح .

الشيخ المعجومي الذي زار ابنته ، بعد ان عاد من السفر ، ثم بعد ان انجبت
ابنها الأول ، بدا ينظر الكثيرين شخصاً مختلفاً ، فسرت اشاعات شديدة
التكتم ، وتباينت كثيراً ، فيما اذا كان هو أم لا ، خاصة بعد ان نقل الخدم
استغرابهم ، وظنوا ، بعد التغيير الذي لاحظوه ، وكانوا لا يعرفونه معرفة دقيقة ،
انه قد يكون شخصاً آخر ، لكن ما لبثت الأمور ، ثم الأخبار ، ان اخذت
مساراً لم يعرفه قصر الروض .

سأل ابن العريفان ناهي :

- فوئك ، يا ابن الفرحان ، ان القصر هو القصر ، وان الناس هم ناسه ؟

- ما تغير شي يا ابو جازي .

- تغير كل شي يا ابن الفرحان .

وضحك وهو يضيف :

- اثارى الدم ، يا ناهي ، يغير الدم ، يغير البني آدم !

هز رأسه عجباً :

- والغريب ، ان امور كثيرة بالدنيا ما تصير الا اذا الواحد خاف ، او . . .

ابتسم ، هز رأسه عدة مرات ، وتغير صوته :

- او اذا كان عنده عقل او ضمير ، لكن ، الظاهر ان العقل والضمير ، بهذا

القصر . . .

- انت تسولف وحدك ، يا ابو جازي ، الضماير والعقول بهذي القصور مالها مكان !

وخلال اقل من شهر تمت خطبة ابنتي العليان للعجومي والبخت . صحيح انه

تخلل الخطبة الكثير من الخلاف والبكاء والتهديد بالانتحار ، إلا انها تمت في النهاية ،

وان جرى عليها بعض التعديل . فابنة العليان الوسطى التي كانت هي المرشحة

للزواج بالعجومي ، وكان عمرها عشرين عاماً ، استبدلت بالتي اصغر منها ، بعدما

حصلت تلك الاضطرابات . قالت الصغيرة لامها بنوع من الاستسلام الحزين :

- اتركوا مديحة لابن البخت ، وانا راح اتزوج هذا الشيبة !

والأم التي صدمت ، ولم تصدق اذنيها ، اول الأمر ، ما لبثت ان تطلعت الى

نهلة نظرة مختلفة : رازتها من قدميها الى قمة رأسها ، نظرت اليها بامعان ،

ونظرت الى عينيها بشكل خاص لتتأكد ما اذا الكلمات التي قالتها تعنيها ام لا ،

وحين رأت في عينيها موافقة اقرب الى الخزم والتحدي ، ردت باستسلام :

- اذا كان كلامك صحيح تخلصينا من الفضيحة . . .

وبعد قليل وهي تزفر بحقد :

- كلها بلاوي ابوك : اعطى كلمة للسلطان وما يقدر يتراجع ، وكان السلطان رب العالمين ، وما احد يقدر يخالفه !

في قصر الروض ، وبتكتم شديد ، سرت اشاعات ان العجرمي ، الساحر ، الذي يدبر كل شيء ، جاء من يسحره ، فالعجمي ، الذي جاء كممرض ، تبين أنه ساحر اكبر وأخطر من العجرمي بما لا يقاس .

قالت فضة لأم العنود ، بعد ان عرفت تفاصيل ما حصل :

- وتعرفين ، يا بعد عيني ، ان اللي يحفر لأخوه المسلم حفرة هو اللي يوقع بيها !
وابتسمت وهي تضيف :

- هو اللي سحر لطويل العمر ، هو اللي خلاه يتزوج بنته ، وظنه ان السلطان اذا تزوج بنته يملك الأول والتالي ، لكن جاء من هو اقوى منه ، واذا كان اليوم صار هذا الشي باكر ما احد يعرف شنو اللي يصير .

ورغم ان العجرمي تكتم على هذا الزواج ، واحتج ان الرسول والصحابه كانوا يتزوجون دون ان يدري احد ، اذ يكفي لعقد الزواج موافقة الزوج ووكيل الزوجة وشاهدين ، فقد تحدث الكثيرون في موران عن هذا الزواج ، خاصة وان الاثنين ، ابن العليان والعجرمي ، لم يكونا من رجال السلطان المباشرين ، ولم يكن لأي منهما علاقة بكل ما حصل ، قال ابن الفرحان لعرفان :

- . . . اكتب يا عرفان ، واذا ما كتبت خذها على لساني : من يوم ما الله خلق هذي الدنيا : ديكين على مزبلة ما يجتمعون . وهالحين ناظر وشوف : ابن العليان والعجرمي ، من هو اللي يريد يكون أقرب لطويل العمر ؟ واذا كان ابو منصور باله طويل ويتحمل ، لكن هم ، الواحد منهم ما يحمل الثاني ، وناظر وتشوف عينك .

قال ابن هجرس وهو بيل قلمه بشفتيه ، ويتظاهر بالكتابة :

- ما تقول لي يا ناهي : اذا الديوك تحاصموا ، شنو اللي راح يصير بالدجاج ؟

ضحك ناهي الفرحان ، حتى كاد ينقلب على ظهره ، وبعد ان هدأ ، اجاب :

- لا تخف ، يا ابن الحلال ، الدجاجات يعرفن كيف يدبرن امورهن ، أي نعم يعرفن ...

وبعد قليل ، وهو يتسم :-

- ما هو مهم الديوك الي فوق ، الديوك الي يتحاربون ... المهم الديوك الي يصلون !

وكاد العجرمي يفكر بالسفر الى عين دامة ، او الى عين دارة ، لكي يقضي شهر العسل ، فقد احس انه بحاجة لكي يهرب من نظرات الذين حوله ، ومن كلام الناس ، اضافة الى الاستفادة من النتائج التي حصل عليها هناك ، لكن مستشاره الصحي الذي ظل مرافقاً له مثل ظله لم يتركه يفعل . فقد هيا له ، كما قالت عدة نساء لهن علاقة مع نجمة ، كل شيء : هيا له الاطعمة التي يحتاجها ، والأشربة المقوية ، وهيا له ايضاً بعض العطور التي كانت مخبأة ولا تخرج الا بهذه المناسبة !

بعد ايام من الزواج سأل السلطان العجرمي ، بطريقة مواربة ، عن احواله ، فكان رده سريعاً وحاسماً :

- بوجودكم ونظركم يا طويل العمر ، حنا بألف خير ، وما يمكن نكون احسن من كذا !

وحين ابدى السلطان استغرابه واستحسانه ، وحاول ان يعبر عن ذلك قال العجرمي بفخامة :

- وما اريد اقول لك ، يا طويل العمر ، عن عين دامة ... عين دامة تلزم للواحد كل سنة ، لكن صاحبنا ، بمعرفته ومودته ، حضر كل شي .
وضحك ، ثم أضاف :

- وهذول العجم ، يا طويل العمر ، عجب ...
وحين تطلع اليه السلطان باهتمام ، اضاف :

- اي نعم ؛ يا طويل العمر ، هذول من الراس الى الاساس ، وابد ما ينسون شي !

ضحك بصخب وبعد ان تطلع الى جسده كله ، قال :

- بس يلزم ان الواحد يطيعهم ، يا طويل العمر ، فإذا طاعهم سنعه زين!

بعد هذه اللحظات المرحّة بدا السلطان مهتماً ان يعرف كل شيء : ماذا يفعلون ؟ كيف ؟ واذا كانت هذه الأمور قد قيلت بخفر ، او بتحفظ ، فقد قيلت ، وبدا للسلطان ان العجرمي يعني كل كلمة . قال له ببعض الحزم :

- هذه سألقة يلزم نوقف عندها يا ابو مشعل .

- انا جاهز يا ابو منصور . . .

وبعد قليل :

- وخوينا حاضر ، ويتمنى شغلة مثل هذه الشغلة لطويل العمر!

بعد ايام سُمّي حسين معتمدي مستشاراً في قصر الروض ، وحين سأل عرفان المهجرس السلطان ، وكان العجرمي موجوداً ، ما اذا كان من الضروري اضافة صفة للمستشار ، مثل المستشارين الآخرين ، نظر السلطان الى العجرمي ، وتلفت اكثر من مرة ، وقال بنفاد صبر :

- سمّه مستشار خاص ، وهذا يكفي!

رأفت شيخ الصاغة الذي عرف قبل الآخرين بتسمية معتمدي مستشاراً للسلطان لشؤون « الصحة » قال وهو يزفر مثل ثور :

- اللهم يجيبك يا طولة الروح . . .

وبعد قليل :

- اللهم نجنا من الأعظم !

لم تكذب بضعه شهور تنقضي ، حتى وصلت رسالة من السلطان الى هاملتون .
حمل الرسالة عنان بسيوني ، ويطلب فيها ان يتوجه هاملتون ، ومعه عنان ، الى
لندن ، لكي يتفقا مع الحكومة البريطانية على مجموعة من الأمور بخصوص الدول
المجاورة ، المرتبطة مع بريطانيا بمعاهدات وعلاقات خاصة . ولكي يعرفوا
بالضبط ، وكان هذا ما طلبه السلطان من عنان ، موقف بريطانيا من مياح . فقد
وصلت السلطان معلومات مؤكدة ان مياح اتصل بالانكليز ، او الانكليز اتصلوا
به ، وعرض عليهم احد حلين : باعتباره مسيطراً على منطقة الخويزة ، ويحظى
بتأييد قبائلها ، فإنه سيبقى خصماً ، وسوف يشعل المنطقة كلها ، ولن يترك بريطانيا
واصدقاءها يرتاحون ابداً ، او ، وهذا هو الحل الثاني ، ان تؤيده للاستقلال
بالخويزة ، وعند ذاك سوف يكون نعم الصديق ، وسوف يستجيب لكل ما تطلبه وما
تريده .

السلطان الذي اعتبر ان المعركة مع ابن مياح ستكون حاسمة ، لم يكن مضطراً
للاستعجال ، خاصة بعد ان عرف عن العلاقة التي قامت بين ابن مياح وابن
ماضي ، وتأكد ان اموالاً طائلة صرفت في مناطق الحدود ، وان زعماء قبائل عديدة
زاروا ابن مياح ، وعادوا معهم الغضب والكلمات الكبيرة التي وصلت اصداؤها
الى موران ، وكلها تتحدث « ان خريبط حاط يده بيد الانكليز وباع البلاد ، وانه لا
يعترف بالشرع والدين ، وكل مستشاريه كفار » .

خزعزل الذي افترض انه امير للمنطقة كلها وقائد للقوات ،
اصبح اداة بيد ابن مياح . كان خزعزل شجاعاً في معارك عديدة ، لكن ليس مع

الخصوم الحقيقيين ، اذ اندفع نحو قبائل الحدود ، وبدل ان يستميلها ، لجأ الى تأديب حتى الذين لم يشاركوا في قطع الطرق او نهب القوافل . وكان ابن مياح بمقدار ما يظهر خضوعاً ظاهرياً ، يريد ان يحتمل خزعبل كامل الاخطاء والمشاكل . السلطان الذي عرف تفاصيل كل ما حصل ، وهو في موران ، قرر ان يرجىء معركته ، خاصة بعد ان بعث بعدة رسل لابن مياح يطلب منه المجيء الى موران ، وكان باستمرار يعتذر ، مرة بحجة المرض ، واخرى بحجة ان هجوماً يوشك ان يقع ، وبالمقابل كان يبعث للآخرين دون تردد بأقربائه المباشرين ، مرة بعث ابنه ، ومرة بعث اخاه لابن مشعان في العوالي ، عدا عن الرسل الكثيرين الذين يبعثهم الى شيوخ القبائل مع الهدايا .

لقد اصبح السلطان متأكداً ان شيئاً كبيراً يهيم له . وأحس في لحظات كثيرة ان بريطانيا ليست بعيدة عن هذا الذي يجري . فإذا هدأت العوالي ، تتحرك الحويزة ، وإذا صمت ابن ماضي في هذه الجبهة تأتي المعلومات انه تحرك او يستعد للتحرك في الجبهة الأخرى . اضافة الى ابن مياح وابن مشعان ، « وثلاثة الأثافي . . عمير » كما يردد السلطان ، لا يؤمنون ، ولا يهدأون .

أما العجرمي الذي شعر بالقوة والحيوية خلال فترة ، فما لبث أن انتكس ، ولذلك سافر فجأة الى عين دامة ، وقرر ان يطيل اقامته هناك ، خاصة بعد ان ابلغه مستشاره ، معتمدي ، بعد ان التقى ساحراً هندياً زار موران بحثاً عن اعشاب تطيل العمر ، وقد اكد له هذا الساحر ان العين لا تعطي كل قوتها الا اذا كان القمر بدرأ ، كما هو مكتوب في كتب الهند القديمة ، ويمكن ان تقوي الباه وتعيد الشباب . واذا قضى الرجل بين ستة بدور وسبعة ، واستعمل عطوراً من روح القرنفل الممزوج بالمسك ، مع قليل من زيت الحوت ، فانه قادر على الزواج والانجاب حتى سن المائة .

لذلك لم يتردد العجرمي في ترك موران والتوجه الى عين دامة ، وحين طالبت اقامته بعث اليه السلطان برسالتين ، الأولى للاستفسار عن صحته وراحته وفيها اشارة ان الشوق اليه زاد ، وان الكثيرين في موران يسألون عنه ، وقد استبطلوا عودته . رد العجرمي مع النجاب بجواب انه بصحة جيدة ،

وطلب ان يُبلِّغ السلام لكل من يسأل عنه ، وانه ، حالما ينتهي من العلاج ، سيعود الى موران ! أما الرسالة الثانية ، فقد كانت اكثر وضوحاً ، اذ ابلغه السلطان « ان بعض الأمور الجديدة تقتضي التشاور » لكن والقمر على وشك ان يصبح بدرأ بعث مع النجباء الذي حمل الرسالة الثانية ، « اننا نتوجه الى طرفكم في فرصة قريبة ، وحالما تكون صحتنا قادرة على تحمل اعباء السفر » .

قال السلطان لابن البخيت ، حين وصل النجباء الذي يحمل الرسالة الثانية :

بردان طاح على متلحف ردونه . . .

وبعد قليل ، وكأنه يخاطب نفسه :

- كنا نريده عون ، هالحين حنا يلزم نسنده ونعاونه .

رد ابن البخيت بمرح :

- يا مسترخص اللحم عند المرق تندم !

قال السلطان بسخرية :

- والله ، يا عبدالله ، ضاعت علينا الأمور ، وما نعرف من معنا ومن علينا .

- وقال احدهم لابي بكر : « اذا كان الرأي عند من لا يقبل منه ، والسلاح عند من

لا يستعمله ، والمال عند من لا يفقه ، ضاعت الأمور » :

وابتسم ابن البخيت ثم اضاف :

- انا لا افهم بالسياسة ، يا طويل العمر ، وما اقدر اقول رأي بالرجال وانا متأكد ،

بس اشوف اكثر اللي يحومون حولنا لقامة وخرندعية ، ويلزم طويل العمر يعرف

رجاله . . .

وبعد قليل وهو يترنم :

يا باربي القوس برياً ليس يصلحها لا تظلم القوس ، اعط القوس باربها

قال عنان بسيوني للامير فتر ، قبل يوم من السفر :

- ... ويقول طويل العمر : يلزم سمو الأمير فتر يطول باله ، ومهما شاف او سمع من ابن مشعان يحفظ ويسكت ، لأن كل شيء بأوانه زين .

قال هاملتون ، ويونس شاهين موجود :

- ... سنركب البحر غداً ، يا طويل العمر ، وبعد ان نصل الى السويس ، نتوجه الى القاهرة ، ومنها نأخذ الطائرة الى لندن .

وبعد قليل وهو يتسم :

- ولولا البواخر كانت الأسفار صعبة ...

رد يونس بتورية :

- وقبل البواخر كان يمكن للانسان ان يسافر وان ينتقل من مكان الى مكان !

- ويصل الى انكلترا ؟ الى اميركا ؟

قال الامير فخر وهو يتسم :

- المهم ان يسافر الانسان ويرجع بالاخبار الزينة ، وما يهم اذا سافر على جمل او بالباخرة .

قال عنان بسيوني :

- وعلم الانسان ما لم يعلم !

ابن مياح في الحوية وما وراثتها الحاكم الفعلي ، حاكم الأمر الواقع ، لا يستطيع السلطان ان يعزله او ان يتدخل في شؤونه . وهو بمقدار ما يتبع السلطان فإنه مستقل عنه . يطالب بالرواتب والمؤن والذخيرة اذا تأخرت ، ولا يرسل من الغنائم او الضرائب شيئاً ، « لأن الحرب هي الحرب ، يا طويل العمر » مملوء بالاحلام والرغبات والجموح ، يريد ان يصل الى آخر الدنيا ، لكن لا يقوى على تجاوز مسافات معينة ، لأن هناك مدافع الانكليز والكفرة الذين يتبعونهم ، وهناك خريط الذي لا يختلف عن الذئب : لا ينام ولا يسهو ، ومستعد للانقضاض في كل لحظة .

العلاقات بين الطرفين شديدة الحساسية : بين الحرب والسلام ، ليست الصداقة ولا تصل الى حد العداء . اذا احتدمت الأمور ، واذا جاء لوم السلطان ، يصرخ ابن مياح مثل جريح : « هذا كتاب الله حكم بينا » أما اذا هدأت او استقرت ، فإن عمير عند ذاك هو الذي يفتي : « . . . وما حملنا السلاح الا حتى نرفع راية الاسلام ، ولمحاربة البدع ، وللقضاء على الكفار . وراح يوم وجاء الثاني ، حنا ما تغيرنا ، وسلاحنا بأيدينا ، خريط هو الي تغير ، لوح له الانكليز بعظمة لحقهم وترك خوياه ، ويريدنا نصير مثله . لا بالله ، حنا نريد نظل نجاهد ، حاملين ارواحنا على ايدينا ، واما النصر واما الشهادة ، هذا كل ما نريده ، وهذا خلافتنا مع خريط ، وانتم ، يا ناس ، يا اهل العقل والدين ، تعالوا واحكموا من هو المخطي ومن هو المصيب ؟ » .

بعد الكثير من المحاولات تأكد خريط ان الحرب واقعة ، ولكن يجب أن يهَيء لها ، وان يحدد ساعتها ، لا ان تفرض عليه .

ابن مشعان ، وبعد الرسل والهدايا ، وبعد ان عاش فترة في العوالي ، « اصبح مستعداً للأخذ والرد » ، كما يقول ابن البخيت ، ولذلك لم يتركه السلطان .

قال ابن البخيت ذات ليلة للسلطان ، وكانا وحدهما يستعرضان صفات الخصوم ، وكيف يجب ان تكون المواقف منهم :

- ... وابن مياح ، يا طويل العمر ، دوغري ، تشيذي يقول اهل مصر ، يعني عدل ، بس عقله صغير مثل عصفور . أعند من حمار الشيخ عند العقبة . اذا كان معك اتعبك وان كان ضدك اتعبك ، وكان يلزم اقول لك رأي من سنين ، لكن ، طال عمرك ، كنت حاضنه مثل ما الدجاجة تحضن بيضها ، وابد ما يصبر احد يحكي على ابن مياح . وراح يوم وجا الثاني ، ولما فقت البيضات ودرجت الفريخات ، وصار كل الحويزة تعال هالحين دبره ... هذه هي سالفته !

- وشنهو رأيك بابن مشعان يا عبد الله ؟

- ابن مشعان ، طال عمرك ، بعد ما سمع طرب اهل العوالي ، وشم وذاق طيب نساهم ، وبعدما عرف الحرير والظلال ، صار ينظر لفوق ، وظني انه حاير ، ما يعرف يكون مع السلطان او ابن مياح ، يريد الدين والدنيا ، ويريد يكون هنا وهناك ...

توقف قليلاً ، تنفس بعمق ، وأضاف بمكر :

- وانا ، يا طويل العمر ، اميز الناس ما هو من كلامهم ، وانما من الكلام اللي ما يقولونه ، اعرف الناس متى يحكون ومتى يسكتون ، وشلون الواحد يتسوك ، وشنهو اللي يقوله لللي يصب له القهوة او يصب على يده الماء . واعرفهم على أي سوالف يضحكون ... وعلى اي جنب ينامون !

وضحك ، وبعد قليل :

- ويلزم ، يا طويل العمر ، تأخذني على قدر عقلي ، وانشاء الله ما تزعل مني !

- وبعد ... يا عبد الله ؟

- ما بعد هذا الا الخير والسلامة ، طال عمرك

- وظنك . . شنو اللي يريدہ ابن مشعان ؟
- ظني ، اذاماني مخطي ، يا طويل العمر ، يريد في العوالي ، ورماني الطريفة ، ونساء وطفان !
- وبعد قليل وهو يتسم :
- وقالوا لي ان الوطفانية اللي عنده ، يا طويل العمر ، ما ييدلها بنساء الارض ، وهي اللي تشور وهي اللي تقول .
- وبنات وطفان مزيونات ؟
- علمي علمك ، يا طويل العمر ، بس اهل العوالي يقولون كذا .
- وشلون نصل لهذي الوطفانية ، يا عبدالله ؟ شلون نخليها تسنعه ؟
- هذا . . يا طويل العمر ، اللي ما اعرفه ، يلزمك تدور مفتاح : ساحر او فتاح فال ، او لا بد من ولادة او مشاطة ؛ فإذا لقيت مفتاحها ترى ابن مشعان بالحصن ، وسالفته غير سالفه ابن مياح !
- ضحك السلطان مثل طفل ، وبعد ان هدأ سأل ابن البخيت :
- هذي السوالف متين لك يا عبدالله ؟
- من الاجاويد !
- لا . . . يلزم تقول لي .
- اهل موران ، طال عمرك ، تعلموا من الغنم والاباعر ، وما عندهم الا لساناتهم وابد يلوكون ، ولا تحسبهم ما يعرفون ، لا ، يعرفون كل شي .
- وعني يعرفون ويسولفون ؟
- هذي ما اعرفها ، يا طويل العمر ، والمجالس بالامانات !
- والسلطان رغم انه يريد ان يعرف ماذا يعرف الناس ، إلا ان الموضوع يحتمل التأجيل ، سأل بنيرة مختلفة :

- زين وعمير . . . يا عبدالله ؟
- عمير ؟
- هكذا سأل باستغراب اقرب الى الاستنكار . اكد السلطان :
- أي نعم . . عمير ؟
- هذا ، طال عمرك ، تسأل عنه فهمي الزوني !
- فهمي الزوني ؟ بيطري الخيل ؟
- ولو كان عندك ، يا طويل العمر ، بيطري ، تكرم ، للحمير والكلاب ، يمكن يعرفه احسن !

قال السلطان وهو يضحك :

- الله يخربك ، والله لو لمك لو يتوزع على موران كلها ، يخر بها !
- الله يساعحك يا طويل العمر . . .
- وبعد قليل :

- وباكر او الي عقبه ، اذا انكشفت الروس تبين القرعات !

لما عاد هاملتون ، بعد شهر وبضعة ايام ، عاد انساناً آخر : فقد جزءاً من وزنه ، وبدا شاحباً وحزيناً . والسلطان الذي فوجئ بمنظره ، تحسب بعد ذلك ، خاصة وانه لا يشكو من مرض .

وبكثير من الحيرة والارتباك ، وهذا يحصل لأول مرة مع هاملتون ، لخص للسلطان ان بريطانيا يهملها بالدرجة الأولى امن الدول المجاورة ، ولا يعنىها امر ابن مباح او غيره ، الا بمقدار ما تتأثر هذه الدول . أما بالنسبة للمعونة المالية ، فإن بريطانيا تعاني الآن من ازمة مالية خانقة ، ومع ذلك سوف تحاول ان تفي بوعودها ، وتقدم المعونة . ربما تضطر للتأخر ، او لتقيط بعض المبالغ ، لكنها في النهاية ستفي بالتزاماتها بكل تأكيد .

لم يستطع السلطان ان يفهم اكثر من ذلك ، ليس لأن هاملتون لا يريد ان يتكلم ، كما كان يفعل في مرات سابقة ، وانما لأنه لا يملك معلومات اخرى ، او ليس متأكداً منها ، اضافة الى حالة من القلق او التعب .

بعد يومين او ثلاثة ايام في موران ، وفي لحظة مناسبة ، اختلى هاملتون
بالسلطان :

- . . . وبعد تفكير ، وبعد ما اطلعت وتأكدت ، يا صاحب الجلالة ، فأنا اريد ان
اعلن اسلامي ، اريد ان اصبح مسلماً ، وان ابقى في مملكتكم ، وان اعيش هنا
حياتي كلها ، وسوف ابقى الى جانبكم ، او في اي مكان تختارونه لي ، فأرجو ان
اسمع منكم كلاماً بالموافقة !

السلطان الذي دهش الى اقصى حد ، ولم يصدق اذنيه ، تطلع الى هاملتون
بإمعان ، ليتأكد انه لم يتناول دواء الحصر ، وليس هناك اسباب اخرى طارئة . بعد
ان تبين له صحو الرجل ، وقلقه ايضاً ، سأله :

- انت متأكد يا صاحب ؟

- متأكد وبكامل الوعي والقناعة والرغبة ، يا صاحب الجلالة .

ولا يعرف السلطان كيف وافق على ذلك القرار بسرعة ، اذ صرخ من فوره طالباً
دعوة العجرمي . وخلال فترة قصيرة ، وبوجود ابن العليان وابن البخيت وثلاثة من
الحرس ، اعلن هاملتون اسلامه ، وردد وراء العجرمي الشهادتين ، وبارك له
السلطان اسلامه بكثير من الحميا والانفعال ، كذلك فعل العجرمي والعليان
والحرس ، حتى ابن البخيت بارك له اسلامه ، لكن في الليل المتأخر ، وكان عائداً
هو وعثمان العليان ، وكانا ، بصمت ، يستعيدان وقائع هذه الليلة ، سأل ابن
البخيت ببراءة ملعونة :

- شنو قولك ، يا عمي ، ما دام صاحب اسلم ، يلزم يتطهر ام لا ؟

رد عثمان العليان ، وقد فاجأه السؤال :

- المهم ، يا عبدالله ، الشهادة ، قول : لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، وما
عداها ستة .

- كذا رأيك ؟

- ما دام شيخ الاسلام قبل اسلامه ، يا عبدالله ، فلا تدخل نفسك !

رد عبدالله البخيت بمكر :

- ودين الاسلام ما هو مثل غير اديان : متسامح ، ويحمل وكريم .

وبعد قليل :

- اللهم انصر الاسلام !

هاملتون بعد ان عاد الى العوالي ، عاد باسم جديد : عبد الصمد ، ولم يعد يعرف الا بهذا الاسم . وكان يحبه ، ويصر عليه ، ويريد من الآخرين ان ينادوه به ، وكان العجرمي من اقترح هذا الاسم ، وقد وافق عليه هاملتون ، وقبل ان يأوي الى فراشه تلك الليلة فتح القاموس على كلمة صمد وقرأ كل ما يقابلها من معاني ! حين وصل الى العوالي ، كتب في مذكراته ما يلي :

« . . . الفرد ، حتى في دولة صغيرة ، يجب ان ينصر وينسجم مع منطق الدولة ومصالحها ، وهو قادر ومهم بمقدار امكانياته واستعداده لأن يكون جزءاً من هذه الدولة ، أما اذا حاول العكس فلا بد ان يهزم ، اذا لم يكن اليوم فغداً .

أما الامبراطورية ، كالامبراطورية البريطانية ، فإن منطقها ومصالحها من الضخامة والتشعب والتغير بحيث يجب على من يريد ان يكون من موظفيها الدائمين ، وليس من موظفيها المؤثرين - لأن لا فرد يمكن ان يؤثر على امبراطورية - ان يغير جلده مثلما تغير الحية جلدها ، لكي يبقى مقبولاً ويُعطى الحق في ان يبدي رأياً ، لا ان يفرض هذا الرأي .

في « مؤتمر الشرق » قالت الامبراطورية كلاماً مخالفاً لكل ما قالته من قبل ، ومخالفاً لعهودها والتزاماتها السابقة ، لأن مصالح الامبراطورية الجديدة ، والظروف ، تقتضي ذلك . صحيح انني حاولت ، وحاول غيري ايضاً ، ان نذكر بعهود بريطانيا ووعودها ، وان نلفت النظر الى جملة ملاحظات ، لكن كلامنا كان غريباً على اسماع السادة ، وكان ، في لحظات معينة ، مزعجاً ، ويريدون ان تنتهي

بسرعة من هذه الثروة ، لكي ندخل في صلب الموضوع .

طبعي افهم الدوافع التي املت تغيير السياسة ، وما جد من عوامل واعتبارات ، لكن افترض ان شيئاً ما يجب ان يظل ثابتاً ، وان يكون مرشداً ، وهذا ما افتقدته في هذا المؤتمر ، الأمر الذي ولد في نفسي الكثير من المرارة وخيبة الأمل .

لا استطيع في هذه السن ان ابدأ من جديد ، او ان اغير افكاري وعلاقاتي ، لقد اصبح الوقت متأخراً ، ومع ذلك يمكن ان اعيد ترتيب الاولويات بالنسبة لما يجب ان افعله ، ويمكن ان اجد هامشاً للتوفيق بين ما تريده الامبراطورية ، وبين ما استطيع ان افعله ، ضمن قناعاتي وعلاقاتي القائمة . سوف استغل الهامش المتاح لكي احقق عدة امور في آن واحد : سوف استمر في موران ، وسوف اساعد هؤلاء الناس ، الذين يريدون لي انهم يستحقون المساعدة ، ولديهم الاستعداد لكي يفعلوا شيئاً ، على الأقل في هذه المنطقة . وسوف اواصل اكتشافاتي الاثرية والتاريخية ، ليس بهدف ارضاء طموحي الشخصي ، وانما من اجل لقاء الأضواء على منطقة مجهولة ومهمة في الوقت نفسه ، وانا متأكد ، من هذه الناحية ، ان الابحاث التي سأكتبها عن المنطقة ستكون هامة وربما تصبح مرجعاً للباحثين في المستقبل .

الآن ، اكثر من اوقات سابقة ، احس ان عملي ماركو على حق ، أولاً : تقول : يجب ان نذهب عميقاً في مجتمع معين ، لمعرفة واكتشافه ، وثانياً ، يجب ان يقترب الانسان من هذا المجتمع بروح من التعاطف والرغبة ، لكي يصل الى حقيقته . وهذا ما دعاني لأن اصبح مسلماً . ان الدخول في هذا الدين ، رغم مشقته ، يمكن ان يفسح لي مجالات وآفاقاً لم تنح لرحالة او مكتشفين غربيين في السابق . ان الناس هنا يخافون من الآخر ، والآخر ، هو ، بالدرجة الاولى ، الدين الآخر ، قبل ان يكون الشخص الآخر . هكذا افترض ، وهذا ما سأحاول التأكد منه .

لفتُ النظر مراراً في « مؤتمر الشرق » الى ضرورة ان تكون بريطانيا حاضرة للمساعدة في اكتشاف ثروات موران ، لكن بدا لي ان هذا الأمر لا يتمتع بأولوية تجعله هاماً أو عاجلاً ، وهذا ما دعاني للموافقة على ان تكون هناك خيارات اخرى .

صحيح ان بعض الأمور تحصل بالصدفة ، لكن يمكن ان تؤثر ، وان تخلق آفاقاً لم

تكن بالبال . فبعد دعوة العشاء التي جمعتني بمستتر ستيفن سنكلر ، وكان مهتماً ان يعرف الكثير عن صحراء موران ، لأن له تجربة في صحراء استراليا ، كما ذكر لي ، فقد تطرق الحديث لاحتمال وجود بعض الثروات ، فبدأ سنكلر فضولياً ، ثم اصبح بعد ذلك مهتماً ، واعلن عن استعدادة لارسال فريق من اجل البحث ، وطلب مني المساعدة .

لن اتردد في تقديم المساعدة ، فالاميريكون يريدون لي اكثر جرأة وأبعد نظراً ، وليس هناك تناقض في المصالح ايضاً بينهم وبين بريطانيا ، فالهم ان يكون الغرب موجوداً .

ذكرت للسلطان عن مستر سنكلر ، وانه يمكن ان يساعد في امور عديدة ، في الكشف عن المياه والذهب والنفط . كان سعيداً ، وسألني رأساً : كم يدفعون ؟ ذكرت له ان الأمر سابق لأوانه ، وان المبالغ التي يمكن المطالبة بها تتوقف على نتائج البحث . هز رأسه ، وسأل : وكم يحتاجون حتى يتأكدوا ، لما قلت له ان الأمر يتطلب بضع سنين ، شعر بالخيبة . هؤلاء الناس ، في امور المال ، قليلو الصبر ، يريدون كل شيء بسرعة .

ابن مياح اصبح خطراً ، لأن بريطانيا تأخذ بعين الاعتبار الأمر الواقع ، ولا تهتم بما يدعيه الآخرون ، مهما كان « تاريخياً » او منطقياً . اكدت على السلطان ضرورة ان يتخذ اجراءات ، ربما لا تتطلب الوصول الى الحرب ، لأن استقرار الوضع بهذا الشكل يمكن ان يؤدي الى ما يعتبر امراً واقعاً . هز رأسه ولم يجب اجابة حاسمة .

لا استطيع التكيف بمرونة مع متطلبات الدين الجديد ، بل اكثر من ذلك ابدو ، حتى لنفسي ، مختلفاً عن السابق . لا اريد ان اتسرع في اصدار الأحكام ، او توهم النتائج ، لكن هذا ما اشعر به على الأقل ، خاصة حين اصلي مع الآخرين . ان نظراتهم تخترقني ، وتجعلني مرتبكاً ، واغلب الظن ان الكثيرين غير متأكدين او غير واثقين من اسلامي .

تبقى العوالي افضل بكثير من موران ، فالناس هنا اكثر فهماً واكثر استعداداً للتعامل مع الاجنبي .

يدهشي فتر الى اقصى حد ، انه يتطور بسرعة لافتة للنظر ، ولديه استعداد للعمل ، وقدرة على الفهم والاستجابة . ولولا المستشارون الذين لا يكفون عن الثروة ، وعن تقديم اقتراحات تتناقض يوماً بعد يوم لكانت الأمور افضل بكثير . مع ذلك يجب ان لا اصطدم بالآخرين وان ابذل جهداً ، دون ان اشعره ، بضرورة اعطاء الأولوية لبعض المشاريع ، ولبعض العلاقات الأكثر اهمية من غيرها .

احضرت كمية وفيرة من الكتب ، واوصيت على كتب اخرى ، ان الكتب من الأمور القليلة في هذه الدنيا التي تربط الانسان ، وتجعله يفكر بطريقة أفضل .

لن استطيع ان اخطط لمشاريع طويلة الأمد ، لأنني التزمت مع سنكلر ، ورجاله سيأتون خلال اسابيع قليلة ، ويجب ان اهيء لهم الأمور ، وان ارافقهم الى موران ، وقد أضطر ايضاً الى مرافقتهم الى بعض مواقع العمل . ولذلك سوف امنح نفسي اجازة قصيرة لاعادة ترتيب الأمور .

عنان بيسيوني الذي لاحظ ان هاملتون تغير كثيراً ، بعد عودته من السفر ، وسمع من قنصل بريطانيا ان هاملتون لا يمثل السياسة الرسمية لصاحب الجلالة ملك بريطانيا ، وان له اجتهادات خاصة ، وقد تكون غير مقبولة « وابتم القنصل دلالة السخرية والاستخفاف ، فقد قرّر ان طموحات الرجل تصطدم بالمصاعب ، ولا بد ان تتكسر وتراجع ، خاصة عندما تتوضح الأمور لصاحب الجلالة السلطان ، او عندما يلمس بنفسه النتائج . عنان بيسيوني الذي بدا متفائلاً ، اصيب بصدمة قوية عندما جاءت الأخبار بأن هاملتون اعلن اسلامه ، ثم حين جاء باسم عبد الصمد ، وقد ترك لحيته تنمو ، وبدا تقياً مؤمناً كما لم ير احداً مثله من قبل . قال لنفسه « خيركم في الجاهلية خيركم في الاسلام واصبح هاملتون واحداً من الصحابة ؟ » وتذكر ابا سفيان .

سأل القنصل البريطاني ذات يوم عن اسلام هاملتون ، رد عليه بعدم اهتمام :

- نحن لا نتدخل في مثل هذه الأمور الشخصية .

قال شمران العتيبي في سوق الحلال :

- أبشروا يا اهل السوق ، الانكريز صاروا مسلمين ، وياكر والي عقبه راح عيون

اولادكم نصير زرق ، واللي ما يصدق هذا هو العجرمي يروح وينشده .
وظل الموضوع يدور ويثير الكثير من السخرية والتساؤلات والاستغراب ، لكن
الأحداث التي اعقبته جعلت الكثيرين ينسونه !

مرة اخرى . . حان الوقت لكي تبدأ مرحلة جديدة .

ومثلما فعل خريط في حملة وادي الفيض ، وبعدها الخويزة ، ومثلما فعل في حملة العوالي ، بعث على اقربائه واخوال اولاده ، وبعث وراء رجاله المباشرين . كان قسم من هؤلاء قد ابتعد ، نتيجة الاخطاء أو سوء المعاملة ، او نتيجة تقديم الآخرين عليهم .

ما ان وصلوا وضمهم اجتماع واحد ، حتى بدأ السلطان :

- . . . وتعرفون يا جماعة الخير ، من ثلاثين سنة واكثر وحنا نركض من مكان لمكان ، وطول هذي المدة ما عرفنا الراحة ولا غمضت لنا عين ، ويتأيد من الله ومنكم ، انشأنا هذا الملك ، وقلنا لارواحنا يلزم ان الناس اللي تعبوا واللي شقيوا ان يستريحوا لأن ، حتى الله عز وجل ، خلق الدنيا في ستة ايام واستراح في اليوم السابع . لكن بينا جماعة ما تبي ترتاح ولا تبي تريح ، وحنا ناخذ الناس على قدر عقولهم ، نقول لهم : سبحانه وتعالى اعطى وتفضل ، ويلزم نقنع ونحمده ونشكره ، ونقول لهم يكثر خيركم يا جماعة ، وطالت اعماركم ، لكن ابد ما يسمعون ولا يفهمون . وهالحين ، اللي بنيناه بثلاثين اربعين سنة ، واللي ما صار إلا بعد ما نشف ريق الناس ولاقوا الأمرين ، يريدون يهدمونه ويضيعونه .

وتبدي على وجهه علامات الغضب والحزن . يتطلع الى الذين يتابعونه لكي يختبر وقع الكلمات التي قالها ، فلما يجدهم صامتين ، وقد امتلأوا حذراً اقرب الى الخوف ، يتابع :

- وانا ، يا جماعة ، صبرت وتحملت ، وكنت اقول لنفسي : تحمل يا خريط ، باكر

الجماعة يقدرون . لكن يوم بعد يوم ، وكل ما سكتنا وطولنا بالنا يزيدون .
وانتم تعرفون ، يا جماعة الخير ، كل انسان ، حتى لو كان كبره كبير جمل ، يصل
الى حد ويقول : هذا حدي ، وما اقدر اشيل او اتحمل اكثر من الي تحمته . . .
وزفر بحزن ، وتغيرت لمجته تماماً :

- وجماعتنا قالوا من قبل : من شاورك دخل ذمتك ، وانا ، والشهادة لله ، صار لي
ليالي ما تعرف عيني النوم ، وما بعثت وراكم الا لاشاوركم ، وأقول لكم اللي
بيالي . . .

وخفض صوته تماماً ، صار اقرب الى الحمس ، وخرج حزناً جداً :

- هجس بيالي يا جماعة ، واقولها صراحة ، ان اترك وامشي ، ويلزمكم تدورون من
بينكم واحد غيري . . .

وغص في الكلمة الأخيرة ، وسقطت دمعة لم يستطع ان يحبسها . خيم
على الجلسة جو قاس من التوتر والحزن . وخلال لحظات ، ورغم تعدد
العواطف وتباينها ، بتعدد الرجال الموجودين ، إلا ان تياراً واحداً خفياً سرى في
الجمع ، فجعل هذا العدد الكبير من البشر كتلة واحدة لا يُعرف اين بدايتها
واين تنتهي .

ومع ان الصمت لم يدم الا فترة قصيرة ، الا ان هذه الفترة بدت بنظر الكثيرين
طويلة شاقة . لم يتركها السلطان تمضي هكذا ، قال دون ان يرفع رأسه :

- لا يكلف الله نفساً الا وسعها ، وانا ، واقولها بفخر ، واشهد عليها رب العالمين ،
قمت بواجبي وسويت الي اقدر عليه ، وما فكرت ولا بغيت في يوم من الايام
حمداً او شكوراً ، فإذا وافقتم على ان استقيل ، وان اقضي ما بقي لي من ايام على
هذه الأرض اتعبد ربي وما ابغي الا مرضاته ، فأكون لكم ممنون ، وأولها وتاليها ،
ودوم ، انتم مفضلين ، وبارك الله فيكم . . . هذا الي عندي ، وهذا الي ردت
اقوله لكم .

تبادل بعض المسنين النظرات ، وكانت نظرات محرصة مليئة بالحزم ورغبة
المواجهة . وحين لم يبادر أحد للكلام قال المعجزي :

- اسمع يا ابو منصور ، وأريد من كل واحد ان يسمع . . .

وجال بنظراته في الوجوه ، وكان اقرب الى الغضب :

- حنا الي بايعناك ، وحنا الي سلمناك هذي الأمانة ، وأرواح الناس واعراضها واموالها دين برقتك في الدنيا والآخرة ، وابد ما يجوز ان الراعي يتخل عن الرعية ، وان صاحب الأمانة يترك امانته . . .
وتغيرت نبرة الصوت :

- وحنا ، يا ابو منصور ، والشهادة لله ، نعرف ما تلقاه من تعب وحسد ومغنة ، وانا ، اكثر من غيري ، اعرف انك شاييل على اكتافك هموم ما تشيلها جبال ، واعرف ان الناس ما يعرفون ولا يقدرن ، بس يجي يوم يعرفون ويعترفون . . .

وعاد الى لهجته الأولى :

- لهذا السبب اريد منك ، يا طويل العمر ، ما تحي على لسانك كلمة استقيل ، او كلمة اترك وامشي . ما هوبس كذا ، انا اقول نيابة عن الحاضرين جميعهم : حنا ما نسمح لك ، لأن البيعة الي بايعناك ، واشهدنا الله ورسوله ، متمسكين بيها ، وأبد ما نقبل غير شيء !

واذا كان العجرمي قد استطاع ان يعبر عما يدور في رأسه بكلمات واضحة ، وان يعكس افكار الكثيرين ، إن لم يكن افكار الجميع ، فإن الذين تناوبوا الكلام بعده كانوا خليطاً من الرجال المنفعلين الغاضبين ، او الذين فوجئوا وذهلوا ، فلجأوا الى الصراخ او البكاء ، وتجراً بعضهم فأشهر سلاحه ، وسمعت ايضاً بعض النخوات والاهازيج ، وكانت كلها اقرب الى الصرير المستيري الذي يتولد فجأة ، ولا يمكن تمييز الكلمات او لا يُعرف ماذا تعني او ماذا يجب ان يُفعل .

قال وقيان الضاري ، احد اعمام السلطان ، والذي لا يأتي الى موران الا نادراً ، اذ يفضل ان يبقى مع صقوره بعيداً ، وقد فوجيء بما سمع :

- اسمع يا خربط اذا كان ملك آبائنا واجدادنا تريد تضييعه بساعة غضب ، او لأن قلان قال كلمة ، فترى السيوف هي الي تحكم بيننا . . .

وتلفت بانفعال ، كأنه يريد ممن حوله ان يشهروا سلاحهم ، تابع وخرج صوته من بين اسنانه :

- ويلزمك تسمع كلامي زين : قبل ما نتوجه لابن مياح ، وقبل ما نرفع سلاحنا عليه ، نرفعه بوجهك . اذا ظليت تسولف هذي السوالف الجايقة .
ضحك السلطان بعصبية ، رفع عينيه الى الوجوه ، وقال بمرارة :
- يا عباد الله . . .

هز رأسه عدة مرات وتغيرت نبرة صوته :
- والله وبالله وتالله صار لي سنين ، يا جماعة الخير ، اعض على جرحي وانا ساكت ، أقول تتعدل ، اقول جماعتنا ويلزم نتحملهم ، لكنها زادت . . .
قال العجرمي ليخلق جواً جديداً :
- اسمع يا ابو منصور ، ويلزم ان الواحد يقول ضميره : حنا مقصرين ، الواحد منا قاعد بالظلال يسولف ، او يقنص ، واذا حصّل قرشين يتزوج ، وتاركين كل الحمل عليك . . .
رد السلطان بعصبية :

- ما بهمّ التعب ، يا ابو مشعل ، لو كانت المسألة مسألة تحب ما قلنا ولا كلام ، بس المسألة ما هي كذا . . .
ضحك ، تطلع الى اثنين او ثلاثة الأقرب اليه واطاف :

- الخويا ، اقرب الناس ، الي يشوفون ويعرفون ، حتى هذول تلقاهم يقولون : خريط ترك الدين ونسي الجهاد. يقولون خريط باع البلاد. وما تخلص سالفه الا ويطلعون بالثانية ، وضعنا بين نار الخويا ونار العدى ، وبعدها : هات يا خريط ، نريد يا خريط ، سو يا خريط ، لا تسو يا خريط ، فضاعت علينا الحسبة وما نعرف من هو الي معنا ومن هو الي علينا . . .
قال وقيان بحدّة :

- اسمع يا خريط : الحق كله عليك ، حنا ما سوينك امير الا حتى تحكم وترسم ، وهذول الي يقولون بصير وما يصير ، الي يقولون فلاني وتركاني ، وتلقاهم ابد من الشمس للظلال ، يلزم تستعهم زين ، اذا طقيت كم واحد الكل يتعلمون ويصيرون .

- حنا يا عم ما نريد نقتل ونضرب ، نريد الناس تفهمنا وتعاونوا .

هكذا رد السلطان . قال طراد المجول احد اصهار السلطان ، وقريب فضة :

- انا يا جماعة الخير عندي كلمة واريدكم تسمعون : قبل كم يوم جانا جماعة ، دزهم ابن مياح ، وبعد السلام والكلام ، طلعوا ذهبهم وقالوا : الديرة كلها معنا ، وخريط مصبح مسي ، وحنا جيناكم لأنكم عزيزين علينا ، ونريدكم تعاهدونا : اذا ثرنا بوجه خريط تكونون وينا ، واذا خفتم او لكم رأي ثاني فلا تكونوا مع خريط ، ابقوا على الحياء ، لا معه ولا معنا . . . وهذا الذهب لكم .

مد وقيان الضاري رقبته مثل اللقلق وسأل :

- أي نعم . . . وشهو كان جوابكم ؟

ضحك طراد المجول ، تطلع الى الوجوه التي تتابع كلامه ، وتطلع الى وقيان الضاري وسأل :

- حنا . . . شهو كان جوابنا ؟

والتفت الى اكثر من اتجاه ، يبحث ، وخرج صوته حاداً :

وين أنت يا عايد؟ وحين رفع عائد رأسه ، خاطبه بحدة : علمهم شهو كان جوابنا .

قال عائد ، وبدا مرتبكاً :

- قال لهم عمي طراد : والله . . والله ، لو ما كتتم ضيوفنا ، ولو ما اكلتم من خبزنا وملحننا ما يطلع واحد منكم سالم .

سأل وقيان :

- ويعد . . يا طراد ؟

- ما اقدر اسولف لك بكل الي صار والي جرى يا عم ، قالوا : الانكريز ، قالوا : الدين ، قالوا : خريط ظالم وغاشم . بالمختصر ، قلت لهم : يا جماعة ، الأمور زادت عن حدها ، واذا انا شيخ وقادر ان احبكم الى هالحين ترى ما اقدر اضمن بعد ساعة ، والأحسن تشيلون ، ما هويس كذا ، قلت لهم تبلغوا ابن مياح : حنا ، يا ابن مياح ، مع خريط ، واول من يرفع السلاح بوجهك ، اذا

ما رجعت للطاعة ولزمت حدك؛ وقلت لجماعته ، اتركونا هالحين من هذي السوالف ، والأحسن ترجعوا لعقولكم ، لأن جماعتنا قالوا من قبل : سلطان غشوم ولا فتنة تدوم ، وانتم هالحين اهل الفتنة ، والناس مع خريبط ! قال وقيان الضاري :

- من زمان يسولفون لي عنك يا طراد ، والكل يذكرك بالخير ، ويقولون شهم وما مثله !

تدخل السلطان من جديد ليعيد الأمور الى سياقها الأول :

- مثل هذي السالفة ميّات ، يا جماعة الخير ، وغيرها اكبر منها ، ولهذا السبب ما اريد ان اقف امام الله يوم القيامة وحيداً ، ومثل ما قال طراد : سلطان غشوم ولا فتنة تدوم . . .

ضحك وهز رأسه عدة مرات ثم تابع :

- اذا كان ابن مياح يسميني سلطان غشوم ، واني بعث البلاد ، فأنتم ، كل واحد منكم ، تعرفوني زين ، اذا كان في عيب فعيبي اني متساهل ، اني اسامح ، ودائماً اقول : حنا اولاد اليوم وعفا الله عما مضى ، لكن اللي براسه سالفة ، الطمعان ، والخابين ، لا بد يلقي له خيمة او عباة حتى يتظلل بيها . . .
وتغيرت نبرته تماماً :

- يرجع مرجوعنا ، يا جماعة الخير ، لأول الكلام : انا اشوف روحي وحدي وتعبت ، حملت عنكم سنين وسنين ، وما اقول هذا الكلام حتى امنّ عليكم ، لا بالله ، بس النبي آدم لحم ودم ، واذا حمل يوم ما يقدر ثاني يوم . . .

ولما رأى الصمت مخيماً تابع بحزن :

- واريد منكم ، طالت اعماركم ، تشوفون ، وتلقون واحد غيري . . .
وابتسم وازاف بسرعة :

- وأي واحد تختارونه وتبايعونه ، انا اول من يعاونه ويكون معاه . . .

كاد يتابع ، لكن وقيان الضاري وقف ، وبدا وجهه محتقناً اقرب الى الحقد والاشمئزاز

- بليا طول سالفه يا خريبط ، تسمعي زين ؟

وضرب الارض بقائم سيفه واصاف :

- حنا هالحين هنا حتى نشوف شلون نقدر نساعدك ، نحمل كتف عنك ، وغير سالفه اتركها ، وابد لا تحيب طاريها على لسانك ، ومثل ما صار اولها يصير ناليها .

قال العجرمي :

- حنا اهل الدين واهل الشرع ، ونعرف الي يجوز والي ما يجوز ، واقول لكم كلمة وانا مسؤول عنها . . .

قاطعه السلطان :

- قبل ما تقول ، يا ابو مشعل ، ولا مقطوع لكلامك ، اريد اسمع الجماعة الي ما تكلموا من قبل .

ولولئك الذين لم يتكلموا ، لم يبدوا رأياً ولم يشاركوا ، تبادلوا النظرات فيما بينهم ، ومع الآخرين ايضاً ، اصيبوا بالارتباك ، اذ رغم ان اي واحد منهم يمكن ان يتحدث ، ولفترة طويلة ، ويمكن ان يقول شيئاً هاماً وجيلاً ، الا انهم وقعوا في حالة من الحيرة . ولم يتردد بعضهم في ان يركز غيره ، او ان يتطلع الى جهة او اخرى ، وكأنه ليس معنياً ، ويريد من غيره ان يتكلم ، ان يعبر عما يحول في خاطره . وهؤلاء الناس ليسوا جبناء او لا يعرفون ما ينبغي ان يقال او يفعل ، لكن ضمن هذا الحشد ، وفي مثل هذا الجو المنفعل ، فإنهم يصبحون بشراً من نوع نادر : يفقدون ذكاءهم وقدرتهم على التعبير ، بل ويصبحون ، في بعض الأحيان ، اذا اضطروا للكلام ، اغبياء ومثيرين للسخرية .

كلمات السلطان التي ظلت طائرة في الهواء ، والتي مست كل واحد من هؤلاء ، ولم تشجع احداً منهم على أن يبدأ الكلام ، جعلت العجرمي يتقدم مرة اخرى . قال للسلطان وقال للآخرين :

- الجماعة جماعتنا ، واقدر انوب عنهم واقول كلمتين . . .
قاطعه السلطان وسأل :

- توافقون يا جماعة الخير ؟

وتراكمت الاصوات كما تراكمت حجارة الاطفال ، جاءت سريعة ، متتابعة ،
مختلطة ، وكلها تعلن التأييد والموافقة . ضحك السلطان ، تطلع الى العجرمي ،
وقال :

- سم . . يا ابو مشعل .

- اقدر اقول ، يا ابو منصور : عفا الله عما مضى ، ما اريد اقول من هو المقصر ومن
هو غير المقصر ، حنا اولاد اليوم . . .

تنفس بعمق وتطلع الى الوجوه . . . ثم تابع :

- اي نعم . . . حنا اولاد اليوم ، واول شي نسويه : نجدد البيعة ، وما نقبل كلام
ثاني . انت السلطان رضيت او ما رضيت ، وهذي امانة بربيتك ، يحاسبك
عليها الله في الدنيا والآخرة ، ويلزم تقول امام الجميع : موافق !

والسلطان الذي هز رأسه عدة مرات وابتنسم ، ثم تطلع الى الوجوه ، قال
بتردد :

- اقول نعم . . . بس بشروط . . .
رد العجرمي بعصية :

- خلنا نقول يا ابو منصور ، وبعدها اذا كان لك قول على العين والرأس .

. فهقه السلطان ورد :

- سم . . يا ابو مشعل .

- بعد تجديد البيعة ، يا طويل العمر ، يلزم كل واحد من الموجودين ان يتحمل ما

يقع عليه ، يلزم كل واحد يشمر عن زنوده ، ويقول : انا حاضراً يا طويل
العمر ، ما هو بس كذا ، يلزم يعوّض قصوره ، والشئ الي صار من قبل ما يلزم
بصير .

ضحك وتطلع الى الوجوه ، و اضاف بلهجة حزينة :

- و حنا ، يا اولاد الحلال ، يلزم نصف الرجال ، تحمل عنا الكثير ، ركض من
مكان لمكان ، و هالحين ، اذا ردنا نعاونه يلزم نشيل عنه كتف ، ويدون ما
يقول ، لا بد ان نعرف شنو المطلوب منا . أما اذا تركناه ، اذا قلنا له : اذهب
انت و ربك فحاربنا ، أنا ها هنا قاعدون ، فإذا تحملنا مرة ، و ثنتين ، و ثلاث ،
فالبنّي آدم له حدود ، ما هو صخر ، ولا هو حديد ، فمن بد و لازم ان نعاونه .
ومثلها خرجت الاصوات جريئة حارة في الموافقة على ان يبقى ، فقد اكدت مرة
اخرى استعدادها للمعاونة . قال وقيان :

- و مثل ما قال شيخنا ، و مثل ما قال السلطان . . .
و هزّ اصبعه في الوجوه متوعداً :

- و اذا اي واحد منكم عنفص ، و قال فلاني و تركاني ، ما يلوم الا نفسه !

قال السلطان بلهجة مأساوية :

- ما اريد أقول لكم ، يا جماعة الخير ، كم تعبنا ، و شنو الي صار معنا ، يجوز لو
تكلمت اخجل ، و دأئنا أقول لنفسي : هذا واجبك يا خريبط ، و الي يريد بصير
جمال يلزمه يعلي باب داره ، لكن ، و الشهادة لله ، تعبنا ، و ما بينا حيل اكثر من
كذا ، و نريد كل واحد منكم يعاوننا !

في هذا اللقاء ، و الذي امتد ساعات طويلة ، و قصد ان لا يحضره اي من
المستشارين ، بمن فيهم هاملتون و عنان بسيوني و رأفت شيخ الصاغة و آخرون ،
و الذي حضر جزءاً يسيراً منه عبد الله البخيت ، ثم خرج بناء لاستدعاء عاجل ، و قد
رتب هذا الأمر مبكراً ؛ في هذا اللقاء قيلت كل الاشياء التي كان يجب ان تقال .
و مثلها خرج السلطان من لقاءات مشابهة ظافراً ، خرج هذه المرة .

بعد ايام وهو يستعرض نتائج هذا الاجتماع مع مستشاريه وعدد من رجاله ،
سأله ابن البخيت :

- واذا قلنا كلام ما تزعل يا طويل العمر ؟
رد السلطان بيأس :

- مشكلتنا ، يا عبدالله ، ان الناس ما عادت تقول ، وهذا الي يخوف . . .
وبعد ان زفر وتهد ، تابع :

- لو تكلموا تعرف كيف يفكرون ، شنو الي يريدون ، وهالحين يمكن تقول الي
بيطنك .

قال عبدالله البخيت وهو يترنم :

وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبك تميل
قال رأفت شيخ الصاغة :

- الاستاذ عبدالله متفائل ، اذ يعتبر ان الروم خلف الظهر ، فماذا لو قلت له ان
الروم في الظهر نفسه ؟

رد ابن البخيت بنوع من التورية :

- وكل الله يا ابو حبيب ، لان الظهر ظَهْر !
قال هاملتون :

- المهم في هذا الاجتماع ان افسح المجال لكل انسان لان يتكلم ، لأن يعبر
عن وجهة نظره ، ولذلك يمكن اعتباره استفتاء على سياسة السلطان ، وعلى
مواقف المتمردين . . .

وبعد قليل وهو يتساءل :

- لكن هل يتابع وينفذ الذين كانوا هنا التزاماتهم ؟
قال السلطان وهو يضحك :

- ... يا صاحب : جماعتنا كلمتهم مهمة ، والمهم اكثر ان تناظر عيونهم ، لان العيون تفصح ، تقول كل شيء .

وقهقه ثم اضاف :

- وما تركت احد الا وناظرته ، ناظرتهم جميع ، كنت أريد اعرف : الكلام الي يقولونه صحيح او ما هو بصحيح ، لكن ، والشهادة لله ، كانوا يقولون من قلوبهم .

كتب هاملتون في مذكراته : « ... وضمن امور اخرى ، لا يمكن ان يحكم الانسان بسهولة على تفكير هؤلاء الناس او طريقة تعاملهم . المهم الآن ان اجمع الوقائع ، ان ارقب التصرفات والحركات ، وان انتبه ، بشكل خاص ، الى ردود الفعل ، لأن البدو ، بمقدار ما يبدون ودودين ، فإنهم يحسنون الى حد كبير اخفاء عواطفهم وردود افعالهم . انهم مثل القرب ، فهم يمتلكون بخفاء ، لكن الى حد معين ، الى الحد الذي يستطيعون احتماله ، وبعد ذلك ينفجرون ويعبرون عما في داخلهم .

« الاجتماع الذي عقده السلطان في الأيام الأخيرة ، والذي سبقه ورافقه الكثير من الهدايا والدعوات ، وتخلله ايضاً الكثير من التمثيل ، كما نقلت الي الوقائع ، يدل على ان هؤلاء الناس يمتلكون اكثر من طريقة للتفاهم . لا تكفي الكلمات ، مهما كانت مقنعة ، ولا يكفي الود مهما بالغ الانسان في اظهاره . إن لديهم وسائل سبر مختلفة عن اماكن اخرى . او بالأحرى انهم يفهمون بعضهم بعضاً بطرق سرية لغاية . لا اريد ان احوّل الأمر الى مجموعة رموز سحرية ، لكنهم ، مع ذلك ، يمتلكون وسائل اضافية . واذا افترض الانسان ان ما تراه عيناه فقط هو حقيقة ما يجري ، فلا بد ان يقع في اخطاء فادحة .

وفي اطار الوقائع العملية ، استطاع السلطان ، بقدرة فائقة ، ان يكسب المعركة الاولى . لا ادري كيف ستسير الأمور فيما بعد ، لكن المهم ، ان لا احد خرج من الاجتماع الا وكان شاعراً انه ظافر . والغريب ان الكثيرين ، كما اعرف ، لم يعودوا الا بالكلمات والهدايا الشخصية ، لكنهم مع ذلك كانوا مكتفين وراضين ، ولم يطلبوا ، او لم يطمحوا بأكثر من ذلك . ان في الحياة الصحراوية اموراً كثيرة تستدعي التوقف والانتباه .

ومن الأمور المهمة أيضاً ، ان رجال الدين ، أياً كان الموقف منهم ، رجال مهمون الى اقصى حد ، ليس باعتبارهم يملكون جنوداً وقوى ، وليس لأنهم قادرون على التأثير على الآخرين مباشرة ، ولكن لأنهم يمتلكون قدرة غير عادية على الكلام وتبرير المواقف ، اضافة الى السفاهة التي يتصفون بها ، وهذه السفاهة بالذات تجعلهم قادرين على التحكم بالآخرين .

أما العصبية القبلية ، والقراية ، ثم المصاهرة ، فلنأخذ في هذه الصحراء ، عبارة عن جداول الحياة الحقيقية . انهم هنا يشعرون بروابط القراية ، كما لو انها نوابض داخلية تتحكم وتحرك كل شيء . وكم استغرب ان رجالاً كثيرين التقيت بهم في موران والعوالي ، وبمجرد ان يكتشفوا نوعاً من القراية فيما بينهم ، حتى لو كانت بعيدة ، يتحولون الى اصدقاء الى درجة العشق والذوبان ، وكأن امرأ خارقاً قد اكتشف .

ماذا تعني الدماء في هذه الصحراء ؟ وماذا تعني القراية ؟

لا بد ان اخصص جزءاً من وقتي في المستقبل الى دراسة هذه الظاهرة التي تستحق المتابعة والاهتمام ، ليس باعتبارها شيء خارق ، ولكن باعتبارها ظاهرة مميزة في هذا المجتمع البدائي . هل مثل هذه الظواهر موجودة في مجتمعات اخرى ؟

لم يدع السلطان هذا النصر دون ان يستثمره ، فقد كلف كل واحد من الرجال بمهمات التعبئة والتحريض والاستعداد للمعركة الفاصلة ، واوفد عدداً من اولاده والاقرباء ، مع الهدايا ، الى شيوخ القبائل ، كما استبدل عدداً من امراء المناطق . وبعث العجرمي أيضاً مجموعة من رجال الدين لكي يقيم في البادية . وقبل ان تمضي ثلاثة شهور على الاجتماع الاول دعا السلطان الى اجتماع ثانٍ في موران ، وهذه المرة لم يقتصر الاجتماع على الأقارب والرجال المباشرين ، وانما دعا عدداً كبيراً من زعماء العشائر وجوهر البلاد والتجار ، ودعا ايضاً ابن مشعان ، وابن مياح وعمير ، وآخرين كانوا تابعين لهم .

الذين حضروا الاجتماع الثاني ، او كانوا قرييين منه ، قالوا ان موران عاشت اياماً لا تشبه اياماً غيرها ؛ والذين يعرفون قصر الروض قالوا ان القصر ، منذ بني ،

واقام فيه السلطان، لم يشهد حشداً بهذه الضخامة وبهذه الأهمية.

ابن مياح الوحيد الذي لم يحضر الاجتماع ، فقد اعتذر بسبب المرض ، وأوفد اثنين من اقاربه . أما ابن مشعان فقد حضر ، وحضرت معه مجموعة كبيرة من حرسه ورجاله ، وجاء عمير قبل الاجتماع بأسبوع كامل ، وبدا واضحاً من خلال اتصالاته وكلامه ، ومن خلال جرائته بشكل خاص ، ان الأمور لن تمر بسلام . فتر الذي كان في موران ، ونقل اليه ما يقوله خاله عمير ، بدا مخرجاً اول الأمر ، ثم عاصباً بعد ذلك ، وقد طلب من ابيه أن يتولّى بنفسه « تأديب » عمير ، لكن السلطان ابتسم وقال امام عدد محدود من رجاله :

- لا يا وليدي ، عمير يظل ، بالأول وبالتالي ، خالك . . .

وطلب من فتر ان يقترب منه اكثر وممس بأذنه :

- حنا نريده يطلّع الي بيطنه ، وكل ما تكلم اكثر ، كل ما انحمق ، عرفنا زين شنهو الي بياهم ، ومن رأي تزوره وتشوفه .

بعد تردد لم يطل امتثل فتر . ورغم الغضب والفتور الذي تحلل بداية اللقاء ، إلا أنه في مراحله اللاحقة اخذ شكل محاولة مستميتة من عمير في اقناع فتر لكي يتخلى عن أبيه ، وكانت حجته مرة ان خريط باع نفسه وباع البلاد للانكليز ، ومرة اخرى ان خريط بعد ان تحلّى عن الجهاد وصالح الكفار اصبح كافراً . وفتر لم يفكر جدياً باقناع خاله ، قدر ما كان يريد ان يعرف ما يتتوي عمله هو والآخرون . فقد جاء بهذا الهدف ، وتذكر احدى وصايا هاملتون «ان على الامير ان لا يخشى كثيراً من المؤامرات ، اذا كان الشعب راضياً ، أما اذا كان مكروهاً ، ويحس بعداء الشعب له ، فإن عليه ان يخشى من كل انسان ومن كل شيء» .

ورغم ان الاجتماع انتهى دون نتائج ، إلا ان فتر استطاع ، بعد عتاب طويل ، ان يمتص جزءاً من حق عمير ، واستطاع ايضاً ان يشككه بنوايا ابن مياح ؛ صحيح انه لم يستطع ان يفصله عنه ، لكن ترك في نفسه رية اقرب الى الخوف ، عندما اشار الى وجود مراسلات بين ابن مياح والانكليز ، وقد تم ضبطها ، وهي موجودة في حوزة السلطان ! كما اشار فتر الى انه يفهم دوافع الخال ، خاصة من الناحية الدينية ،

وتذكر الاثنان ، وبحزن ، الشيخ عوض ، وعين فضة ، وتمنى كل منهما لو ان الأمور اخذت مساراً آخر !

أما ما تلا ذلك من دعوات الوفود ، والاتصالات التي جرت مع الشيوخ والوجوه ، قبل الاجتماعات العامة ، والمدايا التي قدمت ، والوعود التي تزيد وتكبر مع اقتراب يوم الاجتماع ، اضافة الى الحفاوة والاهتمام والمرافقين ، فإن كل ذلك خلق دويماً ملاً موران من اقصاها الى اقصاها . واذا كان الكثيرون قد ساهموا في هذا الجهد الكبير ، خاصة اقارب السلطان واصهاره ، فإن خزل بدا الأكثر نشاطاً والأكثر دراية بمعاملة هؤلاء الشيوخ ؛ حتى الذين كانوا يبدون تأييداً متحفظاً ، او يتحصنون بالصمت والكلمات العامة التي لا تعني موقفاً ، ما يكادون يصلون الى قصر الغدير ، وبعد الغداء او العشاء او قبلهما ، وخلال خلوات لا تطول ، كان يخرج هؤلاء اكثر قناعة واكثر استعداداً للوقوف في وجه « المتمردين واهل الفتنة » .

قال السلطان لخزل بعد ايام من انتهاء هذه الاجتماعات ، وكانا في حالة من التآلق :

- ... ويلزم اقول لك يا وليدي ، ان الشغل الي اشتغلته ما تقدر عليه حمولة ...

وفهقه وتغيرت نبرة صوته وهويتابع :

- وبك طبابع ، ومع انك ابني ، واعرفك من يومك ذاك ، الا انه ما ينحزر عليك ؛ تنام نومة حبات الشتا ، وما يفرزك من نومك طوب ، وبعدها : الشغل اللي يحتاج شهر تسويه بيوم !

وبعد قليل :

- ما تعلمني شنو هي السالفة ؟

وخزل الذي ضحك ، وخرج صوته كالصهيل ، رد بتواضع :

- كلهم جماعتنا ، طال عمرك ، ونعرفهم معرفة زينة ، وافضالنا عليهم كثيرة !

- لكنهم يسمعون منك وياخذون برأيك ...

- القريشات ، طال عمرك ، تخليهم يرتخون ، فإذا ارتخوا كل شي يصير سهل :

القلوب تنفتح ، والآذان تسمع ، والي تريده تصله !

كيف جرت الاجتماعات ، وماذا قال ابن مشعان وعمير والآخرين ، وكيف رد عليهم السلطان ، وكيف رد العجري ، وكيف اشهر وقيان الضاري سيفه وهدد وتوعد ، ثم كيف روى طراد المجول وآخرون عن محاولات ابن مياح خلق الفتنة ، وعندما لوح السلطان بمجموعة من الاوراق ، قال انها رسائل ارسلها ابن مياح للانكليز . . . ان كل ذلك يروى بكثير من الاعجاب بما قاله السلطان ، وبكثير من السخرية بما قاله ابن مشعان وواحد من اقرباء ابن مياح .

باختصار : ما جرى في الاجتماعات كان تنفيذاً لما اتفق عليه قبلها ، ورغم الكلمات الغاضبة والاتهامات ، فقد كان كل شيء معروفاً سلفاً . وانتهى الاجتماع الأخير بكلمة مؤثرة للسلطان ، قال في نهايتها :

- . . . ويقولونا ما تلقون بغض لأحد ابد ، وينظرنا كل الناس طيين واجاويد ، وحنا اهل الدين والي ندافع عنه ، ومثل ما قال الله عز وجل في محكم كتابه الفتنة اشد من القتل ، فتريد من كل واحد يناظر زين ويروز خطوته قبل ما يدوس ، وقدام الجميع اقول : عفا الله عما مضى ، أما اذا واحد خرج على الجماعة فلا يلوم الا نفسه ، وما احد كبير ، وما احد بعيد ، اذا خرج على الطاعة ، وانتم يا جماعة الخير شهود .

رأفت شيخ الصاغة الذي حضر هذه الاجتماعات سجل عدداً من الملاحظات ، لكن اكثر ما لفت نظره الحالة الصحية لمعظم الذين حضروا ، فكتب في مذكراته الصحية ما يلي « . . . وسوء التغذية علامة بارزة ، ويظهر في الهزال وصفرة العيون ، فما عدا عدد محدود من الذين شاركوا في الاجتماعات ، فإن الأغلبية الساحقة تظهر عليها مظاهر سوء التغذية ، اضافة الى الامراض المزمنة ، وهذه ظاهرة تكاد تكون عامة . عدد العوران كبير جداً ، ولافت للنظر ، وكذلك الذين لا يسمعون . الذين يبدو عليهم الهرم المبكر عدد كبير ايضاً . اما المصابون بالامراض الصدرية والفتوق ، والذين يعانون من اختلال الغدد ، فإنهم الأغلبية ، او هذا ما افترض ، فتلك الطريقة في المشي او الحديث ، اضافة الى التنفس ، ولون البشرة ، تدل على انهم مصابون لا محالة ، وربما يكون ذلك نتيجة الفقر اضافة الى

نقص بعض المواد والاملاح الضرورية ، وليس نتيجة التربية ، كما قيل لي عندما سألت عدداً من الناس . أما المصابون بامراض السكري فإنهم يعلنون عن انفسهم ، ودون اذى صعوبة يمكن تمييزهم .

« وهناك ايضاً امراض عديدة ، وسوف اتابع بعض الظواهر والحالات للافادة منها في الدراسة التي »

هاملتون الذي ظل يتابع اجتماعات موران عن بعد ، فلم يظهر ، ولم يعرف الكثيرون بوجوده ، وبعد ان عرف اغلب التفاصيل ، قال لفنر ذات ليلة :

- دعني اعترف بشيء أساسي ، يا صاحب السمو . . .

وفتح فنر عينيه لسمع الاعتراف ، تابع وهو ينظر الى مكان بعيد :

- انا متأكد ان صاحب الجلالة السلطان لا يعرف ولم يطلع على ما جاء في « الامير » ، لكنه استطاع ان يصل الى الكثير من القوانين الجوهرية التي وصل اليها صاحب « الامير » واملت عليه كتابة ذلك الكتاب . . .

وبعد قليل وهو يتطلع الى فنر مواجهة :

- أما الذي اتيح له ان يطلع على تجارب الآخرين ، وان يستوعبها ، وان يمنحها من روحه وروح المكان الذي يعيش فيه ، فعندئذ لا بد ان يحقق نتائج خارقة !

رد فنر بانفعال :

- صار لنا ايام طويلة بموران ، الله يسلمك ، وما نعرف شئ الى صار بغيتنا بالعوالي ، فيلزم ان نستأذن ونشيل ، لأن وانا الف شغلة وشغلة .

قال هاملتون بدعابة :

- اذا وافق السلطان .

رد فنر بسخرية :

- او اذا وافق ابن مشعان !

« لم تبق الا ضربة واحدة ، ولا بد ان تكون الأخيرة ، وعندها تكتمل الدائرة ، وينتهي كل شيء » . هكذا قال هاملتون لنفسه بعد ان انتهى السلطان من ترتيب الأمور .

أما السلطان نفسه ، فرغم القوة والثقة ، لا يبدو متعجلاً . بل اكثر من ذلك تعاوده بين فترة واخرى التساؤلات المرة : « هذول الانكليز . . . ما يتأمنون ، ويجوز مثل ما هم مادّين معنا ، مادّين مع ابن مياح ، والامنين الفلوس الي يطرّشها هنا وهنا ومنين هذا الحيل » ليس ذلك فقط ، انهم في الفترة الأخيرة توقفوا عن تقديم المبالغ المتفق عليها ، او اخروها ، يريدون ان يخرجوه ، ان يضيقوا عليه . يشترطون ان تتوقف حوادث الحدود ، ويشيرون ، دون ان يقولوا ذلك صراحة ، الى عجزه وتردده في وضع حد لها ، وهم الذين يمولونها . لقد اصبح اكثر ميلاً لترجيح مثل هذا الاحتمال !

خزعل لا يتوقف يوماً واحداً عن التساؤل : « متى نمشي طال عمرك ؟ » يريد ان ينتقم من ابن مياح الذي خدعه اكثر من مرة . السلطان يسمع ، يهز رأسه ، يصمت مرّات ويحيب مرة :

- كل شيء بوقته زين يا وليدي . وأصعب الأمور بهذي الدنيا اربعة : الحرب والغدر والفراق والموت . الحرب اذا بدت ما تعرف متى تنتهي وشلون . أما اذا ما حضّرت روحك زين وما خليت عدوك دايع وما يعرف تجيه الضربة منين فأغلب الظن انها تأكلك قبل ما تاكل عدوك . ومن قبل قالوا : الحرب خطاها قصار ، تبدأ بواحد لكن ما تخلص بعشرة ، ولهذا السبب يلزم تتهياً لها زين ، يا وليدي ، والا صرت اثر بعد عين .

والغدر، يا وليدي، يجيك من اللي ما تتظر انه يجي منه، او من اللي امنته وخانك، وهذه ما هي صعبة ويس، تهد الحيل، فيلزم تظل عيونك مفتحة وتنام نومة الذيب.

أما الفراق فهو الموت الصغير، والموت الكبير اذا جاء ما احد يقدر يرده، يا خزرعل، يا وليدي.

العجرمي الذي لم يتحدث في امور الحرب يوماً من الأيام، اصبح معنياً بها اكثر من المحاربين. فبعد ان تزعم حملة التعبئة والتحرير، جاء من ذكره بنهاية سلفه، وكيف قتل في ظروف غامضة، ولم يعرف القاتل ابداً. أما ما حصل معه، فقد ارسل اليه ابن مياح رسالة قصيرة «انا وراك والزمان طويل وخلي خربط يحميك». واذا كان قد تكتم على هذه الرسالة فترة من الوقت، فإن المخاوف التي بدأت تطارده، في الليل والنهار، جعلته في وضع نفسي متدهور، الأمر الذي لم يخف على المحيطين به، بمن فيهم السلطان.

سأله السلطان ذات يوم، وقد بدا عليه الحذر الزائد من الذين يدخلون ويخرجون.

- اشوفك، يا ابو مشعل، ما انت ولا بد. . .

وبعد قليل وهويتسم :

- عسى ما وراك خلاف، وصحتك زينة؟

- الصحة زينة، يا طويل العمر، بس البال مشغول.

- ما لك حق ما تعلمنا يا ابو مشعل.

- تهون يا طويل العمر!

قال ابن البخت بمكر :

- إبال ما يهدا ولا يستريح الا بالصلاة والدعاء والتسبيح !

سأل السلطان بمكر مماثل :

- اخاف الخويا، معتمدي، شغلناه عنك، يا ابو مشعل؟

- يا جماعة الخير. . .

رد العجرمي بحق، ولم يتوقف الا لحظة قصيرة تابع بعدها :

- حنا وين والدنيا وين.

قال ابن البخيت بمرح :

- اهل العراق يقولون : عرب وين طنبورة وين !

فتح السلطان عينيه ، وقد داخله الشك ان الاثنين يعرفان ما لا يعرفه ، سأل بقلق :

- خير ، يا ابو مشعل ؟ سم .

وروى العجرمي كيف ارسل اليه ابن مباح عدة رسل ورسائل ، وان كل رسالة جديدة تحمل تهديداً اضافياً ، وما كان ينوي ان يزعم نفسه او يزعم الآخرين بمثل هذه التهديدات ، لولا انها اصبحت جدية تماماً خلال الفترة الأخيرة .

السلطان الذي استغرب ، ابدى استياءه لأن العجرمي لم يبلغه هذه الرسائل في حينها ، لأن حامل الرسالة يمكن ان يكون مفتاحاً مناسباً لمعرفة الكثير من الأمور . ومع ذلك ، ولكي يخفف السلطان من حذر او خوف العجرمي قال بدعابة :

- وانت تعرف ، يا ابو مشعل ، الي يريد يسوي شي ما يشيل وباه طبل ، ولا يصيح من فوق منارة !

بعد ذلك اصبح العجرمي ، اينما سار ، واينما حل ، يسير معه ، ويكون حوله ، مجموعة من الحرس المدججين ، الأمر الذي اثار الكثير من السخرية والتعليقات .

قال شمران العنبي ، عارفة موران ، وشيخ سوق الحلال :

- ابشروا يا اهل السوق لأن ارواحكم بأيدي امينة ورزقكم مضمون ، ما دام العجرمي هو الي يقود جنود طويل العمر !

ابن البخيت الذي كان لديه الكثير ليقوله ، وكان مملوءاً بالسخرية في هذه الفترة بالذات ، خاصة وان عدة خلافات ثارت في بيت العجرمي ، وربما هي التي سببت له الضعف والاضطراب ، وقد عرف ابن البخيت اغلب تفاصيلها ، إلا انه لم يجد احداً لكي يبوح له او لأن يحدثه . قال للسلطان بعد اسابيع من مرافقة الجند للعجرمي ، وكان في لحظة انفعال وتألق :

- ابن مياح عن العجرمي ابعده من الأرض عن السما ، يا طويل العمر بس الخوف من القرابين ، الخوف من اللي ينامون على الوسادة الثانية . هذا هو اللي قاطع ظهره !

وفهم السلطان وضحك .

لم يكن العجرمي الوحيد الذي تغير وبدا مختلفاً ، ابن العليان تغير ايضاً . واختلف . فاذا كان قد تدبر مصاريف الاجتماع الأول ، ووجد المبررات للهدايا والعطايا ، وظل ودوداً قريباً من السلطان ، فإن الاجتماع الثاني سبّب له هموماً كبيرة واحراجات ليس لها نهاية . فحتى الى ايام قبل الاجتماع الأخير كان السلطان وحده الأمر بالصرف ، وكان وحده الذي يُعطى وتصرف عطاياه ، أما عندما اشترك خزعل بالصرف ايضاً ، فقد خرج ابن العليان عن طوره .
قال له السلطان بود حازم :

- . . . ما عليك يا عثمان ، المهم انت اصرف ، وبعدين اذا طلوعوا الجماعة زينين او شنينين فهذي علينا ، انا مسؤول .

- والفلوس منين ، يا طويل العمر ؟

- ما عندك فلوس هالحين ؟

- عندي ، طال عمرك ، بس وريقة من يدك ووريقة من يد خزعل ، تخلص ، وأبوك الله يرحمه !

- حنا ، يا عثمان ، نعرف شنو القدر اللي عندك ، وما راح نصرف الا اللي نقدر عليه ، فوكل الله ولا تخف .

- خوف ماني بخايف يا طويل العمر ، بس اذا خلصت الفلوس اتوقف ، ويعدها تركضون هنا وهنا ، وما تلقون ، وعندها انتم اللي تفشلون ، تسود وجوهكم وما تقدرتون تناظرون الناس !

بدت الكلمات الأخيرة قاسية ، ولم يكن عثمان يعنيه ، لكنها وردت على لسانه هكذا ، قال السلطان بحزم ودون مودة :

- انت ما عليك ، اصرف وهذا هو !

والسلطان الذي توقع مصاعب مالية في وقت مبكر ، لم يترك الأمر الى حين وقوع هذه المصاعب ، فقد احتاط لها ، اذ ارسل العديدين ، مع الهدايا ، لكي يطلب القروض ، وقد جاءت بعضها ، وكانت اكثر مما قدر ، فاحتفظ بها لكي يفاجئ ابن العليان ، ولكي يواجه الاحتمالات الصعبة في معركته الأخيرة مع ابن مياح .

مرة اخرى ، قيل ان الشيخة ، مثلما اخرجت صفائح الذهب في معركة وادي
الفيض ، فعلت هذه المرة . وقيل ان العجومي قدم اموالاً طائلة للسلطان . أما
القروض التي تلقاها من دول مجاورة ، ومن تجار موران والعوالي فكانت كبيرة . وقد
ساهم فتر اكثر من الآخرين في تأمين هذه القروض ، وسرت اشاعة قوية ان
الصاحب هو الذي استطاع الحصول على مبالغ كبيرة من الذهب ، على شكل
قروض وهبات ، من شركات كانت تريد ان تستخرج الذهب من موران والعوالي .

كل هذه الجهود والاحتياطات ، لم تقنع ابن العليان ولم يشارك فيها . وعندما
اقترب موعد الاجتماع الثاني ، وبدأت الأموال التي كانت تحت يديه تتسرب مثلما
تتسرب مياه الامطار في الرمال ، فقد امتنع عن زيارة القصر ، وبدأ نزقاً عصياً ،
وكثيراً ما بعث برسائل غير مباشرة الى السلطان . فبعد ان ظل ملازماً للقصر ،
ليرقب القادمين ، وليعرف مدى علاقتهم بالسلطان ، وليحاول ، قدر ما يستطيع ،
ان يحد من العطايا ويمنع الاسراف ، فإن الأمر عندما بلغ حداً معيناً ، وعندما تجاوز
خزعل الحدود التي كان يتصورها او يفترضها ، فقد قرر وبحزم ان يمتنع أولاً عن
الذهاب الى القصر ، ويبعث مع عرفان الهجرس برسالة شفوية الى السلطان ، بعد
ذلك ، واصر عليه ان يبلغها ، او ان يبلغ قسماً منها على الأقل . قال لعرفان بحدة :

- تبلغ طويل العمر : الفلوس قليلة ، واذا كفت اليوم باكر ما تكفي . . .

وزفر مثل ثور وهو يضيف :

- وتقول له : ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء !

ابتسم بحزن ، تطلع حواليه ونبر بعداء :

- . . . واذا ظلت الوريقات تصلني مع الاختام : « ادفع لحامله » ، ترى باكر راح
اكتشف عن قرعتي واقول لكل واحد يجي ومعه وريقة : انقعها يا وليدي واشرب
ماها ، لأن طويل العمر مفلس ، ويضطر من طيز وسبعة . . .

ولما اكتشف انه قال في لحظة انفعال كلاماً غير لائق ، هز رأسه بأسف و اضاف :

- هذا الكلام الي قلته ، يا عرفان ، بينا ، وما يلزم تقوله لطويل العمر . . .

وبعد قليل ويحزن :

- يلزم تقول له : الفلوس وُشلت ، مصبحة مسية ، وعليه أن يشد يده .

يصمت قليلاً ثم يضيف بحق :

- وما ادري من اي فج طلع لنا هذا الغضب ، الي ياكل وما يشبع : خزعل . . .

وتغير اللهجة :

- وتقول لطويل العمر : اصرف الي تريده ، بس خلصنا من هذا الغول ،
خزعل !

واذا كان السلطان قد تدخل اولاً لكي يجد من اسراف خزعل ومبالغاته ، وبعد
ذلك لكي يقدم دعماً لمالية ابن العليان ، لم يتوقعه ، فإن الأمور لم تعد الى مجاريها ، ولم
تعدل العلاقات بين السلطان وابن العليان الا في وقت متأخر . وقد كان هناك سبب
لم يشر اليه احد بشكل مباشر ، فالشركة الانكليزية التي جاءته بتوصية من
صديق لابن العليان ، وهو تاجر في الهند ، لكي تبحث عن الذهب في موران ،
ولكي تحدد ما اذا كانت هناك ثروات اخرى يمكن استثمارها ، وقد وعدت ان
تقدم الكثير من القروض ، اذا وجدت ما يمكن ان تستثمره ، والتي جابت
موران من اقصاها الى اقصاها ، وتوقع عثمان العليان الكثير ، هذه الشركة ،
بعد عمليات البحث والتحري ، انتهت الى نتيجة سلبية ، اذ اعلنت انها
ستحمل هذه الخسائر ، وتغادر موران غير أسفة ، لكنها ، مع ذلك استبقت
شركة صغيرة ، وبعدد محدود من الرجال ، لكي تواصل البحث عن النفط .

حين اقام السلطان احتفالاً كبيراً في قصر الروض بمناسبة بلوغ ثلاثة من اولاده مبلغ الرجال ، وكان راكان قد فرض نفسه ، واعتبر انه قد اصبح رجلاً بكل معنى الكلمة حتى دون احتفال ، وكان الولدان الآخرون : جازي ابن جوهرة وضاري ابن وطفة ، وبدا لعثمان العليان ان هذه الاحتفالات سوف تكلفه الكثير ، فقد استأذن ان يسافر الى العوالي ، «لأن سمو الأمير فتر طلب قدومي من اجل ترتيب الأمور المالية» ، وكان لديه سبب آخر ، اكثر اهمية ، ان يبحث مع هاملتون «امر هؤلاء الانكليز الذين لا يعرفون كيف يشتغلون» .

السلطان الذي وافق على سفره ، قال لابن البخيت مازحاً :

- اتاري عمك ، يا عبدالله ، ما يريد ينعزم حتى ما يفك كيسه ويعزم الناس !

رد ابن البخيت بدعابة :

- خلي عمي ، يا طويل العمر ، بهمه ، لأنه طول الليل ما ينام . . .

فتح السلطان عينيه باستغراب وتساؤل . تابع ابن البخيت بمكر :

- انما على نياتكم ترزقون . . .

وضحك وبعد قليل ، وقد تغيرت لهجته :

- عمي ، يا طويل العمر ، الطمع ذابحه ، يخاف اذا نام يسها عن فلوله ، أما اذا

عدّها وتفرّج عليها فيغشى من الضحك ؛ وعمي الثاني ما ينام لأن الخوف

ذابحه ، يتصور اذا غفا جا ابن مياح وجره من فراشه !

فهقه ، وهز رأسه ثم اضاف :

- وكلفوني ، يا طويل العمر ، ان انام عنهم الاثنين . . .

وبعد قليل وبدعابة :

- وابد ، يا طويل العمر ، ما تلقى احسن من المطبل بالدنيا المزمر بالآخرة ، لا

فلوس يخاف عليها ولا اشباح تطارده .

هز رأسه وهو يضحك ، وتابع بعد قليل :

- وكان يلزم اظل وحدي ، ولكن انت ، طال عمرك ، حظيت العلاقة بـرقتي ،

وزوّجتي . . .

ولم ينتظر :

- لكن ، والشهادة لله ، بنت العليان ما مثلها بين البنات ، وهي تقول : ناظر مالك ، حارس جهنم ، لا يرتاح ولا يريح وما تعرف تقصد هذا او ذاك !

اقيمت الاحتفالات بقصر الروض ، وكانت بمثابة رد اعتبار ، ومظهراً من مظاهر القوة والثقة . ورغم ان فضة ووظفة بالذات كانتا تريدان من هذه الاحتفالات تحدياً للنساء الاخريات ، ولخلق صيغة جديدة للتعامل في القصر ، فإن حزم السلطان ، وتلك الطريقة التي تعامل بها ، جعلت الأمور تأخذ مجرى آخر . قال ابن العريفان للمغنين الذين احضرتهم فضة :

- بوجوهكم تروحون لسوق الحلال ، هناك يمكن تلقون واحد يريد يطهر ابنه ، او واحد يريد يزوج امه او عمه ، واذا ما اتفقتم معهم على العطل والزمر ، تطبلون وتزمررون على ارواح موق المسلمين ، وهاكم القريشات اللي وعدتكم بيها ام راكان !

افراد الفرقة الموسيقية استغربوا ، ظنوا الأمر دعابة ، او سوء فهم ، نتيجة اختلاف اللهجة . ولما اصرّ عليهم ابن العريفان ان يغادروا ، لأن الحفلة الغيت ، وكانوا يرون الحركة حولهم ، فقد اكتفوا بأن تبادلوا النظرات وابتسموا . أما عندما سمعوا بسوق الحلال ، وبالظهور والزواج ، فقد ظنوا ، لأول وهلة ، ان الاحتفالات انتقلت الى هناك ، وحينما اكتشفوا عدم وجود شيء سخروا ثم جمعوا ادواتهم لكي يعودوا الى العوالي ، « لأن موران التي لا تعرف الطرب ولا ترقص على النغم لا تستحق ان يبقى فيها الانسان » .

قال شمران العنبي ، الذي عرف ببعض تفاصيل ما جرى :

- يا اهل السوق :

اذا كان رب البيت بالدف ناقرأ فشيمة اهل البيت كلهم الرقص

ابن البخيت الذي يعرف الكثير ، ولا يستطيع ان يتكلم ، خاصة في مثل هذا الظرف ، حيث تطبق عليه القيود من كل جانب ، وكان السلطان ذاته ، في حالة من الانشغال والهـم والذهول ، فقد انشغل بجمع اشعار البادية ، فلما جاءه الابن الأول ، وقد سماه باسم ابيه «بادي» ، انشغل بهذا الولد . السلطان بعث اليه بهدية وابيات من الشعر نظمها بنفسه ، لقد فعل ذلك لكي يفاجئه ، كما اعتبرها

التفاته خاصة لأم المولود ، لأنه يرى عبدالله كل يوم ، ولم يكن بحاجة الى المراسلة او اتباع هذه الطريقة غير المباشرة !

مرت شهور من التعبشة والحركة ، والانتظار ، كان السلطان خلالها يريد التأكد ان الانكليز لن يدافعوا عن ابن مياح ، ولن يستخدموه ورقة للمضغظ عليه . وكان يحاول ايضاً ان يجزىء معركته ، فبعث الى ابن مشعان بالهدايا والعيون ، وبعث اليه بأكثر من رسول مع وعود ان يجعله حاكماً لأية منطقة اذا تخلى عن ابن مياح . أما عمير ، فإنه الثور الهائج واللي ما يحمله حتى رب العالمين . اذ رغم الرسل والفتاوى ، ورغم الوعود الكثيرة ، فلا يعرف غير : « الانكريز الكفار ، وكافر كل من يتعاون معهم » .

أما ابن العليان الذي بقي اكثر من ثلاثة شهور في العوالي ، ورغم النتائج الايجابية التي حصلت ، من حيث تنظيم الأمور المالية ، فقد عاد متشائماً . واذا كان قد اتخذ موقف الحزم والتقتير ، منذ ان كلفه السلطان بالأمور المالية ، فقد اراد ، مجدداً ، ان يبرز المصاعب التي تواجه السلطنة . وقد اشار بشكل خاص الى انحباس الأمطار ، وبالتالي احتمال ان تكون هذه السنة من السنوات الصعبة . مع العلم ان جزءاً من التشاؤم الذي لازمه هو نتيجة اخفاق شركة الذهب ، وكان يوليها اهتماماً كبيراً وفكر ان يكون شريكاً فيها ، عكس ما اقترحته الشركة ، عن طريق صديقه التاجر في الهند ، ان يكتفي بنسبة معينة كأتعاب .

قال له السلطان ، وقد اجتمعوا في بيت العجرمي ، وكانوا مجموعة قليلة ، وبعد ان اعاد عثمان العليان ما كان ذكره :

- ... ومرت علينا سنين اصعب ، يا عثمان ، وصارت سوائف واخبار ، وجماعتنا ، كل واحد منهم ، حوصلته حوصلة بعير ، فلا تحف .

ابتسم وهز رأسه ، ثم اضاف :

- ومثل ما قال عليه الصلاة والسلام : تغافلوا بالخير تجدوه ، وهذا شيخنا ، ابو مشعل ، يعرف شلون كانت احوالنا ، وهذا ابن البخيت ما يعرف الا سوائف التاريخ : صارت بالسنة الفلانية ، ووقعت بالسنة الفلانية ، وبعدها ظلت

الدنيا بخير ، وعاش الناس وخلفوا ، فيلزم نطول بالناس ، ويلزم نوكل الله ،
وننضال .

رد ابن العليان بسخرية ونزق :

- وقال المولى : اسع يا عبدي وانا معك ، وقال عليه الصلاة والسلام : لا
اخاف على امتي من الفقر ، اخاف عليها من قلة التدبير .

قال ابن البخت ، وكأنه يحدث نفسه :

- آخ من المال ، هو اللي يوقع بين الأخوان ، وهو اللي يخرب البيوت ويحرق الخروب .

وبعد قليل وهو يقهقه :

- وانا مرتاح : لا خيل عندي اهديا ولا مال . . .

قاطعته خزعول بمرح :

- خيل موران كلها على حسابك وتحت امرك ، يا ابو بادي !

رد بتورية :

- تكفيني الكحلة اللي عندي !

قال المعجومي كمضيف :

- وكلوا الله يا جماعو الخير ، وهالحين نقول لكم ، وبدون امر عليكم ، تفضلوا ،

العشا جاهز !

سنوات الخير اذا اقبلت على الصحراء ، فإنها تصل متمهلة ، هادئة ، ورغم ان الناس يستقبلونها بكثير من الرضا والفرح ، إلا انهم لا يحبون ان يتحدثوا عن ذلك بزهو او بصوت عالٍ ، فهم يخافون أنفسهم قبل ان يخافوا الآخرين ، « لأن العيون الشريرة لا تتوقف يوماً واحداً عن المراقبة والحسد ، وتنتظر الوقت المناسب لتقضي على كل شيء » . لقد حصل ذلك ، في موران والخويزة ، مرات لا حصر لها . اذا تكاد تأتي الامطار المبكرة ، ويتوقع الناس سنة لا يجوعون فيها ، حتى تدب الحركة في الاسواق ، فيزيد البيع والشراء ، توقعاً ان الذين يشترون سيكونون قادرين على ان يدفعوا اذا باعوا محاصيلهم من التمر او الشعير ، او حين تعود القطعان من البادية ، بعد ان تكون قد شبعت وسمنت ، ويوافق البائعون على الانتظار . ما يكاد مثل هذا يحصل حتى تزحف ارتال الجراد وتأتي على كل شيء . او يقبل الوباء فيقضي على الكثير من البشر والحيوانات ، وعند ذاك يتطلع الناس الى بعضهم بحزن ، ويتطلع الذين باعوا الى المشتريين بتساؤل ، فيرد هؤلاء على النظرات بأسف ، وغالباً ما يتم الاتفاق ، وبشكل غامض ، على صيغة ما ، لانقاذ ما يمكن انقاذه ، لأن المصيبة لا تترك مجالاً للمساومة او الضغط !

أما اذا جاءت سنوات المحل فإنها لا تعرف التمهّل او الهدوء ، تأتي قوية عاصفة ، وترافقها ، منذ وقت مبكر ، نذر لا تخفى على الكثيرين . فالرياح الزرقاء ، وهي الرياح الشديدة البرودة والجفاف ، لا تقتل المواشي وحدها ، ولا تطرد الغيوم ، او تذرّوها كما تذرّو الرمال فقط ، وانما تأتي قبل اوانها من السنة ، فتتلف اواخر المحاصيل ، وتحفف ما بقي من الغدران ، وتجعل الناس في حيرة ،

هل يزرعون ام يسافرون ام يغزون ويقتل بعضهم بعضاً ؟ ورغم ان الناس يعرفون غريزياً نذر الجفاف ، إلا انهم مولعون بأن يمدعوا انفسهم ، فيتظاهرون ، ازاء بعضهم ، بنوع من التفاؤل والتوقع . حتى اذا انتصف الشتاء ولم يبق امل من أي نوع ، فإن الغضب حين ذاك يصبح هو الأقوى ، ويتغلب على ما عده من العواطف والتصرفات . والغضب اذا بدأ لا يتوقف ولا يبدأ إلا في وقت متأخر ، اذ يتحول الى حزن اقرب الى الاسى ، بعد ان يكون الشيء الكثير قد حصل ما بين بداية الغضب وبجيء الاسى ثم حلول الاحزان .

والشيوخ والاقوياء والكبار اذا كانوا قادرين على ان يعطوا الحياة ، في هذه الصحراء ، مسارات واضحة ، ويمكن التحكم بها ، في سنوات الخير ، ويكون الاصغر سناً ، او الأدنى مرتبة ، اقدر على فهم هذه المسارات والاستجابة لها ، فإن سنوات الجفاف تغير كل شيء ، اذ يفقد الشيوخ والاقوياء والكبار سيطرتهم وذكاءهم ، أو يصبحون اقل قدرة على الانقاع او التحكم ، كما يصبح الأصغر سناً والأدنى مرتبة ، من الشراسة والعنف ، بحيث لا يفهمون ولا يستجيبون ، بل ويبدون اكثر رغبة واستعداداً لأن يخالفوا ما اصبح ثابتاً وقوياً من الصيغ والافكار والعلاقات . والكبار الذين يدركون هذا الجموح في وقت مبكر ، ويفهمون كيف يمكن ان يتجاوز كل حد ، فإنهم في الأغلب يصبحون اكثر ليناً واكثر استعداداً للمسايرة والتسامح .

والمدن والبلدات ، وحتى القرى ، ويطرق لاخلو من المكر الغريزي ، اضافة الى الارث الذي انتقل من جيل الى جيل ، اقدر على احتمال القحط ومواجهته من البادية . فالناس في الأماكن المستقرة ، ويطرق غامضة ، يتعلمون وضع بعض الأشياء في الزوايا ، او بعيداً عن الاستعمال ، لعدم حاجتهم اليها ، ثم ينسونها ، لتصبح هذه الأشياء هامة وذات قيمة كبيرة في سنوات القحط ، اذ فجأة يتذكرونها او يستخرجونها لتساعدهم على مواجهة الأيام الصعبة . كما ان الناس في المدن ، ومنذ وقت لا يدركه احد ، تعودوا عادات اصبحت جزءاً من حياتهم ، حيث اصبحوا اكثر قدرة على التكيف ، وعلى التعامل ، وحتى على الاحتيال .

في البادية الأمر يختلف ، اذ ما تكاد الأرض تقسو ، حتى تهزل المشاية ، ثم تبدأ

تساقط. صحيح ان اصحابها يتراكمضون ليزبحوا، أو ليعموا قدر ما يستطيعون، لكن ذلك لا يدوم الا اياماً، وعلى ابعد حد، أسابيع قليلة، لتبدأ الحياة بعدها عارية مكشوفة، تماماً كما هو حال الصحراء ذاتها، او حال الشجرة التي تنفض اوراقها مع اوائل موجات البرد.

واذا كان سكان المدن اكثر قدرة واستعداداً على مواجهة مثل هذي السنين ، فإن البدو ، رغم مكرهم ، وذلك الغموض الذي يغلف حياتهم ، سرعان ما يصبحون مثل الاشجار التي تنفض اوراقها، بل اكثر من ذلك، يصبحون مثل اشجار الحور تماماً: قامات طويلة، هزيلة، عارية، وشديدة الحركة والارتجاف.

وعندما يبدأ الالتفات ، ثم التحفز فالغضب ، فإن الكثيرين يتحسبون ويخافون . وهذا ما حصل في ذلك العام . اذ ما كادت سنة « التحليل والتحريم » ، كما سمي الكثيرون الاجتماع الذي عقده خريبط ، ثم اخذت السنة ذلك الاسم ، تبدأ ، حتى توقع الكثيرون اياماً صعبة .

قال عثمان العليان لابن البخيت بنزق اقرب الى الغضب :

- ... وقلنا له : اتركوا الخرابيط ، اتركوا الاسراف ومرد الفلوس ، لأن القرش الابيض يفيد في اليوم الأسود ، لكن لا حياة لمن تنادي ...
توقف ريشاً يحمر نفساً عميقاً:

- وها نحن : تعال يا عثمان ؛ دبر الأمور يا عثمان ؛ نريد فلوس يا عثمان ؛ لو كان عثمان نبي الله يوسف ما قدر يسوي شي !

قال عبدالله البخيت بسخرية :

- لا تخف، يا رجال، طويل العمر يدبر كل شي !

- اي بالله، عرفان الهجرس ينقش له الوريقات وهو يطبخ عليها اختامه، وحولوها لابن العليان : وتعال يا عثمان اصرف ...

وفجأة صار نرقاً :

- ما تقول لي يا عبدالله منين نصرف ؟ منين نجيب فلوس ؟
- علمي علمك ، الله يسلمك ..
- لا . . . انت كل ساعة وكل يوم راسك لراسه ، تسولفون وتتسامرون ، ويلزم تقول له : ما يصير يا طويل العمر ، هذا اسراف وقلة دين . . .
- ضحك عبدالله البخيت ، وقال :
- لو كنت مكانك ، امين صندوق : اضيّع المفتاح ، او اغيب ، واذا ما فاد لا هذا ولا ذاك أتماوت !
- صرخ عثمان العليان ، وكأنه يؤذن :
- سويت كل هذا ، يا عبدالله ، واكثر ، بس ابد ما يفيد!
- اذن ما عليك إلا تصبر لأن الله مع الصابرين .
- وبعد قليل وبحزن :
- وانا ، لك عليّ ، اقول له كل شي ، لكن لا رأي لمن لا يطاع ، خاصة اذا كان مثلي : مفلس ، وما هو عنتر ولا عنده عسكر .
- انت اقرا على رأسه ، قل له ، وعسى ان الله ييسرها ، وبعدها اذا ما فاد الحجام يفيد الكي ، واذا ما فاد لا هذا ولا ذاك نشيل ونمشي ، وللحكمة رب يحميها!

ابن مشعان بعد ان عاد من العوالي ، كان لديه من المال والحلال ما يجعله مكتفياً ، ويتنظر الوقت المناسب لكي يتحرك وليعلن الموقف الذي يلائمه ، وليس كما يريد عمير او ابن مياح ، وليس كما يريد خريبط ايضاً . لكنه اضطرب وتغير في هذه السنة السوداء . اذ ما كادت نذر المحل تطل برأسها ، وبدأ رجال عشيرته يتلفتون ثم يتساءلون ، حتى ادرك انه اذا كان قادراً على السيطرة في السنين السابقة ، لأنها كانت سنين اقل قسوة ، وان لم تبلغ سنين الخير ، خاصة وان اغلب رجاله عادوا من العوالي بأشياء كثيرة ، فقد بدأ يتحسب ويتلفت . فلما جاءت رسالته من ابن مياح ، يطلب منه ان يلتقوا في الجمرة « لأن الأمور وصلت الى حد لا يمكن لأحد ان يصبر ويتحمل » ، فقد وافق .

في الجمرة تم استعراض كل شيء : الانتصارات التي تحققت ، وقد كانت نتيجة التضحيات والاقدام . وراية الاسلام لم ترتفع الا من خلال الجهود التي بذلوها ، وكانوا اساسيين فيها ، ثم جاء بعد ذلك عمير . حتى سنوات المحل التي مرت لم تكن قاسية وصعبة مثل هذه السنة ، لأن « المجاهدين » كانوا قادرين على انتزاع الغنائم من الكفرة . الآن يجب ان يبدأوا من جديد . قال عمير الذي وصل الى الجمرة متأخراً بضعة ايام :

- لا يصلح آخر هذه الأمة الا كما صلح اولها ، وليس امامنا الا الجهاد ، ولا يمكن ان نصبر او نسكت ، لأن الناس معنا بقدر ما نكون معهم .

قال ابن مياح :

- وتذكر يا عويد : كنا نقول للواحد مت بموت ، هالحين اذا قلنا لواحد من جماعتنا : دونك الفرس وردّها للماء ، ياخذها وكأنك قاتل ابوه .
تنفس بعمق وأضاف :

- الناس ضاقت ارواحها - يا عويد - ضاقت من الجوع ومن الكفر ، واذا طاعنا الناس اليوم ما تدري شنو الي يصير باكر ، اذا ظلمنا شاذين عليهم .
في الجمرة تم الاتفاق ان تتحرك البادية كلها . وفي منتصف الربيع تحركت .

قال الكثيرون : « لو دامت لغير خريبط ما وصلت له ، ومثلما جاء في سنة المحل يذهب في سنة المحل » . وقال غيرهم : « هذه السنة لا تشبه غيرها من السنين ، فإذا مرت على خريبط فإنه يعيش مائة سنة ، لكن الظن انه يمشي » .

رجال ابن ماضي الذين انتقلوا من العوالي الى جهة الخويزة ، قالوا ، وبصوت عالٍ ، ووصل كلامهم الى رجال ابن مياح « خريبط الي ساعده وقوّاه الانكريز ، ولولا هم ما وصل العوالي ولا ظل هناك يوم ، لكن بعد ما تركوه يلزمه هالحين يدفع الشمن ، ويوفي ديونه وديون غيره ، والي يبلغ ابرة يزق مخراز . . وتشوفون » .

ورجال البادية الذين سمعوا لم يكونوا بحاجة الى فتاوٍ كثيرة او الى اقناع ، خاصة في مثل هذه السنة ، فالطبيعة هي التي تفرض وتقرر ما يمكن أو ما يجب ان يكون .
ولذلك ما ان بدأت الحركة واعقبها الدوي ، حتى بدأ التوقع يعمّ ان خريبط لن يصمد ولن يبقى ، وبلغ الأمر ان تراهن الكثيرون ، وقالوا بصوت عالٍ :
« الانكريز ما لهم صاحب ، ومثل ما تركوا غيره امس يتركونه اليوم ! » .

كتب مؤرخ خريبط بعد سنين « لقد اقلحت الخطة البريطانية في جعل موقف خريبط ادق من الشعرة وأحد من السيف . . . ذلك ان روح النقمة عليه شملت انحاء بلاده ، وكان ابن مياح في مقدمة الثائرين ، وسرت روح الحماسة في نفوس العشائر والقبائل ، على صعيد غرض واحد : المطالبة باعلان الجهاد ، ولقيت هذه الدعوة الصدى المستجاب في ارجاء البلاد ، وانتشرت اشاعات السوء اكثر من ذي قبل : خريبط باع نفسه للانكليز ، فلا بد من تنحيته عن القيادة » .

وكتب مؤرخ محاميد ما يلي : « ان وضع خريبط اصبح مهزوزاً ، ومع ذلك ظلت الدبلوماسية البريطانية ترى فيه القوة الفعلية الوحيدة التي تعتزم التعاون معها . ولذلك فإن محاولات الاتفاق ظلت ممكنة شريطة ان تحدد بدقة الصيغة ويتفق على الشروط .

ولم يترك خريبط الثورة تصل اليه ، جند رجال المدن ورجال الدين ، واستغل العلاقات والفجوات التي يعرفها ، وساهم بتكوينها ، خلال فترات سابقة ، وانطلق الى البادية قبل ان تصله البادية .

قال ابن البخيت الذي كان يتابع ادق التفاصيل ، ويعرف اكثر الاسرار خفاء :

- يا طويل العمر ، اسمع مني واترك ، لكن يلزم اقول .
وحين ابتسم السلطان ، تابع عبدالله البخيت بجرأة اكبر :

هذول الانكريز ما لهم رب ، هذول مع الواقف ، وهم معك وما هم معك ، فإذا ظليت مع القناصل ، وكتابتنا وكتابكم ، نرى راحت عليك ، أما اذا لاقيتهم بعد نص الطريق ، وقلت لهم بصير وما بصير ، تراهم يفهمون عليك احسن .
وهز رأسه عدة مرات وازاف بحزن :

- قلنا لك ، يا طويل العمر : ابن مشعان : الوطفانية ، وخد وعين ، لكن الي يشورون عليك ما يعرفون الا كلمة واحدة : السيف .

استراح قليلاً ، بدا مضطرباً لا يعرف هل يتابع بنفس اللهجة ام يغيرها . رد عليه السلطان :

- ما تركنا شي الا وسويناه ، يا عبدالله ، وانت تدري .

- ادري ، يا طويل العمر ، بس ابن مشعان غير عمير وابن مياح .

- لا تغتر : الكلب اخو السلوقي ، وهالحين تشوفهم شلون صاروا جميع .

قال العجرمي بفخامة وان بدا خائفاً :

- ارى ، يا طويل العمر ، ان نوافق على ان يكون حاكماً للحويزة حقناً لدماء

المسلمين ، لأن ابن مياح شايف الموت قدامه وراكض عليه ، وأخاف عليكم منه !

رد السلطان بغضب وسخرية :

- لا تخف ، يا ابو مشعل ، اذا جا الموت ما احد يقدر يرده !

- المهم حقن دماء المسلمين .

- دماء المسلمين ، يا شيخنا ، ما عليها خلاف ، لكن ابن مياح ما هو مصلي على النبي ويريد اكثر من الحويزة !

وقرر السلطان ان لا يسمع ، ومثلما اندفع الى البادية ، للملاقاة خصومه قبل ان يصلوه ، فقد واصل المعركة . كان متأكداً ان الانكليز ، كما قال له ابن البخت ، مع الواقف ، ولذلك فإن اي تنازل سوف يقود الى تنازل اكبر ، وأي محاولة للصلح او الموافقة سوف تؤدي الى الهزيمة .

ركز هجماته ، في بداية المعركة ، على ابن مشعان ، لأنه كان الأضعف ، ومتردداً اكثر ، وخلال بضع معارك استطاع ان يفتح ثغرة ، ما لبثت ان اتسعت ، مما اضطر ابن مشعان للاستسلام ، خاصة بعد ان تمردت عليه فئات من قبائله .

أما مع ابن مياح فقد طلب من خزعل ان يشاغله وان يستدرجه ، وهكذا بدأت معارك الكر والفر بين الطرفين ، ومع هذه المعارك الرسل والرسائل ، والوعود والكمائن ، فلما حقق السلطان انتصاره على ابن مشعان ، اندفع لملاقاة ابن مياح ، لكن عناد احدهما اصطدم بعناد الآخر ، والقسوة التي بدرت من كل طرف جعلت المعارك تطول ، فلما دخل الصيف الكبير ، في هذه السنة القاسية ، بدا ان الطرفين قد تعبوا ، ويواجهان الفناء الكامل اذا حاولا الاستمرار ، ولذلك فقد تراجعت المعارك ثم هدأت ، انتظاراً لوقت آخر .

ولم يترك السلطان الوقت يفوته ، فقد بعث بعنان بسيوني الى الانكليز وراء الحدود ، والى ابن ماضي ايضاً . وخلال هذه المباحثات تم الاتفاق على كل شيء !

ولما بدأت المعارك في منتصف الحريف مرة اخرى ، اندفع السلطان بقوة كبيرة ليجهز على ابن مياح ، وذكر عدد من جنود السلطان ان التعليمات التي تلقوها كانت قصيرة : « لا نريد اسرى » ولذلك فإن الدماء التي سالت في صحاري الحويزة ، وعند البسيمة بالذات ، خلفت اشجاراً شديدة الخضرة ، كما يذكر المسافرون الذي يغادرون الحويزة من نقطة الحدود هذه . وما كانت هذه الدماء لتتوقف لو لم يسر النبأ ان ابن مياح قد قتل . لكن ما حصل في الواقع انه اصيب بجرح بالغ ، وتم نقله الى المؤخرة . لما علم السلطان بدا سعيه الى درجة انه لم يستطع ان ينام لحظة واحدة ، ولم يتوقف عن الحركة والسؤال طوال تلك الليلة .

قال لابن البخيت الذي كان يساهره :

- والله . . والله يا عبدالله بعدما ظفرت بابن مياح لاخلية درس لكل بني آدم !
وابتسم وازداد بثقة :

- الموت له راحة ، لكن ما راح اخليه يموت ، واذا عشنا تشوف !

ورغم ان ابن مياح هزم وجرح ، « إلا ان السلطان اصرّ على احضاره ، فأحضر محمولاً على نقالة من سعف النخيل الى السلطان في خيمة اعدت له ، وكان الجريح في حالة خطيرة اعجزته عن الكلام ، وأبصر السلطان بعينه تلك الحال التي آل اليها احد قادة جيوشه الاكفاء فتألم ولزم الصمت برهة وجيزة كان وجهه خلالها يطفح بالغضب الشديد المخيف » وبعد ذلك « نقل الجريح الى بيته في الرويفة ، وطلب السلطان من طبيبه ان يعالجه » . كان يريد حياً ، ويريد ان يعرف مدى الاصابة . أما حين تأكد ، وجاء اقرباء ابن مياح ، بعد ايام ، ومع الأقرباء اثنتان من نسائه ، لطلب العفو ، فقد كان السلطان كريماً ! قال للوفد :

- قولوا لابو جازي ما يخالف ، عفيت ، وعفا الله عما مضى !

عمير الذي كان اقرب الى الزرافة ، والذي تبين قامته من بعيد ، واول ما يظهر منه رقبته ، ثم اذا اقترب تظهر اسنانه ، والذي لا يتعب ولا يتوقف عن الحركة ، قبض عليه حرس السلطان ، حين كان عائداً يقود مجموعة صغيرة باتجاه معسكر ابن مياح . حاول ان يقاوم ، حاول ان يفعل شيئاً ، لكن مقاومته انتهت حين شعر ان

الرجال الذين امامه ، والذين يشهرون بنادقهم ، يفهمون شيئاً واحداً : القتل ، ولا شيء غير القتل ، اكثرهما يفهمون الكلمات التي يمكن ان يقوها ، ولذلك قرر ان يستسلم .

حين وصل الى معسكر السلطان ، والتقت النظرات ، سألته السلطان :

- وهالحين . . يا عمير ؟

رد بسخرية :

- ما تغير شي ، يا خريط .

- يعني ما انت خايف ؟

- ومن هو اللي يخاف من الحق ؟

- لا تمرجل هالحين ، يا عمير ، والأحسن ، ان تطلب السماح ، وان نبدا صفحة جديدة . . .

- كل يوم صفحة جديدة ، لأن كل يوم يلزمه خمسة فروض ، الى ان يقبض الله امانته .

- يا عمير ، انت كبير وعاقل ، والأحسن ما تحملنا دمك ونندم ونندم !

- اسمع يا خريط ، وكنت اريد غيرك يسمع : الروح يقبضها الي وهبها ، والناس في هذي الدنيا عابرين ، ولا تغتر ، اذا اليوم ملكت وظيفت انك قوي رب العالمين اقوى ، وحننا كنا معك ، واليوم حنا قوم ، والخلاف حول الجهاد ، والجهاد ما ينتهي الى قيام الساعة وما دمت انا اليوم اسيرك تقدر تسوي الي تريده .

ولم يستمر خريط في النقاش ، ارسل عمير الى العوالي ، قال للذين ارسله معهم :

- . . . وتقولون لفر : في عين دامة قلعة عمرها الف سنة ، بناها خليفة لي بعضون ، وهناك مكان عمير ، الى ان يتوب او يموت !

وارسل عويد المشعان الى موران ، الى سجن قصر الروض . أما ابن مياح فقد

تركه . قال لرجاله ، وللعجرمي وابن البخيت وآخرين كانوا موجودين :

- اذا حبست ابن مياح ومات عندي يقولون خريط قتله ، لكن اذا مات بين حريمه ، وبأرضه ، فأنا عفيت عنه ، وما لي بموته علاقة او سبب!

ومع اول امطار الشتاء بدا وكأن كل شيء قد انتهى ، فالسلطان عاد الى موران تسبقه اخبار الانتصارات ، والطبيعة في هذه السنة اختلفت عن السنة السابقة ، او هكذا تبدو ، اضافة الى التوازن الذي حصل نتيجة موت الكثيرين وهجرة غيرهم ، وما تولد بسبب ذلك من الأحزان التي وصلت الى بيوت كثيرة شغلتها ، واخيراً هذا التوقع الذي لا يتوقف ولا يهدأ في موران والخويزة والعوالي : ماذا يحمل الغد ؟

العجرمي الذي بدا فرحاً مثل طفل ، وقد طلب من مهيب ، والحق عليه الا يخبر السلطان ، بزيادة عدد الحرس ، « لأنه بآخر الحروب تكثر الثارات يا ابو شبل ، ويلزم ان الواحد يحرص ويتوقى » أما مع السلطان فقد كان واضحاً تماماً :

- ... وتذكر يا طويل العمر : كان رأي من اول يوم ان الجماعة ما يفهمون الا بالسيف ، خاصة ابن مياح ، وأي تساهل يطعمهم ويغربون الأول والتالي !
أما عثمان العليان الذي لم تتوقف شكاواه يوماً واحداً ، ورغم انه شدد وراقب واختصر الكثير من المصاريف ، فقد بدا في حالة اقرب الى الرضا بعد انتهاء المعارك ، لأن الغنائم التي تم الاستيلاء عليها ، كانت كبيرة ، وكانت حصّة السلطان اكثر مما توقع . قال لعبد الله البخيت ، وهما يستعرضان ما حصل :

- ... والحرب ، يا عبدالله ، ما هي لعبة ، يتراد لها كل مصباح الوف مؤلفة ...
وزيراه ثم يضيف :

- لكن ربك سلّم وسترها ، وابتداء من اليوم يلزم نفكر بطريقة ثانية .

وقصر الروض ، رغم ان المدة التي غابها السلطان قصيرة ، فقد كان يخشى له مفاجآت عديدة : ثلاثة مواليد جاءوا اثناء غيابه ، مصالحة فضة والعنود ، وقد قامت الشيخة بهذه المصالحة ، اضافة الى خمسة من ابناء السلطان ، اثنين منهم ابناء فضة ، ينتظرون ، مع الخيول ، لتحديد يوم الاحتفال . وفضة التي لم تعترض ولم

نحتج في المرة السابقة على الغاء الحفلة الغنائية ، فقد اصرت على احيائها هذه المرة ،
واصرارها غلغفته ، لكي يوافق السلطان ، بحالة الفرحة نتيجة الانتصارات ، اكثر مما
هو لاحتفالات البلوغ .

طالع العريفان ، وهو يرى الموسيقيين الذين جاءوا من العوالي يدخلون قصر
الروض مع آلاتهم ، وكان أيضاً يرقب حركاتهم وتصرفاتهم ، قال لناهي الفرحان :

- اسمع يا ابن الفرحان ، ترى من اليوم يلزم الواحد منا يصير طبال او زمار ، وإلا
راحت علينا ، باكر يقولون : ما لكم شغل بهذا المكان ، ويلزم تلقون لكم شغل
بالسوق !

ردناهي وهو يضحك :

- من فمك لباب السما ، يا رجّال ، يكون الله راضي علينا ، ونخلص !

- بعد اليوم ظني ما راح يخلص احد ، لأن طويل العمر صار خيال الشقرا ، وحاكم
البر والبحر ، وتعرف ان الواحد ما يخلص من الي ينتصرون ومن الي ينهزمون !

- خلنا هالحين نشوف الطبالين والزمارين ، وبعدها الله كريم ، اما نصير مثلهم او
نرحل !

- القول قولك يا ناهاي ، خلنا نشوف !

وقيان الضاري الذي كان يتلقى التهاني الى جانب السلطان ، كان في ازهى
حالاته ، فقد وضع على خصره ، لأول مرة ، مسدساً الى جانب السيف ، وكان هذا
المسدس هدية من الشيخ العجرمي ، وقد انتهر فرصة مناسبة لأن يقول وهو يتطلع
الى السلطان :

- « ... ويلزم للقائد العظيم ان يكون فيه عشرة خصال واقرة نافرة : سخاء
الديك ، وتحن الدجاجة ونجدة الأسد وحمة ... شهنو يا وقيان ؟ حمة
شهنو ... الله يلعن الشيطان شلون ينسي الانسان ... »

ونسي الخصال الاخرى ، ولكي يداري نسيانه ، تابع بانفعال وهو يضرب
الارض بقائم سيفه :

- وبالموجز المفيد ، ناظروا ابو منصور ، وفهمكم كافي ووافي !

ابن البخيت الذي ظل ، أغلب الوقت ، يسمع ويراقب ، احس ان المكان يضيق به ، اذ لم يدخل احد الا وبدأ يشيد بالسلطان ويثني على ذكائه وشهامته ، وتوقف الكثيرون عند موقف السلطان من ابن مياح ، وكيف عفا عنه وتركه ، رغم انه كان اشد الخصوم واكثرهم شراسة ، ولم يذكر احد ان ابن مياح فقد اثنين من اولاده ، اضافة الى العشرات من اصدقائه ، والمئات من جنده ، عدا عن الجرح البالغ الذي اصيب به . قال في نفسه : « وينك يا ايام مصر ؟ الواحد مفلس ، وما يعرف يتعشّى او ينام بدون عشا ، وراضي ؛ هالحين ، الواحد حصل كل شي لكن يحس ان نفسه صاّدة ، وما هو راضي ، وما يدري يظل او يمضي ! »

مرّ شهران . الافراح لم تتوقف ولم تنقطع في قصر الروض . فرقة العوالي الموسيقية احييت في القصر عدة حفلات : للبلوغ ، والانتصارات ، ولمجيء ولد جديد للسلطان ايضاً ، سماء نصر ! وكادت فضة ان تقنع السلطان باقامة حفل بحملها الجديد ، غير ان السلطان نظر اليها بطريقة معينة ، مع اشارة بيده ، فخجلت ثم سكنت ! ومع ذلك فإن الفرقة انتقلت ، وبكثير من التكتّم والحذر ، الى بيت العجرمي ، لقراءة المولد النبوي ، وبمناسبة مرور ثلاثة شهور علي الابن الجديد الذي رزق به من بنت العليان ، وقد سماء خريط ، تيمناً باسم السلطان .

ابن البخيت الذي حضر الحفل ، قال للسلطان في اليوم التالي :

- ... وهذول ، يا طويل العمر ، زَمّارين وطبالين ، اليوم هنا وباكر بغير مكان ، وما يتأمنون ، والرأي انهم يتوكلوا على الله ويشيلون ، والا انفضحنا !

والسلطان الذي فتح عينيه بدهشة ، صمت قليلاً ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

- والله الي تقوله صحيح يا عبدالله ، ويلزم يشيلون .

وبعد قليل ، وبأسى :

- والله يلعن النسوان من حواء وانت نازل ، لأنهن كلهن صويجبات يوسف ، وما من وراهن الا المشاكل والمصائب ، والله يستر !

قبل ان ينقضي الشهر الثالث وصلت الأخبار الى موران : ابن مياح ترك الرويفة ، ولا احد يدري اين ذهب .

قال السلطان لما بلغه الخبر : الله يستر .

وقال ابن البخيت لعثمان العليان :

- ... وتعرف ، يا عم : اذا الذيب انجرح ما احد يقدر يقف في وجهه ، وكل الي صار كوم والي راح يصير كوم ، ومثل ما قال طويل العمر : الله يستر !

سأل عثمان العليان مثل طفل :

- وقولك هالحين ان الحرب واقعة مرة ثانية ؟

- أما انها واقعة ... واقعة ، لكن الأهم : هذي المرة من الي راح تاكله ومن الي راح تخليه !

- الله يبشرك بالخير ...

قالها بحقد ، وبعد قليل :

- لو ظل الواحد بعيد كان راسه بارد ، لكن شلون تركنا الدنيا كلها ، تركنا البسط والعز ، الفمي والمي وجينا لوجع الراس ... والافلاس ؟

رد ابن البخيت وهو يضحك ، لكي يخفف عن ابن العليان :

- وكل الله يا عم ، وعسى يكون آخرها مثل اولها !

السلطان الذي كان قوياً وواثقاً ، تذكر كلمة قالها له العم دحيم قبل سنوات : قال له :

- « واسمع زين يا ابو منصور : لا تقرب الجريح والمظلوم والمجنون الا بعد ما تعدّ للآلف ، لأن الواحد منهم يريد يستوفي حقه قبل ما يصل ربه » .

ولذلك تحسب هذه المرة الى اقصى حد ، خاصة وان الكثيرين تحدثوا عن الافراح والعطايا والانكليز ، وكيف ان ابن مشعان وعمير وابن مياح كانوا على حق فيما قالوه ، أما التقوى والدين ، وحتى الاخلاق ، فقد اصبحت شيئاً من الماضي !

لما بعث اليه المستر ميلر يطلب اليه الاجتماع مع ابن ماضي لكي تبحث الأمور بصورة كاملة ونهائية ، من اجل الاتفاق وتخطيط الحدود ، لم يتردد .

ابن البخيت الذي رافق السلطان ، وقد استعاد عدة مرات قصة سقيفة بني ساعدة ، والتحكيم الذي حصل بين علي ومعاوية ، وكأنه يريد ان يحفظ كل كلمة ، قال بنوع من المكر ، وكان يحدث عثمان العليان :

- ويلزم النبي آدم يحرص ويتوقى ، لكنه كان مثل الجمل : يريد وما يريد . ولما تلاقى مع ابن ماضي كان ازرق ، مثل الريح ، لكن ما مرت ساعة الا وارتمى ، وبعدها قال لي : قال ابن ماضي : عفا الله عما مضى ، وحننا اولاد اليوم ، اترك الماضي ، انساه ، ومن اليوم نبدأ صفحة جديدة . . .

وضحك ، وكان ضحكه قهقهة ، وبعد ان هدا اضاف بسخرية :

- هذي الدنيا اعجب من العجب ، لأن الواحد كل يوم يشوف ويسمع شي جديد ، وكل يوم يطلع له قلب جديد!

وبعد قليل :

- وهذا الانكليزي ، الي كان خايف ، وما يعرف شلون يسوي حتى ما يزعل واحد او الثاني ، صار غريب . خربيط يسولف مع ابن ماضي ، وابن ماضي يصيح : قهوة ، وبعد القهوة ؛ شاي ، وبعد الشاي ، قهوة نوبة ثانية ، واحاديث وسوالف . . . واتفقوا طال عمرك .

صرخ ابن عليان بنزق :

- خلهم يتفقون حتى نخلص .

ابن مياح الذي خرج من الرويفة ، واستطاع ان يجمع الكثيرين ، وكان يريد لها معركة حاسمة ، كانت كذلك ، لكنها كانت يائسة ايضا فقد ظل يحارب هو ورجاله ببسالة ، وحقق بعض الانتصارات ، لكن خربيط ، بالاتفاق مع الانكليز ، ومع ابن ماضي ، تركوا له خطأ خلفياً لكي يتسرب منه ، فلما وصل الى هذا الخط ، ودخل فيه ، انتهى كل شيء .

قال مؤرخ خريبط : « وانحصر بقواته في زاوية ، وكان امامه احد امرين : اما القتال او الانهزام ، بيد ان السلطان الذي كان يقود قواته بذاته افسد عليه الأمر الأول اذ دهمه بسرية من السيارات المسلحة بالرشاشات فقالت كلمتها الفاصلة . أما ابن مياح فقد انهزم ملتجئاً الى الانكليز ، فأخذوه الى ظهر دراعة حربية . وحيال اصرار السلطان والحاحه على الانكليز بتسليمه مع من معه من رفاقه ، فقد قبلوا بذلك ، وارسلوه في الطائرة الى خيام جلالة » .

وقال مؤرخ محايّد : « وكان ابن ماضي يدعو الى منح حق اللجوء للمحاربين ، ولكن البريطانيين لم يتفقوا معه بالرأي ، وهكذا تمت اعادتهم للسلطان خريبط » .

أما ما جرى بعد ذلك فإن الروايات تتعدد وتتناقض الى درجة كبيرة ، وقد يتطلب الأمر انتظار وقت طويل قبل ان تعرف الحقيقة . ومع ذلك فإن ابن مشعان وعدداً من رجاله ، خاصة الاقرباء المباشرين ، قد وضعوا في سجن قصر الروض ، وظلوا هناك الى ان مات ابن مشعان ، وقد حصل ذلك قبل ان تنقضي سنة على سجنه . وبعد وفاته نقل من بقي من السجناء الى سجن موران ، وظلوا هناك . أما منازل العشيرة ، والقرى التي كانت تقيم فيها فقد هدمت ، كما تمت مصادرة اعداد كبيرة من الخيول والجمال التي كانت لهم .

ابن مياح الذي وضع في خيمة غير بعيدة عن السلطان ، ظل وحده فيها بضعة ايام ، وقد جرت خلال هذه الأيام احتفالات لم تشهدها البادية خلال سنين طويلة ، وكان يراد له ان يسمع وأن يشهد ، دون أن يرى ، مدى فرح السلطان بالنصر ، واكد عدد من خدم السلطان ان ابن مياح رفض ان يتناول خلال هذه الأيام شيئاً ، عدا الماء . إذ كان الطعام الذي يمد اليه من طرف الخيمة ، يعيده ، بعد لحظات ، دون ان يقربه .

أما حين نقل الى موران فقد عصبت عيناه ، ونزع عقاله ، وقيل انه بدا هزلياً متعباً ، وكأنه لم ينم طوال الليالي السابقة . ولما رفع الى السيارة التي اقلته ، كاد يقع . واكد واحد من الحرس الذين رافقوه انه طوال السفر لم يتكلم كلمة واحدة . وضع في زنزانه وحده في سجن قصر الروض ، وقد زاره طبيب السلطان عدة

مرات خلال الاسبوع الأول ، ولما استمر رفضه للطعام ، اضطر الطبيب لمعالجته .
وقبل ان ينقضي شهر على سجنه توفي . واكد احد اقرباء العجرمي ، وقال ذلك
بهمس لاصدقائه ، ان الحرس «اعانوه» على أن يموت بسرعة .

الرويفة التي كانت ذات يوم بلدة عامرة ، وكانت بسايتها مضرب المثل ، لم يبق
منها سوى بعض الآثار التي تحكي ان بشراً سكنوا وعاشوا هنا في يوم من الأيام . أما
العشيرة فقد رُحلت من مساكنها . أما الذين ظلوا في سجون خريبط من الرجال
والاطفال ، فقد تفاوت عددهم ، لأنهم لم يسجنوا في مكان واحد ، والكثيرون منهم
ماتوا او كبروا في هذه السجون .

عمير ظل في قلعة عين دامة سنيناً عديدة ، ولم يعرف عنه السلطان بعد هذه
السنين رغم انه اصيب بالعمى . وطوال سنين القلعة ، ثم بعد ذلك . والى أن
مات في وقت متأخر ، ورغم ان كل عضو من اعضاء جسده قد ضمّر او تخلف
او عجز ، فإن العضو الوحيد الذي نما وظل قوياً : لسانه . وهذا اللسان لم يهدأ
ولم يتوقف . وقال الكثيرون ، ممن سمعوا عمير ، او نقل لهم ما يقوله ، ان
الخطر اذا جاء يوم من الأيام ، يكون نتيجة ما يقوله عمير ، ونتيجة ما يريد ان
يوصله الى الناس .

ومن جديد بدأت موران تتعود على الحياة ، دون الفرسان الذين ملؤوا حياتها فترة
طويلة من الزمن !

قال شمران العتيبي ، وكان حوله الكثيرون :

- . . . وهذي موران بالها طويل ، تحمل وتحمل ، لكنها ابد ما تنسى ، وما هوبس
كذا ، ما تستعجل ، فإذا كانت اليوم بهذا الشكل ، ما احد يدري شنهو الي
يصير باكر او الي عقبه . . .

وهز رأسه ، وأضاف وكأنه يحدث نفسه :

- والدم ، يا جماعة الخير ، يجير الدم ، وتشوفون !

مدن الملح

نقاسيم الليل والنهار

* تركز مدن الملح ، بصورة جلية ، على العناصر الملحمية بحيث ينتقل القارئ ، ضمن مراحل تطور المجتمع على نفس الخطى التي قطعها أبناء ذلك المجتمع إبان ذلك التحول .

روجر الن

* إن عبد الرحمن منيف يقدم نموذجاً جديدة للبطولة الروائية المضادة للبطولة التاريخية ، إنها بطولة اللابطولة . إنها البطولة الروائية التي ترى كل معاني البطولة وقيمها وسموها ونبليها في الحياة ، فهي بطولة العصر العربي الراهن الفاقد لكل البطولة . إنها بطولة التروي والانحدار والانحطاط .

عبد الرزاق عبد

* لعل تجربة مدن الملح تكون أوسع وأجراً تجربة روائية عربية تناصية وأكثر تطوراً في حدود معرفتنا بالرواية العربية .

نبيل سليمان

* مدن الملح بروحها الملحمية . . . أوديسا اجتماعية ، تنقلنا إلى حقبة من ماضي جزء من العالم العربي في مرحلة من الزمن .

اي . تي . اي - كرونيكل

Bibliotheca Alexandrina



0497495

الخطو
صم

المونيتور
التوزيعية
للتوزيعات
والنشر
LE / DIRKAY